إملي برونتي

مرتفعات وذرنج

رواية



ترجمة: أنور الحناوي

مراجعة: محمد بدران

مرتفعات وذرنج

أميلي بروتني

ترجمة: أنور الحناوي

مراجعة: محمد بدران

آفاق للنشر والتوزيع

مقدمة

ظن بعض القراء أن جميع الآثار الأدبية المنشورة تحت هذه الأسماء الثلاثة: كرر، وألس، وأكتن بل، لم يدبجها في الحقيقة سوى قلم واحد. ولقد حاولت تصحيح هذا الخطأ في مقدمة الطبعة الثالثة لقصة جين إير بعبارات وجيزة نفيت فيها هذا الوهم، ولكن هذه العبارات هي الأخرى لم تلقَ تصديقًا. وقد أشار عليَّ الأصدقاء، ونحن بسبيل إصدار طبعة جديدة من قصتي «مرتفعات ويذرنج» و«آجنس جراي»، أن أجلو حقيقة الأمر لجمهور القرّاء.

والحق أنني أنا نفسي أشعر أنه قد حان الوقت لجلاء الغموض الذي أحاط بهذين الاسمين: ألس وأكتن؛ ذلك أن هذا السر الصغير الذي كان فيما مضى مبعثًا لشيء من اللذة البريئة قد فقد الآن طرافته بعد إذ تغيرت الظروف. لذلك أراه فرضًا عليَّ أن أبين بإيجاز أصل الكتب التي كتبها هؤلاء الثلاثة: كرر، وألس، وأكتن بل، وقصة تأليفها.

لقد ألفيتني وشقيقتَي منذ نحو خمس سنوات مجتمعات مرة ثانية تحت سقف بيتنا بعد أن تفرق شملنا زمنًا غير قصير. ولما كنا نقيم في بقعة نائية عن العمران لم يتقدم فيها التعليم إلا قليلًا، ولم يكن فيها -لهذا السبب- ما يغرينا بالاختلاط بالناس خارج دائرة أسرتنا، فقد كان اعتمادنا في التماس مسرات الحياة وشواغلها على أنفسنا وعلى بعضنا البعض، وعلى الكتب والدرس، وكان أشد ما عرفنا منذ طفولتنا من حوافز، وأقوى ما خبرنا من لذات، تلك المحاولات التي بذلناها في التأليف الأدبي. وقد درجنا الأول أمر على أن تعرض الواحدة منا ما تكتب على شقيقتيها، ولكنا كففنا في السنوات الأخيرة عن هذا الاتصال والتشاور اللذين اعتدناهما من قبل. وكان من أثر ذلك أن كلًّا منَّا كانت تجهل ما أحرزت أختاها من تقدم في هذا المضمار.

وفي يوم من خريف عام 1845 عثرت مصادفة على مخطوط من الشِّعر مكتوب بخط شقيقتي إيميلي. ولم يدهشني هذا بطبيعة الحال لعلمي بقدرتها عل قرض الشعر، وبأنها كانت تقرضه فعلًا. وتصفحت المخطوط، فإذا شعور أقوى من مجرد الدهشة يتملكني، هو يقين عميق بأن هذا الشعر لم يكن شعرًا عاديًّا، ولم يكن ألبتة شبيهًا بالشعر الذي تكتبه عامة النساء عادة؛ فقد خُيِّلَ إليَّ أن فيه إيجازًا وتركيزًا، وأن فيه قوة وأصالة. وكان لأبياتها في أذني موسيقى غريبة.. موسيقى وحشية، حزينة، تسمو بالنفس.

ولم يكن في طبع شقيقتي إيميلي أن تعلن عن نفسها للناس، ولا هي ممن يستطيع حتى أخص الناس عندها وأحبهم إليها أن يتطفلوا آمنين مطمئنين على دخائل فكرها وخبايا نفسها، وقد اقتضاني استرضاؤها عن الكشف الذي عثرت عليه ساعات، واقتضاني إقناعها بأن هذا الشعر جدير بالنشر أيامًا. وكنت على أي حال أعلم أن عقلًا كعقلها لا يمكن أن يخلو من شرارة من الطموح النبيل تكمن فيه، ومضيت قُدُمًا أحاول إذكاء هذه الشرارة وتأجيج نارها دون أن يعوقني عن ذلك معوق أو يثبط همتي مثبط.

وفي الوقت نفسه عرضت عليَّ شقيقتي الصغرى في هدوء بعض شِعرها لعلي أحب أن ألقي عليه نظرة ما دام شِعر إيميلي كان مبعث سرور لي. ولم يكن في وسعي إلا أن أتحيز لإيميلي في حكمي، ولكنني رأيت في شعر آن أيضًا عاطفة حلوة صادقة تفرد بها.

وكان الاشتغال بالتأليف في يوم من الأيام حلمًا راودنا منذ حداثة عهدنا بالحياة. فإذا هذا الحلم يعود الآن فجأة قويًا ثابتًا، وهو الذي تشبثنا به ولم نتخل عنه ألبتة حتى حين فرق بعد الشقة بيننا واستغرقتنا شواغل الحياة، واتخذ هذا الحلم صورة قرار عقدنا العزم على إنفاذه. فاتفقنا على جمع طائفة صغيرة من شعرنا المختار ومحاولة طبعها إذا استطعنا. ولما كنا نكره فكرة الدعاية لأشخاصنا، فقد تخفينا تحت أسماء كرر، وألس، وأكتن بل. وقد أملى علينا اختيار هذه الأسماء التي تحتمل أن تكون أسماء رجال أو نساء ضرب من التخرج منعنا من انتحال أسماء ذكور سافرة، على حين كنا نكره أن نصرح للقراء بأننا نساء لشعور غامض فينا بأن الكاتبات من جنسنا معرضات لتحيز الناقدين ضدهن، وذلك دون أن يخطر ببالنا آنذاك أن طريقتنا في الكتابة والتفكير بعيدة عما يسمونه الطريقة النسائية. وكنا قد لاحظنا أن النقاد يتخذون أحيانًا من شخصية المؤلف سلاحًا للنيل منه، ويلجأون في الإشادة به إلى الملق، وهو شيء يختلف كل الاختلاف عن الثناء الصادق.

ولم يكن إصدار كتابنا الصغير هذا أمرًا يسيرًا، فلم نلقَ لا نحن ولا شعرنا، شيئًا من الترحيب، وهو أمر كنا نتوقعه. ولكنا كنا قد وطنا نفوسنا عليه منذ البداية؛ فقد قرأنا خبرة غيرنا في هذا الميدان وإن أعوزتنا الخبرة الشخصية. وكان أشد ما حيرنا صعوبة تلقي جواب أيًا كان من الناشرين الذين طلبنا إليهم نشر الكتاب. ولما ضقنا ذرعًا بهذه العقبة جرؤت على التماس النصيحة من السادة تشيمبرز الناشرين بأدنبرة، ولعلهم قد نسوا اليوم هذا الظرف، ولكنني لم أنسه؛ لأنني تلقيت منهم ردًا موجزًا عمليًا، ولكنه كان مهذبًا معقولًا، وقد تصرفنا على هديه، فحالفنا التوفيق آخر الأمر.

وطبع الكتاب، وهو يكاد اليوم يكون مجهولًا، وكل ما يستحق أن يعلمه الناس من أمره هو قصائد ألس بل. صحيح أن ما كنت، ولا أزال، أدين به من عقيدة راسخة في قيمة هذه القصائد لم يلقَ تأييد كثير من النقد المحبذ لها، ولكنني على الرغم من ذلك متشبثة بعقيدتي هذه.

ولم يستطع هذا التعثر أن يقتل نفوسنا، فقد أضفى الجهد الذي بذلناه في سبيل النجاح لذة عجيبة على الحياة، وصممنا على مواصلة الجهد. وشرعت كل منا في كتابة قصة نثرية، فأخرجت «ألس بل» قصة «مرتفعات ويذرنج»، و«أكتن بل» قصة «أجنس جراي»، وكذلك كتبت «كرر بل» قصة في مجلد واحد، وأقحمنا مخطوطات هذه القصص في مثابرة على ناشرين عديدين خلال عام ونصف عام، وكان حظها عادة الرفض المزري المقتضب.

وأخيرًا قبلت «مرتفعات ويذرنج» و«أجنس جراي» بشروط تنطوي على بعض الإجحاف بالمؤلفتين. أما قصة «كرر بل» فلم تحظَ بالقبول من أي جهة، ولم يقر لها أحد بامتياز، حتى لقد بدأ شيء أشبه ببرد اليأس يغزو قلبها، ثم جربت المؤلفة دار نشر أخرى وهي تحسب التجربة أملًا واهيًا بعيد التحقيق، وكانت دار «سمت والدر وشركائهما»، وما هي إلا فترة وجيزة، كانت أقصر كثيرًا مما علمتها الخبرة أن تتوقع، حتى وصلتها رسالة فضتها وهي تنتظر في يأس أن تقرأ سطرين قاسيين مخيبين للأمل ينبئانها بأن الناشر «ليس على استعداد لنشر المخطوط» ولكنها أخرجت من الغلاف رسالة من صفحتين، قرأتها وهي ترتعد. صحيح أن الرسالة أنبأتها بأن الناشر يرفض نشر القصة لأسباب تجارية، ولكنها ناقشت مواطن القوة والضعف في القصة مناقشة مهذبة كريمة، بروح معقولة، وفي نقد مستنير، حتى لقد أثلج هذا الرفض صدر المؤلفة أكثر مما كان يفعل جواب بالقبول يُصاغ في عبارات جافية. وأضافت الرسالة أنه لو أرسلت المؤلفة قصة في مجلدات ثلاثة إلى الدار للقيت منها كل عناية.

وكنت إذ ذاك أكتب خاتمة قصتي «جين إير» التي كنت ماضية في تأليفها، بينما كانت قصتي ذات المجلد الواحد تطوف متعثرة بناشري لندن. وما هي إلا أسابيع ثلاثة، حتى بعثت بها للناشر، وتلقتها أيدٍ صديقة ماهرة، وكان هذا في بداية سبتمبر من عام 1847، فصدرت قبل نهاية أكتوبر التالي، بينما ظلت قصتا شقيقتَيّ «مرتفعات ويذرنج» و«أجنس جراي» تتعثران في بطء في أيدي ناشرين آخرين، مع أن طبع هاتين القصتين كان قد بدأ قبل طبع قصتي بشهور.

وظهرت القصتان آخر الأمر، ولكنهما لم تلقيا من النقاد إنصافًا، فلم يكد يفطن أحد منهم لما كشفت عنه «مرتفعات ويذرنج» من قوى لم يكتمل نضجها، ولكنها مع ذلك قوى أصيلة لا غش فيها، وقد أساءوا فهم مرماها وطبيعتها، وأخطأوا في شخصية مؤلفتها، فقال بعضهم إن القصة ثمرة مبكرة فجة للقلم نفسه الذي كتب جين إير فيما بعد. ويا لها من غلطة جائزة خطيرة! وقد ضحكنا لها أول الأمر، ولكني آسف لها اليوم أسفًا عميقًا؛ فإني لأخشى أن يكون هذا هو الذي أثار التحامل على الكتاب، فالكاتب الذي استطاع أن يحاول تزييف قصة رديئة فجة على القراء تحت ستار قصة أخرى ناجحة، لا بد أن يكون شديد اللهفة إثر هذه الثمرة الرديئة الضعيفة التي أثمرها قلمه، وأن يكون عديم الاكتراث إلى حد يرثى له بما يخلعه التأليف على الكاتب من جزاء صادق كريم. فإذا كان النقاد وجمهرة القرَّاء قد رأوا هذا حقًّا، فلا عجب أنهم نظروا إلى الكاتب المخادع نظرة الريبة والسوء.

ولكن لا يفهمن القارئ، أنني أتخذ من هذا كله موضوعًا للوم أو الشكوى، فإنني لا أجرؤ على أن أفعل؛ لأن احترامي لذكرى شقيقتي يمنعني منه، ولو كانت اليوم على قيد الحياة لعدت أي جهر بالشكوى كهذا ضعفًا حقيرًا مهينًا.

على أنني أراه واجبًا عليَّ، كما أراه مبعث سرور لي، أن أقر بفضل ناقد واحد خرج على إجماع النقاد، فقد فطن هذا الكاتب الأوحد الذي أوتي بصر العباقرة النافذ، ومشاعرهم الرقيقة، إلى حقيقة «مرتفعات ويذرنج»، ولاحظ مواطن الجمال فيها كما وقع بنفس الدقة على مواطن الضعف. وما أكثر ما يذكرنا حال النقاد بجمهور المنجمين والكلدانيين والعرافين الذين احتشدوا أمام «الكتابة المسطورة على الحائط[1] » فعجزوا عن قراءة حروفها أو عن تفسير معناها. ويحق لنا أن نغتبط حين يأتي في النهاية عراف صادق، رجل فيه روح سماوية، رجل وهب النور والحكمة والفهم، يستطيع أن يقرأ في دقة هذه الكتابة الخفية التي خطها عقل أصيل (وإن أعوزه النضج واكتمال الثقافة واتساع الأفق)، وأن يقول في ثقة واطمئنان إني «أقرأ الكتابة… وأعرف التفسير[2]».

ولكن حتى هذا الكاتب الذي أشرت إليه شارك غيره الخطأ في نسبة الكتاب إلى صاحبته، وظلمني بزعمه أن رفضي السابق لهذا الشرف (وهو شرف ولا شك في نظري) كان مبهمًا يحتمل تفسيرين. وليسمح لي بأن أؤكد له أنني أربأ بنفسي عن الكلام المبهم الذي يحتمل تفسيرين، سواء في هذه الحالة أو في غيرها؛ فإني أؤمن بأنا وهبنا نعمة اللغة لكي نفصح عن معانينا لا لكي نلفها في عبارات مبهمة غير أمينة.

وكذلك قوبلت قصة The Tenant of Wildfell Hall التي كتبتها أكتن بل مقابلة جافية، وهو أمر لا أستغربه، فاختيارها لموضوعها كان خطأ كله، ولم تكن الكاتبة لتستطيع أن تقع على موضوع أقل منه ملاءمة لطبيعتها. صحيح أن الدوافع التي أملت عليها اختيارها هذا كانت صادقة، ولكن فيها، في ظني، شيئًا من الانحراف، فقد دعاها واجبها في حقبة من حياتها إلى أن ترقب عن كثب، وخلال فترة طويلة، الآثار المروعة التي تخلفها المواهب إذا أسيء استعمالها، والقدرات إذا استخدمت في الشر، وكان لشقيقتي

طبيعة مرهفة متحفظة حزينة، وكان كل ما يقع عليه بصرها يرسب في أعماق عقلها فيؤذيها؛ لأنها كانت تجتره اجترارًا حتى آمنت بأن من واجبها أن تحكي تفاصيله بحذافيرها تحذيرًا للناس (مع انتحال الشخوص والأحداث، والمواقف بطبيعة الحال)، وكانت تمقت عملها هذا ولكنها مصممة على المضي فيه، فإذا ناقشها أحد في الأمر عدت النقاش إغراء لها بالضعف والتسامح مع نفسها. وكانت ترى الأمانة فرضًا عليها لا بد من أدائه، وتأبى الطلاء أو التهوين أو الإخفاء. وقد جر عليها قرارها هذا سوء فهم الناقدين لها، كما أصابها بشيء من شتائمهم احتملته بصبر جميل لا يتزعزع، كما كان شأنها في احتمال الضر. وكانت فتاة مسيحية مخلصة وجد عملية، ولكن مسحة من الاكتئاب الديني ألقت ظلًّا حزينًا على حياتها القصيرة النقية.

ولم تكن إحدى شقيقتَي ألس أو أكتن لتسمح لنفسها لحظة واحدة بأن تتهاوى تحت وطأة هذه المثبطات، فقد كانت الحيوية تشد عزيمة أولاهما، والجلد على المكاره يسند الأخرى. وكانت كلتاهما على استعداد لتكرار المحاولة من جديد. ويطيب لي التفكير في احتفاظهما بالأمل والإحساس بالقوة رغم هذا كله، ولكن تغييرًا كبيرًا كان يوشك أن يطرأ عليهما، ثم دهمتهما الكارثة في صورة لا يستطيع المرء أن يترقبها إلا والرعب يملؤه، ولا أن يستحضر ذكراها إلا والحزن يملك عليه لبه، لقد تهاوت العاملتان فوق عملهما ووطيس المعركة على أشده.

وانهارت شقيقتي إيميلي أولًا، ولا زالت تفاصيل مرضها مطبوعة في أعماق ذاكرتي، ولكنني لا أقوى على الوقوف بها طويلًا مفكرة فيها أو راوية لقصتها. ولم تكن قط طوال حياتها تتباطأ في أداء واجب، وهكذا كان شأنها في مرضها هذا، فما أسرع ما تهاوت وفارقتنا فراق الأبد، ولكنها حين كان جسدها ينحل، كانت نفسها تشتد وتقوى إلى درجة لم نعهدها من قبل، وكنت كلما أبصرت شجاعتها في احتمال آلامها يومًا بعد يوم أنظر إليها في حسرة من العجب والحب؛ فإنني لم أرَ لشجاعتها هذه ضريبًا، ولكنني في الحق لم أرَ لأختي قط مثيلًا في أي شيء؛ فقد كانت نسيج وحدها في طبيعتها التي فاقت قوتها قوة الرجال وبساطتها بساطة الأطفال، وكان أشد ما يؤسف أنها لم تكن ترحم نفسها على فرط حنانها على غيرها، فلم تلن روحها لجسدها، ومضت تطالب يدها المرتعشة، وأطرافها الواهنة، وعينيها الذابلتين، بأداء ما كانت تؤديه من خدمات أيام الصحة والعافية. ولم يكن أشق على نفسي من أن أقف بهذا وأشهده، ثم لا أجرؤ على عتابها أو لومها.

وانقضى شهران قاسيان من الأمل والخوف مرا بنا في بطء أليم، حتى أقبل أخيرًا ذلك اليوم الذي كان لا بد أن تعالج فيه هذه الأخت الغالية سكرات الموت، بعد أن ازدادت قلوبنا تعلقًا بها وهي تفنى أمام أعيننا شيئًا فشيئًا. وقبل أن تغرب شمس ذلك اليوم، لم يبقَ من إيميلي سوى حطامها الفانية كما خلفها السل، وكان موتها في التاسع عشر من ديسمبر عام 1848.

وخلنا أن في هذا الرزء الكفاية، ولكنا كنا نسدر في ضلال مبين؛ فما إن وُرِيت في التراب حتى دهم المرض آن، ولم يكد القبر يضم رفاتها أسبوعين حتى حدثتنا قلوبنا حديث اليقين بأن علينا أن نوطن نفوسنا على تشييع الشقيقة الصغرى بعد ما شيعنا الكبرى. وهكذا اقتفت آن آثار أختها بخطى أبطأ، وبصبر لا يعدله غير جلد أختها. وكانت -كما قلت- متدينة، لذلك وجدت في رحلتها الأليمة هذه سندًا لها في تعاليم المسيحية التي كانت وثيقة الإيمان بها. وقد شهدت بنفسي أثر هذه التعاليم عليها في ساعتها الأخيرة، وفي محنتها العظمى، ولا يسعني إلا أن أشهد بما أعانتها عليه من نصر هادئ في هذه المعركة. وماتت آن في الثامن والعشرين من شهر مايو 1849.

وماذا أقول بعد هذا عنهما؟ لست أستطيع مزيدًا، ولا حاجة بي لمزيد، لقد كانت أختاي في مظهريهما امرأتين منطويتين، أورثتهما حياة العزلة التامة طباع الانزواء وعاداته. ويُخيَّل إليَّ أن طبيعة إيميلي كانت تجمع بين نقيضين هما القوة والبساطة، فقد كانت تكمن وراء ثقافتها البسيطة وميولها غير المتكلفة ومظهرها المتواضع قوة خفية وجذوة دفينة كانتا خليقتين بإنارة ذهن بطل مغوار وإلهاب الدم في عروقه. ولكنها لم تؤت بصرًا بأمور هذه الدنيا، ولم تكن قدراتها مما يتفق وقضاء المصالح العملية في هذه الحياة، لذلك لم تعبأ بالدفاع عن أشد حقوقها وضوحًا، أو رعاية أكثر مصالحها شرعية. وكان لا بد من أن يقوم وسيط بينها وبين هذه الدنيا، ولم تكن إرادتها شديدة المرونة، وكانت في الكثير الغالب تتعارض مع مصالحها. أما طبعها ففيه نخوة وشهامة، ولكنه حار سريع الثورة، وأما روحها فصلب لا يلين.

أما خلق آن فكان أكثر لينًا وهدوءًا، وكانت تعوزها قوة شقيقتها وحماستها وأصالتها، غير أنها وهبت فضائل هادئة تفردت بها؛ كانت صبورة مضحية، ذكية مفكرة، وقد حجبها وأبقاها متوارية ما ركب فيها من تحفظ وعزوف عن الكلام، وألقى على عقلها، وعلى عواطفها خاصة، قناعًا كقناع الراهبات لم تكن ترفعه إلا نادرًا. ولم تصب إيميلي ولا آن من التعليم قسطًا موفورًا، ولم يخطر لهما أن تنهلا من معين عقول غير عقليهما، فلم تكتبا إلا عفو الطبيعة والإلهام، ولم تستمدا من مورد للملاحظة غير ما استطاعتا جمعه بخبرتهما المحدودة. وملاك القول إنهما في نظر الغرباء لم تكونا شيئًا على الإطلاق، وكانتا أقل من لا شيء في نظر الذين يلاحظونهما من الظاهر فقط، أما في أعين الذين عرفوهما طوال حياتهما واتصلوا بهما اتصالًا وثيقًا حميمًا، فقد كانتا في الحق غاية في الطيبة والعظمة.

وقد كتبت هذه الكلمة لأنني شعرت بأن عليَّ واجبًا مقدسًا هو أن أنفض عن قبريهما ما علق بهما من غبار، وأترك اسميهما العزيزين نقيين من كل شائبة.

كرر بل

(شارلوت برونتي)

19 سبتمبر 1850

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم الناشر

فرغت الساعة من قراءة «مرتفعات ويذرنج» من جديد، ولمحت بوضوح، لأول مرة، ما يسمونه عيوبًا فيها (ولعلها أن تكون عيوبًا حقيقية)، وعرفت على التحديد كيف تبدو لغيري من الناس؛ للأغراب الذين لا يعلمون عن المؤلفة شيئًا، والذين يجهلون البقعة التي اتخذتها مسرحًا لقصتها، والذين يلوح لهم سكان التلال والقرى في وست ريدنج بيوركشاير، وعاداتهم، وطبيعة إقليمهم، أشياء غريبة لا عهد لهم بها.

ولست أشك في أن هؤلاء جميعًا يرون في «مرتفعات ويذرنج» أثرًا أدبيًّا خشنًا غريبًا، ذلك أن البراري المنبثة في شمال إنجلترا لا يمكن أن تثير اهتمامهم، ولا بد أن لغة أهل هذه البقاع المبعثرين في أرجائها، وطباعهم، بل أقول مساكنهم وعاداتهم البيتية، كلها أشياء يشق فهمها على أمثال هؤلاء القراء، فإن فهموا منها شيئًا وجدوه منفرًا، فلا يكاد الرجال والنساء الذين يغلب على طبيعتهم الهدوء، وعلى مشاعرهم الاعتدال كمًّا وكيفًا، والذين درجوا منذ طفولتهم على مراعاة منتهى الهدوء والاعتدال في مسلكهم، والتحفظ في لغتهم، لا يكاد أمثال هؤلاء يفقهون العبارات الجافية العنيفة والعواطف الخشنة والأحقاد الجامحة والحزازات المتهورة التي يتصف بها فلاحو هذه البراري الجهلة، وكبار مزارعيها الأجلاف، أولئك الذين شبوا دون تعليم أو تهذيب، اللهم إلا على يد عرفاء يشاركونهم جلافتهم وغلظتهم.

كذلك سيتأذى فريق كبير من القراء بما يجدون في ثنايا هذه القصة من كلمات أثبتتها المؤلفة بكامل حروفها، مع أن العرف يجري اليوم على الاكتفاء بذكر الحرفين الأول والأخير منها وبينهما خط يملأ الفراغ. وإني أبادر بالقول بأنني لا أملك الاعتذار عن هذا الأمر؛ لأنني شخصيًّا أراه معقولًا أن تكتب الكلمات كاملة غير مبتورة، فالتلميح بالحروف إلى هذه الألفاظ العنيفة التي ألف أجلاف الناس وغلاظهم أن يحلوا بها حديثهم يبدو لي عملًا ضعيفًا وعقيمًا، رغم ما ينطوي عليه من حسن النية، ولست أدري أي خير يرجى منه، ولا أي شعور يقينًا، ولا أي منكر يخفى عنا.

أما رميهم «مرتفعات ويذرنج» بالجلافة والخشونة فتهمة أسلم بها لأني أشعر بما للقصة من فضائل، فهي ريفية خشنة من أولها إلى آخرها، وهي برية وعرة مبززة كأنها جذر شجيرة برية. ولم يكن طبيعيًّا أن تكون غير ذلك؛ لأن المؤلفة نفسها وليدة هذه البراري وربيبتها، ولست أشك في أنها لو قدر لها أن تسكن مدينة من المدن لاتخذت كتابتها -إن كتبت إطلاقًا- طابعًا غير هذا، بل لو أن المصادفة أو الذوق هدياها إلى اختيار موضوع مشابه لموضوعها هذا لعالجته بطريقة غير هذه. ولو كانت «ألس بل» سيدة أو سيدًا يألف ما نسميه «الدنيا» أو «المجتمع» لاختلفت نظرتها إلى هذا الإقليم الأجرد النائي عن العمران وإلى قطّانه اختلافًا كبيرًا عن نظرة الفتاة الريفية الصميمة إليه، فكانت ولا شك أوسع وأشمل، أما أن تكون أكثر اصالة وصدقًا فهذا ما لست على ثقة منه. ولعلها في تناولها

لمسرح القصة ووصفها للريف الذي وقعت فيه أحداثها ما كانت لتبلغ ما بلغته في القصة من انعطاف ومشاركة، ذلك أن «ألس بل» لم تصف وصف من أبهج المشهد نظره وذوقه فحسب، فلقد كانت هذه التلال التي أظلتها أكثر كثيرًا بالنسبة لها من مجرد مشهد، كانت موطنها الذي تعيش فيه وتحيا به، شأنها في ذلك شأن الطيور البرية التي تقطن هذه التلال أو الأعشاب التي تنبتها. لذلك بلغت أوصافها لمشاهد الطبيعة الغاية التي ليس وراءها غاية.

أما في رسمها للشخوص في قصتها فالأمر مختلف، ولا بد لي من الاعتراف بأنه لم يكن لها من الخبرة العملية بحياة الفلاحين الذين تعيش بين ظهرانيهم أكثر مما لراهبة بحياة الريفيين الذين يمرون أحيانًا بباب ديرها. فلم تكن أختي تميل بطبعها إلى مخالطة الناس ومعاشرتهم، وقد أعانتها على هذا الانطواء ظروفها، فقل أن كانت تجتاز عتبة الدار إلا مختلفة إلى الكنيسة، أو قاصدة التلال للتمشي. ولم تكن تسعى قط إلى الاختلاط بجيرانها، ولم تجرب هذا الاختلاط إلا فيما ندر، وذلك على الرغم من طيب شعورها نحوهم. ومع ذلك فقد عرفتهم، عرفت عاداتهم، ولغتهم، وتاريخ كل أسرة من أسرهم، وكانت تستطيع أن تستمع في شغف إلى ما يروى عنهم، وأن تتحدث عنهم في تفصيل دقيق غاية الدقة، أما أن تتصل بهم فذلك أمر نادر. وترتب على ذلك أن ما وعاه عقلها من حقائق عنهم اقتصر على هذه الخصائص التي تضطر الذاكرة أحيانًا إلى التأثر بها أثناء الاستماع إلى أخبار كل جار من جيرانها الأجلاف وقصصهم التي يتكتمونها. وقد وجد خيالها، وكان روحًا يميل إلى الأسى أكثر من البهجة، ويتسم بالقوة أكثر من المرح، وجد مادة في هذه الخصائص حاك منها شخوصًا كـ«هيثكليف» وإيرنشو وكاثرين، ولم تكن تدري ما فعلت بعد أن خلقت شخوصها هؤلاء. وكان المستمع إلى قصتها -وهي بعد مخطوطة- إذا ارتعد فرقًا من قسوة طبائعهم وصلابتها، ومن بشاعة أرواحهم الضالة الهالكة، وإذا شكا من أن مجرد الاستماع إلى بعض مشاهد القصة الحية الرهيبة يطرد النوم ليلًا ويكدر صفاء النفس نهارًا، لم تدر «ألس بل» ما يعنيه الشاكي وتشككت في صدقه وإخلاصه. ولو قد أفسح لها في الأجل لنما عقلها من ذاته كشجرة قوية تزداد علوًّا واستقامة وانتشارًا، ولازدادت ثمارها الطيبة نضجًا وتفتحًا، ولكن عقلها هذا لم يتأثر إلا بالزمن والتجربة الشخصية دون سواهما، أما التأثر بغيره من العقول، فلم يكن من سجاياه.

وليسمح لي القارئ بعد أن سلمت بما يخيم من ظلام دامس مريع على جزء كبير من القصة، وبأنه يخيل إلينا في جوها العاصف المكهرب أننا نتنفس البروق أحيانًا، ليسمح لي أن أدله على المواطن التي يؤكد فيها النهار الغائم والشمس المحجوبة وجودهما رغم هذا كله. فانظر إلى شخصية «نلي دين» إن شئت مثالًا على الخير الحق وعلى الولاء للأسرة. وتأمل شخصية «إدجر لنتن» إن شئت مثالًا على الوفاء والرقة، (وقد يظن بعض الناس أن هذه الصفات لا تبدو واضحة في الرجل وضوحها في المرأة، ولكن «ألس بل» ما كانت لتقتنع البتة بهذه الفكرة الخاطئة، ولم يكن شيء يثيرها أكثر من التلميح بأن الوفاء والرقة والصبر والتعاطف، وكلها تعد من فضائل بنات حواء، تستحيل رذائل في أولاد آدم، وكانت تؤمن بأن الرحمة والعفو أسمى صفات الخالق العلي الذي خلق الرجل والمرأة على السواء، وأن ما يزين الله في جلاله لا يمكن أن يشين البشرية الضعيفة في أي صورة من صورها، وأن في رسمها لشخصية جوزف العجوز دعابة عابسة جافة، أما شخصية الفتاة كاثرين فتشيع فيها لمحات من الرشاقة والمرح، ولا تخلو البطلة الأولى للقصة من لون من الجمال الغريب في وحشيتها، أو من الأمانة وسط عاطفتها الملتوية وتمردها العنيف.

صحيح أن هيثكليف لا تكفر عن سيئاته حسنة، فهو مندفع كالسهم إلى حتفه لا يلوي على شيء، من اللحظة التي نشرت فيها أول مرة اللفة التي ضمت «هذا الطفل

الأدكن ذا الشعر الأسود، الذي يجلله سواد كأنه أتى من عند الشيطان» وأقيم على قدميه في مطبخ بيت الضيعة، إلى أن وجدت نلي دين جثته الفارعة الرهيبة، وقد استلقى على ظهره في فراشه ذي الجوانب الخشبية، بعينيه المفتوحتين الشاخصتين إليها «كأنهما تهزآن بها إذ تحاول إغماضهما، وبشفتيه المنفرجتين وأسنانه البيضاء الحادة الساخرة كذلك».

على أن هيثكليف يكشف عن شعور إنساني واحد، ولست أعني حبه لكاثرين، فذلك شعور وحشي لا يمت إلى الإنسانية بسبب، هو عاطفة متأججة مضطرمة بين جوانح شيطان خبيث، ونار خليقة بأن تخلق المحور الذي ينصب عليه العذاب -روح المارد التي لا تفتأ تصلى السعير، خليقة بأن تتخذ من تدميرها المتصل أداة لإنفاذ القضاء الذي كتب عليه أن يحمل معه الجحيم أنى سار. كلا، إن الحلقة الوحيدة التي تصل بين هيثكليف والإنسانية هي رعايته، التي يعترف بها في جلافة، لهيرتن إيرنشو -ذلك الفتى الذي دمر حياته، ثم تقديره لنلي دين تقديرًا يكاد يكون متضمنًا، ولو أنك أسقطت هاتين الخصيصتين الوحيدتين من صفاته لما كفاه أن ينسب إلى العسكر(3) أو الغجر، بل لقلت إنه جسم إنسان تسكنه روح شيطان، روح غول أو عفريت.

ولست أدري أمن الصواب أو الحكمة خلق شخوص كهيثكليف، ولكني لست أحسبه كذلك، غير أن الذي أدريه أن الكاتب الذي وهب القدرة على الخلق يملك شيئًا لا يستطيع التحكم فيه أو السيطرة عليه دائمًا -شيئًا يفرض إرادته أحيانًا، ويعمل لتحقيق نفسه على نحو عجيب. وقد يضع هذا الكاتب القواعد ويستن المبادئ، وقد يظل هذا الشيء خاضعًا السنين الطوال لهذه القواعد والمبادئ، ثم يأتي حين، وربما أتى دون إنذار بالثورة، يأبى فيه أن يظل «يمهد التلال، أو يرسف في قيوده على الأرض»، حين «يهزأ فيه بزحمة المدينة، ولا يعبأ بصراخ السائق»، حين يأخذ هذا الشيء فيه نفسه بنحت تمثال بعد أن يرفض في إباء أن يمضي في فتل الحبال من رمل البحر، فإذا هو يخرج لك تمثالًا لأفلوطين أو لجوبيتر، لطسيفون أو للروح، لحورية البحر أو للعذراء مريم، وذلك حسبما يوجهه القدر أو الوحي. وسواء كان هذا الأثر عابسًا أو مشرقًا، رهيبًا أو جميلًا، فإنك لا تملك إلا أن تتلقاه في هدوء. أما أنت -أيها الفنان الذي يعزى إليه هذا الأثر- فلا فضل لك فيه إلا أنك اشتغلت مستسلمًا، وصدعت بأوامر لم تصدرها أنت، ولم يكن في استطاعتك مناقشتها -أوامر لا ينطق بها إجابة لضراعتك، ولا تلغى أو تغير إرضاء لنزواتك، فإذا جاء الأثر الفني جذابًا مشوقًا امتدحك الناس دون أن تكون جديرًا بمدح أو ثناء، وإذا جاء منفرًا لامك هؤلاء الناس أنفسهم دون أن تستحق ملامًا أو عذلًا.

أما «مرتفعات ويذرنج» فقد نحتت في مصنع بري بأدوات بسيطة، ومن خامات مألوفة، وجد المثال صخرة من الحجر الأعبل في برية قفراء، وتأملها فرأى أن في استطاعته أن يقد من هذه الصخرة رأسًا متوحشًا، أسمر، شريرًا، وصورة تتسم بعنصر واحد من عناصر العظمة على الأقل -وهو القوة، وجعل ينحت بإزميل خشن بسيط، وهو لا يستوحي من النماذج غير وحي تأملاته. وما لبثت الصخرة بعد ما بذل من وقت وجهد أن اتخذت شكل إنسان، وها هي ذي تقوم جبارة سوداء عابسة، يختلط فيها التمثال بالصخرة، فإذا نظرت إلى التمثال ألفيته رهيبًا مخيفًا كالمردة، وإذا نظرت إلى الصخرة رأيت فيها شيئًا أقرب إلى الجمال؛ لأن في لونها شهبة ندية، ولأن طحالب البرية تكسوها، وأعشابها المتفتحة الزهر، الطيبة العبير، تنمو في وفاء عند قدمي العملاق.

كرر بل

(شارلوت برونتي)

الفصل الأول

عدت الساعة من زيارة مالك بيتي، ذلك الجار الوحيد الذي سيكدر صفو وحدتي. إن الريف هنا جميل ما في ذلك شك! ولست أظنني كنت مستطيعًا تخير بقعة كهذه في إنجلترا بأسرها، نائية تمامًا عن ضجيج المجتمع وعجيجه، حتى لكأنها النعيم الذي يصبو إليه كل كاره لعشرة الناس. وما أصلحني وهيثكليف لاقتسام هذا الفضاء الموحش فيما بيننا. له الله من رجل مدهش حقًّا! لعله لم يدُر بخلده كيف انعطف قلبي نحوه حين رأيت عينيه السوداوين تجفلان ريبة وأنا مقبل إليه على ظهر جوادي، وحين دفع أصابعه إلى أعماق صدرته في حزم وتوجس وأنا أنبئه باسمي.

وسألته: «أأنت مستر هيثكليف؟».

فكان الجواب إيماءة من رأسه.

قلت: «سيدي، إنني مستر لكود، المستأجر الجديد، لقد بادرت إلى التشرف بزيارتك إثر وصولي؛ لأعرب لك عن أملي ألا أكون قد ضايقتك بإلحافي في طلب السكنى في ضيعة ثرشكرس، ولقد سمعت أمس أنك كنت تنوي…».

فقاطعني وهو يتراجع مجفلًا: «سيدي، إن ضيعة ثرشكرس ملكي، ولن أسمح لأحد أن يضايقني ما دام هذا في استطاعتي. ادخل!».

قال كلمته الأخيرة وهو يصر على أسنانه، وكأنه في قرارة نفسه يقول لي: «امضِ إلى الشيطان» بل إن الباب الذي كان يتكئ عليه لم يتحرك قيد أنملة إثر دعوته هذه إياي بالدخول، ولعل هذا ما جعلني أصمم على قبول الدعوة، فلقد أثار اهتمامي هذا الرجل الذي بدا لي أكثر مني غلوًّا في التحفظ والحذر.

ورأى صدر جوادي يدفع الحاجز القائم بيني وبينه، فمد يده ليحل سلسلته، ثم تقدمني صاعدًا الطريق إلى الدار وهو عابس متجهم. ولما دخلنا فناء البيت صاح قائلًا:

- يا جوزيف، خذ جواد مستر لكود وائتنا بشيء من النبيذ.

فقلت لنفسي إثر سماعي هذا الأمر المزدوج: «لا بد أن هذا جناح الخدم، فلا عجب أن بانت الأعشاب من خلال البلاط، وتركت نباتات السياج مهملة لا تشذب أطرافها غير الماشية».

وكان جوزيف كهلًا، بل شيخًا لعله طعن في السن، وإن ظل قويًّا مفتول العضل. سمعته يناجي نفسه وهو يقول في صوت خافت ينم على الاستياء والتبرم: «كان الله في عوننا!»، وكان أثناء ذلك يأخذ عني جوادي وهو يرمقني بنظرات حداد، حتى لقد أحسنت الظن به فخلته أحوج ما يكون للمعونة الإلهية حقًّا لكي يهضم ما أصاب من طعام، وحسبت أن دعاءه الصالح لا يمتّ بصلة لزيارتي المفاجئة.

أما «وذرنج هيتس» فاسم الدار التي يسكنها مستر هيثكليف، ولفظ «وذرنج» بلهجة أهل هذه الناحية نعت يصفون به ضجيج الريح العاتية الصاخبة التي تستهدف لها الدار عند هبوب العواصف، ذلك أن الهواء في هذه البقعة العالية يهب على أهلها نقيًّا منشطًا مشددًا في كل وقت رضوا به أو كرهوه. وتستطيع أن تدرك عنف هذه الريح الشمالية التي تجتاح حافة الربوة من ذلك الاعوجاج الشديد الذي أصاب شجيرات الشربين الضئيلة القائمة على طرف الدار، ومن صف الأشجار الشوكية الهزيلة التي تمد أغصانها كلها مائلة في اتجاه واحد كأنها تستجدي الشمس صدقة. على أن المهندس الذي بنى الدار كان له -لحسن الحظ- من الحصافة وبُعد النظر ما جعله يبنيها قوية متينة، تغور نوافذها الضيقة في الجدران وتدعم زواياها أحجار ضخمة بارزة.

وقبل أن أعبر عتبة الدار، وقفت لحظة أستمتع بالنظر إلى النقوش الغريبة التي حفلت بها واجهتها ولا سيما فيما حول المدخل الرئيس، واستطعت أن أتبين فوقه، وسط فيض من النقوش المتداعية التي تصور حيوانات خرافية وصبية صغارًا تبدو عليهم سيماء الوقاحة، تاريخًا هو سنة 1500، واسمًا هو «هيرتن إيرنشو»، وكان بودي أن أعقب على ما رأيت بعض التعقيب، وأن ألتمس من صاحب الدار العبوس أن يقص عليَّ تاريخها في إيجاز، لولا أني تبينت في هيئته وهو واقف بالباب ما أشعرني أنه يريدني إما أن أدخل توًّا أو أمضي لحال سبيلي. وكنت أكره أن أزيده ضيقًا بي قبل أن أدخل وأفحص أرجاءها.

وما هي إلا خطوة حتى كنا في حجرة الجلوس المخصصة للأسرة، وهي حجرة لا يمهد لها بهو ولا دهليز، وأهل هذه الناحية يطلقون على هذه الغرفة دون سائر الغرف اسم «البيت»، وهي في العادة تشتمل على المطبخ وغرفة الجلوس. ولكن يُخيَّل إليَّ أن المطبخ في «وذرنج هيتس» قد رد إلى جناح آخر من الدار. وعلى أي حال فقد تبينت أصواتًا تلغط من بعيد، وسمعت رنين أواني المطبخ ينبعث من أعماق الدار، ولم ألحظ على الموقد الضخم آثار شي أو طهو أو خبز، ولم أشهد على الجدران بريق قدور النحاس و الصفيح. على أن الضوء والحرارة كانا ينعكسان في طرف من أطراف الحجرة على صحاف ضخمة من الزنك تنبث بينها أباريق وكؤوس من الفضة تعلو صفوفها بعضها فوق بعض على خزانة ضخمة من البلوط حتى تبلغ سقف الحجرة. فأما هذا السقف لم يسبق أن جرت عليه ريشة رسام، ويستطيع الناظر أن يتبين هيكله كله عاريًا إلا في شطر منه حجبه حامل خشبي تكدست فوقه فطائر الشوفان وأفخاذ العجول والضأن. وكان فوق الموقد غدارتان وأنواع شتى من البنادق العتيقة الرخيصة، وزينت حافته بعلبتين مطليتين طلاءً فاقعًا. وأرض الحجرة من حجر أبيض صقيل، أما المقاعد فبسيطة عالية الظهر مطلية بالأخضر، عدا مقعدًا أو مقعدين حالكي السواد يتواريان في الظل. وكانت ترقد في منحنى تحت الخزانة كلبة ضخمة من كلاب الصيد غبراء اللون، تحيط بها جراء تزعق، كذلك كانت تنتشر كلاب أخرى في أركان الحجرة الباقية.

ولم يكن في المسكن ولا في الأثاث ما يدعو للعجب لو أن رب البيت كان مزارعًا من أهل الشمال ريفيًّا جافي الوجه، مديد الأطراف مفتول العضل، يبرز ضخامة ساقيه ما يلبس من طماق وسراويل؛ ذلك أنك تستطيع أن ترى كثيرًا من أضراب هذا المزارع وقد جلس الواحد منهم على مقعده ذي المسندين إلى خوان مستدير عليه إبريق من الجعة المرغية، تراه في أي بيت من هذه البيوت المنبثة في نطاق خمسة أميال أو ستة من هذه التلال، لو أنك ألممت به في وقت مناسب بعد العشاء. أما مستر هيثكليف فإن بينه وبين مسكنه وأسلوب معيشته تناقضًا عجيبًا، فهو في سمرة الغجر لونًا، ولكنه في لباسه وعاداته كالسادة الغطارفة من أهل الريف. وقد يكون في هندامه شيء من البذاذة، ولكنه لا يسيء إلى مظهره؛ لأن له قامة منتصبة ووجهًا مليحًا تشوبه مسحة من الاكتئاب. وقد يرى بعض

الناس فيه شيئًا من الصلف يدل على نقص في التهذيب، ولكنني في قرارة نفسي أعطف عليه عطفًا يبرئه في عيني من هذه التهمة، فأنا أحس بفطرتي أنه لا يتحفظ إلا لأنه يكره أن يبدي شعوره ويبادل الناس عطفًا بعطف، فهو رجل يكتم حبه وبغضه على السواء، ويرى في إبداء إنسان الحب أو البغض له نوعًا من الوقاحة وسوء الأدب. ولكن مهلًا، فلعلي أتعجل الحكم على الرجل، ولعلي قد خلعت عليه بسخاء ما جبلت عليه من طباع، وقد يكون لمستر هيثكليف دوافع تختلف كل الاختلاف عن دوافعي في تحفظه حين يلقى غريبًا يبغي التعرف إليه. وأنا أرجو أن يكون في طباعي من الشذوذ والغرابة ما لا يوجد في طباع سواي من الناس. لقد كانت أمي العزيزة تقول إنني لن أظفر يومًا من الأيام ببيت هنيء سعيد، وقد أثبت في الصيف الماضي أني لست جديرًا ألبتة بمثل هذا البيت.

ذلك أنني بينما كنت أنعم في الصيف بقضاء شهر على شاطئ البحر في جو صفو بديع، تعرفت إلى فتاة رائعة الجمال يستهوي حسنها الألباب. وكانت في عيني إلهة معبودة بكل ما في الكلمة من معنى، ما دامت لا تلحظني عيناها، ولم تبح لها شفتاي بمكنون حبي، ولكن إن كانت للأعين لغة، فإن أجهل الناس وأكثرهم غفلة كان في وسعه أن يعرف من نظراتي أنني متيَّم بها غارق في حبها إلى أذني، ثم فطنت لحبي لها آخر الأمر، فردت على نظرتي بمثلها، وكانت نظرة لم أعرف أحلى منها ولا أشهى. فماذا تحسبني قد فعلت؟ إنني لأعترف بفعلتي في خزي وخجل، فقد انطويت على نفسي في برود كما ينطوي القوقع، وكانت كل نظرة من نظراتها تزيدني انطواء وبرودًا، حتى انتهى الأمر بالفتاة الساذجة المسكينة إلى اتهام حواسها، واستولى عليها الارتباك والاضطراب لغلطتها المزعومة، فحملت أمها على الرحيل من فورهما. وأورثني هذا المسلك العجيب سمعة الرجل الذي لا قلب له، والذي يقسو في الحب عامدًا، وهي سمعة لا يدرك سواي مبلغ ما فيها من تجنٍّ عليَّ.

جلست على مقعد في طرف الموقد أمام المقعد الذي اتجه هيثكليف صوبه، وشغلت لحظات السكون بمحاولتي ملاطفة الكلبة التي تركت مهد جرائها وأقبلت عليَّ تتشمم ظهر ساقي في وحشية وضراوة، وقد رفعت خطمها وكشرت عن أنيابها البيض وسال لعابها شوقًا للحمي، وانبعث من حنجرتها هرير طويل إثر مداعبتي إياها.

وقال مستر هيثكليف مزمجرًا معها وقد وكزها بقدمه ليزجرها عن التمادي فيما أبدت: «خير لك أن تدع الكلبة وشأنها، فهي لم تألف الملاطفة، وأنا لا أقتنيها لأدللها»، ثم مشى بخطوات واسعة نحو باب جانبي وصاح ثانية «يا جوزيف!».

وانبعث من أعماق القبو صوت جوزيف يردد كلامًا غامضًا لم أتبينه، ولكن لم يبد منه ما يشعر بأنه صاعد درجات القبو، فهبط إليه سيده وتركني لهذه الكلبة الضارية ولكلبين شرسين أشعثين من كلاب الرعاة كانا مثلها يرصدان كل حركاتي وسكناتي. ولما كنت أكره أن تنالني أنياب هذه الكلاب، فقد لزمت الهدوء، ولكني توهمت أنها لا تفهم الإهانة الصامتة، فطفقت لسوء الحظ أغمز لثلاثتها بعيني وألوي لها وجهي، وكان في حسنتي ما أحفظ عليَّ الأنثى، فهاجت فجأة وقفزت على ركبتي، فدفعتها عني، وأسرعت أقيم المنضدة سدًّا بيني وبينها، وكان في هذا العمل ما اثار ثائرة شرذمة الكلاب كلها، فانبعثت من كهوفها الخفية ستة من الأبالسة ذوات الأربع، من شتى الأحجام ومختلف الأعمار، واندفعت كلها إلى قلب الحجرة، وشعرت بعقبي وذيل سترتي هدفًا لهجماتها، وبعد أن رددت عني كبار المهاجمين بمحراك النار ما وسعني ذلك، ألفيتني مكرهًا على الصياح وطلب النجدة من أهل الدار ليصلحوا ما فسد بيني وبين كلابهم.

وصعد مستر هيثكليف وخادمه درجات القبو في فتور يغيظ، ولست أحسبهما قد

زادا من سرعة سيرهما شيئًا، مع أن الحجرة كانت تصطخب بعاصفة من العراك والنباح. على أن شخصًا آخر خف لنجدتي من المطبخ لحسن الحظ، ذلك أن امرأة قوية البنية، مشمرة الثوب، عارية الذراعين، متوردة الخدين، اندفعت وسطنا وهي تلوح بمقلاة في يدها، واستطاعت بفضل هذا السلاح، وبالاستعانة بلسانها، أن تخمد العاصفة كأنما بسحر ساحر، فلم يبق في الحجرة سواها تلهث كأنها موج البحر بعد ريح عاتية، وإذا رب البيت يدخل الحجرة علينا.

فقال وهو يحدجني بنظرة ضقت بها بعد ما لقيت من معاملة غير كريمة: «ما خطبك وحق الشيطان؟».

قلت مزمجرًا: «ما خطبي؟ عجبًا! إن قطيع الخنازير الذي دخلته الأرواح النجسة لم يكن شرًا من كلابك هذه يا سيدي. لكأني بك تترك رجلًا غريبًا بين قطيع من النمورة!».

قال وهو يضع الزجاجة أمامي ويعيد المائدة إلى مكانها: «هذه الكلاب لا تؤذي من لا يمس شيئًا، وهي لا تلام على يقظتها. والآن أتشرب كأسًا من النبيذ؟».

- لا.. شكرًا.

- هل عقرك أحدها؟

«لو أنه فعل لتركت عليه طابعي». وانبسطت أسارير هيثكليف، وابتسم ابتسامة كالحة، ثم قال: «كفى كفى، إنك مضطرب ثائر النفس يا مستر لوكوود، فخذ قليلًا من النبيذ. إنني أصارحك بأن الضيوف في هذه الدار من القلة بحيث لا أعرف لا أنا ولا كلابي كيف يجمل بنا أن نستقبلهم. إني أشرب نخبك يا سيدي!».

فانحنيت وشربت نخبه أنا الآخر، وقد بدأت أدرك أن من الحمق أن أجلس متجهمًا عابسًا لأن شرذمة من الكلاب قد أساءت أدبها، ثم إنني كرهت أن أتيح للرجل فوق ما أتحت من فرصة ليتفكه ويمزح على حسابي، ما دام يجد فيما أصابني لذة وتفكهة. أما هو فلعله رأى ما في الإساءة إلى مستأجر حسن من حماقة، فعدل قليلًا عن أسلوبه المقتضب في الحديث، وطرق موضوعًا خاله يهمني، وهو الكلام عما لبيتي الذي أعتكف فيه الآن من مزايا وعيوب. وقد وجدته لامع الذكاء في المواضيع التي طرقناها. وقبل أن أنصرف قافلًا إلى داري وجدت في نفسي من الشجاعة ما يكفي لحملي على الوعد بزيارة أخرى غدًا دون أن يدعوني. وكان واضحًا أنه يكره أن أعود إلى التطفل عليه، ولكني عائد رغم ذلك، فإني ليدهشني ما أحسه في نفسي من حب لعشرة الناس والائتناس بهم إذا قستني بهذا الرجل.

* * *

الفصل الثاني

كان الجو عصر أمس باردًا، والضباب كثيفًا، فراودتني نفسي أن أقضيه إلى جوار مدفأة مكتبي بدل أن أخوض البراري والأوحال لأبلغ وذرنج هيتس. وصعدت إلى حجرتي بعد تناول الغداء (وأنا أتناوله بين الظهيرة والساعة الواحدة، ولم تستطع مدبرة المنزل - وهي امرأة وقور انتقلت إليَّ بانتقال البيت كأنها متاع من أمتعته الثابتة- أو قل إنها لم تشأ، أن تفهم رغبتي في أن يُقدّم إليَّ غدائي في الساعة الخامسة). وارتقيت السلم وفي نفسي هذه النية الكسول، وما إن خطوت داخل الحجرة حتى رأيت خادمًا راكعة ومن حولها الفرش ودلاء الفحم، وقد أثارت سحبًا كريهة من الغبار وهي تطفئ اللهب بأكوام من رماد الفحم. وردني هذا المنظر على عقبي من فوري، فتناولت قبعتي، وبعد مسيرة أميال أربعة بلغت باب حديقة هيثكليف وقد نجوت من شؤبوب من الجليد بدأت طلائعه تتساقط كأنها الزغب.

وكانت الأرض على قمة هذه الرابية القارسة البرد صلبة لفرط ما تجمع عليها من صقيع أسود، وسرت إليَّ من الهواء رعدة هزت كل جارحة فيّ. ولما عجزت عن نزع السلسلة قفزت من فوق الباب وعدوت على الطريق المرصوف الذي تحفه شجيرات متفرقة من عنب الديب، ثم أخذت أقرع الباب دون جدوى حتى كلَّت أصابعي وسمعت عواء الكلاب.

وقلت لنفسي: «إيه أيها الصعاليك يا من بداخل الدار! ما أجدركم بأن تقصوا إلى الأبد عن النوع الإنساني عقابًا لكم على هذا الشح. إنني على الأقل آبي أن أغلق بابي في وجه طارق بالنهار، ولكني لست أبالي ما تفعلون، وسأدخل داركم!»، ولما عقدت النية على ذلك، أمسكت بمزلاج الباب وهززته هزًّا عنيفًا، فأطل جوزيف بوجهه الممرور من نافذة مخزن الغلال المستديرة.

وصاح جوزيف: «ماذا تريد؟ إن السيد في الحظيرة، فامضِ إليه من طرف الحقل إن شئت التحدث إليه».

فهتفت به: «أليس في الداخل من يفتح؟».

- ليس في الداخل غير السيدة، وهي لن تفتح لك، ولو ظللت تقرع حتى الليل.

- لماذا؟ ألا تستطيع أن تخبرها من أنا يا جوزيف؟

فتمتم قائلًا: «كلا، كلا! لا شأن لي بهذا»، ثم اختفى رأسه.

وبدأ الثلج يتساقط مدرارًا، وقبضت على أكرة الباب لأعيد الكرة، وإذا شاب بغير سترة يبدو في الفناء الخلفي وقد حمل مذراة على كتفه، فأهاب بي أن أتبعه، واجتزنا مغسلًا وبقعة مرصوفة تحتوي على مخزن للفحم وطلمبة ماء وبرج حمام، ثم وصلنا في النهاية إلى الغرفة الفسيحة الدفئة المبهجة التي استقبلت فيها من قبل، وكان يشيع فيها دفء لذيذ منبعث من نار كبيرة وقودها الفحم والعشب اللبد والخشب. وسرني أن أجد إلى

جوار المائدة التي بسط عليها عشاء وفير هذه «السيدة» التي لم يدر وجودها بخلدي من قبل، فأحنيت رأسي وانتظرت أن تأذن لي بالجلوس، ولكنها تطلعت إليَّ وهي تسند ظهرها إلى مقعدها، وظلت ساكنة لا تحير.

قلت: «طقس رديء! يؤسفني يا مسز هيثكليف أنني لم أجد بدًّا من أن أحمل باب داركم مغبة بطء الخدم، لقد تجشمت عناءً كبيرًا حتى أسمعتهم طرقي».

ولكنها لم تفتح فاها ألبتة، فحملقت إليها وحملقت هي إليَّ كذلك، أو قل إنها ثبتت عينيها عليَّ في برود وعدم اكترات ضقت بهما أشد ضيق، وارتبكت بسببهما أشد ارتباك.

وقال الفتى في جفاء: «اجلس فهو قادم بعد قليل».

فصدعت بالأمر، وتنحنحت، وناديت الكلبة الخبيثة «جونو»، فتفضلت برفع طرف ذيلها في هذه المقابلة الثانية إقرارًا منها بمعرفتي.

وبدأت الحديث ثانية فقلت: «يا لها من حيوان جميل! أفي نيتك الاستغناء عن جرائها يا سيدتي؟».

قالت مضيفتي الوديعة في لهجة أجفى من لهجة هيثكليف نفسه لو أنه كان محدثي: «ليست هذه الجراء ملكي».

قلت وقد حولت وجهي صوب وسادة منزوية امتلأت بحيوانات بدت لي كأنها القطط: «فهمت، هؤلاء أصفياؤك المصطفون إذن؟».

قالت بازدراء: «ويا لهم من أصفياء!».

ولم تكن هذه لسوء حظي سوى كومة من الأرانب النافقة، فتنحنحت ثانية، ودنوت من المدفأة، وأنا أردد ما قلت من قبل عن رداءة الجو في تلك الأمسية.

وقالت وهي تنهض لتتناول من رف المدفأة علبتين من العلب المطلية: «كان يجب ألا تخرج من دارك في هذا الجو».

وكان النور يحجبها عن ناظري في وضعها الأول، أما الآن فقد وضحت لي جليًّا، فاستطعت أن أميز قوامها وقسمات وجهها. وكانت نحيفة لم تكد تتجاوز طور الصبي فيما يبدو، لها قوام بديع، ووجه صغير لم تسعد عيني بالتطلع إلى أروع منه، وقسمات دقيقة، وبشرة ناصعة البياض، وخصل من الشعر شقراء، أو على الأصح ذهبية، تتهدل على جيدها الرقيق، وعينان لو رقتا فيما تعبران عنه لاستطاعتا أن ترميا سهامًا فاتكة. ومن حسن حظ قلبي المرهف أن العاطفة الوحيدة التي بدت في تَيْنِكَ العينين كانت تترجح بين الازدراء والتهور، وهو ما لا يتوقعه منهما إنسان. وكان العلبتان بعيدتين عن متناولها، فهممت بمساعدتها، ولكني ردتني عنها كما يرد البخيل رجلًا يحاول أن يساعده في عد نقوده الذهبية.

وقالت في حدة: «لست بحاجة إلى معونتك، ففي استطاعتي أن أتناولهما بنفسي».

فبادرت إلى القول: «عفوًا ومعذرة».

فسألتني وهي تعقد ميدعة حول ثوبها الأسود الأنيق، وقد أمسكت فوق الإبريق بملعقة ملأتها شايًا: «هل دعيت لتناول الشاي؟».

أجبتها: «يسرني أن أتناول قدحًا منه».

فأعادت سؤالها الأول: «هل دُعِيت؟».

قلت فيما يشبه الابتسام: «كلا، إنكِ أنتِ الشخص الذي يجب أن يدعوني».

فقذفت بالشاي والملعقة إلى مكانهما، وعادت مستاءة إلى مقعدها، وقد عقدت جبينها ومطت شفتها السفلى المتوردة كأنها طفلة تهم بالبكاء.

وأما الفتى فكان قد أسدل فوق ملابسه أثناء ذلك ثوبًا بادي البذاذة، ووقف أمام المدفأة وحدجني بطرف عينه كأن بيننا ثأرًا دفينًا. وبدأت أسائل نفسي في ريب أهو حقًّا خادم؟ لقد كان في لباسه وحديثه خشونة وفظاظة، وكان كلاهما خلوًا من مظاهر السيادة التي يلحظها الناظر في مستر هيثكليف ومسز هيثكليف. وكانت خصل شعره الكثيف البني خشنة يعوزها التهذيب، وعارضاه يجوران على خديه كأنه دب، ويداه في سمرة أيدي الفعلة. بيد أن مسلكه كان فيه يسر، بل أكاد أقول صلف، ولم يبد عليه ما يبدو على الخدم عادة من الاحتفال بخدمة ربة البيت. ولما كنت أفتقر إلى دليل قاطع يجلو لي هويته، فقد آثرت أن أغضي عن سلوكه الغريب، ثم دخل هيثكليف بعد خمس دقائق، فخفف عني دخوله بعض ما كنت أعاني من حرج.

قلت متكلفًا البشاشة: «هأنذا قد جئت كما وعدتك يا سيدي! وأخشى أن تعوقني رداءة الطقس في بيتك نصف ساعة - هذا إذا رضيت لي أن أعتصم به هذه الفترة».

قال وهو ينفض عن ثيابه شظايا الثلج البيضاء: «نصف ساعة، يدهشني أنك لم تتخير وقتًا تخرج فيه غير هذا الوقت الذي اشتد فيه هبوب العاصفة الثلجية! أتعلم أنك إذا خرجت الآن قد تضل طريقك بين هذه البطاح؟ إن أهل هذه الناحية ليضلون طريقهم في أمسية كهذه على علمهم بمسالكها، وأنا أؤكد لك أنه لا أمل في أن يعتدل الطقس سريعًا».

- لعلي واجد بين غلمانك دليلًا يرافقني إلى الضيعة، ويبيت هناك، فهل لك أن تعيرني غلامًا؟

- كلا.

- حقًّا! لا مندوحة لي إذن عن الاعتماد على فطنتي.

فلم يحر جوابًا، ثم سأل الفتى ذو السترة الرثة، وهو ينقل نظرته الضارية مني إلى الفتاة: «هل ستعدين الشاي؟»، وسألت الفتاة هيثكليف: «هل يتناول هذا الشاي معنا؟»، قال في وحشية جفلت لها: «هلا أعددته؟»، وكانت لهجته تنم عن شر متأصل فيه، ورأيتني أعدل عن إعجابي السابق به. ولما أعد الشاي دعاني هيثكليف وهو يقول: «والآن قدم كرسيك يا سيدي»، فأحطنا جميعًا بالمائدة بما فينا الفتى الجلف، وقد خيم علينا سكون صارم ونحن نتناول طعامنا على مهل.

قلت لنفسي: «ما دمت السبب في هذه الغمة التي خيمت عليهم، فمن واجبي إذن أن أحاول قشعها، فليس من المعقول أنهم يجلسون كل يوم في مثل هذا الجو العابس الصامت، ومحال أن تكون هذه الغبرة التي علت وجوههم جميعًا هي دأبهم كل يوم مهما كان في طبعهم من حدة وشِرَّة».

ورحت أقول بعد أن شربت قدحًا من الشاي وهممت بتناول غيره: «ما أعجب ما تصوغ العادة أفكارنا وأذواقنا، فكثيرون لا يستطيعون أن يتصوروا أن السعادة ترفرف على قوم اعتزلوا العالم مثلكم يا مستر هيثكليف. ولكن اسمح لي أن أقول، إنك وأنت محاط بأفراد أسرتك، وبزوجك المحبوبة تهيمن على بيتك ولبك...».

فقاطعني وعلى وجهه سخرية خبيثة: «زوجي المحبوبة! وأين هي زوجي المحبوبة؟».

- إنني أعني مسز هيثكليف قرينتك.

- أجل، لعلك تعني أن روحها تقف كالملاك الحارس، وأنها تحرس أقدار أهل وذرنج هيتس حتى بعد أن فارق جسدها الحياة. أهذا ما تعنيه؟

وحاولت أن أصحح ما تورطت فيه من خطأ شنيع بعد أن فطنت إليه، وكان من الواجب أن ألحظ البون الشاسع بين عمره وعمر الفتاة، هذا البون الذي يجعل الزواج بينهما بعيد الاحتمال؛ فقد كان الرجل في الأربعين، وهي سن يبلغ فيها الرجال من نضوج الذهن وقوة التفكير ما يعصمهم من التعلل بحلم الزواج بالصبايا عن عشق وغرام، فذلك حلم لا يراود عقول الرجال إلا في سني الشيخوخة حين يبتغون به العزاء والسلوى. أما الفتاة فكانت تبدو دون السابعة عشرة.

ثم لاحت لخاطري فكرة خاطفة، فقلت لنفسي: «لعل زوجها هذا الجلف الجالس إلى جواري يشرب شايه من الإبريق ويأكل خبزه بيديه القذرتين، أعني أنه هيثكليف الابن بالطبع، تلك عاقبة اعتزال المرء الناس اعتزالًا يدفنه حيًّا، فقد وقعت هذه الفتاة فريسة لهذا الريفي الفظ لأنها تجهل أن في الدنيا خيرًا منه! واحسرتاه لها! فلأحاذر أن أسبب لها الندم على سوء اختيارها»، وقد تبدو هذه الفكرة الأخيرة منطوية على غرور مني، ولكنها في الحق ليست كذلك، فقد كان في سمت جاري ما يكاد ينفر الناظر إليه، أما أنا فقد علمتني تجاربي الماضية أن في طلعتي جاذبية معتدلة.

وقال هيثكليف مؤيدًا ظني: «إن مسز هيثكليف زوجة ابني»، ثم حدجها بنظرة غريبة، نظرة ملؤها البغض، اللهم إلا إذا كان لوجهه عضلات عنيدة تأبى أن تترجم عن عواطفه كما تترجم وجوه الناس جميعًا عن عواطفهم.

قلت مخاطبًا جاري: «أجل، فهمت الآن، فأنت المحظوظ إذن صاحب هذه الحورية الرقيقة».

وكانت هذه الغلطة شرًّا من أختها، فقد اصطبغ وجه الفتى بحمرة قانية وضم قبضة يده كمن يتحفز للهجوم عليَّ، ولكنه ما لبث أن تمالك أعصابه، وكظم هذه العاصفة بشتيمة قذرة تمتم بها، وكنت المقصود بها، ولكني غضضت الطرف عنها.

قال مضيفي: «لقد جانبك التوفيق في ظنونك يا سيدي، فليس أحدنا ذلك

المحظوظ صاحب حوريتك الرقيقة، لقد مات زوجها، وقد قلت لك إنها زوجة ابني، فلا بد إذن أنها تزوجت ابني».

- وهذا الفتى...

- ليس ابني بلا ريب.

وابتسم هيثكليف ثانية كأنه يرى في نسبة هذا الوحش إليه دعابة تنطوي على الجرأة والتطاول.

وزمجر الفتى قائلًا: «إن اسمي هيرتن إيرنشو، ونصيحتي إليك أن تحترم هذا الاسم!».

قلت وأنا أضحك في نفسي من هذا الكبرياء الذي أعلن به اسمه: «لم يبد مني ما يشعر بامتهاني إياه».

وحدق فيَّ برهة طويلة لم أشأ أن أبادله فيها نظرة بنظرة، خشية أن تسول لي نفسي إما أن ألطمه على أذنيه أو أقهقه عاليًا. وبدأت أشعر بأنه لا محل لي ألبتة بين أفراد هذه الأسرة التي تشرح الصدر، فقد طغى هذا الجو الروحي الكئيب على أسباب الراحة المادية التي كانت تشع من حولي. وعولت على أن أكون أشد حذرًا في زيارة هذا البيت زيارة ثالثة.

وفرغنا من مهمة تناول الطعام دون أن يفوه أحدنا بحديث ودي، ودنوت من نافذة من النوافذ لأتبين الجو، فإذا أنا أرى منظرًا يقبض الصدر؛ فالليل الحالك يهبط قبل أوانه، والسماء والتلال تجتاحها ريح هوجاء وثلوج خانقة.

وألفيتني أقول على الرغم مني: «لست أخالني قادرًا على العودة إلى بيتي الآن دون دليل يصحبني، فلا بد أن الثلوج قد غطت معالم الطريق، وحتى لو كانت الطريق مكشوفة لما استطعت أن أتبين منها قدمًا واحدة أمامي».

فقال هيثكليف: «سق هذه الخراف يا هيرتن إلى سقيفة المخزن؛ لئلا تطمرها الثلوج إذا تركتها في الحظيرة طول الليل، ثم ضع أمامها حاجزًا من الخشب».

وتابعت حديثي، وقد زاد غيظي عن ذي قبل: «ما العمل؟».

ولم يلق سؤالي جوابًا، وتلفت خلفي فلم أرَ غير جوزيف يحمل دلوًا من العصيدة للكلاب، ومسز هيثكليف تتكئ على المدفأة وهي تلهو بإشعال ربطة من عيدان الثقاب سقطت من رف الموقد حين كانت ترد علبة الشاي إلى مكانها الأول، وحط جوزيف حمله، واشتمل الحجرة بنظرة فاحصة، ثم ارتفع صريف صوته المحطم يقول:

- يدهشني وقوفك بلا عمل في حين انصرف كل من بالدار لعمله! ولكن لا نفع فيك، والكلام معك لا يجدي، فإنك لن ترعوي عن غيك، ومصيرك إلى الشيطان كما صارت إليه أمك من قبل».

ومضت لحظة خلتني فيها المقصود بهذه العبارات البليغة، فثار سخطي على الشيخ

الوغد، ويممت صوبه وفي نيتي أن أركله وأطرده خارج الغرفة. على أن مسز هيثكليف قطعت عليَّ تنفيذ نيتي حين ردت عليه تقول:

«أيها الشيخ المنافق المفتري! ألا تخشى أن يخطفك الشيطان حين يجري اسمه على لسانك؟ حذار أن تستفزني وإلا طلبت إليه أنِ يسدي إليَّ صنيعًا خاصًّا فيخطفك»، ثم واصلت حديثها وقد تناولت من رف كتابًا طويلًا قاتم اللون: «انتظر! انظر يا جوزيف، سأريك مدى ما بلغت من العلم بالسحر. وعما قليل سيكون في استطاعتي أن أطهر البيت منكم جميعًا، فإن البقرة الحمراء لم تمت مصادفة، ووجع المفاصل الذي يعروك ليس افتقادًا إلهيًّا!».

وأخذ الشيخ يلهث ويقول: «إيه أيتها الشريرة! أيتها الشريرة! لينجنا الله من الشرير!».

«كلا أيها الضال، إنك شخص منبوذ، انصرف الآن وإلا أنزلت بك أبلغ

الأذى. سأمسخكم جميعًا إلى مسخ من شمع وطفل! وأول من يتجاوز الحدود التي أرسمها.. كلا، لن أقول ما سيحل به، ولكنكم سترون ذلك بأعينكم. انصرف! إنني أراقبك».

ولاح في عيني الساحرة الصغيرة الجميلتين خبث مصطنع، وعجل جوزيف وهو يرتجف فرقًا بالخروج داعيًا متمتمًا: «يا لك من شريرة!»، وظننت أن الذي دفعها إلى هذا المسلك لا بد هو حبها لمثل هذا الضرب من المزاح المخيف، أما ولم يبق في الغرفة سوانا، فقد حاولت أن أثير اهتمامها بما أنا فيه من ضيق.

فقلت في جد: «معذرة لإزعاجي إياكِ يا مسز هيثكليف، فأنا أتطفل عليكِ لثقتي بأن هذا الوجه لا يمكن أن ينم إلا عن قلب طيب، إنني أتوسل إليكِ أن تدليني على معالم قد تهديني في طريقي إلى البيت؛ إذ ليس لي من العلم بهذه الطريق أكثر مما تعلمين عن الطريق إلى لندن».

قالت وهي تتربع على مقعد، وقد أمسكت شمعة وفتحت أمامها الكتاب الطويل: «عليك بالطريق التي جئت منها، تلك نصيحة موجزة، ولكنها خير ما أستطيع أن أشير به عليك».

«إذن فإذا سمعت أنهم وجدوا جثتي في مستنقع أو حفرة يملؤها الثلج، فلن يهمس إليكِ ضميرك بأن بعض اللوم في هذا يقع عليكِ؟».

«وكيف يكون ذلك؟ إنني لا أستطيع أن أرافقك في الطريق؛ فهم لا يسمحون لي بالخروج حتى إلى نهاية سور الحديقة».

فصحت: «أنتِ! إنني أتألم لو طلبت إليكِ أن تعبري من أجلي عتبة الدار في مثل هذا الليل. إنما أرغب إليكِ في أن تخبريني بالطريق لا أن تريني إياها، أو أن تقنعي مستر هيثكليف بأن يرسل معي دليلًا».

«ومن يكون الدليل؟ هنا هيثكليف، وإيرنشو، وزله، وجوزيف، وأنا، فأينا تريد؟».

- أليس في المزرعة غلمان؟

- كلا، ليس غير من ذكرت.

- إذن فأنا مضطر إلى قضاء الليل هنا.

- ذلك أمر تقرره مع مضيفك، فليس هذا من شأني.

وسمعت صوت هيثكليف الصارم يرتفع من باب المطبخ ويقول: «لعل هذا أن يكون درسًا لك لكي لا تعود إلى جولاتك المتهورة فوق هذه التلال، أما أن تقضي الليل هنا فليس عندي مكان لمبيت الزائرين، فإذا أبيت إلا المبيت فلا مندوحة لك عن مقاسمة هيرتن أو جوزيف فراشهما».

فأجبت قائلًا: «في وسعي أن أنام على مقعد في هذه الحجرة».

فقال الوغد في فظاظة: «كلا كلا! الغريب غريب، غنيًا كان أو فقيرًا، لست أسمح ببقاء أحد في هذا المكان في غير وجودي!».

وفرغ صبري حين سمعت هذه الإهانة، ففهت بعبارة تنبئ باشمئزازي، واندفعت مارًا به إلى فناء الدار، واصطدمت بإيرنشو وأنا أهرول في عجلة. وكان الظلام حالكًا بحيث لم أستطع تبين الباب الذي سأخرج منه، وبينما كنت أدور بحثًا عنه ترامى إلى أذني مثال آخر من أدبهم في الحديث مع بعضهم البعض، فقد لاح لي أولًا أن الفتى يوشك أن يناصرني.

قال إيرنشو: «سأرافقه حتى البستان».

فصاح سيده (أو كائنًا ما كان بالنسبة إليه): «سترافقه إلى الجحيم، ومن يعنى بالجياد، خبرني؟».

وتمتمت مسز هيثكليف في عطف لم أتوقعه: «إن حياة إنسان أهم وأخطر من إهمال العناية بالجياد ليلة واحدة. يجب أن يرافقه أحدكم على أي حال».

فرد عليها هيرتن: «لن يكون ذلك خضوعًا لأمرك! خير لكِ أن تلزمي الصمت إن كنتِ تعقدين عليه الأمل».

فأجابت في حدة: «إذن أرجو أن يطوف بك شبحه بعد موته. وأرجو

ألا يعثر مستر هيثكليف البتة على مستأجر آخر حتى يصبح بيت الضيعة خرابًا يبابًا».

وتمتم جوزيف، وكنت أسير صوبه، قائلًا: «استمع، استمع، إنها تستمطر عليهم اللعنات!».

وكان يجلس على مسمع منهم يحلب البقر على ضوء فانوس، فأمسكت بالفانوس دون أن أستأذنه، واندفعت إلى أقرب باب وأنا أصيح بأني سأرده إليه غدًا.

وصاح العجوز الذي أكل عليه الدهر وهو يقتفي خطواتي: «سيدي، سيدي! لقد سرق الفانوس!»، ثم هتف بكلابه: «يا ناشر! يا وولف! عليكما به، عليكما به!».

وما إن انفتح الباب الصغير حتى انقض على عنقي وحشان غزيرا الشعر فأوقعاني تحت ثقلهما وانطفأ الفانوس. وبلغ غضبي وشعوري بالهوان الغاية حين سمعت قهقهة عالية مختلطة تنبعث من هيثكليف وهيرتن، وكان يبدو على الوحشين لحسن الحظ أنهما يميلان إلى التمطي والتثاؤب وهز ذيليهما أكثر من ميلهما إلى افتراسي حيًّا، ولكنهما لم يسمحا لي بالنهوض، فظللت راقدًا على كره مني حتى شاءت إرادة أصحابهما اللئام أن يطلقوني. وأمرت الأشرار، وأنا عاري الرأس أرتجف غضبًا، أن يدعوني أخرج متوعدًا إياهم، إذا حجزوني دقيقة واحدة بعد ذلك، بعبارات مضطربة لا رابط بينها، كبيرة الشبه في شدتها وعنفها بشتائم الملك لير لابنتيه.

وأحدثت لي هذه السورة العنيفة رعفًا غزيرًا، ولكن هيثكليف لم يكف عن الضحك، ولم أكف أنا عن تقريعه، ولست أدري ما الذي كان ينهي هذه المعركة لولا مجيء شخص أقل مني شططًا وأكرم من مضيفي نفسًا، وكان هذا الشخص زله، مدبرة البيت البدينة، فقد انبرت في النهاية مستفسرة عن سر هذه الضجة، وقد ظنت أن أحدهم يضربني، ولما كانت لا تجرؤ على مهاجمة سيدها، فقد صبت غضبها على أصغر الوغدين سنًّا.

وصاحت قائلة: «حسن يا مستر إيرنشو، لست أدري ما أنت صانع بعد ذلك! أو نقتل الناس على عتبة دارنا؟ أرى أن هذا البيت لم يعد يصلح لي ألبتة، انظر إلى الفتى المسكين، إنه يكاد يختنق! لا بأس عليك، لا بأس عليك! يجب ألا تتصرف على هذا النحو، هلم إلى الدار فأعنى برعفك، والآن اسكن قليلًا».

ثم رشت عليَّ فجأة كوزًا من الماء البارد سال على عنقي، وجذبتني إلى المطبخ، وتبعنا مستر هيثكليف بعد أن تلاشى مرحه العارض سريعًا، وعاوده عبوسه واكتئابه.

وكنت غاية في الضعف، أحس دوارًا وهزالًا، لذلك اضطررت رغم أنفي لقبول المبيت تحت سقف هيثكليف، وأخبر زله أن تقدم لي كأسًا من البراندي، ثم مضى إلى الحجرة الداخلية، على حين حاولت هي أن تسري عني ما أنا فيه من كرب وألم، وبعد أن قدمت لي البراندي تنفيذًا لأمر سيدها، مما أعان على إنعاشي قليلًا، أرشدتني إلى فراشي.

الفصل الثالث

وبينما كان تتقدمني صاعدة السلم، أوصتني بإخفاء الشمعة وبعدم إحداث ضجة؛ لأن لسيدها رأيًا غريبًا في الغرفة التي سأبيت فيها، وما كان ليرضى البتة بأن يشغلها إنسان ما دام هذا في استطاعته. فسألتها عن السبب، فقالت إنها تجهله؛ لأنها لم تقم عندهم غير عام أو عامين، وقد رأت أثناء ذلك من الغرائب في ذلك البيت ما لا يجعلها تبدأ الآن الفضول أو الاستطلاع.

ولما كنت أنا نفسي في حال من الذهول لا مجال معها للفضول، فقد أوصدت باب حجرتي ودرت بعيني باحثًا عن الفراش. وكان أثاث الحجرة كله يتألف من مقعد ومكبس للملابس وصندوق ضخم من الزان قطعت قرب قمته مربعات فيه أشبه بنوافذ عربات السفر. ودنوت من الصندوق ونظرت إلى داخله فإذا هو مخدع عجيب عتيق الطراز، صمم بطريقة ملائمة تغني عن تخصيص حجرة لكل فرد من أفراد الأسرة، فقد كان المخدع في الواقع حجرة تحتوي على نافذة تصلح قاعدتها خوانًا، وأزحت مصراعي المخدع، ودخلت أحمل شمعتي، ثم ضممتها ثانية، وشعرت أنني بنجوة من عين هيثكليف أو غيره من الناس.

وكان على قاعدة النافذة التي وضعت عليها شمعتي بضعة كتب بالية كدست في ركن منها، وكانت تغطيها كتابة خطت على الطلاء، ولم تكن هذه الكتابة سوى اسم تكرر رسمه بشتى الخطوط كبيرها وصغيرها، وهذا الاسم هو «كاثرين إيرنشو»، وكان أحيانًا يتغير إلى «كاثرين هيثكليف»، ثم إلى «كاثرين لنتن».

وأسندت رأسي إلى النافذة في فتور سخيف، وواصلت هجاء اسم كاثرين إيرنشو - هيثكليف-لنتن، حتى أدركني النوم. ولكن ما مضت عليَّ خمس دقائق حتى طلعت من الظلمة فجأة حروف بيضاء تبهر العين، حية كأنها الأطياف، وامتلأ الهواء من حولي باسم كاثرين، فقمت لأطرد عني هذا الاسم الذي أقحم نفسه عليَّ، وإذا أنا أجد ذبالة شمعتي مائلة على كتاب من هذه الكتب العتيقة، وقد نشرت في المكان رائحة الجلد المحترق، فأصلحت الذبالة، وجلست في فراشي وقد ضايقني البرد وطول الغثيان. ثم فتحت الكتاب الذي أصاب العطب غلافه على ركبتي، وكان توراة مكتوبة بحروف رفيعة، تنبعث منها رائحة جلد البقر المشوي، وقرأت على الصفحة الأولى هذه الكلمات: «هذا كتاب كاثرين إيرنشو» وتاريخًا يرتد زهاء ربع قرن إلى الوراء، وطويت الكتاب وتناولت غيره وغيره حتى فحصتها جميعًا، وكانت مجموعة كتب كاثرين منتقاة، يدل تآكلها على أنها استعملت خير استعمال، وإن لم يكن القصد دائمًا سليمًا مشروعًا؛ إذ لم ينج فصل من فصولها من حواشي بالقلم والحبر، أو على الأقل ما يبدو كالحواشي، مما ملأ كل فراغ في الصحيفة لم يطبع. وكان بعضها جملًا قائمة بذاتها، وبعضها على شكل يوميات منتظمة مكتوبة بخط طفلي رديء. وأضحكني كثيرًا ما رأيت على رأس صفحة إضافية في الكتاب (ولعل صاحبة الكتاب رأت فيها كنزًا حين ظفرت بها)، وتلك صورة هزلية لصاحبي جوزيف مرسومة رسمًا قويًّا وإن كان بدائيًّا. وأحسست توًّا بأن كاثرين هذه التي لا أعرفها تثير في نفسي اهتمامًا قويًّا، وبدأت فورًا أحل رموز خطها الباهت.

وقرأت في الفقرة التي كتبتها تحت الصورة: «إنه الأحد - طقس رديء، ليت أبي يعود من قبره ثانية، إن هندلي شر خلف له، وإن مسلكه مع هيثكليف مسلك بغيض فظيع - إنني وهيثكليف سنشق عصا الطاعة عليه - لقد بدأنا الخطوة الأولى هذا المساء.

«أمطرتنا السماء طوفانًا طوال اليوم، ولم نستطع الذهاب إلى الكنيسة، فأصر جوزيف على أن يصلي بنا في غرفة السطح. فبينما كان هندلي وزوجه يصطليان أمام نار طيبة في أسفل الدار -وأنا زعيمة بأنهما كانا يفعلا أي شيء إلا أن يقرآ توراتهما- أمرت أنا وهيثكليف والفتى الحراث المسكين أن يأخذ كل منا كتاب الصلاة ويصعد إلى أعلى الدار. وأوقفنا صفًّا على غرارة قمح، ونحن نئن ونرتعد، وكنا نعلل أنفسنا بأن جوزيف سيرتجف مثلنا من البرد فيكتفي بقراءة عظة قصيرة ويريح نفسه، ولكنه كان أملًا كاذبًا! فقد دامت الصلاة ثلاث ساعات كاملة.

ومع ذلك فقد وجد أخي في نفسه من الصفاقة ما جعله يقول لنا حين رآنا هابطين السلم: «ماذا! أفرغتم بهذه السرعة؟»، لقد جرت العادة بأن يسمح لنا باللعب في عشية الأحد ما دمنا لا نحدث ضجيجًا كثيرًا، أما الآن فضحكة مكتومة تكفي للقذف بنا إلى أركان الحجرة!

«يقول لنا هذا الطاغوت: إنكم تنسون أن لكم هنا سيدًا. إنني سأمحق أول من يثير غضبي محقًا! وأنا لا أرضى بغير الرزانة والصمت التامين بديلًا، يا غلام! أأنت الذي بدر منك هذا؟ شدي شعره يا عزيزتي فرنسيس وأنتِ مارة به. لقد سمعته يطق إصبعه»، وشدت فرنسيس شعره شدًّا عنيفًا ثم عادت وجلست على ركبة زوجها، وظلا جالسين على هذه الحال يتبادلان القبلات وتافه الحديث الساعة تلو الساعة كأنهما طفلان - ثرثرة فارغة لو بدرت منا نحن الصغار لاستحينا منها. وحاولنا أن نهيئ لنا مكانًا مريحًا في قبو الخزانة على قدر ما سمحت به ظروفنا، وما إن ربطت ميدعتينا معًا وعلقتهما ستارًا حتى أقبل جوزيف من الإسطبل لشأن من شؤونه، فانتزع من يدي شغلي، وصفعني على خدي، ونعق بصوته المشؤوم: «إننا لم نكد نفرغ من مواراة السيد التراب، ويوم الرب لم ينته بعد، وكلمات الإنجيل ما زالت ترن في آذانكما، ومع ذلك تجرؤان على هذا العبث؟ يا للخزي! اجلسا أيها الشريران، فها هنا عدد كاف من الكتب المفيدة لو أنكما اهتممتما بقراءتها.. اجلسا وفكرا في شأن روحيكما!

«ولما قال هذا أكرهنا على تغيير جلستنا بحيث يصلنا من المدفأة البعيدة شعاع ضئيل نقرأ على ضوئه الكتابين العتيقين اللذين فرضهما علينا. ولم أستطع أن أطيق إكراهي على هذا العمل، فأمسكت بكتابي الرث من كعبه وقذفت به إلى وجار الكلب وأنا أعلن جهارًا أنني أكره الكتب المفيدة. وركل هيثكليف كتابه إلى المكان نفسه، وتلا ذلك ضجيج وهرج!

«وصاح قسيس الأسرة: «سيدي هندلي! سيدي، تعال هنا! إن الآنسة كاثي خلعت غلاف كتاب «خوذة الخلاص»، وهيثكليف ثارت ثورته على الجزء الأول من كتاب «الطريق الواسع إلى الهلاك»، من المؤلم أن تدعهما يسلكان هذا المسلك! لو أن أباك الشيخ كان على قيد الحياة لساطهما جزاءً وفاقًا على ما يقترفان، ولكنه مات!

«وأقبل هندي مهرولًا من فردوسه الذي كان يرتع فيه إلى جوار المدفأة، وأمسك الواحد من بنيقته والآخر من ذراعه، ثم قذف بنا كلينا إلى المطبخ الخلفي، حيث أعلن لنا جوزيف في حزم أن «الشيطان سيخطفنا كلينا ما في ذلك ريب»، واعتصم كل منا بعد سماعه هذا النبأ المعزى بركن ينتظر قدوم الشيطان. وتناولت هذا الكتاب ومحبرة من

الرف، ثم فتحت الباب على مصراعيه طلبًا للضوء، وأمضيت الوقت في الكتابة مدى عشرين دقيقة، ولكن رفيقي لا يطيق البقاء، وهو يقترح أن نلتحف بعباءة اللبانة ونمرح في البراري متقين بها المطر، إنه اقتراح مبهج، ولعل الشيخ الفظ إذا عاد فلم يجدنا ظن أن نبوءته قد تحققت، إن خروجنا في المطر لن يزيدنا إحساسًا بالرطوبة والبرد».

ويخيل لي أن كاثرين نفذت خطتها؛ لأن عبارتها التالية تناولت موضوعًا آخر، وكانت لهجتها باكية محزونة:

كتبت تقول: «ما كان يدور بخلدي قط أن هندلي سيدفعني يومًا إلى مثل هذا البكاء! يكاد الصداع أن يحطم رأسي فلا أقوى على إراحته على الوسادة. ومع ذلك فأنا لا أستطيع التسليم، ويا لهيثكليف المسكين! إن هندلي يدعوه صعلوكًا متشردًا، ولا يسمح له بمجالستنا ولا مؤاكلتنا بعد اليوم، وينهاني عن اللعب معه، ويهدد بطرده من البيت إذا عصينا أمره. إنه يلوم أبانا -وتالله كيف يجرؤ على لومه؟- لأنه غلا في التسامح معه كما يزعم، ويقسم لينزلنه إلى ما هو جدير به من حضيض».

بدأت أغفي فوق الصفحة المعتمة، وكانت عيني تنتقل بين الكتابة والحروف المطبوعة، ورأيت عنوانًا مكتوبًا بالمداد الأحمر «سبعون مرة سبع مرات، وأولى المرات الإحدى والسبعين. عظة صالحة ألقاها القس جابز برندرهام في كنيسة جمردن سو» وبينما كنت أسائل نفسي في حيرة، وأنا لا أكاد أعي، ما عسى أن يقول القس جابز برندرهام في موضوعه هذا، استلقيت في فراشي واستغرقت في النوم، ألا ما أسوأ الشاي الرديء وأضر الطبع الحاد! وإلا فما الذي جعل ليلتي مروعة إلى هذا الحد؟ إنني لا أذكر لها ضريبًا بين الليالي التي قضيتها منذ بدأ وعيي بالألم.

وبدأت الأحلام تتراءى لي حتى قبل أن أستغرق في النوم، فلا أحس بموضعي الذي أرقد فيه، وخُيِّل إليَّ أن الصبح قد لاح، وأنني قفلت راجعًا إلى بيتي يصحبني جوزيف، وكانت الثلوج تغطي طريقنا. وبينما كنا نتعثر في الطريق، أخذ رفيقي يرهقني بلوم لا يكف عنه لأنني أغفلت أن أحضر معي عكاز الحجاج، ويقول إنني لن أستطيع البتة دخول بيتي ما لم يكن معي هذا العكاز، ويلوح مفاخرًا بعصا غليظة فهمت أنها هي العكاز المقصود. وخُيِّل إليَّ لحظة أن من السخف ألا يسمح لي بدخول بيتي ما لم أحمل هذا السلاح، وإذا خاطر جديد يبرق لي فجأة، ذلك أنني لم أكن أسير إلى البيت، وإنما كنت ورفيقي ماضيين لنستمع إلى القس الشهير جابز برندرهام يعظ عن هذه الآية «سبعين مرة سبع مرات»، ويظهر أن أحدنا -أنا أو جوزيف أو الواعظ- قد ارتكب الخطيئة الأولى من الإحدى والسبعين، وقد تقرر التشهير بنا علنًا، وقطعنا من الكنيسة.

وبلغنا الكنيسة، ولقد كنت مررت بها في الواقع مرتين أو ثلاثًا أثناء تجوالي، وموقعها في فجوة بين رابيتين، وهي فجوة عالية قريبة من مستنقع يقال إن رطوبة تربته الفحمية تحقق كل ما يتطلبه تحنيط الجثث القليلة المدفونة هناك من شروط. وكان سقف الكنيسة لا يزال سليمًا لم يتهدم، ولكن لما كان ما يجري على القس من راتب لا يتجاوز العشرين جنيهًا في السنة، بالإضافة إلى بيت مؤلف من غرفتين يوشكان أن يتناقصا إلى غرفة واحدة، فإن أحدًا من رجال الدين لا يرضى بأن يكون راعيًا للكنيسة، خصوصًا لما تردده ألسنة القوم من أن أفراد الشعب في هذه الكنيسة لن يدفعوا من جيوبهم للراعي بنسًا واحدًا ليزيدوا به راتبه وإن هلك جوعًا. على أنني رأيت في حلمي أن جماعة المصلين كانوا يملأون الكنيسة وينصتون لجابز هذا، وكان يعظ، ويا لها من عظة! لقد قسمتها إلى أربعمائة وتسعين قسمًا، كل قسم منها يعادل عظة كاملة من العظات التي نسمعها عادة من ذرى المنابر، وكان كل قسم يتناول خطيئة بعينها! وليت شعري أين عثر

على هذه الخطايا كلها! وكانت له طريقته الخاصة في تفسير الآية، ويبدو أنه كان لزامًا أن يخطئ الأخ خطايا مختلفة في كل مرة، وكانت من أعجب الأنواع، ذنوبًا شتى لم تدُر بخلدي قط من قبل.

وشد ما ضقت بالاستماع! وكم من مرة تلويت وتثاءبت وغفوت ثم صحوت! وكم قرصت جلدي ووخزته، وفركت عيني وقمت ثم قعدت، وغمزت جوزيف ليخبرني ألم يوشك الواعظ أن يفرغ من عظته؟ لقد حكم عليَّ بالاستماع إليها كلها. وأخيرًا وصل إلى «الخطيئة الأولى بين الواحدة والسبعين»، ولما بلغ هذه النقطة الفاصلة هبط عليَّ فجأة خاطر دفعني إلى الوقوف واتهام جابز برندرهام بأنه مرتكب الخطيئة التي يجب ألا يغتفرها له مسيحي.

وصحت به: «سيدي، إنني بعد أن جلست بين هذه الجدران الأربعة جلسة واحدة، قد احتملت الاستماع إلى هذه الأقسام الأربعمائة والتسعين وغفرت لك، لقد تناولت قبعتي سبعين مرة سبع مرات وتأهبت للخروج، ولكنك أرغمتني على البقاء بسخافتك سبعين مرة سبع مرات، أما أن تبدأ الكلام عن الخطيئة الأولى بعد الأربعمائة والتسعين، فهذا كثير جدًّا! أيها الإخوان الشهداء، احملوا عليه! جروه من منبره واسحقوه سحقًا حتى تقضوا عليه فنريح منه هذا المكان!».

وتوقف جابز لحظة رهيبة، ثم صاح وهو يميل من فوق وسادته: «أنت هو الرجل(4) . سبعين مرة سبع مرات قطبت سحنتك، سبعين مرة سبع مرات أقول لنفسي: هذا ضعف الطبيعة البشرية، فاغتفر له هذه الخطيئة أيضًا! وها أنت ترتكب خطيئتك الأولى بعد السبعين. أيها الإخوة، وقعوا عليه الحكم المكتوب، هذا شرف سيناله جميع القديسين الذين يشتركون فيه!».

وما إن فرغ من كلماته حتى هب المصلون، ورفعوا عكاكيزهم وحملوا عليَّ حملة رجل واحد، ولما كنت عاطلًا من سلاح أدفع به الأذى عن نفسي، فقد بدأت أجاذب جوزيف عكازه، وكان أقرب مهاجمي وأشدهم ضراوة. وتقارعت العصي في وطيس المعركة، وتساقطت الضربات المصوبة إليَّ على رؤوس غيري. وسرعان ما دوى في الكنيسة اصطكاك العصي وارتفعت يد كل رجل على صاحبه، ولما كان برندرهام يكره البقاء ساكنًا، فقد أفرغ حماسته في وابل من الضربات الصاخبة على ألواح المنبر، ضربات بلغ من عنفها أنها أيقظتني من نومي في النهاية، فتنفست الصعداء وشعرت براحة لا تُوصف.

ترى ما الذي أوحى بهذه الضجة العنيفة؟ وما الذي قام بدور جابز في المعركة؟ لم يكن سوى غصن شجرة شربين مسّ نافذتي إذ دفعته الريح الصاخبة فأخذ يضرب ثماره الجافة على زجاج النافذة. وأصخت السمع لحظة بين مصدق ومكذب، واكتشفت مصدر الضجيج، ثم تقلبت في فراشي وغفوت فانتابتني الأحلام ثانية، وكانت شرًّا من سابقتها، إن كان ممكنًا أن يكون هناك ما هو شر منها.

وفي هذه المرة تذكرت أنني راقد في مخدعي المصنوع من الزان، وسمعت في جلاء هبوب الريح وهطول الثلج، كذلك سمعت غصن الشربين يعاود صوته المزعج ورددته إلى مصدره الصحيح، ولكنه ضايقني كثيرًا حتى صممت على إسكاته ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وخُيِّل إليَّ أنني قمت من مكاني وحاولت أن أفتح النافذة، ولكن الخطاف كان ملحومًا في الرزة -وكنت لاحظت هذا في يقظتي ولكني نسيته، فتمتمت قائلًا: «ومع ذلك لا بد من إسكاته»، ودفعت قبضتي خلال زجاج النافذة فحطمته، ومددت ذراعي لأقبض على هذا الغصن اللحوح، وإذا أصابعي لا تطبق على الغصن، بل على أصابع يد صغيرة

باردة كالثلج! وأصابني رعب كابوس فظيع، وحاولت أن أسحب ذراعي،ولكن اليد تشبثت بها، وسمعت صوتًا حزينًا ينتحب ويقول: «أدخلني، أدخلني!»، فقلت وأنا أكافح لتخليص يدي: «من أنت؟»، فأجاب الصوت مرتجفًا: «كاثرين لنتن» (لماذا فكرت في لنتن؟ لقد قرأت «إيرنشو» عشرين مرة مقابل مرة واحدة من لنتن)، «هأنذا قد عدت إلى البيت، وكنت قد ضللت طريقي في البراري». وبينما كان الصوت يتكلم استطعت أن أتبين في غير وضوح وجه طفلة يطل من النافذة، وصيرني الرعب إنسانًا قاسيًا، فلما وجدتني قد أخفقت في التخلص من قبضة هذا المخلوق، جذبت معصمها فوق الزجاج المكسور، وحككتها عليه حتى سال دمها فأغرق غطاء الفراش، ولكنها لم تكف عن التوسل قائلة: «أدخلني!»، ولم ترخ قبضتها العنيدة على يدي، حتى لقد كاد الرعب يذهب بعقلي. وقلت في النهاية: «كيف أستطيع أن أدخلك؟ أفلتيني أولًا إن أردت أن أدخلك!»، وتراخت الأصابع، فرددت أصابعي سريعًا من خلال الثغرة وكدست الكتب في عجل على شكل هرم لأسد الثغرة، ثم صممت أذني مخافة أن أسمع توسلاتها الأليمة، وخيل إليَّ أنني ظللت أصمهما أكثر من ربع ساعة، لكني ما إن أصخت السمع حتى عاد إلى أذني من جديد هذا الصوت الحزين يواصل توسلاته، فصحت: «انصرفي! لن أدخلك وإن ظللت عشرين سنة تتوسلين»، فأجاب الصوت في لهجة باكية: «أجل، لقد ظللت عشرين سنة، ظللت طريدة عشرين سنة!»، ثم سمعت حكًّا خفيفًا من الخارج، وتحرك كوم الكتب كأنه يدفع إلى الأمام. وحاولت أن أقفز من فراشي ولكني لم أستطع حراكًا، فصرخت صرخة منكرة وأنا أكاد أجن رعبًا. ولشد ما كان اضطرابي حين اكتشفت أن صرختي لم تكن صرخة مشرفة، فقد سمعت خطى سريعة تدنو من باب الحجرة، ودفع الباب بيد قوية، ولاح نور من خلال المربعات التي في سقف فراشي، وجلست وأنا لا أزال مرتعد الفرائص أنضو العرق عن جبيني. وبدا لي أن الداخل كان مترددًا، وأخذ يحدث نفسه بصوت خافت، وأخيرًا تساءل في شبه همس، وكان الواضح أنه لا ينتظر ردًّا: «هل هنا أحد؟»، ورأيت من الحكمة أن أعترف بوجودي، لأنني تبينت لهجة هيثكليف، وخشيت أن يواصل البحث إن لزمت الصمت، فلما صح عزمي على إعلان وجودي قمت وفتحت مصراعي المخدع، وأحسب أنني لن أنسى سريعًا ذلك الأثر الذي أحدثه عملي هذا.

ذلك أن هيثكليف كان واقفًا إلى جوار الباب في قميصه وسراويله وهو يمسك بشمعة يتساقط ذوبها على أصابعه، وقد امتقع وجهه فاستحال إلى لون الحائط الذي من خلفه، وأجفله صرير خشب الفراش كأن صدمة كهربائية قد صعقته، وقفزت الشمعة من يده أقدامًا، وبلغ به الاضطراب مبلغًا كاد يعجزه عن التقاطها.

وصحت به لأوفر عليه هوان الإفصاح عن جبنه فوق ما أفصح: «ليس هذا إلا ضيفك يا سيدي، من سوء حظي أنني أزعجتك».

وبدأ مضيفي يتكلم وهو يضع الشمعة على كرسي لأنه رأى نفسه عاجزًا عن القبض عليها بيد ثابتة: «ألا قاتلك الله يا مستر لوكوود! ليتك كنت في الـــ...»، ثم واصل حديثه وهو يدعك أظافره في راحتيه ويحرق أسنانه ليخفي تقلصات فكه: «ومن ذا الذي قادك إلى هذه الحجرة؟ قل لي من؟ فإن في نيتي أن أطردهم من البيت فورًا».

قلت وأنا أقفز إلى أرض الحجرة وأرتدي ملابسي على عجل: «إنها خادمتك زله، لست أبالي أن تطردها يا مستر هيثكليف، فهي جديرة بهذا أي جدارة، ولعلها أرادت دليلًا آخر، على حسابي، لتتثبت من أن هذا المكان تسكنه الأرواح. أجل، فإن كان هذا ما أرادت، فإني أقول لك إنه يعج بالأشباح والعفاريت! ولا شك أنك محق في غلقه، فلن يحمد لك إنسان نومه في هذا الوكر!».

قال هيثكليف: «ماذا تعني؟ وما الذي تزمعه الآن؟ عد إلى فراشك وأكمل ليلتك ما دمت هنا فعلًا. ولكن بربك لا تعد إلى هذه الصيحة المنكرة، فهي لا تغتفر لك إلا إذا كان أحدهم يحاول ذبحك!».

قلت: «لو أن الجنية الصغيرة دخلت من النافذة لخنقتني على الأرجح، إنني لن أطيق مرة أخرى اضطهاد أسلافك الكرام. ألم يكن القس جابز برندرهام قريبك من ناحية الأم؟ وهذه الفاجرة كاثرين لنتن أو إيرنشو أو ما شئت من أسماء، لا بد أنها كانت صبية من الجن -روحًا صغيرة شريرة! لقد أخبرتني أنها كانت تضرب في الأرض هذه الأعوام العشرين، ولست أشك في أن هذا العقاب جزاء وفاق على خطاياها المميتة».

وما إن فهت بهذه الكلمات حتى تذكرت ما قرأت في الكتاب عن ارتباط اسم هيثكليف باسم كاثرين، وكنت قد نسيت ذلك تمامًا حتى ذكرته عندئذ، واحمرّ وجهي خجلًا لقلة تبصري، ولكني بادرت بمتابعة الحديث وأنا لا أبدي دليلًا على شعوري بأنني أسأت إليه، فقلت: «الحق يا سيدي إنني أنفقت الهزيع الأول من الليل في...»، ثم توقفت من جديد، وكدت أقول: «قراءة هذه الكتب العتيقة»، ولكن ذلك كان يكشف عن علمي بما حوت ما بين مطبوع ومكتوب، فقلت مصححًا خطئي: «في هجاء الاسم المكتوب بخط رديء على قاعدة هذه النافذة- وهو عمل رتيب قصدت به اجتلاب النوم إلى جفني، كالعد، أو...»، وأرعد هيثكليف وقال في عنف وشراسة: «ماذا تعني بحديثك إليَّ أنا بهذه الطريقة؟ كيف تجرؤ على هذا وأنت تحت سقفي؟ رباه، لقد جن جنونه، وإلا لما تكلم هكذا!»، ثم قرع جبينه غضبًا.

وحرت أي الأمرين أفعل، أأظهر سخطي على هذه اللهجة، أم أواصل بيان موقفي؟ ولكنه كان يبدو منفعلًا أشد الانفعال حتى لقد أشفقت عليه، وواصلت الحديث عن أحلامي وأنا أؤكد له أنني لم أسمع من قبل باسم كاثرين لنتن، ولكن تكرار قراءتي للاسم طبع في ذهني أثرًا تجسم في منامي حين لم أعد مسيطرًا على خيالي. وفيما كنت أتكلم كان هيثكليف يدنو من الفراش شيئًا فشيئًا حتى اعتصم بظله، ثم جلس والفراش يكاد يحجبه. على أنني قدرت من أنفاسه المضطربة المتقطعة أنه كان يغالب انفعالًا عنيفًا قد استبد به، ولما كنت أكره أن أظهر له أنني سمعت هذا الصراع بينه وبين نفسه، فقد تابعت ارتداء ملابسي وإصلاح هندامي في شيء من الضجيج، ثم نظرت في ساعتي، وأخذت أحدث نفسي عن طول الليلة قائلًا: «إنها لم تبلغ الثالثة بعد! كدت أقسم أنها السادسة، إن الوقت يسير وئيدًا هنا، لا بد أننا أوينا إلى مضاجعنا في الثامنة!».

قال مضيفي: «ألفنا في الشتاء أن ننام في التاسعة، ونستيقظ في الرابعة»، وكان يحاول كتم أنة، وينفض دمعة من عينه كما خيل إليَّ من حركة ظل ذراعه، ثم قال: «يا مستر لوكوود، في وسعك أن تمضي إلى حجرتي، إنك بهبوطك إلى أسفل الدار في مثل هذه الساعة المبكرة ستربكهم، وقد أطار النوم من جفني صراخك المروع».

أجبت: «ومن جفني أيضًا. سأجول في فناء الدار حتى يبزغ الصبح ثم أنصرف، ولا حاجة بك للخوف من أنني سأعاود زيارتي لك، لقد شفيت الآن تمامًا من التماس اللذة في عشرة الناس سواء كانوا في المدينة أو في الريف. إن العاقل من وجد أنسًا كافيًا في عشرته لنفسه».

وتمتم هيثكليف قائلًا: «يا لها من عشرة ممتعة! إليك الشمعة وامض إلى حيث شئت، وسألحق بك سريعًا، ولكن تجنب الفناء لأن الكلاب طليقة، وتجنب غرفة الجلوس لأن الكلبة جونو تقوم بالحراسة هناك، تستطيع أن تجول حول الدرج والمماشي، ولكن

امض الآن! سألحق بك بعد دقيقتين!».

وصدعت بالأمر، ولكني لم أنفذ منه سوى الخروج من الحجرة، ذلك أنني كنت لا أعلم إلى أين تؤدي بي هذه المماشي الضيقة، فوقفت ساكنًا، وشهدت على غير قصد مسلكًا سلكه صاحب الدار، فدلني على أنه رجل يؤمن بالخرافة، وهو أمر يناقض مناقضة عجيبة ما يبدو عليه من فهم وتعقل، ذلك أنه دخل إلى المخدع ثم فتح زجاج النافذة في عنف وقد انتابته نوبة طاغية من البكاء وهو يقول: «ادخلي! ادخلي! بربك هلا دخلت يا كاثي! ادخلي مرة أخرى! يا حبيبة الفؤاد! استمعي إليَّ أخيرًا هذه المرة يا كاثرين!»، أما شبح كاثرين فقد سلك كما تسلك الأشباح جميعًا، فلم تبد منه بادرة تدل على وجوده، ولكن الثلوج والريح هبت في عنف واخترقت النافذة حتى بلغت مكاني وأطفأت الشمعة.

وكان في نوبة الحزن العارم الذي رافق هذا الهذيان من الألم القتال ما جعلني أرثي لصاحبي وأغضي عما فيه من حماقة. وابتعدت وأنا أشعر بشيء من الغضب على نفسي لأنني استمعت إلى هذا الحديث، وقد غاظني من نفسي أنني قصصت حلمي السخيف على الرجل فسببت له هذا الألم الحاد، وإن عجزت عن إدراك علته، وهبطت إلى أسفل الدار في حذر، وبلغت المطبخ الخلفي، حيث استطعت بفضل الضوء المنبعث من نار حركت جمراتها وضمت بعضها إلى بعض أن اشعل شمعتي من جديد. ولم تكن هناك حركة ولا نأمة، إلا من قطة شهباء زحفت من الرماد وحيتني بمواء يخالطه التذمر.

وكان هناك مقعدان على شكل قطاعي دائرة كادا يحيطان بالمدفأة، فتمددت على أحدهما، وركبت القطة «جر يملكن» الآخر. وكان كلانا يغفو قبل أن يقتحم علينا أحد هذه الخلوة، ثم أقبل جوزيف هابطًا على سلم خشبي يتوارى في السقف خلال فتحة خفية، كان مرقاه إلى غرفته على السطح، فألقى بنظرة شريرة إلى النار الضعيفة التي كنت حركتها، وأزاح القطة عن مقعدها واحتل مكانها، ثم بدأ يحشو التبغ في قصبة طولها ثلاث بوصات، وكان من الواضح أنه يعد وجودي في محرابه وقاحة تجل عن التعليق، فوضع القصبة بين شفتيه في صمت، وأطبق ذراعيه ثم أخذ ينفث الدخان. وتركته ينعم بهذا الترف دون أن أكدر عليه صفوه، وشد جوزيف آخر أنفاسه، ثم نفث نفثة عميقة، وخرج من المطبخ في وقار كما دخله.

وسمعت بعد ذلك وقع خطوات أخف تدخل المطبخ، وفتحت فمي لأقرئ الداخل تحية الصباح، ولكني ما لبثت أن سددته وقد ماتت التحية على شفتي، ذلك أن هيرتن إيرنشو كان يتلو في صوت خافت صلاة تمثلت في سلسلة من الشتائم واللعنات يصبها على كل شيء يمسه وهو ينبش في ركن من أركان المطبخ باحثًا عن مجرفة أو لوح يزيل به الثلوج المتراكمة، وألقى بنظرة عجلى من فوق ظهر المقعد وهو ينفخ منخريه، ولم يفكر في مبادلتي التحية أكثر مما فكر في تحية رفيقتي القطة، وقد حملني ما كان يتخذ من أهبة على الظن بأن الخروج مباح، فتركت فراشي الخشن وتحركت لأتبعه، ولما لاحظ مني هذا، دفع بابًا داخليًا بطرف مجرفته، وهو يفهمني -بصوت مكتوم- بأن مكاني هناك إن شئت الانتقال من موضعي.

وكان الباب يؤدي إلى داخل البيت حيث كانت النساء قد بدأن العمل، وكانت زله تثير ألسنة من النيران في المدخنة بمنفاخ ضخم، أما مسز هيثكليف فكانت راكعة إلى جوار المدفأة وهي تقرأ كتابًا على ضوء اللهب، وكانت تضع يدها بين حرارة النار وعينيها، وتبدو غارقة فيما كانت فيه، لا تنصرف عنه إلا ريثما تقرع الخادم على إثارة الشرر عليها، أو تدفع في الفينة بعد الفينة كلبًا يدس أنفه في وجهها في قحة.

وأدهشني أن أرى هيثكليف هناك كذلك، وكان واقفًا إلى جوار النار وظهره إليَّ، وقد فرغ لتوه من شجار صاخب مع زله المسكينة التي ما فتئت تقطع عملها لتشد طرف ميدعتها وتئن أنين الحانق الساخط.

ثم انفجر يقول لزوج ابنه حين دخلت الحجرة، وهو ينعتها نعوتًا بريئة، غير أن الكتاب درجوا على أن يضربوا عن كتابتها صفحًا: «وأنتِ، أنتِ أيتها الـ... الوضيعة، ما زلتِ تواصلين عبثكِ وألاعيبكِ الفارغة! إن غيرك هنا يكسبون قوتهم بعرق جبينهم، أما أنتِ فتعيشين كَلًّا عليَّ! ألقي هذا السخف عنكِ، والتمسي لكِ عملًا تؤدينه، لا بد لكِ أن تدفعي ثمن نكبتي بكِ وأنا أراكِ أمام ناظري على الدوام. أتسمعينني أيتها المتمردة اللعينة؟».

فأجابت الشابة وهي تطوي كتابها وتقذف به إلى كرسي: «سألقي هذا السخف بعيدًا لأنك تستطيع أن ترغمني على إلقائه إن أبيت. ولكنني لن أشتغل بعمل لا أرضاه وإن أفرغت عليَّ كل ما في جعبتك من لعنات!».

ورفع هيثكليف يده، وابتعدت المرأة لتتقي ضربته، فقد كان واضحًا أنها خبيرة بوطأتها. ولما كنت أكره أن ألتمس التسلية في مشاهدة هذا العراك، فقد خطوت سريعًا إلى الأمام متجهًا إلى المدفأة كأني أروم الاصطلاء بالنار، وكأن لا علم لي بالعراك الذي قطعت. وكان عند الفريقين من اللباقة ما حملهما على الكف فورًا عن الشجار، ووضع هيثكليف يديه في جيبيه لئلا تحدثه نفسه بضربها. أما مسز هيثكليف فقد لوت شفتها ومشت صوب مقعد بعيد حيث نفَّذت وعدها وظلت طوال مكثي صامتة كأنها تمثال. ولم أمكث طويلًا، فقد رفضت تناول الإفطار معهم، وما إن بزغ الفجر حتى تحينت الفرصة وهربت إلى الهواء الطلق، وكان قد أصبح صافيًا ساكنًا باردًا كالثلج الرقيق.

ولكن صاحب الدار ناداني قبل أن أبلغ نهاية الحديقة ليطلب إليَّ أن أقف، وعرض عليَّ أن يرافقني في عبور البراري، ونعم ما فعل، فقد كان ظهر الرابية كأنه بحر واحد أبيض عجاج لا تنبئ مرتفعاته ومنخفضاته بما يخفي من تضاريس، وامتلأت على أي حال حفر كثيرة بالثلوج فسوتها بالأرض، ولم أجد أثرًا لروابي بأسرها كومت فيها نفاية المحاجر، وكانت قد خلفتها في ذهني رحلة الأمس، وكنت قد لاحظت صفًّا من الأحجار العمودية منصوبة على جانب الطريق على مسافات تتراوح بين ست ياردات وسبع، ممتدة على طول الطريق المرتفع، وكانت قد نصبت وبيضت بالجير لترشد المارة في الظلام، وحين تختلط معالم الطريق بالمستنقعات العميقة بعد هطول أمطار غزيرة كالتي هطلت، ولكني لم أرَ أثرًا لهذه الشواخص، اللهم إلا نقطًا قذرة منبثة هنا وهناك، واضطر رفيقي إلى تنبيهي مرارًا للسير يمنة أو يسرة حين خيل إليَّ أنني كنت أتبع انحناءات الطريق دون أن أخطئ.

ولم نتبادل من الحديث إلا أقله، ثم وقف عند مدخل ثرشكرس بارك وهو يقول إنني لن أضل الطريق هناك. واقتصرت تحية الوداع التي تبادلناها على انحناءة سريعة، ثم واصلت السير إلى الأمام معتمدًا على نفسي؛ لأن مكان البواب لم يكد قد سكنه أحد بعد. وتبلغ المسافة بين الباب والبيت ميلين، ولكني أعتقد أنني أطلتها إلى أربعة أميال وأنا أضل بين الشجر تارة، وأغوص إلى عنقي في الثلج تارة أخرى -وهي محنة لا ينبئك بها مثل خبير. على أي حال كانت الساعة بعد هذا التجوال كله تدق الثانية عشرة حين دخلت بيتي، ومعنى ذلك أنني قضيت ساعة في كل ميل قطعته من الطريق العادية من وذرنج هيتس إلى بيتي.

واندفعت مدبرة بيتي التي تلزمه ليل نهار وأتباعها لاستقبالي مرحبين وهم يقولون

في ضجيجهم إنهم كانوا قد يئسوا من عودتي؛ فقد ظنوا أنني هلكت في الليل، وكانوا يتساءلون عن السبيل إلى البحث عن جثتي. وطلبت إليهم أن يهدأوا ما داموا قدر رأوني عدت، ثم أخذت أجر رجلي جرًّا إلى الطابق العلوي وقد هرأني القر. وهناك استبدلت بملابسي ملابس أخرى جافة وأخذت أذرع الحجرة ذهابًا وجيئة ثلاثين دقيقة أو أربعين لأعيد الدفء إلى دمي، ثم خلوت إلى مكتبي هزيلًا كأنني قطيطة مسكينة، بل إن هزالي يمنعني من الاستمتاع بما أعدته الخادم من نار ممتعة وقهوة ساخنة لترد عليَّ نشاطي.

* * *

الفصل الرابع

ما أشد غرور الإنسان وأكثر تقلبه! فأنا الذي كنت قد عقدت النية على اعتزال المجتمعات كلها، وحمدت حظي لأنني عثرت في النهاية على بقعة يكاد يستحيل فيها الاختلاط بالناس، أنا الشقي الضعيف الذي ظللت أقاوم شعور الوحدة والضيق طوال اليوم حتى الغسق، اضطررت آخر الأمر إلى إلقاء السلاح والتسليم بالهزيمة، فطلبت إلى مسز دين حين قدمت إليَّ أن تجلس إليَّ ريثما أفرغ منه، مدعيًا الرغبة في سؤالها عما يلزم المنزل من حاجيات، ولكني كنت أتمنى مخلصًا أن أجد فيها امرأة ثرثارة لا تكف عن الحديث، فإما أن تثيرني بجديتها، أو تبعث به النوم إلى جفني.

قلت مستهلًّا حديثي: «لقد عشت هنا وقتًا طويلًا، ألم تقولي إنك عشت ستة عشر عامًا».

«ثمانية عشر يا سيدي، لقد جئت حين تزوجت ربة البيت لأكون خادمًا، وقد احتفظ بي السيد مدبرة للبيت بعد وفاتها».

- أجل.

ثم تلا ذلك سكون، وخشيت ألا تكون الثرثرة في طبعها -إلا فيما يتصل بشؤونها الخاصة، وهي لا تعنيني في قليل أو كثير. على أنها قالت بعد أن جلست تفكر لحظة، وهي تسند يديها على ركبتيها وقد علت وجهها المتورد سحابة من التأمل: «إيه، كم تغيرت الدنيا بعد ذلك العهد!».

قلت: «أجل، أحسبك شهدت تغيرات كثيرة؟».

قالت: «نعم، تغيرات ومتاعب أيضًا».

قلت لنفسي: «آه، سأدير دفة الحديث إلى أسرة المالك! وهو موضوع يطيب الخوض فيه! وهذه الأرملة الصغيرة الحسناء، أود أن أعرف تاريخها -أهي من أهل هذه النواحي أم هي غريبة يأبى الأهالي الغلاظ أن يعترفوا بها قريبة لهم»، وما إن عقدت نيتي على ذلك حتى سألت مسز دين لِمَ كان هيثكليف يؤجر ضيعة ثرشكرس ويؤثر سكنى بيت لا يدانيه موقعًا وفخامة. وقلت لها: «أليس له من الثراء ما يعينه على العناية بهذه الضيعة؟»، أجابت: «الثراء يا سيدي! إن له ثروة طائلة لا يعرف أحد مداها، وهي تزداد كل عام، أجل، أجل، إن له من الثروة ما يسمح له بسكنى بيت أفخم من هذا، ولكنه بخيل، وحتى لو أراد الانتقال إلى ضيعة ثرشكرس فإنه ما إن يسمع بوجود مستأجر حسن حتى لا يطيق أن يفوت على نفسه فرصة الحصول على بضع مئات أخرى من الجنيهات. عجيب هذا الجشع في قوم يعيشون في هذه الدنيا بمفردهم لا يعولون أحدًا».

- يبدو أنه كان له ولد؟

- أجل، ولكنه مات.

- وهذه الشابة مسز هيثكليف أرملة ابنه؟

- نعم.

- وأين كان منبتها قبل قدومها إلى هنا؟

- أجل، إنها ابنة سيدي الأسبق، كان اسمها قبل أن تتزوج كاثرين لنتن، لقد كنت مربية لهذه المسكينة! ولقد تمنيت من صميم قلبي أن ينتقل مستر هيثكليف إلى هذا البيت حتى يلتئم شملنا ثانية.

قلت في دهشة: «ماذا؟ كاثرين لنتن!»، ولكني بعد أن فكرت مليًّا اقتنعت أنها ليست هي الشبح الذي رأيت في حلمي، فقلت مواصلًا حديثي: «إذن لنتن هو اسم سلفي في هذا البيت؟».

- نعم.

- ومن إيرنشو هذا -هيرتن إيرنشو- الذي يسكن مع مستر هيثكليف؟ أهما قريبان؟

- كلا، إنه ابن أخي المرحومة مسز لنتن.

- إذن فهو ابن خال الشابة؟

- نعم، كذلك كان زوجها ابن عمها، لقد تزوج هيثكليف أخت مستر لنتن.

- لاحظت أن البيت في وذرنج هيتس قد نقش على باب واجهته اسم «إيرنشو»، فهل هذه الأسرة عريقة؟

- جد عريقة يا سيدي، وهيرتن آخر سليل لها، كما أن الآنسة كاثي آخر فتيات أسرتنا -أعني أسرة لنتن. هل رأيت وذرنج هيتس؟ معذرة لهذا السؤال، ولكني أود أن أعلم كيف حالها.

- مسز هيثكليف؟ إنها كانت تبدو رائعة الجمال مكتملة العافية، ولكنها في ظني ليست سعيدة جدًّا.

- لا عجب، وما رأيك في رب البيت؟

- إنه رجل تغلب عليه الخشونة يا مسز دين. أليس هذا طبعه؟

- إنه خشن كحد المنشار، صلب كالصخر، وكلما قللت من الاختلاط به كان ذلك خيرًا.

- لا بد أن حياته كان فيها من الأحداث والغير ما جعله فظًّا إلى هذا الحد، أتعلمين شيئًا عن تاريخه؟

- إنه تاريخ طفيلي دخيل، وأنا أعلم كل شيء عن تاريخه، إلا عن مسقط رأسه وأبويه والطريقة التي حصل بها على المال في بداية أمره. لقد لفظ هيرتن كأنه العصفور

يطرد من عشه ولما ينبت ريشه. إن هذا الفتى التعيس هو الوحيد في هذه الناحية الذي لا علم له بما حاق به من خديعة!

- يا مسز دين، تحسنين إليَّ إذا قصصت عليَّ طرفًا من أخبار جيراني، فإني أشعر أنني لن أنام إذا مضيت الساعة إلى فراشي، فتكرمي بالجلوس والحديث إليَّ ساعة.

- سمعًا وطاعة يا سيدي، ولكني سأمضي فقط لأحضر بعض ما أحيك ثم أجلس إليك ما شئت من وقت، ولكنك لا بد قد أصبت ببرد؛ فقد رأيتك ترتعد، ويجب أن تتناول حساء الشوفان ليزول ما بك.

وهرولت المرأة الطيبة خارج الحجرة، ورقدت إلى جوار النار، وكنت أحس يدي حارة ولكن جسمي كله كان مقرورًا، أضف إلى ذلك أنني كنت مضطرب النفس ثائر الأعصاب إلى حد الحمق، ولم أشعر بالضيق، بل شعرت بشيء من الخوف ظل يساورني من نتائج أحداث اليوم وأمس الخطيرة. وعادت المرأة بعد قليل وقد حملت حوضًا يتصاعد منه البخار وسلة الحياكة، ثم وضعت الحوض على رف المدفأة وأدنت كرسيها مني وقد بدا لي منها سرورها لتبسطي معها في الحديث.

وبدأت حديثها دون انتظار لدعوة أخرى مني تدعوها لتروي قصتها. قالت: قبل قدومي إلى هذا البيت كنت أقضي كل وقتي تقريبًا في وذرنج هيتس؛ لأن أمي كانت مربية لمستر هندلي إيرنشو، وهو أبو هيرتن، وكان من عادتي أن ألعب مع الأطفال، وكانوا يرسلونني لقضاء بعض الحاجات، كما كنت أساعد في عمل الدريس، وأظل على مقربة من المزرعة متأهبة للقيام بأي عمل أكلف به. وذات صباح صاف في الصيف -وأذكر أنه كان في بداية موسم الحصاد- نزل إلى أسفل الدار مستر إيرنشو رب البيت السابق، وقد ارتدى ثياب السفر استعدادًا للرحلة، وبعد أن أخبر جوزيف بما ينبغي عمله في النهار، تحول إلى هندلي وكاثي وإليَّ -وكنت جالسة آكل العصيدة معهم- وقال يخاطب ابنه: «إنني ماض إلى ليفربول يا رجلي الحبيب، فماذا تريدني أن أجلب إليك منها؟ اختر ما يحلو لك، ولكن ليكن خفيف الحمل؛ لأنني سأقطع في ذهابي ستين ميلًا، ومثلها في إيابي، وهي مسافة كبيرة!»، وطلب هندلي كمانًا، ثم وجه السؤال إلى الآنسة كاثي، ولم تكن قد أكملت السادسة من عمرها، بيد أنها كانت تستطيع ركوب أي جواد في الإسطبل، فطلبت إليه أن يبتاع لها سوطًا، ولم ينسني الرجل؛ لأنه كان رقيق القلب وإن كان صارمًا أحيانًا، فوعدني بأنه سيملأ جيبي تفاحًا وكمثرى، ثم قبل طفليه، وحيانا مودعًا ومضى.

ولاحت لنا الأيام الثلاثة التي غابها حقبة طويلة، وكثيرًا ما سألتني

الطفلة كاثي عن موعد عودته، وكانت زوجه تتوقع عودته قبيل العشاء في العشية التالية، وأخذت تؤجله ساعة بعد أخرى، ولكن لم تبدُ بادرة تنبئ بوصوله، وأخيرًا تعب الطفلان من الجري إلى الباب ترقبًا لوصوله. ثم هبط الليل، وكان تريدهما أن يأويا إلى الفراش، ولكنهما توسلا إليها في حزن أن تسمح لهما بالبقاء ساهرين. ولما دقت الساعة الحادية عشرة رفعت مزلاج الباب في هدوء وخطا السيد إلى داخل البيت، ثم ارتمى على مقعد وهو يضحك ويئن، وطلب إليهم جميعًا أن يبتعدوا عنه لأنه يكاد يموت إعياء، وقال إنه لن يقوم بمثل هذه الرحلة مرة أخرى وإن وهب الدنيا وما فيها من كنوز.

قال: «وفي النهاية يكون نصيبي اللوم والتأنيب بعد هذا العناء كله». وكان يفتح معطفه الكبير الذي أمسكه بذراعيه ملفوفًا كأنه الحزمة: «انظري يا زوجتي! إنني لم أهزم في حياتي مثل هذه الهزيمة، ولكن عليك أن تتقبليه عطية من الله، وإن يكن شديد السمرة

كأنه خرج من عند الشيطان».

وتجمعنا حوله، واستطعت من فوق رأس مس كاثي أن ألمح طفلًا أسود الشعر خلق الثياب قذرًا، وكان من الكبر بحيث يستطيع المشي والكلام، بل كان وجهه يبدو أكبر سنًّا من وجه كاثرين. ولكنه لما وقف أخذ يحملق حوله ويرطن بألفاظ يرددها ولا يفهمها أحد. وروعني منظره، وودت مسز إيرنشو لو قذفت بالطفل خارج بابها. وثار غضبها على زوجها وسألته كيف يخطر بباله أن يجلب لها هذا الطفل الغجري الحقير، مع أن لديهما طفلين يجب أن يربياهما ويعنيا بهما، ثم سألته ما الذي ينوي أن يصنع به، وهل الرجل مجنون أو عاقل؟ وحاول سيدي إيضاح الأمر، ولكنه في الحق كاد يموت إعياء، وكل ما استطعت أن أتبين من قصته التي قصها وسط توبيخها وتقريعها أنه رأى الطفل في شوارع ليفربول يتضور جوعًا، بلا مأوى، وقد فقد النطق أو كاد، فالتقطه وسأل عن أهله، فلم يعرف أحد له أهلًا. ولما كان ما يحمل من النقود قليلًا، ولما كان وقت الرجل لا يسمح له بالمكث طويلًا، فقد آثر أن يحمله معه إلى البيت من فوره على أن يتكلف في بقائه هناك نفقات لا طائل تحتها، وذلك لأنه وطد العزم على ألا يتركه بالحالة التي وجده عليها. وانتهى الأمر بأن هدأت ثائرة زوجته وهي تدمدم، وأخبرني مستر إيرنشو أن أحمِّي الطفل وألبسه ملابس نظيفة، وأضعه في الفراش مع طفليه.

فأما هندلي وكاثي فقد قنعا بالفرجة والاستماع حتى انتهت المعركة وعاد السلام إلى البيت، ثم بدأ يفتشان جيوب أبيهما عما وعدهما به من هدايا. وكان هندلي صبيًّا في الرابعة عشرة، ولكنه حين أخرج من المعطف الكبير بقايا الكمان المهشم أخذ ينتحب وينشج نشيجًا عاليًا، وأما كاثي فلما علمت أن أباها قد أضاع سوطها في غمرة اهتمامه بهذا الطفل الغريب أبدت استياءها بالتكشير والبصق على الطفل الغبي، وكان جزاؤها لطمة قوية من أبيها ليعلمها الأدب. ورفض كلاهما رفضًا باتًّا أن يسمحا للطفل بالنوم معهما، أو حتى بالبقاء في حجرتهما. ولم أكن بأعقل منهما، فتركته على بسطة السلم، راجية أن ينصرف في الغد إلى حال سبيله، ولكن الطفل زحف حتى بلغ حجرة مستر إيرنشو، ولعل ذلك كان اتفاقًا، أو لعل صوت إيرنشو اجتذبه إلى الحجرة فلقيه إيرنشو على بابها وهو خارج منها، واستفسر عن كيفية وصوله إلى الحجرة، فاضطررت إلى الاعتراف بالحقيقة، فكان الطرد جزائي على ما أبديت من جبن وقسوة.

ذلك كان أول دخول هيثكليف إلى الأسرة، ولما عدت إلى البيت بعد أيام (فأنا لم أعد طردي ذا صفة مستديمة) وجدتهم قد سموه هيثكليف، وكان هذا اسم ابن لإيرنشو مات في طفولته، وقد استعمله هيثكليف منذ ذلك الحين اسمًا ولقبًا. ووجدته وكاثي قد أصبحا صديقين حميمين، أما هندلي فكان يمقته، والحق إنني كنت أيضًا أمقته، وكنا نضطهده ونعامله معاملة مخزية؛ لأنني لم أكن قد بلغت من الرشد ما يجعلني أحس بأنني أظلمه، أما سيدتي فلم تكن تدفع عنه أذانا بكلمة حين تراه مظلومًا.

وكان يبدو طفلًا صبورًا شديد الوجوم، ولعله ألف سوء المعاملة، فلم يعد يعبأ به، وكان في وسعه أن يحتمل لطمات هندلي دون أن يحرك ساكنًا أو تدمع له عين، وكنت إذا قرصته لم يبدر منه أكثر من شهقة ثم يفتح عينيه كأن ما لحق به من أذى قد حدث له اتفاقًا لا بفعل فاعل يؤاخذ عليه. وقد أثار هذا التجلد غضب الشيخ إيرنشو على ولده حين اكتشف أنه يضطهد هذا الطفل اليتيم المسكين كما كان يسميه، فشغف بهيثكليف أيما شغف، وكان يصدق كل ما يقوله له (وإن لم يتكلم إلا قليلًا، ويصدقه القول عادة)، ويدلله أكثر مما يدلل كاثي التي كان فيها من الخبث والعناد ما لا يجعلها أثيرة عند أبيها.

وهكذا بذر بذور الفرقة والخصومة منذ دخل البيت، ولما ماتت مسز إيرنشو بعد

ذلك بأقل من عامين، كان ابنها قد ألف النظر إلى أبيه على أنه طاغية لا صديق، وإلى هيثكليف على أنه مغتصب لحقوقه ولمحبة أبيه، وامتلأت نفسه مرارة لكثرة اجترار هذه المظالم، وكنت أشاطره شعوره فترة من الزمن، ولكني غيرت رأيي حين مرض الأطفال بالحصبة وكان عليَّ أن أعنى بهم فورًا، وأقوم بما تقوم به المرأة من واجبات. فقد كان هيثكليف في خطر، وكان يريدني إلى جواره دائمًا وهو في أشد حالات مرضه، وأحسب أنه شعر بأنني أحسنت إليه كثيرًا، ولم يكن له من الذكاء ما يدرك به أنني فعلت ذلك مكرهة. على أن من الإنصاف أن أقرر أنه كان أهدأ طفل عنيت به كممرضة. وقد أجبرني اختلافه هذا عن الطفلين الآخرين على أن أخفف من تحاملي عليه. وكنت أضيق ببكاء كاثي وأخيها ضيقًا شديدًا، أما هو فكان خاضعًا لا يشكو كأنه حمل، وإن يكن الباعث له على هذا تجلدًا وجمودًا في الطبع لا رقة فيه أو دماثة.

وقيض الله له الشفاء، وأكد الطبيب أن أكبر الفضل في شفائه يعود إليَّ، وأثنى على عنايتي به، وازدهاني ثناؤه، فعطفت على المخلوق الذي كان مجلبة هذا الثناء، وبذلك فقد هندلي آخر حليف له، على أنني لم أستطع أن أتدله حبًّا بهيثكليف، وكثيرًا ما كنت أسائل نفسي: تُرى ما الذي أعجب سيدي في هذا الغلام العبوس الذي لا أذكر أنه رد له هذا التدليل بأي علامة من علامات الشكر وعرفان الجميل. لم يكن هيثكليف وقحًا في مسلكه مع ولي نعمته، ولكنه كان جامد العاطفة نحوه، وإن علم حق العلم ما له من منزلة في قلبه. وكان يشعر بأنه إذا اشتهى شيئًا فما عليه إلا أن يتكلم فتخضع الأسرة كلها لمشيئته. وأذكر على سبيل المثال أن مستر إيرنشو اشترى مرة مهرين من سوق الناحية وأعطى مهرًا لكل من الصبيين، وأخذ هيثكليف أجمل المهرين، ولكن المهر أصيب بالعرج بعد قليل، وعرف ذلك هيثكليف فقال لهندلي:

«عليك أن تبادلني مهرًا بمهر -فأنا لا أحب مهري، فإذا أبيت، أنبأت أباك بخبر «العُلَق» الثلاث التي ضربتني هذا الأسبوع، وأريته ذراعي التي اسود لونها من الضرب حتى كتفي». وأخرج هندي له لسانه وصفعه على خديه قائلًا في عناد: «خير لك أن تعجل بإنبائه»، ثم هرب. ولكن هيثكليف لم يكف عن طلبه، وصاح به وقد هرب منه هندلي إلى السقيفة (إذ كان كلاهما في الإسطبل): «ستعطيني المهر رغم أنفك، ولو أني أنبأت أباك بخبر هذه الصفعات لردها لك مضاعفة»، فصاح به هندلي وهو يهدده بثقل حديدي كان يستعمل لوزن البطاطس والدريس: «اغرب عن وجهي أيها الكلب!»، فأجاب هيثكليف وهو لا يحرك ساكنًا: «اقذف به، وسيكون ردي أن أخبر أباك كيف كنت تفاخر بأنك ستطردني من البيت حالما يموت، ولتر هل يطردك من البيت فورًا أو لا يطردك». وقذفه هندلي بالثقل فأصابه في صدره، فسقط أرضًا، ولكنه وقف لتوه يترنح مبهور الأنفاس ممتقع الوجه، ولولا أنني منعته لمضى لسيدي وهو على هذه الحال فبلغ من غريمه ما يشتهي؛ لأنها ستكون له خير شفيع عنده في الانتقام له من ضاربه. وقال الفتى إيرنشو: «خذ المهر إذن أيها الغجري، وعسى أن يقصف رقبتك، خذه وامض إلى الجحيم أيها الصعلوك الدخيل، وتملق أبي واسلبه ماله كله، ولكن اكشف له بعد ذلك عن خبيئة نفسك يا ابن إبليس. وخذ هذه اللطمة! ولعل المهر أن يهشم رأسك بقوائمه».

وكان هيثكليف قد مضى ليفك المهر وينقله إلى مربطه، وكان يسير من خلفه حين اختتم هندلي حديثه بضربة صرعته تحت قوائم المهر، ثم جرى سريعًا دون أن ينتظر ليرى هل تحققت أمنيته في غريمه. وأدهشني أن أرى الصبي يلم شعثه وينهض في هدوء، ثم يمضي إلى ما اعتزم -فاستبدل السرج وما إليه، ثم جلس على كومة من الدريس حتى يفيق من وقع الضربة العنيفة قبل أن يدخل الدار. ولم أجد صعوبة في إقناعه بأن يترك لي مهمة إلقاء اللوم على المهر فيما أصابه من كدمات. ولم يعبأ بالقصة التي سأخترعها ما دام

قد نال مأربه. والحق أنه قلما كان يشكو من مثل هذه الهزات، حتى لقد خلته لا يحمل ضغينة ولا يبتغي ثأرًا، ولكنني كنت مخدوعة فيه تمامًا كما سترى.

الفصل الخامس

وبدأت صحة مستر إيرنشو تتداعى مع الزمن، وكان من قبل نشيطًا صحيح البدن، ولكن قوته فارقته فجأة، وأصبح ضيق الخلق سيئ الطبع لطول التزامه البيت. وكان أتفه الأشياء يغيظه، وتكاد تنتابه نوبات عصبية إذا توجس أن أحدًا يستهين بسلطانه، وكان هذا ملحوظًا إذا حاول أحد أن يخدع أثيره المقرب إليه أو يتحكم فيه، وكان شديد الغيرة على الصبي يخشى أن يكلمه أحد كلمة نابية؛ لأنه وقر في نفسه، فيما يبدو، أن الكل يكرهون هيثكليف ويودون إيقاع الأذى به لأنه يحبه، وكان في هذا ما يسيء إلى الصبي؛ لأن من كان منا رقيق القلب كان يكره أن يغيظ السيد، فيسايره في انحيازه للصبي، وزادت هذه المسايرة من كبرياء الصبي وشرته، ومع ذلك فقد أصبحت أمرًا لا يمكن تفاديه، فقد حدث مرة أو مرتين أن أثار هزء هندلي وسخريته بالصبي على مرأى من أبيه ثائرة الأب، فرفع عصاه ليهوي بها عليه، وأخذ يرتجف غضبًا لعجزه عن ضربه.

وأخيرًا نصح مساعد القسيس (وكان لنا مساعد قسيس في ذلك الوقت، استطاع أن يزيد من راتبه بتعليم أطفال أسرتي لنتن وإيرنشو وبزراعة أرضه بنفسه) بإرسال الفتى هندلي إلى الكلية، ووافق مستر هندلي ولكن على مضض قائلًا: «إن هندلي لا يصلح لشيء، وإنه لن يفلح أينما ذهب».

وددت من صميم قلبي أن يسود الهدوء البيت بعد هذا، وكان يحز في نفسي أن أرى صنيع سيدي مجلبة عناء له. وخيل إليَّ أن آلام المرض والشيخوخة كان سببها الشقاق العائلي، كما كان يحب أن يعللها، أما السبب الحقيقي كما تعلم يا سيدي فكان اعتلال صحته. على أننا رغم ذلك كنا نستطيع أن نعيش في هدوء لا بأس به لولا وجود شخصين هما مس كاثي والخادم جوزيف، ولعلك رأيته هنالك. كان جوزيف، وأكبر ظني أنه لا يزال، أثقل من عرفت فريسيًّا مؤمنًا ببره وتقواه، نابشًا صفحات التوراة ليختص نفسه ببركاتها ويرمي جيرانه بلعناتها، وقد أفلح في التأثير في مستر إيرنشو تأثيرًا عظيمًا بالتمويه عليه بوعظه وإرشاده، وكان سلطانه على سيده يزداد كلما تداعت صحته، وكان لا يفتأ يضيق عليه في شؤون روحه، وفي ضرورة تربية أطفاله تربية صارمة، وشجعه على اعتبار هندلي فتى ضالًّا، وكان لا يفتأ كل ليلة يروي على مسامعه القصص الطويلة شاكيًا هيثكليف وكاثرين، ملقيًا أشد اللوم دائمًا على كاثرين ليتملق ضعف إيرنشو. وكان لكاثرين من غير شك طباع لم أرَ لها نظيرًا في طفل آخر من قبل، وكنا نضيق بها ذرعًا عشرات المرات كل يوم، ولم نكن نشعر، منذ نزولها إلى أسفل الدار حتى تأوي لفراشها، بأننا في مأمن مما يجره عبثها من متاعب، وكانت دائمة المرح، لا يكف لسانها عن الثرثرة، تغني وتضحك وتسلق بلسانها كل من لا يشاركها مرحها، وكانت طفلة جموحًا سليطة اللسان، ولكنها كانت أجمل فتيات الناحية أعينًا، وأحلاهن ابتسامة، وأرشقهن خطوة. وأعتقد أنها لم تكن تقصد أذى ولا شرًّا، ذلك أنها كانت إذا أغضبت أحدًا حتى دفعته إلى البكاء لم تخاصمه وتعتزله إلا نادرًا، ولم تكن تتركه حتى يكفكف دموعه ليريح بالها فترضى. وكانت شديدة الولع بهيثكليف، وكان أقصى ما يتفتق عنه ذهننا من عقوبة نعاقبها بها أن نفصل بينهما. ومع ذلك فقد أصابها من التقريع والتوبيخ من جرائه أكثر مما أصاب أي فرد في الاسرة، وكانت أثناء اللعب تحب أن تمثل دور السيدة الصغيرة، وتطلق ليدها العنان في الضرب وتأمر رفاقها وتنهاهم. وكانت تفعل ذلك بي، ولكني لم أكن أحتمل أوامرها

وصفعاتها فأفهمتها هذا.

على أن مستر إيرنشو لم يكن بالرجل الذي يسيغ المزاح من أطفاله، كان جادًا صارمًا معهم، ولم تكن كاثرين من جهتها تفقه السبب في شراسة أبيها وضيق صدره في مرضه أكثر منه في عافيته. وأيقظ تقريعه الأخرق فيها لذة شيطانية في إثارته، فلم تكن الفتاة أسعد حالًا منها حين ينهال عليها التوبيخ منا جميعًا في وقت واحد، فتتحدانا بنظراتها الجريئة الوقحة ولسانها السليط، متهكمة بلعنات جوزيف التي يقتبسها من التوراة، ساخرة بي، مظهرة أن لوقاحتها المصطنعة من التأثير في هيثكليف ما يفوق تأثير عطف أبيها عليه، وأن الصبي يصدع بأمرها في كل شيء ولا يصدع بأمر أبيها إلا إذا صادف ذلك هوى في نفسه، وكان هذا أبغض الأشياء إلى قلب الرجل. وبعد أن تقضي النهار كله سالكة أسوأ ما تستطيع من سلوك، كانت أحيانًا تأتي إلى أبيها في العشية متوددة متلطفة لتصلح ذات البين بينها وبينه، فيقول لها الشيخ: «لا، لا يا كاثي. لا أستطيع أن أحبك. إنك شر من أخيك، امضي وصلي يا ابنتي واسألي الله أن يغفر لك. وإنني لأخشى أنني وأمك سنندم على أننا أنجبناكِ في هذه الدنيا»، وكانت في بداية الأمر تبكي حين تسمع منه هذا، ولكن ما لقيت من زجر على الدوام قسى قلبها، فكانت تضحك إذا طلبت إليها أن تعتذر عن أخطائها وتلتمس من أبيها الصفح.

وأخيرًا دنت الساعة التي انتهت فيها آلام مستر إيرنشو ومتاعبه، فمات موتًا هادئًا في ليلة من ليالي أكتوبر وهو جالس إلى جوار المدفأة. وكانت ريح عاتية تهب من حول البيت فيسمع هديرها في المدخنة، وكانت عنيفة صاخبة، ولكن الجو لم يكن باردًا، وكنا مجتمعين معًا -فكنت على كثب من المدفأة مشغولة بما في يدي من تطريز، وجوزيف يقرأ توراته بقرب المنضدة، لأن الخدم كانوا في ذلك العهد يجلسون في غرفة الجلوس بعد انتهائهم من عملهم. وكانت مس كاثي قبل ذلك مريضة فاضطرها ضعفها إلى الهدوء، وكانت تتكئ على ركبة أبيها، وكان هيثكليف راقدًا على الأرض ورأسه في حجرها. وإني لأذكر سيدي وهو يربت على شعرها الجميل قبل أن يغفي- وكان من أمتع الأشياء عنده أن يراها وديعة، فيقول لها: «لِمَ لا تستطيعين يا كاثي أن تكوني دائمًا فتاة طيبة؟»، فتطلعت إليه بوجهها وضحكت قائلة: «ولِمَ لا تستطيع يا أبت أن تكون دائمًا رجلًا طيبًا؟»، ولما رأته قد اغتاظ ثانية، قبلت يده، وقالت إنها ستغني له أغنية ينام عليها، وبدأت الغناء بصوت خافت جدًّا، حتى تراخت أصابعه وسقطت عن رأسها، ومال رأسه على صدره، ثم طلبت إليها أن تكف عن الغناء والحركة خشية أن توقظه. ولبثنا نصف ساعة صامتين كأن على رؤوسنا الطير، وكان من الجائز أن يطول صمتنا لولا أن جوزيف قام بعد قراءته فصلًا من التوراة وقال إنه لا بد له أن يوقظ سيده ليصلي وينام، ثم خطا إلى الأمام وناداه باسمه ولمس كتفه، ولكنه لم يتحرك، فأخذ الشمعة ونظر في وجهه، وخيل إليَّ وهو يضع الشمعة في مكانها أن أمرًا ذا بال قد حدث، ثم أمسك بذراعي الطفلين وهمس في آذانهما أن يصعدا إلى أعلى الدار ولا يحدثا ضجة، وأن لهما أن يصليا وحدهما تلك الليلة لأن لديه عملًا يشغله.

وقالت كاثرين وهي تطوق عنق أبيها بذراعيها قبل أن يستطيع أحد منعها: «سأقرئ أبي تحية المساء قبل أن أمضي»، واكتشفت المسكينة توًّا فجيعتها في أبيها فصرخت: «رباه، لقد مات يا هيثكليف - لقد مات!»، وانطلقت منهما معًا صرخات تمزق نياط القلوب.

وبكيت معهما بكاءً مرًّا عاليًا، ولكن جوزيف سألنا ماذا نقصد بمثل هذا العويل والبكاء على قديس أصبح الآن في الجنة، ثم طلب إليَّ أن أرتدي معطفي وأجري إلى جمرتن في طلب الطبيب والقسيس. ولم أستطع أن أفقه المنفعة من مجيء الرجلين آنئذ، على أنني انطلقت في الريح والمطر وعدت بالطبيب، أما القسيس فوعد بالحضور في

الصباح، وتركت جوزيف يقص الأمر على الطبيب وهرعت إلى حجرة الطفلين، وكان بابها منفرجًا بعض الشيء، فرأيتهما ساهرين مع أن الليل قد انتصف، ولكنهما كانا أهدأ روعًا، ولم يكونا في حاجة إلى أن أسري عنهما؛ فقد كان الصغيران يلتمسان العزاء في أفكار ما كان الله ليفتح عليَّ بمثلها، وكانا يصوران الجنة في حديثهما البريء تصويرًا بديعًا لم يدانه أي قسيس قط، وفيما كنت أنتحب وأصغي إلى حديثهما، لم أملك أن أحاجز نفسي عن أمنية تمنيتها، هي أن نكون جميعًا في ذلك المكان آمنين.

* * *

الفصل السادس

عاد مستر هندلي إلى البيت ليحضر مأتم أبيه، وكان ما أدهشنا منه وأطلق ألسنة الجيران بالقيل والقال أنه أحضر معه زوجة له، أما من تكون هذه الزوجة؟ وأين مسقط رأسها؟ فذلك ما لم ينبئنا به قط. وأكبر الظن أنه لم يكن لها ما يزكيها من حسب أو نسب، وإلا لما وجد غضاضة في أن يكتم عن أبيه نبأ اقترانه بها.

ولم تكن زوجته بالمرأة التي تريد أن تحدث في نظام البيت حدثًا، فقد بدت مبتهجة بكل ما وقع عليه بصرها حالما وطئت قدماها عتبة الدار، مسرورة بكل ما يحدث حولها، فيما خلا استعدادات الدفن ووجود المعزين، وكان في مسلكها في هذا الظرف ما حملني على الظن بأن فيها شيئًا من البلاهة؛ فقد جرت إلى غرفتها، وحملتني على مرافقتها، مع أنه كان ينبغي لي أن أعين الطفلين على ارتداء ثيابهما. وهناك جلست مرتعدة الفرائص تضم يديها وهي تكرر السؤال: «ألم يمضوا به بعد؟»، ثم راحت في انفعال عصبي شديد تصف ما تحدثه فيها رؤية السواد من أثر، ثم جفلت، وأصابتها قشعريرة، واسترسلت في البكاء. وسألتها ما خطبها، فأجابت أنها لا تدري، ولكنها تشعر بالجزع الشديد من الموت! ولقد خيل إليَّ أن الموت بعيد عنها بعده عني. نعم إنها كانت نحيلة الجسم، ولكنها كانت في مقتبل العمر، غضة الأهاب تتلألأ عيناها ببريق الماس، ولا شك أنني لاحظتها تلهث حين تصعد السلم، وإن كانت أقل ضجة مفاجئة تبعث في جسمها الرعدة، وإنها كانت أحيانًا تسعل سعالًا مزعجًا، ولكني كنت أجهل ما تنذر به هذه الأعراض، ولم أجد ما يبعثني على الحدب عليها، فنحن على العموم لا نتعلق بالأغراب كثيرًا في إقليمنا هذا يا مستر لوكوود، اللهم إلا إذا تعلقوا هم بنا أولًا.

وكان الفتى إيرنشو قد عراه تغير كبير في السنوات الثلاث التي انقطع فيها عنا، كان قد رق جسمه، وغاض لونه، وتبدل أسلوبه في الحديث واللبس. ولقد أخبرني أنا وجوزيف يوم عاد بأن نتخذ من المطبخ الخلفي مقامًا، وأن نخلي له غرفة الجلوس، ولقد كان يؤثر أن يعد حجرة صغيرة فائضة فيفرش أرضها ويكسو جدرانها ليهيئ منها غرفة للجلوس، ولكن زوجته أعربت عن ابتهاجها بأرض الحجرة البيضاء، وبالمدفأة الضخمة الساطعة، وبالصحون المصنوعة من القصدير وصندوق الأواني الخزفية، وبوجار الكلب، وبما في الحجرة من متسع يتيح لهما الحركة والتنقل حيث يجلسان عادة. لذلك لم يرَ هندلي إعداد تلك الحجرة الصغيرة ضروريًّا لراحتها، فتخلى عن الفكرة.

كذلك أعربت زوجته عن سرورها لأنها وجدت بين معارفها الجدد أختًا لزوجها، وكانت في بداية أمرها تثرثر مع كاثرين، وتقبلها، وتجري معها هنا وهناك، وتغدق عليها الهدايا، ولكن سرعان ما أصاب محبتها الكلل، وكانت إذا تبرمت أحالت هندلي طاغية مستبدًّا، وكان يكفي أن تعرب بكلمات قليلة عن كراهتها لهيثكليف حتى توقظ في نفس هندلي ذلك الحقد الدفين الذي يكنه نحو الصبي، فأقصاه عن مجلسهما ليقيم مع الخدم، وحرمه من تلقي درس القسيس، وأصر على أن يشقى ويكد خارج الدار بدل أن يحضر هذا الدرس، وألزمه العمل في المزرعة كما يعمل سائر الغلمان المأجورين.

واحتمل هيثكليف بادئ الأمر هذا الهوان في جلد؛ لأن كاثي كانت تلقنه ما تتعلم من

دروس، وكانت تشاركه العمل أو اللعب في الحقول، وكان كلاهما يبشر بأن سيشب على خشونة الهمج وجلافتهم، وذلك لأن رب الأسرة الشاب كان يهمل النظر في سلوكهما وتصرفاتهما أي إهمال، فأصبحا بنجوة من رقابته، بل إنه ما كان ليشرف على ذهابهما إلى الكنيسة يوم الأحد لولا أن جوزيف والقسيس أنحيا عليه باللوم على إهماله حين غاب الطفلان عن الكنيسة، فذكره هذا بأن يأمر بجلد هيثكليف، وبأن يحرم كاثرين من الغداء أو العشاء، ولكن الجري إلى البراري صباحًا وقضاء النهار كله فيها كان من أحب المتع إليهما، وأصبح ما يصيبهما من عقاب على ذلك أمرًا تافهًا يستخفان به ويضحكان له. وكان في وسع القسيس أن يفرض على كاثرين ما شاء من فصول تستظهرها، وفي وسع جوزيف أن يضرب هيثكليف حتى تكل يمناه من الضرب، ولكن الصبيين كانا إذا اجتمعا نسيا كل شيء -أو على الأقل نسياه في اللحظة التي يدبران فيها حيلة خبيثة للانتقام. وكم كنت أذرف الدمع حين أراهما يتماديان في طيشهما يومًا بعد يوم، وأنا لا أجرؤ على أن أفوه بكلمة خشية أن أفقد ما بقي لي من نفوذ قليل على المخلوقين اللذين لم يكن لهما صديق سواي. وفي ليلة من ليالي الأحد أقصيا عن غرفة الجلوس عقابًا لهما على ما أحدثا من ضجة أو ما يشبه ذلك من ذنب يسير، ومضيت أدعوهما للعشاء فلم أعثر لهما على أثر، وفتشنا البيت علوًا وسفلًا، وأخيرًا أمرنا هندلي غاضبًا محنقًا بأن نغلق الأبواب بالمزاليج، وأقسم ليحرمنهما من دخول البيت في تلك الليلة، وآوى كل من بالدار إلى مخدعه، وكان بنفسي من القلق ما طرد عن جفني النوم، ففتحت زجاج نافذتي وأخرجت رأسي لأصيخ السمع على الرغم مما كان يهطل من مطر، وقد عقدت نيتي على أن أفتح لهما الباب إن عادا برغم هذا الحظر. وما هي إلا لحظة حتى سمعت وقع خطى قادمة على الطريق، ولاح نور فانوس في باب البيت، فطرحت على رأسي لفاعًا، وجريت لأحول بينهما وبين إيقاظ مستر إيرنشو بقرع الباب، فما راعني إلا أن أجد هيثكليف وحده.

وصحت به في عجلة: «أين مس كاثرين؟ لعلها لم تصب بسوء؟»، فأجاب: «في ضيعة ثرشكرس، وكان بودي أن أكون معها أيضًا، ولكن القوم لم يوهبوا من الذوق والمجاملة ما يحملهم على دعوتي للمكث معها»، قلت: «جميل! ستنال إذن حظك من العقاب! إنك لن ترعوي حتى تطرد من هذا البيت طردًا، ما الذي ذهب بكما إلى ضيعة ثرشكرس؟»، فأجاب: «دعيني أولًا أخلع ملابسي المبللة، ثم أقص عليكِ القصة كلها يا نلي»، فحذرته من إيقاظ رب البيت، ثم واصل حديثه وهو ينضو عنه ثيابه وأنا أنتظره لأطفئ الشمعة: «هربت أنا وكاثي من غرفة الغسيل لنسرح ونمرح كما نشاء؛ وإذ لمحنا أضواء بيت المزرعة خطر لنا أن نذهب لنرى أينفق طفلا لنتن آحادهما واقفين يرتعدان في ركن الحجرة، بينما يجلس والداهما في أكل وشرب وغناء وقصف واصطلاء مسرف أمام المدفأة، أتحسبينهما يفعلان هذا؟ أم تحسبينهما يقرآن المواعظ ويرهقهما خادمهما بالأسئلة والأجوبة في شؤون الدين، فإذا قصرا عن الجواب فرض عليهما حفظ نهر من الأسماء الواردة في التوراة؟»، أجبت: «لعلهما لا يفعلان، فلا شك أنهما طفلان طيبان لا يستحقان المعاملة التي تلقيانها لسوء سلوككما». قال: «كفى هذرًا يا نلي، هذا هراء! لقد جرينا من قمة الربوة دون توقف حتى بلغنا البستان، وقد هزمت كاثرين هزيمة نكراء في هذا السباق لأنها كانت عارية القدمين، عليكِ أن تبحثي عن حذائها غدًا في المستنقع. وتسللنا من سياج محطم، وتحسسنا الطريق، ثم استقررنا في حوض للزهور تحت نافذة حجرة الاستقبال، وكان النور يشع منها، ولم يكن أهل الدار قد أغلقوا النافذة، ولم تكن السجف مسدلة إلا نصفها، واستطعنا أن نطل إلى الداخل بالوقوف فوق الطابق السفلي والتشبث بحافة الجدار، فرأينا -ويا لروعة ما رأينا!- رأينا حجرة فخمة تكسو أرضها طنافس قرمزية، ومقاعد وموائد مكسوة بقماش قرمزي، وسقفًا أبيض ناصعًا يحف به إطار من ذهب، وفي وسطه ثريات من بللور تتدلى في سلاسل من فضة، وهي تتألق بالأنوار الخافتة اللطيفة. ولم يكن الشيخان مستر لنتن وزوجته هناك، فانفرد إدجر وأخته بالبيت كله، ألم يكن خليقًا

بهما أن يسعدا بذلك؟ لو أنني وكاثي كنا في مكانهما لخلنا أنفسنا نرتع في جنة النعيم! والآن ماذا كان هذان الصبيان الطيبان يصنعان في ظنك؟ فأما إيزابيلا، وأحسبها في الحادية عشرة؛ لأنها أصغر من كاثي بسنة، فكانت راقدة تصرخ في أقصى الحجرة، وتعوي كأن الساحرات يطعنها بأسياخ محماة. وأما إدجر فكان واقفًا على المدفأة يبكي صامتًا. وكان يجلس في وسط المنضدة جرو صغير يهز مخلبه ويعوي. وقد فهمنا من تراشقهما بالتهم أنهما كادا يمزقان الجرو شطرين بينهما. يا للأبلهين! تلك كانت لعبتهما! يتشاجران للظفر بكومة من الشعر الدفيء، ثم يبدأ كلاهما في البكاء لأنهما لا يريدان أن يأخذا ما قد جاهدا للحصول عليه. وانفجرت أنا وكاثي ضاحكين من هذين المخلوقين المدللين واحتقرناهما من صميم قلبينا. فمتى بربك فاجأتني أنازع كاثرين شيئًا تشتهيه؟ أو وجدتنا وحدنا نلتمس اللهو في الصياح والشهيق والتدحرج على الأرض وقد فصلت الحجرة بطولها بيننا؟ إنني لن أرضى بديلًا بحالي هنا حال إدجر لنتن في ثرشكرس وإن أعطيت فوق حياتي ألف حياة، كلا وإن أعطيت الحق في أن أقذف بجوزيف من حالق وأطلي واجهة البيت بدم هندلي!».

فقاطعته قائلة: «صه، صه! ولكنك يا هيثكليف لم تخبرني كيف خلفت كاثرين وراءك؟».

أجاب: «قلت لكِ إننا ضحكنا، وسمعنا الصبيان فانطلقا إلى الباب كأنهما سهمان، وكان سكوت، ثم صاحا: «أماه! أماه! أبتاه! أماه، تعالي هنا، أبتاه، أماه!»، وكانا يصرخان على هذا النحو، واصطنعنا نحن أصواتًا مرعبة لنزيدهما فزعًا على فزع، ثم هبطنا من حافة الجدار لأن أحدًا كان يجذب عارضة النافذة، وأحسسنا أن من الخير لنا أن نهرب بجلدنا. وأمسكت بيد كاثي، وكنت أستحثها على الجري، وإذا هي تسقط فجأة، وهمست تقول: «اهرب يا هيثكليف! اهرب! لقد أطلقوا الكلب علينا، وقد أنشب فيَّ أنيابه!»، وكان الشيطان قد قبض على عقبها يا نلي، وسمعته ينفخ بمنخريه نفخًا كريهًا، ولكنها لم تصرخ، لا! إنها لتربأ بنفسها عن ذلك وإن قذف بها على قرني بقرة هائجة، أما أنا فصرخت، وصببت من اللعنات والشتائم ما يكفي لإبادة أي شيطان مريد في الأرض، ثم تناولت حجرًا وحشرته بين فكيه، وحاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أدفعه إلى حلقه. وأخيرًا أقبل وغد من الخدم وفي يده فانوس وهو يصيح: «لا تدعه يا سكلكر، لا تدعه!»، على أنه غير من لهجته حين رأى ما يعانيه سكلكر، فقد كان الكلب يختنق، ولسانه الأرجواني الضخم يتدلى من فمه نصف قدم، ويسيل من خطمه اللعاب المدمم. وأنهض الرجل كاثي، وكانت جائشة النفس متهافتة، لا من الخوف، بل من الألم بلا ريب. وحملها الرجل إلى الدار، وتبعته وأنا أهدر باللعنات والسباب وأتوعد بالانتقام. وهتف به لنتن من الباب: «من الفريسة يا روبرت؟»، فأجاب: «لقد أمسك سكلكر صبية صغيرة يا سيدي»، ثم قال وهو يتشبث بي: «وهنا أيضًا غلام يبدو عليه التشرد الشديد، وأكبر ظني أن اللصوص دبروا إدخالهما من النافذة ليفتحا الأبواب للعصابة بعد أن ينام أهل الدار حتى يقتلونا آمنين. اخرس أنت أيها اللص البذيء، فإنك ستشنق على فعلتك هذه! مستر لنتن، سيدي، لا تتخل عن بندقيتك»، فقال العجوز الأحمق: «لا لا يا روبرت! لقد علم اللئام أن البارحة كان يوم التحصيل عندنا، فدبروا خطة بارعة لاقتناصي، ادخل، مرحبًا بهم، هيا يا جون، اربط السلسلة، أعطي سكلكر قليلًا من الماء يا جيني، أيضحكون على ذقن مأمور من رجال الضبط في معقله، وفي يوم الرب أيضًا! أما من نهاية لوقاحتهم؟ انظري يا عزيزتي ماري! لا تراعي، فما هو إلا غلام، ولكن الوغد يعبس ويتجهم تجهمًا واضحًا، أليس من الرحمة بهذا البلد أن يشنق فورًا قبل أن يفصح عن طبيعته الخبيثة بأعماله بعد أن أفصح عنها بقسمات وجهه؟»، ثم جذبني إلى تحت الثريا، وثبتت مسز لنتن عويناتها على أنفها ورفعت يديها في هلع، وزحف الطفلان الرعديدان على مقربة منا أيضًا، وكانت إيزابيلا تقول وهي تتلعثم: «إنه مرعب، ألقه في

القبو يا أبت، إنه كبير الشبه بابن العرافة الذي سرق ديكي البري، أليس كذلك يا إدجر؟»، وبينما كانوا يفحصونني أفاقت كاثي، وسمعت الحديث الأخير وضحكت، واستطاع إدجر لنتن، بعد أن حملق فيها في فضول، أن يستجمع من الذكاء ما أعانه على التعرف عليها، فهما يريياننا في الكنيسة كما تعلمين، ولو أننا قلما نلقاهما في مكان سواها، فهمس في أذن أمه: «هذه مس إيرنشو، انظري كيف عقرها سكلكر، إن قدمها لتنزف دمًا غزيرًا!».

فصاحت المرأة: «مس إيرنشو! هذا هراء! أتطوف مس إيرنشو الأرض في صحبة غلام من الغجر! ولكنني أرى الصبية تلبس الحداد يا عزيزي، فلا بد أنها هي، وقد تسبب لها هذه العقرة عرجًا يلزمها العمر كله».

فصاح مستر لنتن في دهشة، وهو يتحول مني إلى كاثرين: «إن أخاها ليقترف في حقها إهمالًا جسيمًا، لقد فهمت من شيلدرز (وهو اسم القسيس يا سيدي)، أنه يتركها تشب ولا تعرف لها دينًا ألبتة. ولكن من هذا الغلام؟ وأين التقطت هذا الرفيق؟ أجل، فهمت! إنه الغنيمة العجيبة التي غنمها المرحوم جاري إبان رحلته في ليفربول، لعله هندي صغير، أو منبوذ أمريكي أو إسباني!».

قالت العجوز: «إنه على أي حال فتى شرير لا يصلح للإقامة في بيت كريم! ألاحظت لغته يا لنتن؟ يفزعني أن يسمع ولداي هذه اللغة».

وعاودت قذف الشتائم -لا تغضبي يا نلي- فصدر الأمر إلى روبرت أن يأخذني بعيدًا، فأبيت أن أمضي من غير كاثي، فجرني إلى الحديقة ودفع بالفانوس إلى يدي، وأكد لي أنه لا بد من إبلاغ مستر إيرنشو بمسلكي هذا، وأمرني بأن أنطلق لتوي، ثم أغلق الباب من خلفي، وكانت السجف لا تزال مطوية في ركن من الحجرة، فعدت إلى التجسس من خلفها، لأنني كنت أنوي أن أحطم زجاج النافذة الكبيرة إلى آلاف الشظايا إن رأيت من كاثي نية العودة، إلا إذا سمحوا لها بالخروج. وكانت كاثي جالسة في هدوء على الأريكة، ونزعت مسز لنتن عباءة اللبانة التي استعرناها لرحلتنا، وهي تهز رأسها وتلومها فيما أظن. وكاثي فتاة في مقتبل العمر، لذلك فرقوا في المعاملة بينها وبيني، ثم أحضرت الخادم حوضًا من الماء الدفيء وغسلت قدميها، وأعد مستر لنتن كوبًا من الشراب، وأفرغت إيزابيلا صحفة من الكعك في حجرها، ووقف إدجر يحملق عن كثب، ثم صففوا شعرها الجميل ومشطوه، وأعطوها خفين كبيرين، ودفعوا أريكتها إلى جوار المدفأة، وتركتها على خير ما يمكن من الانشراح وهي توزع طعامها بين الجرو وبين سكلكر الذي كانت تقرص أنفه وهو يأكل، وتشيع المرح في أعين الطفلين الزرقاء، وتعكس قبسًا من جمالها الساحر على وجوههم. ورأيت الإعجاب الأبله مرتسمًا على وجهيهما، ولا عجب، فهي تفوقهما بما لا يقاس، بل هي تفوق كل مخلوق على هذه الأرض، أليس الأمر كذلك يا نلي؟».

أجبت وأنا أدثره وأطفئ النور: «سيسفر هذا الحادث عن عواقب لا تحلم بها، إن حالك لن تنصلح يا هيثكليف، وسيضطر مستر هندلي إلى الالتجاء إلى وسائل عنيفة معك، وسترى إن كان لا يفعل»، وقد تحققت نبوءتي فوق ما أشتهي، فإن هذه المغامرة المنحوسة أثارت غضب إيرنشو الشديد، ثم زارنا مستر لنتن بنفسه في الغداة ليصلح ما فسد، وألقى على رب الأسرة الشاب درسًا في الأسلوب الذي يسوس به أسرته جعله يتيقظ وينظر في موقفه نظرة الجد، ولم يجلد هيثكليف هذه المرة، ولكنه أنذر بأنه سيطرد طردًا إذا فاه بكلمة واحدة لكاثرين، وتعهدت مسز إيرنشو بأن تكبح جماح شقيقة زوجها حين تعود إلى البيت، متذرعة في ذلك باللباقة لا العنف؛ لأن العنف ما كان ألبتة لينيلها ما تبتغي.

* * *

الفصل السابع

مكثت كاثي في ضيعة ثرشكرس خمسة أسابيع -حتى أقبل عيد الميلاد، وكان جرح عقبها قد التأم تمامًا، وتحسن خلقها تحسنًا كبيرًا، وكثر تردد امرأة أخيها عليها في هذه الفترة، وبدأت تنفيذ خطتها لإصلاح الفتاة، وذلك بمحاولة إيقاظ شعورها بالكرامة عن طريق الثياب الفاخرة والتملق، وقد انطلى عليها هذا سريعًا. وهكذا رأينا ذات يوم فتاة تترجل عن ظهر مهر أدهم جميل -لم تكن الفتاة الهمجية الجموح العارية الرأس التي ألفنا رؤيتها في البيت تقفز وتجري ونحن نلهث من خلفها، ولكنها كانت فتاة محترمة تتدلى غدائر شعرها الكستنائي من خلال قبعتها المحلاة بالريش، وترتدي ثوبًا طويلًا اضطرت أن ترفعه بيديها لتستطيع دخول الدار. ورفعها هندلي عن ظهر جوادها وهو يقول: «إنك لرائعة الحسن يا كاثي! لم أكد أعرفك، فأنتِ تلوحين الآن فتاة من فتيات الطبقة الراقية. إن إيزابيلا لنتن دونها بهاء، أليس الأمر كذلك يا فرنسيس؟»، وأجابت زوجته: «ليس لإيزابيلا ما حبتها به الطبيعة من مفاتن، ولكن لتأخذ حذرها، فلا تستوحش مرة أخرى هنا، ساعدي مس كاثي على خلع ثيابها يا آلن، ولكن انتظري يا عزيزتي، أخشى أن تنكشي غدائرك، فدعيني أفك لك رباط قبعتك»، ونزعت عنها رداءها، فسطع من تحته ثوب حريري مخطط فاخر، وسراويل بيضاء وحذاء برَّاق، ولمعت عيناها ببريق الفرح حين أقبلت الكلاب تطفر مرحبة بها، ولكنها لم تجرؤ على لمسها خشية أن تتمسح بثيابها الفاخرة، وقبلتني قبلة رقيقة، وكنت أنضح دقيقًا لأنني كنت أخبز كعكة الميلاد، لذلك لم تستحسن أن تعانقني، ثم نظرت حولها باحثة عن هيثكليف، وراقب مستر إيرنشو وزوجته لقاءهما في لهفة ظانين أنهما يستطيعان أن يحكما منه، ولو بعض الحكم، أهناك ما يبرر الفصل بين الصديقين.

ولم يكن من اليسير العثور على هيثكليف أولًا، وكان ما اتصف به من إهمال وما لقي من إغفال قبل غيبة كاثرين قد زادا أضعافًا مضاعفة بعدها، ولم يعبأ أحد سواي بأن يسدي إليه صنيعًا فيرميه بالقذارة، ويأمره بالاستحمام مرة في الأسبوع، وقلما يميل الصبية في سنه بفطرتهم إلى استعمال الصابون والماء، لذلك علت وجهه ويديه قذارة كئيبة، ولا تسل عن ثيابه التي بليت في الوحل والتراب ثلاثة أشهر، وشعره الأشعث الكث، فحق له أن ينزوي خلف الأريكة حين رأى فتاة بهية رشيقة تدخل البيت، لا مخلوقة شعثاء نظيره ما توقع. وتساءلت كاثي وهي تنزع قفازها فتبدو أصابعها بيضاء ناصعة من الراحة وعدم التعرض للجو: «أليس هيثكليف هنا؟».

وصاح مستر هندلي وهو يتشفى بما بدا عليه من ارتباك، وقد طاب له أن يراه مضطرًا إلى الظهور صعلوكًا صغيرًا كريه المنظر: «هيثكليف، تقدم، تقدم ورحب بمس كاثرين كسائر الخدم».

وما إن لمحت كاثي صاحبها في مخبئه حتى طارت إليه لتعانقه، وما هي إلا ثانية واحدة حتى طبعت على خده سبع قبلات أوثمان، ثم أمسكت، وتراجعت، وانفجرت ضاحكة وهي تقول في دهشة: «شد ما تبدو أسود متجهمًا، وما أغرب منظرك وعبوسك! ولكنك تبدو لي كذلك لأنني ألفت منظر إدجر وإيزابيلا لنتن. هل نسيتني يا هيثكليف؟».

وكان لها عذر في إلقاء هذا السؤال عليه؛ لأن الخجل والكبرياء قد ضاعفا من عبوسه وجعلاه عاجزًا عن الحركة.

وقال مستر إيرنشو متعطفًا: «سلم عليها يا هيثكليف ولو مرة، فقد أذنت لك بهذا».

فأجاب الغلام، وقد انحلت عقدة لسانه أخيرًا: «كلا، لن أقف لأكون سخرية لأحد، لن أطيق هذا».

ثم أراد الإفلات، ولكن مس كاثي أمسكت به ثانية، وقالت: «ما كان قصدي أن أسخر منك، إنني لم أستطع منع نفسي، صافحني على الأقل يا هيثكليف، ما الذي يغضبك؟ كل ما في الأمر أنني رأيت في منظرك غرابة، ولو غسلت وجهك ومشطت شعرك لزال ما بك، ولكنك قذر جدًّا!».

وتفرست بقلق في اصابعه القاتمة التي أمسكتها بين يديها، ثم تفحصت ثوبها الذي لم تخلف عليه ملامسته لثوب هيثكليف آثارًا يزدان بها.

فأجاب وهو يتتبع عينيها ويختطف يده من بين يديها: «لم يكن بك حاجة إلى لمسي، سأكون قذرًا كما أشتهي، وأنا أحب أن أكون قذرًا، ولن أكف عن القذارة».

ثم انفتل خارجًا من الحجرة بين طرب رب البيت وزوجته، وانزعاج كاثرين التي لم تفهم كيف دفعته تعليقاتها إلى هذا المسلك الخشن.

وبعد أن قمت بما تقوم به الوصيفة للضيفة الجديدة، ووضعت الكعك في الفرن، وأشعت الدفء والبهجة في حجرة الجلوس والمطبخ بإيقاد نار موفورة تليق بليلة الميلاد، هممت بالجلوس والتسلي بغناء بعض الأناشيد وحدي، ضاربة صفحًا عما أكده جوزيف من أن الألحان المرحة التي تخيرتها هي أقرب الأشياء إلى الأغاني الخليعة. وكان قد خلا لصلاته في حجرته، وكان مستر إيرنشو وزوجته يشغلان كاثي بما اشتريا لها من أشياء صغيرة براقة لتقدمها هدية لولدي مستر لنتن إقرارًا بما أبدت الأسرة من عطف عليها. وكانا قد دعياها ليقضيا الغد في وذرنج هيتس، وقبلت الدعوة بشرط واحد، ذلك أن مسز لنتن رجت ألا يختلط ولداها الحبيبان بهذا «الغلام الخبيث الشتام»، وعلى ذلك ظللت وحيدة، أشم رائحة الأفاويه الزكية وهي في النار، وأعجب بأواني المطبخ البراقة، وبساعة الحائط المصقولة وقد زينت بأغصان شجرة الميلاد، وبالأكواب الفضية مصففة على صينية لتملأ جعة في العشاء، وبأرض الحجرة على الأخص وهي مكنوسة مجلوة، ينهض مظهرها دليلًا على نظافتي وعنايتي الفائقة، وصفقت لنفسي طربًا بهذا كله، ثم ذكرت كيف كان من عادة الشيخ إيرنشو أن يأتي بعد أن يعد كل شيء، ثم يدعوني بالصبية الممراح، ويضع في يدي شلنًا هو عطاء عيد الميلاد. وقادني ذلك إلى تذكر ولعه بهيثكليف، وخوفه من أن يلقى الإهمال بعد أن يطويه الموت. وقادني هذا بطبيعة الحال إلى التأمل في موقف الصبي المسكين اليوم، فوجدتني أبكي بدل أن أغني، على أنه خطر ببالي بعد قليل أن محاولة إصلاح بعض أخطائه أجدى من البكاء عليها، فمضيت إلى الفناء باحثة عنه، ولم يكن ببعيد، فقد وجدته في الإسطبل يمسح جلد المهر الجديد اللامع، ويطعم غيره من الخيل على عادته.

قلت: «هيا يا هيثكليف، إن المطبخ جد مريح، وقد صعد جوزيف إلى غرفته، هيا دعني ألبسك وأصلح من هندامك قبل أن تخرج مس كاثي، فتستطيعان الجلوس منفردين إلى الموقد وتسمران حتى ساعة النوم».

ولكنه انصرف إلى ما كان بسبيله دون أن يعيرني التفاتًا.

وواصلت حديثي قائلة: «تعال. أآتٍ أنت؟ لقد أعددت لكل منكما كعكة صغيرة تكفيه، وسيعوزك نصف ساعة لتتم لبسك».

وانتظرت خمس دقائق، ولما لم أظفر منه بجواب تركته، وتعشت كاثرين مع أخيها وزوجته، وشاركت جوزيف عشاء صامتًا خلا من المرح، تخلله التوبيخ من طرف والسلاطة من الطرف الآخر. وظلت كعكته وجبنه على المائدة ينعيان صاحبهما طوال الليل، واستطاع أن يواصل العمل حتى التاسعة، ثم مضى صامتًا لا يلوي إلى حجرته، وسهرت كاثي لكثرة ما كان لديها من طلبات يجب أن تطلبها احتفاء بصديقيها الجديدين، وأتت مرة إلى المطبخ لتتحدث إلى صديقها القديم، ولكنه كان قد انصرف، فلم تبقَ إلا ريثما تتساءل ما خطبه، ثم عادت أدراجها. وفي الصباح استيقظ مبكرًا، ولما كان اليوم عطلة، فقد مضى إلى البراري يحمل معه مزاجه النكد، ولم يرَ له وجه إلا بعد أن انطلقت الأسرة إلى الكنيسة، ويبدو أن الجوع وطول التأمل قد أصلحا من مزاجه، فأخذ يحوم حولي لحظة، ثم استجمع شجاعته وقال لي بغتة: «نلي، أصلحي من هندامي، سأكون ولدًا طيبًا».

قلت له: «فات الأوان يا هيثكليف، فلقد كدرت كاثرين، ولعلها آسفة لأنها عادت إلى البيت إطلاقًا! كأنك تحسدها لأنها تظفر أكثر منك باهتمام الأسرة».

ولم يفقه لحسد كاثي من معنى، ولكنه فهم جليًّا معنى تكديرها.

فسألني وقد بدا عليه كل الجد: «هل قالت إنها متكدرة؟».

- لقد بكت حين أخبرتها أنك خرجت ثانية هذا الصباح.

فأجاب: «لقد بكيت أنا الليلة البارحة، وعذري في البكاء أكثر».

قلت: «نعم، عذرك هو المضي إلى فراشك بقلب متكبر وبطنٍ خاوٍ، إن المتكبرين يجرون الهموم والأحزان على أنفسهم، ولكن إذا كنت آسفًا حقًّا على ما بدر منك فلا تنس أن تطلب إليها العفو عنك حين تأتي. يجب أن تمضي إليها وتتقدم لتقبيلها وتقول لها - ولكنك أدرى بما تقول، إنما عليك أن تفعل هذا بعاطفة حارة ولا تحسب أن ثوبها الفاخر قد جعلها غريبة عنك. والآن سأختلس من وقتي، الذي عليَّ أن أعد فيه الطعام، ما أصلح فيه من زينتك حتى يبدو إدجر لينتن بالقياس إليك دمية لا حياة فيها، وإنه لكذلك في الحق، صحيح أنك تصغره سنًّا، ولكنك لعمري أطول منه قامة وأعرض منكبًا، وإنك لقادر على أن تصرعه أرضًا في طرفة عين. ألا تحس من نفسك هذه القدرة؟».

وأشرقت أساريره لحظة، ثم ما عتمت أن أربدت، وزفر زفرة ثم قال:

«إنني قد أصرعه عشرين مرة، ولكن ذلك لن ينتقص من بهائه أو يزيدني حسنًا، ليت لي شقرة شعره وبياض جلده وحسن هندامه ورقة خلقه وما له من أمل في الثراء!».

قلت متممة حديثه: «وليت لك صراخه على أمه طوال اليوم في كل مناسبة، وارتعاده إذا لوح صبي ريفي بيده نحوه، ولزومه البيت سحابة نهاره خشية المطر. ألا ما أضعف ما تبدي من ثقة بنفسك يا هيثكليف! تعال إلى المرآة لأريك ما يجب أن تتمنى لنفسك. أترى هذين الخطين بين عينيك، وهذين الحاجبين الكثيفين اللذين ينخسف ما

بينهما بدل أن يرتفع، وهذين العفريتين الأسودين الغائرين في وجهك، واللذين لا يفتحان نافذتيهما قط في جرأة، بل يلمعان من تحتهما كأنهما يتلصصان لحساب إبليس؟ عليك أن تتمنى، وأن تتعلم، وأن تبسط الأسارير العابسة المقطبة، وأن ترفع جفنيك في جرأة وصراحة، وأن تستبدل بهذين العفريتين ملاكين بريئين مفعمين ثقة بالنفس، لا يشكان ولا يرتابان في شيء، ويريان في الناس الصداقة حيث لا تكون العداوة سافرة أكيدة، لا يكن لك مظهر الكلب الخبيث الذي يلوح عليه أنه يعرف نفسه جديرًا بما يلقى من ركل، ومع ذلك يبغض راكله ويبغض الدنيا بأسرها من أجل ما يلقى».

أجاب: «وبعبارة أخرى، عليَّ أن أتمنى أن تكون لي عينا إدجر لنتن الزرقاوان الواسعتان وجبينه المنبسط، إنني أتمنى ذلك حقًّا، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه».

قلت: «إن القلب الطيب يضفي عليك وجهًا بشوشًا مشرقًا وإن كان لك سواد الزنوج، أما القلب الخبيث فيحيل الجمال قبحًا شنيعًا. والآن وقد فرغنا من الغسل والتمشيط والعبوس، أخبرني بربك ألا ترى وجهك وسيمًا؟ أما أنا فأراه كذلك، فأنت تصلح الآن لأن تكون أميرًا متنكرًا، ومن يدري، فلعل أباك إمبراطور الصين وأمك ملكة هندية، ولعل واحدًا منهما يستطيع أن يشتري وذرنج هيتس وضيعة ثرشكرس جميعًا بإيراد أسبوع واحد، ولعل جماعة من الملاحين الأشرار قد اختطفوك وحملوك إلى إنجلترا، ولو كنت في مكانك لظننت خير الظنون بمولدي، ولأضفت على هذه الظنون من الشجاعة وعزة النفس ما يجعلني أطيق المظالم التي ألقاها على يد مزارع صغير!».

ورحت أثرثر على هذا النحو، وانبسطت أسارير هيثكليف شيئًا فشيئًا وبدا عليه الانشراح، وإذا حديثنا يقطعه صوت عربة تصعد الطريق، ثم تدخل فناء الدار، فجرى هيثكليف إلى النافذة وجريت إلى الباب، وإذا إدجر لنتن وشقيقته يهبطان من عربة الأسرة وقد تدثرا بالمعاطف والفراء، ومستر إيرنشو وزوجته يترجلان عن جواديهما لأنهما كانا كثيرًا ما يركبان إلى الكنيسة في الشتاء، وأخذت كاثرين يد كل من الصبيين وأدخلتهما البيت وأجلستهما إلى المدفأة، فدفعت حرارتها الدم سريعًا في وجهيهما الشاحبين.

وألححت على صاحبي أن يدخل الآن ويبدو في ألطف حالاته فأطاع راضيًا. وبينما كان يفتح الباب المؤدي من المطبخ إلى غرفة الجلوس من ناحية، شاء سوء الطالع أن يفتحه هندلي من الناحية الأخرى، والتقى الاثنان، واستشاط هندلي غيظًا حين رآه نظيفًا مشرقًا، أو لعله كان حريصًا على الوفاء بوعده لمسز لنتن، فدفعه إلى الخلف دفعة مفاجئة، ثم قال لجوزيف محنقًا: «أقصِ هذا الصبي عن الحجرة، أرسله إلى حجرة السطح حتى ينتهي الغداء، سيدس أصابعه في الكعك ويسرق الفاكهة لو تُرك لحظة بقربها».

ولم يسعني إلا أن أقول له: «لا يا سيدي، إنه لن يمس شيئًا، فليس هذا من عادته، وأحسبه واجبًا أن يأخذ حظه من هذه الأطايب مثلنا سواء بسواء».

فصاح هندلي: «سيأخذ حظه ضربًا من قبضتي هذه إذا وقع بصر عليه في أسفل الدار حتى الليل. اغرب عن وجهي أيها الصعلوك! ماذا! أتحاول أن تبدو أنيقًا؟ انتظر حتى أمسك بهذه الخصل الأنيقة وأشدها لتزداد طولًا!».

وقال الفتى لنتن وهو يطل من الباب: «إنها في غير حاجة لمزيد من طول، ومن عجب أنها لا تسبب له صداعًا؛ فهي أشبه بعرف المهر يتساقط على عينيه».

وكان إدجر يسوق هذه الملاحظة غير متعمد إهانة هيثكليف، ولكن طبع هيثكليف

الحاد لم يطق ظل الوقاحة من صبي كان يمقته مقت الغريم لغريمه حتى في تلك الفترة، فأمسك بصفحة من صلصة تفاح ساخنة -وكانت أول ما وقع تحت يده- وقذف بها في وجه الصبي وعنقه، وراح هذا يولول بصوت عال جلب إيزابيلا وكاثرين على عجل، فما كان من مستر إيرنشو إلا أن قبض على المذنب من فوره وحمله إلى حجرته، ولست أشك في أنه جرعه دواء مرًّا ليلطف من سورة غضبه، فقد رأيته يعود محتقن الوجه مبهور الأنفاس. وجئت بمنشفة ومسحت ما علق بأنف إدجر وفمه في شيء من الغل وأنا أؤكد له أنه نال جزاءه لتدخله فيما لا يعنيه. وبدأت شقيقته تبكي طالبة الرجوع إلى بيتهما، ووقفت كاثي مرتبكة وقد تضرج وجهها خجلًا بالنيابة عن أهل الدار.

وقالت للفتى إدجر تعاتبه: «ما كان لك أن تكلمه! فلقد كان غاضبًا محتدًّا. والآن قد أفسدت زيارتك، وسيجلد هيثكليف بسببك، وإنني لأكره أن يجلد! لن أستطيع أن أتناول غدائي. لِمَ كلمته يا إدجر؟».

فقال الفتى باكيًا، وقد أفلت من يدي وأتم تنظيف وجهه بمنديله المصنوع من التيل الرفيع: «إنني لم أكلمه، لقد وعدت أمي ألا أوجه إليه كلمة، وقد بررت بوعدي».

فقالت كاثرين في احتقار: «لا عليك الآن وكُفّ عن البكاء فإنه لم يقتلك، لا تشاغب بعد الآن، ها هو ذا أخي قادم فاهدأ، وأنتِ يا إيزابيلا، صه! هل أصابك أحد بسوء؟».

وصاح هندلي وهو يدخل في عجلة: «حسبكم أيها الأطفال، إلى مقاعدكم، لقد أدفأني هذا الحيوان دفئًا عجيبًا، إذا اعتدى عليك أحد بعد ذلك يا إدجر، فعليك أن تدافع عن نفسك بيدك، فسيشحذ هذا شهيتك».

واستعادت الجماعة الصغيرة هدوءها حين رأى أفرادها الأطعمة تفوح نكتها وهم جياع إثر رحلتهم، ولم يكن من العسير تطييب خاطر الطفلين لأنه لم يصبهما أذى حقيقي. وسخا مستر إيرنشو في توزيع الطعام عليهم، وأشاعت زوجه البهجة بحديثها المرح، ووقفت أنا خلف مقعدها، وحز فيَّ أن أرى كاثرين وقد راحت تقطع جناح الإوزة التي أمامها بعد أن كفكفت عبراتها، ولم يبد عليها الاكتراث بما حدث، وقلت لنفسي: «يا لها من فتاة غليظة القلب، ما أيسر ما تنسى آلام صاحبها القديم! لم أكن أتصور أنها أنانية إلى هذا الحد»، ثم رأيتها ترفع لقمة إلى فمها، ولكنها ردتها، وتوهجت وجنتاها وانهمر الدمع من فوقهما، فأسقطت شوكتها على الأرض ثم انحنت على عجل تحت غطاء المائدة لتخفي انفعالها، ولم أعد أرميها بيني وبين نفسي بالغلظة لأنني شهدتها سحابة يومها تتعذب وهي تحاول أن تخلو إلى نفسها أو تزور هيثكليف الذي حبسه رب البيت، وذلك حين حاولت أن أهرب إليه نصيبًا من الطعام. وفي المساء رقصنا، وتوسلت كاثي إلى أخيها أن يفرج عنه لأنه لم يكن لإيزابيلا لنتن مراقص، ولكن توسلاتها ذهبت أدراج الرياح، وعينت أنا لأقوم مقامه، وأنستنا نشوة الرقص كل هم واكتئاب، وزاد من بهجتنا وصول فرقة جمرتن التي تضم خمسة عشر عازفًا يعزفون على البوق والترمبون والماصول والمزمار والنفير والكمان، وذلك فضلًا عن المغنين، وهذه الفرقة تزور الأسر المحترمة في تجوالها وتنال عطاء في كل عيد ميلاد، وكان الاستماع إليها في نظرنا متعة أي متعة. وبعد أن أنشدت الفرقة أناشيد الميلاد المألوفة، طلبنا إلى أفرادها أن يغنوا أغاني وطقاطيق، وأحبت مسز إيرنشو موسيقاهم فعزفوا لها منها الكثير، وكذلك أحبتها كاثرين، ولكنها قالت إنها تكون أوقع وأجمل إذا سمعت على قمة السلم، ثم صعدت السلم في الظلام، وصعدت من خلفها، وأغلق القوم حجرة الجلوس في أسفل الدار غافلين عن غيابنا؛ لأن المكان كان غاصًّا بالناس، ولكن كاثي لم تمكث على قمة السلم، بل مضت إلى الحجرة العليا حيث كان هيثكليف محبوسًا ونادته، ومضت لحظة وهو يأبى في عناد أن يستجيب لندائها، ولكنها ثابرت،

وأخيرًا أغرته بالتحدث إليها من خلف ألواح الباب. وتركت المسكينين يتجاذبان الحديث دون أن أعكر عليهما صفاءهما، حتى خلت الغناء قد شارف ختامه، وأن المغنين في حاجة إلى شيء من طعام وشراب، فصعدت السلم لأحذرها، ولكني سمعت صوتها ينبعث من الحجرة بدل أن أجدها في خارجها، ذلك أن النسناسة الصغيرة قد تسلقت كوة إحدى الحجرتين وسارت على السقف حتى بلغت كوة الحجرة الأخرى، ووجدت عناء كبيرًا في حملها على الخروج، فلما خرجت خرج معها هيثكليف، وأصرت هي على أن آخذه إلى المطبخ؛ لأن جوزيف كان قد انطلق إلى بيت أحد الجيران فرارًا من سماع هذه «الألحان الشيطانية» كما طاب له أن يسميها، فقلت لهما إنني لست أنوي ألبتة أن أشجعهما على هذه الألاعيب، ولكن لما كان السجين لم يذق طعامًا منذ غداء أمس، فإنني سأغضي هذه المرة عن خداعه لمستر إيرنشو، فهبط إلى أسفل الدار، وأعددت له مقعدًا بجوار النار، وقدمت له بعض أطايب الطعام، ولكن نفسه كانت جائشة، فلم يصب من الطعام إلا قليلًا، ولم تجدِ محاولاتي في تسليته، فقد أسند مرفقيه إلى ركبتيه، وذقنه إلى يديه، وغرق في تأملاته الصامتة، ولما سألته فيم يفكر، قال في جد: «أحاول أن أستقر على الطريقة التي أثأر بها لنفسي من هندلي، ولن يضيرني طول الانتظار ما دمت بالغًا منه وطري في النهاية، وإني لأرجو ألا يدركه الموت قبلي!».

قلت: «ياللعار يا هيثكليف! لنترك عقاب الأشرار لله، أما نحن فعلينا أن نتعلم الصفح والغفران».

أجاب: «لا، إن الله لن ينال ما سوف أنال من شفاء لغليلي، ليتني أهتدي إلى أمثل وسيلة للانتقام، دعيني وحدي، فسأرسم خطة انتقامي منه، فإني أنسى ما بي من ألم حين يشتغل ذهني بهذا الأمر».

ولكنني أنسى يا مستر لوكوود أن هذه القصص لا يمكن أن تكون مبعث تسلية لك، وأنه ليغيظني أن أمضي في الثرثرة بهذه السرعة، وقد برد حساؤك والنوم يداعب جفنيك! لقد كان بوسعي أن أقص عليك تاريخ هيثكليف في بضع كلمات، وهو كل ما تبغي معرفته!».

وبعد أن قطعت الخادم حديثها، قامت وهمَّت بإلقاء حياكتها جانبًا، ولكنني ألفيتني عاجزًا عن مغادرة المدفأة، وكان النعاس أبعد الأشياء عن جفني، فصحت بها: «الزمي مكانك يا مسز دين، بربك هلا أطلت جلستك نصف ساعة آخر! لقد كان سردك هذه القصة تفصيلًا عين الصواب؛ فتلك هي الطريقة التي أحبها، وعليكِ أن تتميها بالأسلوب عينه، فإن كل الشخوص الذين ذكرت يثيرون في نفسي اهتمامًا قل أو كثر».

قالت: «إن الساعة توشك أن تدق الحادية عشرة يا سيدي».

قلت: «لا عليكِ من هذا، فأنا لا آوي إلى مخدعي إلا بعد منتصف الليل، وليس السهر إلى الواحدة أو الثانية صباحًا بالشيء الكثير على من يظل في فراشه حتى العاشرة صباحًا».

قالت: «يجب ألا تظل في فراشك حتى العاشرة، وإلا فاتتك أجمل ساعات الصباح، ومن لم يؤدِ نصف عمله قبل العاشرة قد يعجز عن أداء نصفه الثاني».

«بيد أني أرجوكِ يا مسز دين أن تعودي إلى مكانكِ؛ لأنني أنوي أن أطيل الليل حتى العصر، فإني على أي حال أتنبأ بأن بردًا شديدًا سيلزمني الفراش».

«أرجو ألا يحدث هذا يا سيدي، وما دمت تريدني أن أتم قصتي، فاسمح لي أن أقفز بها قرابة ثلاثة أعوام، ففي هذه الفترة كانت مسز إيرنشو...».

«لا، لا، لست أسمح بهذا قط، ألم يقع لك، وأنت جالسة وحدك والقطة تلعق جروها على البساط أمامك، أن ترقبي هذه العملية في انتباه بالغ حتى ليغيظك أشد الغيظ أن تغفل «بوسي» لعق إحدى الأذنين؟ ألم تمر بكِ هذه الحالة النفسية؟».

- رأيي أن هذه حالة نفسية تنم عن الكسل الشديد.

«لا بل النشاط المتعب، تلك حالتي الآن، فامضي في قصتك إذن ولا تغفلي تفصيلًا، فإني أرى أن الناس في هذا الريف يكتسبون أهمية تفوق أهميتهم في المدينة، كما أن عنكبوت السجن المظلم أهم في عين السجين من عنكبوت البيت في نظر سكانه، ولكن اشتداد يقظة أهل الريف لا يعزى كله إلى أنهم يقفون موقف المشاهد، فهم يعيشون عيشة الجد والانطواء على أنفسهم لا عيشة سطحية متغيرة لا تعنى إلا بالمظاهر التافهة. وفي وسعي أن أتصور حب الحياة أمرًا ممكنًا هنا، وقد كنت من الكافرين بوجود أي حب يحول عليه الحول. وتشبه إحدى العيشتين أن يقدم لرجل جائع لون واحد من الطعام يقبل عليه بجملته فيصيب منه حظًّا وافرًا، بينما تشبه الأخرى أن تقدم إليه مائدة أعد ألوانها طباخون فرنسيون مهرة، فقد يستطيع أن يصيب مثل متعته تلك من الألوان جملة، ولكن اللون الواحد منها لا يمثل في نظره وذاكرته سوى ذرة بسيطة».

قالت مسز دين وقد حيرها كلامي بعض الحيرة: «أوه، إنك لو عرفتنا لوجدتنا كسائر الخلق في أي مكان آخر».

أجبت: «عفوًا، فإنك يا صديقتي شاهد على نقيض ما تزعمين، فإذا نحن ضربنا صفحًا عما يشوب حديثك من عبارات ريفية طفيفة، فإنك بعد هذا خلو من الطباع التي ألفت أن أعدها من خصائص الطبقة التي تنتمين إليها، وأنا واثق أنك فكرت أكثر مما يفكر عامة الخدم، فلقد أكرهت على تدريب قواك المفكرة بسبب افتقارك إلى مناسبات تبددين فيها حياتك هباء في توافه سخيفة».

وضحكت مسز دين، ثم قالت: «الحق أنني أعد نفسي إنسانًا رزينًا عاقلًا، ولست أعزو هذا بالضبط إلى حياتي بين هذه الربى أو إلى رؤيتي وجوهًا واحدة وضروبًا من العمل متكررة على مدار العام، بل أعزوها إلى ما حزت من تهذيب صارم علمني الحكمة. ولا تنس أنني قرأت أكثر مما تتصور يا مستر لوكوود، فليس في هذه المكتبة كتاب لم أتصفحه وأخلص منه بفائدة - اللهم إلا هذا الصف من الكتب اليونانية واللاتينية، وذلك الصف من الكتب الفرنسية، وحتى هذه أستطيع التمييز بين بعضها والبعض، وذلك قصارى ما ينتظر من ابنة رجل فقير، على أنه ما دام حتمًا عليَّ أن أتم قصتي وفق قواعد الثرثرة وأصولها الصحيحة، فخير لي أن أمضي فيها من حيث وقفت، وبدل أن أقفز ثلاث سنوات يكفيني أن أنتقل إلى الصيف التالي - صيف عام 1778، أعني قبل ثلاث وعشرين سنة تقريبًا.

* * *

الفصل الثامن

في صباح يوم صحو من أيام شهر يونية ولد أول طفل جميل تكفلت بتربيته، وكان آخر مولود تجري في عروقه دماء أسرة إيرنشو العريقة، كنا مشغولين بتجفيف الدريس في حقل بعيد حين رأيت الفتاة التي تجلب لنا الفطور عادة مقبلة علينا قبل موعدها بساعة وهي تعدو مجتازة المرج وصاعدة الزقاق وهي تناديني.

قالت وهي تلهث: «إنه طفل مدهش! إنه أجمل غلام وقع عليه نظري! ولكن الطبيب يقول إن أمه لن تعيش، فهي مصابة بالسل من شهور طويلة، وقد سمعته يفضي بهذا الحديث لمستر هندلي، ويقول إنه لا سبيل إلى رد الموت عنها، وإنها ستقضي قبل الشتاء، عليك أن تأتي إلى البيت فورًا، فقد تقرر أن تقومي على تربيته يا نلي، ستطعمينه سكرًا ولبنًا، وتعنين به ليل نهار، ليتني كنت في مكانك، فإن أمر الطفل سيؤول كله إليك بعد موت أمه!».

قلت وأنا ألقي بشوكتي وأعقد قبعتي: «أهي مريضة جدًّا؟».

أجابت الفتاة: «أحسبها كذلك، ولكنها تتجلد، وتتكلم كأنها تأمل أن يفسح لها في الأجل حتى تراه رجلًا، لقد طار صوابها فرحًا بالطفل لأنه رائع الجمال! وأنا واثقة أنني لو كنت مكانها لما مت، وإنما كنت أشفى بمجرد النظر إليه رغم ما تنبأ به كنث، لقد كدت أجن به فرحًا، نزلت السيدة آرتشر بالطفل الجميل إلى أبيه في حجرة الجلوس، وما إن تهلل وجهه بشرًا حتى أقبل عليه عجوز النحس يقول: «من فضل الله عليك أن مد الله في أجل زوجتك يا إيرنشو لكي تنجب لك هذا الغلام، لقد كنت واثقًا حين جاءتنا أنها لن تعمر طويلًا، والآن أرى من واجبي أن أقول لك إن الشتاء سيقضي عليها على الأرجح، فلا يرعك الأمر كثيرًا، ولا تذهب نفسك عليها حسرات، فليس في وسع أحد أن يرد هذا القضاء، ثم إنه كان واجبًا عليك أن تتخير لك زوجة خيرًا من هذه الصبية المهزولة!».

قلت: «وماذا كان جواب سيدي؟».

قالت: «أظنه سب ولعن، ولكني لم ألق إليه بالًا، فقد كان همي أن أرى المولود»، وعادت تطنب في وصف الطفل، وقد أخذت الحماسة منها كل مأخذ.

وهرعت إلى المنزل تحدوني حماسة كحماستها لأستمتع برؤية الوليد أنا الأخرى، وإن كنت جد محزونة من أجل هندلي، فقد كان في قلبه مكان لمعبودين لا ثالث لهما: زوجته وشخصه، وكان شديد الكلف بهما جميعًا، عابدًا لأحدهما، ولم أستطع أن أتصور كيف يطيق فقد زوجته.

بلغنا وذرنج هيتس فرأيناه واقفًا بالباب الأمامي، فسألته وأنا مارَّة به: «كيف حال الطفل؟».

أجاب وهو يتكلف ابتسامة مشرقة: «إنه يوشك أن يجري ويلعب يا نلي».

واجترأت على سؤال آخر: «وسيدتي؟ يقول الطبيب إنها...»، فقاطعني وقد احمر

وجهه: «قاتل الله الطبيب! إن فرنسيس بخير، وستسترد عافيتها تمامًا قبل أن ينقضي أسبوع. أصاعدة أنتِ إليها؟ هل لكِ أن تقولي لها إنني سآتي إليها إذا وعدت أن تكف عن الكلام، لقد تركتها لأنها تأبى أن تسكت، والسكوت لازم لها، قولي لها إن مستر كنث ينهاها عن الكلام».

وأبلغت الرسالة لمسز إيرنشو، وكانت تبدو في نشوة من الفرح، فأجابت في ابتهاج: «إنني لم أفه بكلمة تقريبًا يا آلن، ولكنه خرج مرتين باكيًا، حسن، قولي له إنني أعده بأن ألزم الصمت، ولكن هذا لا يلزمني بالكف عن الضحك عليه!».

يا للمسكينة! إن قلبها المرح لم يخنها حتى قبل موتها بأسبوع، وكان زوجها يؤكد في إصرار، بل في عنف وثورة إنها تتماثل للشفاء يومًا بعد يوم. فلما أنذره كنث بعدم جدوى العلاج والدواء بعد أن بلغت تلك المرحلة من المرض، وأنه لا يرى داعيًا لتكليفه فوق ما تكلف من النفقات في علاجها، رد عليه قائلًا:

«أعلم أنه لا داعي، فهي بخير، ولا حاجة بها لرعايتك بعد اليوم! فما كانت مسلولة ألبتة، وإنما كانت تعروها الحمى، وقد فارقتها الآن، فنبضها الآن في بطء نبضي، وخداها باردان كخدي».

وكان يزعم هذا لزوجته، ولاح أنها كانت تؤمن بما يقول. ولكن حدث ذات عشية أنها كانت تتكئ على كتفه وهي تقول له إنها تظن أنها تستطيع مغادرة فراشها في الغد، وإذا نوبة من السعال تنتابها، نوبة جد خفيفة، فرفعها بين ذراعيه، وطوقت عنقه بذراعيها، وأربد وجهها ثم ماتت.

وكانت العناية بالطفل هيرتن من نصيبي وحدي كما تنبأت الفتاة، وكان أبوه راضيًا من جهته ما دام يراه صحيحًا معافى ولا يسمع صراخه. أما هو نفسه فقد أصبح يائسًا مستهترًا، وكان حزنه من ذلك النوع الذي لا يشكو ولا يتوجع، فما كان يبكي ولا يصلي، وإنما كان يلعن ويتحدى -يجدف على الله والناس، ويسلم نفسه لحياة فاجرة طائشة، ولم يطل احتمال الخدم لطغيانه وشره، ولم يرضَ بالبقاء في خدمته غيري وغير جوزيف، فلم يكن قلبي ليطاوعني على ترك وديعتي الغالية، ثم إنني تربه في الطفولة كما تعلم، لذلك كنت أكثر من الغرباء استعدادًا لأن أغتفر له مسلكه، وبقي جوزيف لكي يأمر وينهي المستأجرين والعمال، ولأنه كان يرى ضرورة لوجوده حيثما وجد شرًّا كثيرًا يتطلب التوبيخ والتعنيف.

وقد ضرب رب البيت أسوأ الأمثلة لكاترين وهيثكليف بما أخذ به نفسه من مسلك سيئ وبمن صاحب من رفاق السوء. وكانت معاملته ليهثكليف كافية لأن تحيل القديس شيطانًا رجيمًا، والحق أن الغلام بدا كأن روحًا شيطانية تتقمصه في تلك الفترة، فقد أثلج صدره أن يرى هندلي ينزلق إلى الحمأة التي لا أمل له في الخلاص منها، ولاحظ الناس عليه يومًا بعد يوم أمارات الاكتئاب الوحشي والضراوة. ولست أراني قادرة على أن أوفي بالوصف هذا الجحيم الذي كان البيت كله يتلظى بناره، وكف القسيس عن زيارتنا، وانتهى به الأمر بقطع صلته بنا، ولم يكن يخالطنا إنسان يحترم نفسه، هذا إذا استثنينا زيارات إدجر لنتن لمس كاثي، وكانت وهي في الخامسة عشرة تبدو ملكة جمال الريف غير منازعة، فلا عجب أن ملأ جوانحها الصلف والعناد! وأشهد أنها لم تعد تعجبني بعد أن اجتازت عهد الطفولة، وكنت كثيرًا ما أغيظها بمحاولتي التخفيف من غلوائها، ومع ذلك فإنها لم تكرهني قط؛ لأنها أوتيت وفاء عجيبًا لأصدقائها القدامى، وحتى هيثكليف ظل مستحوذًا على محبتها دون أن يعتريها تحول. ووجد الفتى لنتن مشقة في أن يقع من

نفسها هذا الموقع العظيم رغم كل ما أوتي من أسباب التفوق على هيثكليف، وكان إدجر مخدومي الأخير، وتلك صورته التي تراها فوق المدفأة، وكانت تعلق عادة على جانب، وعلى الجانب الآخر صورة زوجته، ولكن صورتها انتزعت، وإلا لكنت أريتك بعض جمالها، أتستطيع أن تتبين ملامحه في هذه الصورة؟

ورفعت مسز دين الشمعة، فتبينت وجهًا لطيف القسمات كبير الشبه بوجه الشابة التي رأيتها في وذرنج هيتس، ولكنه أكثر تفكيرًا ورقة، وكان حلو الصورة يتجعد شعره الطويل الأشقر تجعدًا خفيفًا فوق صدغيه، أما عيناه فواسعتان تنمان عن الجد والرزانة، وأما الجسم فيكاد يكون مفرطًا في رقته. ولم أعجب كيف استطاعت كاثرين إيرنشو أن تنسى صديقها أمام هذا الفتى، وإنما استبعدت عليه أن يتصور عقله، الذي يوائم شخصيته، فكرتي عن كاثرين إيرنشو.

قلت للخادم: «إنها صورة جد لطيفة، أهي تشبه صاحبها؟».

أجابت: «نعم، ولكنه كان يبدو أروع حين تدب فيه الحيوية، تلك هيئته العادية، فقد كان على العموم يفتقر إلى حرارة العاطفة».

وكانت كاثرين قد احتفظت بصلتها بأسرة لنتن منذ أقامت الأسابيع الخمسة بين ظهرانيهم؛ وإذ لم يكن هناك ما يحملها على عرض الجانب الخشن من طبعها على أنظارهم وهي في صحبتهم، وإذ كان لها من الحصافة ما يجعلها تخجل من السلوك القبيح في مكان لقيت فيه الاحترام على الدوام، فقد خدعت الشيخين، غير عامدة، بأدبها، واكتسبت إعجاب إيزابيلا وملكت لب أخيها، وطابت نفسها بما بلغته منهم منذ البداية؛ لأنها كانت شديدة الطموح، فحملها ذلك على اصطناع خلق مزدوج دون أن تتوفر عندها بالضبط نية الخديعة والتمويه، فقد تحرزت من أن تسلك كما يسلك هيثكليف وهي في بيت تسمع أهله ينعتونه «بالوغد الصغير» ويصفونه بأنه «أشد ضراوة من الوحش»، ولكنها لم تجد في بيتها إلا قليلًا من الميل لممارسة أدب لا يجلب عليها غير سخرية أهله منها، أو لكبح طبع جموح ما دام كبحه لن يكسبها فضلًا ولا إطراء.

وقلما كان مستر إدجر يستجمع الشجاعة الكافية لزيارة وذرنج هيتس جهارًا، فقد كانت سمعة إيرنشو تروعه، وكان يخشى أن يلقاه، ومع ذلك فقد كنا نستقبله على الدوام بأفضل ما نستطيع من أدب ومجاملة، وكان إيرنشو نفسه يتحاشى الإساءة إليه إذ كان يعلم السر في زياراته، وكان لا يضايقه بوجوده إذا لم يستطع أن يتلطف معه. وفي ظني أن كاثرين كانت تكره أن تراه في بيتها، فهي لم تكن بالفتاة المخادعة، ولم تقم قط بدور الفتاة اللعوب، ومن الجلي أنها لم تكن لترضى أن يلتقي صديقاها على الإطلاق، فهي لا تستطيع أن تغضي عن هيثكليف وهو يظهر احتقاره للنتن أثناء وجوده كما كانت تغضي في غيبته، وحين كان لنتن يظهر الاشمئزاز والكراهية لهيثكليف لم تكن تجرؤ على السكوت أمام عواطفه هذه كأنها لا تبالي الانتقاص من قدر رفيق صباها. وما أكثر ما أضحكتني حيرتها ومتاعبها التي لا تنتهي، والتي كانت تحاول عبثًا سترها عن سخريتي، وقد يبدو لك هذا مني دليلًا على طبيعة شريرة فيَّ، ولكن الواقع أنها بلغت من الخيلاء حدًّا يستحيل معه على المرء أن يرثي لكربها ما لم تخفف من غلوائها وتتعلم من الألم أن تكون أكثر تواضعًا، على أنها في النهاية أقنعت نفسها بأن تفضي لي بسرها وتضع ثقتها فيَّ؛ لأنها لم تجد على الأرض مخلوقًا سواي تستطيع أن تتخذ منه ناصحًا ومشيرًا.

وكان مستر هندلي قد خرج من البيت عصرًا، وصحت نية هيثكليف على منح نفسه إجازة بناء على ذلك، وأظنه كان قد بلغ السادسة عشرة من عمره حينذاك، ومع أنه لم يكن

دميمًا ولا ناقص الذكاء، فإنه أفلح في تنفير الناس من مظهره ومخبره على السواء، وهو تنفير لا تتبين فيه آثاره اليوم. فضيع أول ما ضيع في هذه الفترة ما كان قد أصاب من تعليم في طفولته، وأطفأ الكدح المتصل من الصباح الباكر حتى العشية ما كان في نفسه يومًا من تعطش للمعرفة أو ولع بالكتب والدرس، وذوى فيه شعور السيادة الذي غرسته فيه مآثر الشيخ إيرنشو إبان طفولته، ولقد كافح طويلًا ليحتفظ بمستوى كاثرين في دراستها، ثم انتهى به الأمر إلى إلقاء السلاح والاستسلام في حسرة آلمت نفسه وإن طوى عليها الجوانح. ولكن استسلامه كان تامًّا، ولم تجد المحاولات في إقناعه بأن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام في سبيل رفع شأنه حين وجد ألَّا مناص له من الهبوط عن سابق مستواه، ثم فسد مظهره كما فسد ذهنه، فأصبح يمشي متبلدًا مسترخيًا، وينظر إلى الناس نظرات منكرة، وغالى في تحفظه الطبيعي غلوًّا أخرق، فغدا شديد الاكتئاب والنفور من الناس، ويلوح أنه كان يجد لذة منكرة في إثارة كراهة أصحابه القليلين بدلًا من ا كتساب احترامهم وتقديرهم.

وكان لا يزال هو وكاثرين رفيقين وفيين في فترات راحته من العمل، ولكنه لم يعد يعرب لها بشفتيه عن تعلقه بها، وأصبح يجفل في ريبة وغضب من عناقها الصبياني كأنه يحس أن ما تغدقه عليه من مظاهر الود لا يمكن أن يكون فيه ترضية له. ففي ذلك اليوم دخل البيت معلنًا أنه لا ينوي القيام بعمله، وكنت أعين مس كاثي على ارتداء ثوبها، ولم يكن يدور بخلدها أنه اعتزم البطالة يومها، وإذ كانت تحسب أنها ستكون وحيدة في البيت، فقد استطاعت بطريقة ما أن تنبئ مستر إدجر بأن أخاها غائب، واستعدت لاستقباله.

وسألها هيثكليف: «أمشغولة أنتِ هذا العصر يا كاثي؟ أذاهبة أنتِ إلى أي مكان؟»، أجابت: «كلا، فالسماء تمطر».

قال: «إذن فلِمَ تلبسين هذا الثوب الحريري؟ أرجو ألا يكون هناك زوار تنتظرين قدومهم؟».

فتمتمت قائلة: «لا علم لي بقدوم زوار، ولكن يجب أن تكون الآن في الحقل يا هيثكليف، لقد مضت ساعة على الغداء، وقد حسبتك انطلقت إلى الحقل».

قال الغلام: «إن هندلي لا يعفينا كثيرًا من وجوده اللعين، لن أشتغل اليوم فوق ما اشتغلت، سأمكث معك».

قالت: «أوه، ولكن جوزيف سيشي بنا، فخير لك إذن أن تنصرف!».

قال: «إن جوزيف يحمل العربة جيرًا من تل «بنستن» البعيد، وسيشغله هذا حتى المساء، ولن يعلم من أمرنا شيئًا».

قال هذا ثم مضى متباطئًا إلى المدفأة وجلس، وفكرت كاثرين لحظة وقد قطبت جبينها، فوجدت من الضروري أن تمهد لقدوم زائرها المرتقب، فقالت بعد أن سكتت هنيهة: «لقد تحدثت إيزابيلا لنتن وأخوها إدجر عن رغبتهما في المجيء هذا العصر، ولكني لست أتوقع مجيئهما بسبب هطول المطر، على أنهما قد يحضران، فإذا فعلا عرضت نفسك للتقريع دون مبرر».

قال في عناد: «مري آلن أن تخبرهما بأنك مشغولة يا كاثي، لا تطرديني من أجل

صديقيك الأبلهين الحقيرين! إنني أجد نفسي أحيانًا على وشك الشكوى من أنهما... ولكنني سأمسك».

وصاحت كاثرين: «إنهما ماذا؟»، وكانت تتفرس فيه مضطربة الوجه، ثم قالت في نزق وهي تنفض رأسها بعيدًا عن يدي: «أوه يا نلي! لقد محوت التجاعيد تمامًا من شعري بتمشيطك إياه، حسبك هذا واتركيني. مم تريد أن تشكو يا هيثكليف؟».

قال: «لا شيء، فقط انظري إلى التقويم الذي على الحائط»، ثم أشار إلى لوحة في إطار معلقة قرب النافذة، وواصل حديثه قائلًا: «إنني وضعت صلبانًا أمام الأمسيات التي أنفقتها مع ابني لنتن، ونقطًا أمام تلك التي أنفقتها معي. أرأيت؟ لقد وضعت علامة أمام كل يوم».

فأجابت كاثرين ساخطة: «نعم، وإنه لعمل أخرق، فإنك تحسبني أهتم! وأي مغزى في هذا؟».

قال هيثكليف: «إنه يريك أنني أنا الذي أهتم».

فسألته وقد استشاطت غيظًا: «وهل حتم عليَّ أن أجالسك طوال الدهر؟ وأي خير أجنيه من وراء هذا؟ وما موضوع أحاديثك؟ إنك لا تتحدث، بل لا تعمل ما يبعث على تسليتي أكثر مما لو كنت فتى أبكم أو طفلًا رضيعًا».

قال مضطربًا أشد الاضطراب: «إنك لم تقولي لي قط إنني قليل الكلام أو إنك تكرهين صحبتي يا كاثي».

قالت: «إنها لا تكون صحبة على الإطلاق ما لم يعرف الصاحب شيئًا أو يفه بشيء».

ونهض صاحبها، ولكنه لم يتمهل حتى يعرب عن عواطفه أكثر مما أعرب؛ لأن وقع حوافر جواد سمع على البلاط، وإذا الفتى لنتن يدخل بعد أن قرع قرعًا خفيفًا، وقد تلألأ وجهه ابتهاجًا بالدعوة المفاجئة التي تلقاها، ولا شك أن كاثرين لاحظت الفرق بين صاحبيها حين دخل الواحد وخرج الآخر، وكان التضاد شبيهًا برؤيتك واديًا خصبًا جميلًا بعد منطقة وعرة جرداء من مناطق الفحم، وكان إدجر يختلف عن هيثكليف في صوته وتحيته اختلافه في مظهره، كان له في الحديث أسلوب لطيف خافت، وكانت مخارج ألفاظه شبيهة بمخارج ألفاظك -أعني أكثر رقة وتهذيبًا مما ألفنا هنا.

قال وهو يلقي عليَّ نظرة: «أخشى أن أكون قد تعجلت المجيء»، وكنت قد بدأت مسح الأطباق وترتيب الأدراج في أقصى الخزانة.

وأجابت كاثرين: «لا. ماذا تفعلين هناك يا نلي؟».

أجبتها: «أؤدي عملي يا آنسة»، وكان مستر هندلي قد أمرني بألا أترك إدجر وكاثرين وحدهما متى أتى لزيارتها.

فدنت من خلفي وهمست في أذني غاضبة: «اغربي بممسحتك بعيدًا، فإن الخدم لا يبدأون المسح والتنظيف إذا كان في الغرفة ضيوف».

قلت في صوت عال: «إنها فرصتي لأن سيدي ليس هنا، فهو يكره مني أن أعبث بهذه الأشياء في حضرته، إنني واثقة أن مستر إدجر يعذرني».

وقالت الفتاة في غطرسة دون أن تتيح لضيفها فرصة الكلام: «إنني أكره عبثك هذا في حضرتي أنا»، وكان هدوؤها قد فارقها بعد مشاجرتها مع هيثكليف، ولم تستطع أن تملك بعد ذلك أعصابها.

وأجبتها: «إنني آسفة يا مس كاثرين»، ثم واصلت عملي في جد ومثابرة.

فاختطفت من يدي قطعة القماش، وقد خُيِّل إليها أن إدجر لا يراها، ثم قرصت ذراعي قرصة طويلة تنطوي على الغل الشديد، وقد قلت لك إنني لم أكن أحبها، بل إنه كان يطيب لي أحيانًا أن أذل كبرياءها، ولا تنس أن القرصة آلمتني كل الألم، فقمت بعد أن كنت جاثية وأخذت أصيح بها: «أواه، إنها حيلة دنيئة يا آنسة! ليس لكِ أن تقرصيني، وإنني لن أسكت على هذه المعاملة».

وصاحت وهي تتحرق شوقًا إلى قرصي ثانية، وقد احمرت أذناها غضبًا: «إنني لم أمسسك أيتها الكذابة!»، ولم يكن لديها القدرة على كظم غيظها، وكان وجهها كله يتقد إذا غضبت.

أجبتها وقد جابهتها بشاهد أزرق اللون على ذراعي يدحض افتراءها: «إذن فما هذا؟».

وضربت الأرض بقدمها وترددت لحظة، ثم غلبها على أمرها خبث روحها وحمو طبعها، فصفعتني على خدي صفعة حادة طفر لها الدمع من عيني.

وهنا تدخل لنتن وقد راعه هذا الخطأ المزدوج الذي اقترفته معبودته، الكذب والعنف، فقال لها: «حبيبتي كاثرين! كاثرين!».

وأعادت أمرها لي بالخروج وقد انتفض بدنها كله: «اخرجي من الغرفة يا آلن!».

ولما رأى الطفل هيرتن دموعي -وكان يتبعني كظلي، وقد جلس إلى جواري على الأرض- بدأ يبكي هو أيضًا، وأخذ في نحيبه يشكو من «العمة الشريرة كاتي»، فأثار هذا سخطها عليه فصبته على رأسه المسكين، وأمسكت بكتفيه وأخذت تهزه حتى ازرق لون الطفل الشقي، وأمسك إدجر بيديها دون تفكير لينقذ الطفل، وما هي إلا لحظة حتى كانت قد خلصت إحدى يديها من قبضته، وأحس الفتى وقعها وهي تصك وجهه صكًا لا يمكن أن يحمل على محمل المزاح، فتراجع في فزع، ورفعت هيرتن بين ذراعي، ومضيت به إلى المطبخ تاركة الباب الذي بينه وبين الغرفة مفتوحًا لأني كنت أتوق إلى أن أرقبهما لأرى كيف يسويان نزاعهما، ورأيت الفتى المُهان يمضي إلى حيث وضع قبعته، ممتقع اللون مرتجف الشفتين.

قلت في نفسي: «حسنًا تصنع! ليكن في هذا عبرة لك فاتركها، وإن من الرحمة بك أن ترى لمحة من خلقها الأصيل».

وسألته كاثرين وهي تتقدم إلى الباب: «إلى أين؟».

فتفاداها وحاول المرور.

وصاحت في حدة: «يجب ألا تنصرف!».

وأجاب في صوت خافت: «بل يجب، وأنا منصرف حتمًا».

فقالت في لجاجة وهي تمسك بأكرة الباب: «لا، ليس الآن يا إدجر لنتن، الزم مجلسك، فإنك لن تتركني وأنا غاضبة، وإلا سببت نكدي وتعاستي طوال ليلتي، ولست أريد أن أكون تعيسة بسببك!».

فسألها لنتن: «أفي وسعي أن أمكث معكِ بعد أن صفعتني؟».

ولزمت كاثرين الصمت.

وواصل حديثه قائلًا: «لقد جعلتني أخشاك وأخجل منكِ، لن آتي إلى هنا ثانية».

وبدأ الدمع يترقرق في عينيها، وأخذ جفناها يطرفان.

ثم قال: «وقد كذبت عامدة».

فصاحت وقد انطلق لسانها ثانية: «لم أكذب، لم أفعل شيئًا عامدة،

امض إذا شئت، اخرج، والآن سأبكي حتى يعييني البكاء».

ووقعت على ركبتيها إلى جوار مقعد، وطفقت تبكي بكاء حارًا، ومضى إدجر في إنفاذ ما اعتزم إلى أن بلغ فناء الدار، ثم تباطأ، فعزمت على أن أشجعه.

وصحت به: «إنها فتاة جموح حرون كالطفل المدلل يا سيدي، وخير لك أن تركب عائدًا إلى بيتك وإلا مرضت وسببت لنا النكد والعناء».

ونظر الفتى الضعيف شزرًا من خلال النافذة، فلم يكن يملك من قدرة على الانصراف عنها أكثر مما يملك القط من قدرة على ترك فأر لم يجهز عليه أو عصفور لم يفرغ من أكله. وقلت لنفسي: «واهًا له! لا سبيل إلى إنقاذه، فهو مقضي عليه بالهلاك، وهو يلقي بنفسه إلى مصيره المحتوم»، وكذلك كان، فقد انقلب على عقبيه فجأة وهرول عائدًا إلى الحجرة وأغلق الباب من خلفه. ولما دخلت بعد لحظة لأنذرهما بعودة إيرنشو ثملًا مخمورًا يريد أن يهدم البيت كله فوق رؤوسنا -فقد كان ذلك شأنه حين تلعب الخمر برأسه- رأيت أن المشاجرة لم تسفر إلا عن توثيق عرى الصداقة بينهما، فقد حطمت ما يبدو على الشباب من تردد وإحجام، ومكنتهما من اطراح ستار الصداقة والاعتراف بالحب السافر.

وهرع لنتن لجواده حين سمع بمقدم مستر هندلي، وبادرت كاثرين إلى غرفتها، ومضيت لأخبئ الطفل هيرتن، ولأنتزع الرصاص من بندقية صيد أبيه، وكان ولوعًا بالعبث بها وهو ثمل، مما كان خطرًا على حياة كل من يستفزه، بل كل من يسترعي انتباهه فوق ما ينبغي، وكانت فكرة انتزاع الرصاص منها قد خطرت لي لأخفف من أذاه إذا تمادى في جنونه فأطلقها.

* * *

الفصل التاسع

دخل هندلي وهو يقذف بأبشع الشتائم، وقبض عليَّ وأنا أخبئ ولده في صوان المطبخ، وكان هيرتن يحس إزاء حبه الوحشي وغضبه الجنوني على السواء رعبًا نافعًا له؛ لأنه كان في أولهما عرضة لأن يهصره أبوه بين ذراعيه ويضنيه بقبلاته، وفي ثانيهما عرضة لأن يقذف به إلى النار أو الجدار، لذلك كان المسكين يلزم السكون التام أينما خبأته.

وصاح هندلي وهو يجذبني إلى الخلف من جلد عنقي كما تجذب الكلاب: «وأخيرًا وجدته! وحق السماء وجهنم، لقد أقسمتم فيما بينكم على قتل هذا الصبي! الآن أدركت السر في أنني لا أراه قط، ولكني بعون الشيطان سألقمك هذه السكين يا نلي! لا داعي للضحك، فقد ألقيت بكنث في مستنقع بلاكهورس ورأسه إلى القاع، ومن يفعل هذا بواحد يفعله باثنين، وإني لأشتهي أن أبطش ببعضكم، ولن أجد لنفسي شفاء وراحة حتى أفعل!».

فأجبته: «ولكني لست أحب سكين المطبخ يا مستر هندلي، فقد كنا نقطع بها الرنجة الحمراء، وخير لي أن ترميني برصاصك من فضلك».

قال: «خير لكِ أن تمضي إلى جهنم! وهذا ما سيحدث لك، فليس في إنجلترا قانون يمنع الإنسان من جعل بيته نظيفًا مهذبًا، وأنا أجد بيتي رجسًا لعينًا! افتحي فمك».

وأمسك بالسكين في يده، ودفع طرفها بين ثناياي، أما أنا فلم تكن تروعني كثيرًا هذه الشطحات، فبصقت، وأكدت له أنني لن أرضى بالموت بهذه السكين بحال أن طعمها كريه.

وقال وهو يطلق سراحي: «أوه! أرى أن هذا الوغد الصغير البغيض ليس هيرتن، معذرة يا نلي، ولو كان هو هيرتن لاستحق أن يسلخ جلده حيًّا لأنه لم يجرِ نحوي مرحبًا، ولأنه يصرخ كأنني عفريت من الجن. تعال هنا أيها الشبل العاق، سأعلمك كيف تغش أبًا طيبًا مخدوعًا، والآن ألا تظنين الصبي يكون أجمل لو صلمت أذناه؟ إن الكلب يستوحش حين يصلم، وأنا أحب منظر المتوحشين. عليَّ بمقص، أريده متوحشًا مقصوصًا! ثم إنه تصنع ممقوت وغرور شيطاني أن نرعى آذاننا ونداللها هذا التدليل، فإن فينا من خلق الحمير ما يكفي دون أن تكون لنا هاتان الأذنان. يا ولد، اسكت! إذن فأنت حبيبي الصغير! كفى كفى وكفكف دموعك. يا للولد اللطيف، قبلني! ماذا! أيأبى؟ قبلني يا هيرتن! تبًّا لك، قبلني! يمينًا أأكون أبًا لهذا الوحش؟ وحياتي سأدق عنق الطفل الحقير».

وكان هيرتن المسكين يصرخ ويرفس بكل ما أوتي من قوة وهو بين ذراعي أبيه، وتضاعف صراخه حين حمله وصعد به السلم ورفعه فوق حاجزه، وصحت به أنه سيصيب الفتى بنوبات من الرعب، وجريت لأنقذه، ولما بلغتهما، انحنى هندلي إلى الأمام على الحاجز لينصت لضوضاء صادرة من أسفل الدار وهو يكاد ينسى الطفل الذي بين يديه، وقال وقد سمع شخصًا يدنو من أسفل السلم: «من هذا؟»، وانحنيت إلى الأمام مثله لأعطي إشارة لهيثكليف بالتوقف، لأني تبينت أن الخطى خطاه، في هذه اللحظة التي فارقت عينَي فيها هيرتن، قفز الصبي بغتة وأفلت من قبضة أبيه الغافل، ثم سقط.

ولم يكد الرعب يغشانا لحظة، حتى رأينا الطفل المنكود قد نجا من الموت، ذلك أن

هيثكليف وصل إلى أسفل السلم في اللحظة المناسبة بالضبط، وتلقفه مدفوعًا بدافع فطري، فحال بينه وبين الهوي إلى الأرض، ثم أوقفه على قدميه ورفع عينيه فإذا هو يكتشف مسبب الحادث، ولو أن بخيلًا باع تذكرة يانصيب بخمسة شلنات ثم وجد في الغد أن هذه الصفقة قد ضيعت عليه خمسة آلاف من الجنيهات ربحتها الورقة، ما بدا على وجهه الذهول الذي بدا على هيثكليف حين رأى إيرنشو فوقه، فقد عبرت نظرته بأفصح بيان عن أشد الألم لأنه جعل من نفسه أداة لتعطيل انتقامه، ولو كان الوقت ليلًا، لحاول فيما أظن إصلاح خطئه بتحطيم رأس هيرتن على السلم، ولكنا رأينا الطفل وقد أنقذ، وما أسرع ما كنت في أسفل السلم أضم وديعتي الثمينة إلى صدري، وهبط هندلي على مهل وقد طارت الخمر من رأسه وجلله الخزي.

قال: «إنها غلطتك يا آلن، كان يجب أن تبعديه من طريقي، وكان ينبغي أن تأخذيه مني، هل أصابه سوء في أي عضو من جسمه؟».

فصحت به غاضبة: «سوء! سيكون أبله وإن نجا من الموت! عجبي كيف لا تقوم أمه من قبرها لترى عبثك بولدها! إنك شر من عابد الأوثان! كيف تعامل دمك ولحمك هذه المعاملة!».

وحاول أن يمس الصبي، وكان قد بكى حتى هدأ روعه حالما وجد نفسه بين ذراعَي، ولكن ما إن وضع أبوه عليه أول أصابعه حتى صاح ثانية بأعلى مما كان يصيح من قبل، وأخذ يقاومه كأنه يوشك أن يتشنج.

قلت: «لا شأن لك به، إنه يمقتك، إنهم جميعًا يمقتونك. ذلك هو الحق! ما أسعد أسرتك بك، وما أحسن الحال التي وصلت إليها!».

وضحك الرجل الضال وقد عاودته قسوته، وقال: «سأصل إلى حال أحسن من هذه يا نلي! أما الآن فاغربي أنتِ والطفل عن ناظري، وأنت يا هيثكليف، اغرب عن ناظري وسمعي أيضًا، فلست بقاتلك الليلة، إلا أن أشعل النار في البيت، وقد أشعلها، ولكن هذا رهن بمزاجي».

قال هذا وهو يخرج من الخزانة زجاجة من البراندي ويصب منه قدحًا.

فقلت له متوسلة: «لا، لا تفعل، هلا اتعظت يا مستر هندلي، ألا رفقًا بهذا الغلام الشقي إن كنت لا تترفق بنفسك!».

أجاب: «إن أي مخلوق سواي سيكون خيرًا له مني».

فقلت محاولة خطف القدح من يده: «إذن فارحم نفسك!».

قال المجدف: «لن أفعل! بل إنني سأجد لذة عظمى في القذف بهذه النفس إلى مهاوي الجحيم عقابًا لخالقها، إنني أشرب نخب عذابها في السعير».

وشرب الخمر، ثم أمرنا بالانصراف عنه وقد أخذ الضجر منه كل مأخذ، مختتمًا أمره بطائفة من السباب والشتائم احتوت من الفحش والنكر ما لا يليق تكراره أو تذكره.

وقال هيثكليف وهو يرد عليه صدى شتائمه بعد أن أغلق الباب: «من المؤسف أنه لا

يستطيع قتل نفسه بالخمر، إنه يحاول جهده، ولكن بنيته القوية تتحداه، إن مستر كنث يراهن على فرسه إنه سيعمر أطول من أي رجل في هذا الجانب من «جمرتن»، وسيمضي إلى قبره وقد شاب قرناه في الإثم والخطيئة ما لم يورده حتفه حادث سعيد غير عادي».

ومضيت إلى المطبخ، وجلست أهود لحملي الوديع، أما هيثكليف فقد خلته مضى إلى المخزن، ولكني تبينت فيما بعد أنه لم يتجاوز الجانب الآخر من المتكأ، وهناك تهالك فوق مقعد إلى الجدار بعيدًا عن المدفأة وظل ساكنًا لا يطرف.

وكنت أهدهد هيرتن على ركبتي وأهمهم بأنشودة ريفية، وإذا كاثي التي كانت تنصت للجلبة من غرفتها تدخل رأسها وتهمس قائلة: «أأنتِ وحدك يا نلي؟».

أجبتها: «نعم يا سيدتي».

فدخلت ودنت من المدفأة، ورفعت عيني إليها وأنا أتوقع أن تتكلم، فرأيت في وجهها ما ينبئ بالاضطراب والقلق.

وكانت شفتاها منفرجتين قليلًا كأنها تنوي الكلام، ثم تنفست، ولكنها عوضًا عن الكلام أطلقت من صدرها زفرة. وعاودت أنشودتي وأنا لم أنسَ بعد مسلكها الأخير معي.

وقاطعتني قائلة: «أين هيثكليف؟».

أجبتها: «إنه يقوم بعمله في الإسطبل».

ولم ينف هيثكليف ما ذكرته عنه، ولعل سنة من النوم كانت قد أخذته، وانقضت برهة طويلة رأيت خلالها دمعة أو دمعتين تنحدران من خد كاثرين إلى الأرض، وساءلت نفسي، أتراها آسفة لمسلكها المخزي؟ إذن لكان هذا بدعًا لم أعهده فيها، على أنني سأترك لها عبء مفاتحتي في هذا الشأن ولن أقدم لها المعونة في ذلك، فما كان أيسر الحديث عليها في أي شأن غير شؤونها الخاصة.

وقالت في النهاية وهي تبكي: «واحسرتاه لي! ما أتعسني!».

قلت: «من المؤسف أن إرضاءك عسير، إن لكِ من الأصدقاء عددًا كبيرًا، وليس عندكِ من الهموم إلا القليل، ولكنكِ لا تستطيعين أن تحملي نفسك على الرضى!».

ومضت في حديثها وقد جثت إلى جواري، وتطلعت إليَّ بعينيها الحلوتين، وفيهما نظرة تذهب الغضب عن المرء مهما كان محقًّا فيه، وقالت: «هل أأتمنك على سر يا نلي؟».

فسألتها وقد زال عني بعض ما بي من عبوس: «أهو جدير بالكتمان؟».

قالت: «نعم، وهو يقض مضجعي، ولا بد لي من الإفضاء لكِ به، أريد أن أستقر على رأي، لقد طلب إليَّ اليوم إدجر لنتن أن أكون زوجة له، وقد أعطيته جوابي، وقبل أن أفضي إليكِ بهذا الجواب، أريدك أن تنبئيني برأيك، أينبغي لي القبول أم الرفض؟».

أجبتها قائلة: «وأنى لي أن أعرف يا مس كاثرين؟ إنني بعد النظر في المظهر الذي ظهرت به أمامه عصر اليوم، أرى من الحكمة أن ترفضي سؤله، ولكن ما دام قد طلب يدك

بعد ذلك، فلا بد أن بذهنه غباوة لا شفاء له منها، أو أن بخلقه تهورًا وخرقًا».

قالت متبرمة وهي تنهض: «إنني سأمسك عن الإفضاء إليكِ بسري إن مضيت في حديثكِ على هذا النحو. لقد قبلته زوجًا يا نلي. والآن أسرعي بربك وأنبئيني هل أخطأت؟».

قلت: «أقبلته! إذن فما فائدة الخوض في هذا الحديث؟ لقد وعدت، ووعد الحر دين عليه».

قالت بصوت المغيظ المحنق وهي تفرك يديها عابسة: «ولكن قولي لي أكنت على حق فيما فعلت؟ أجيبي!».

أجبتها وأنا أتكلف أسلوب الحكماء: «يجب النظر في أشياء كثيرة قبل إمكان الجواب عن هذا السؤال جوابًا سديدًا، فأولًا وقبل كل شيء، أتحبين مستر إدجر؟».

أجابت: «ومن يستطيع لحبه دفعًا؟ إنني أحبه طبعًا».

فضيقت عليها الخناق بالأسئلة التالية، وهي في رأيي أسئلة سديدة بالنسبة لفتاة في العشرين.

- ولِمَ تحبينه يا مس كاثي؟

- هذا سؤال سخيف، إنني أحبه وكفى.

- لا يكفي أبدًا، يجب أن تقولي لِمَ تحبينه.

- لأنه جميل حلو المعشر.

قلت: «هذا جواب سيئ!

- ولأن فيه شبابًا ومرحًا.

- وهذا سيئ أيضًا.

- ولأنه يحبني.

- ليس لهذا كبير أهمية.

- ولأنه سيثرى، وسوف يسعدني أن أكون أعظم نساء هذا الريف، وسأعتز بمثله زوجًا.

- وهذا أسوأ الكل، والآن خبريني كيف تحبينه؟

- كما يحب الناس جميعًا، إنكِ لحمقاء يا نلي.

- أبدًا.. أجيبي.

- أحب الأرض التي تطؤها قدماه، والنسيم الذي يسري فوق رأسه، أحب كل شيء تمسه يداه، وكل كلمة ينطق بها فمه، أحب نظراته كلها، أحب أفعاله كلها، أحبه جملة وتفصيلًا، أيكفيك هذا!

- ولِمَ؟

- إنكِ إذن تسخرين مني، وفي هذا من اللؤم والخسة ما فيه، أما أنا فالأمر بالنسبة لي جد خطير.

وعلت وجهها غبرة وهي تتطلع إلى نار المدفأة.

قلت: «لست بمازحة ولا ساخرة يا مس كاثرين، إنكِ تحبين مستر إدجر لجماله وشبابه ومرحه، ولثرائه ومحبته لكِ. على أن الباعث الأخير لا وزن له، ولعلك كنت تحبينه من دونه، أو لعله ما كان يظفر بحبك له، رغم حبه إياكِ، لولا مفاتنه الأربعة السابقة».

- أجل، كنت في هذه الحالة أرثي له فقط، أو ربما كنت أبغضه لو كان صعلوكًا دميمًا.

- ولكن غيره من الفتيان ذوي المال والجمال يملؤون الأرض، ولعلهم يبزونه مالًا وجمالًا، فما يمنعك أن تحبيهم؟

- إنني لم أصادف منهم أحدًا، ولم أرَ فتى مثل إدجر.

- قد ترين مثله يومًا ما، ولن يدوم له جماله وشبابه، وقد لا يدوم له ماله كذلك.

- ولكن له ذلك كله اليوم، ولا شأن لي إلا بالحاضر، فهلا تكلمت كلامًا معقولًا.

- إذن فقد انتهينا إلى قرار، فإذا كنتِ لا ترين لكِ شأنًا إلا بالحاضر فتزوجي مستر لنتن.

- لست بحاجة إلى إذنك لي بزواجه، فسأتزوجه بلا ريب، ولكنكِ لم تقولي هل أنا على صواب في هذا؟

- وأي صواب، إذا كان صوابًا أن يتزوج الناس للحاضر فحسب، ولننظر الآن فيما ينغص عليك هناءك، لا شك أن النبأ يسر أخاك، وأعتقد أن الشيخ لنتن وزوجه لن يعترضا على الزواج، وسينقذك هذا الزواج من بيت تسوده الفوضى والشقاء وينقلك إلى بيت غني محترم، ثم إنك تحبين إدجر، وهو يحبك، فكل شيء يبدو هينًا لينًا، ففيم العقبة إذن؟

قالت وهي تقرع جبينها بإحدى يديها، وتدق صدرها بالأخرى: «هنا، ثم هنا! حيث مستقر الروح أنى سكنت، إنني في صميم نفسي وأعماق قلبي مقتنعة بأنني مخطئة».

- عجيب أمرك! إنني لفي حيرة مما تقولين.

- ذلك سري، وسأفضي به إليكِ إذا لم تسخري مني، ولست أراني قادرة على إيضاحه بجلاء، ولكنني سأشعرك بما أشعر.

ثم جلست إليَّ ثانية، وارتسمت على وجهها أمارات الكآبة والحزن،وأخذت يداها المضمومتان ترتجفان وغرقت في التفكير دقائق، ثم قالت فجأة: «ألم يتفق لكِ يا نلي أن حلمت أحلامًا غريبة؟».

قلت: «أجل، بين الفينة والفينة».

قالت: «كذلك اتفق لي، لقد مرت بي أحلام لازمتني بعد ذلك أبدًا، وغيرت من أفكاري، وانسابت إلى ثنايا نفسي، فامتزجت بها امتزاج الصهباء بالماء وبدلت من لون عقلي، وسأقص عليكِ حلمًا من هذه الأحلام، ولكن حذار أن تبدر منكِ ابتسامة واحدة في أي جزء من أجزائه».

فصحت بها: «بربك لا تفعلي يا مس كاثرين! حسبنا ما يخيم علينا من كآبة وغم، فلا حاجة بكِ لذكر الأطياف والأحلام التي تزيدنا خبلًا على خبل. والآن هيا انسي كل هذا وعودي إلى مرحك وحبورك! انظري إلى هذا الطفل هيرتن! إنه لا يحلم أحلامًا مقبضة، ما أحلى ابتسامته وهو نائم!».

- نعم، وما أحلى شتائم أبيه حين يخلو إلى نفسه، لعلك تذكرينه حين كان غلامًا ممتلئًا كهذا الغلام، في مثل طفولته وبراءته، على أنني سأكرهك على الإنصات لهذا الحلم يا نلي، فهو ليس بحلم طويل، وليس في طاقتي أن أكون مرحة طروبًا هذه الليلة.

قلت مرددة في عجلة: «لن أنصت إليه، لن أنصت إليه!».

وكنت، ولا أزال، أتطير من الأحلام، وكان في مظهر كاثرين من الوحشة والكآبة ما أدخل في روعي أنني سأسمع منها أمرًا أتشاءم

به وأرى فيه كارثة مروعة. وغاظ كاثرين إبائي ولكنها أمسكت، ثم تظاهرت بالخوض في موضوع آخر وواصلت حديثها بعد لحظة قائلة:

- لو أنني دخلت الجنة يا نلي لكنت تعيسة جدًّا.

فأجبتها: «لأنك لست أهلًا لدخولها، فكل الخطاة يشقون في الجنة!».

- ليس هذا هو السبب، لقد حلمت مرة أنني مضيت إلى الجنة.

فقاطعتها ثانية: «قلت لكِ إنني لن أستمع إلى أحلامك يا مس كاثرين! إنني ذاهبة إلى فراشي».

قالت وهي تبكي: «ليس هذا الحلم ذا بال، وكل ما أردت أن أقوله لكِ أن الجنة لم تبدُ لي الموطن الذي يوافقني، وإنني بكيت بكاءً مرًّا لكي أعود إلى الأرض، فسخط عليَّ الملائكة وقذفوا بي بين البراري على قمة «وذرنج هيتس»، وهناك استيقظت من حلمي وأنا أبكي فرحًا، ولعل في هذا الحلم، كما في سابقه، تفسيرًا لسري، فليست رغبتي في الزواج من إدجر لنتن بأشد من رغبتي في البقاء في الجنة، وما كنت لأفكر في هذا الزواج لولا أن ذلك الفتى الشرير قد هوى بهيثكليف إلى هذا الدرك من الهوان، فأصبح زواجي منه الآن حطة لي ومذلة، ولن يتاح له ألبتة أن يعرف مدى كلفي به، وما أنا كلفة به لجمال فيه أو ملاحة يا نلي، بل لأنه قطعة من صميم نفسي، فروحانا من معدن واحد مهما يكن هذا

المعدن، وهما بعيدتان عن روح لنتن بعد المشرقين، مختلفتان عنها اختلاف النار عن الجليد».

وكنت قد أحسست بوجود هيثكليف قبل أن تختم هذا الحديث، فقد لاحظت حركة خفيفة، فأدرت رأسي وأبصرته ينهض من موضعه متسللًا إلى الخارج في هدوء، وكان قد أنصت إلى حديث كاثرين، حتى إذا بلغت منه قولها إن زواجها منه سيحط من قدرها، أبى أن يبقى لحظة بعد ذلك، وكانت صاحبتي جالسة على الأرض ومن خلفها المتكأ، فحيل بينها وبين ملاحظة وجوده أو رحيله، ولكنني جفلت وأمرتها بالصمت.

قالت وهي تحدق حولها في رعب: «ولِمَ؟».

أجبتها وقد سمعت في تلك اللحظة صوت عجلات عربة جوزيف تصعد الطريق: «إن جوزيف هنا، وسيأتي هيثكليف معه، ومن يدري، فلعله كان واقفًا الساعة بالباب».

قالت: «لست أحسبه مستطيعًا أن يسمع ما قلت وهو بالباب، أعطيني هيرتن ريثما تعدين العشاء، فإذا أعددته ناديني لأتناوله معك، فإني أريد أن أخادع ضميري المضطرب وأقنع نفسي بأن هذه الأمور لا تخطر ببال هيثكليف، ألست تظنين ذلك؟ إنه لا يفقه معنى الحب؟».

قلت: «ولِمَ لا يفقه معناه كما تفقهينه أنتِ؟ وإذا كان قلبه قد تعلق بكِ أنت دون غيركِ، فستصيرينه أشقى الخلق جميعًا؛ لأنه بعد زواجك من لنتن سيفقد الصداقة والحب وكل شيء معهما. فهلا فكرت كيف تطيقين فراقه وكيف يطيق أن يصبح مهجورًا وحيدًا في هذه الدنيا؟ ذلك أن...».

فصاحت وقد شابت صوتها رنة السخط: «أيصبح مهجورًا وحيدًا! ومن ذا الذي يستطيع أن يفرق بيننا؟ إنهم لو فعلوا للقوا مصير ميلو، لن يفرق مخلوق بيني وبين هيثكليف ما دام فيَّ نفس يتردد يا آلن، ألا سحقًا لكل «لنتن» على ظهر البسيطة إن رضيت بفراق هيثكليف. أوه، ما أبعد هذا عن فكري! إنني لن أقبل لنتن زوجًا لو كلفني زواجه هذا الثمن! سيكون هيثكليف صديقي كما كان طوال حياته، وعلى إدجر أن يتغلب على كراهته له، وأن يفسح له صدره على الأقل، وأحسبه سيفعل متى علم بحقيقة شعوري نحوه، إني أعرف ما يدور بخلدك يا نلي - فأنت ترينني مخلوقة أنانية وضيعة، ولكن هلا فكرت أنني لو تزوجت من هيثكليف لأصبح كلانا صعلوكًا لا يملك شروى نقير، في حين أنني إذا تزوجت من لنتن، كان في استطاعتي أن أنتشل هيثكليف من كبوته وأنقذه من براثن أخي؟».

فسألتها: «أتفعلين هذا بمال زوجك يا مس كاثرين؟ لن تجديه طوع بنانك كما تحسبين، وأنا لست حكمًا في هذا الأمر، بيد أني أظن أن ما ذكرت الآن هو شر البواعث التي تبررين بها زواجك من الفتى لنتن».

قالت: «لا، بل هو خيرها! إن البواعث الأخرى ترضي نزواتي العارضة، وترضي رغبة إدجر أيضًا، وأما هذا الباعث فمن أجل إنسان يطوي في شخصه مشاعري نحو إدجر ونحو نفسي، وأراني عاجزة عن التعبير عن فكرتي بوضوح، ولكني أحسبك، بل أحسب كل إنسان يعرف أن للمرء وجودًا خارج شخصه، أو يجب أن يكون له خارج شخصه وجود. فأي نفع في وجودي إن كان يحتويني كلي هذا الجسد فقط؟ إن أشقى ما شقيت به في هذه الحياة هو شقاء هيثكليف، وأنا أرقب كل مصيبة يبتلى بها وأشاركه فيها منذ البداية، وإن

شخصه لمحور تفكيري، فلو هلك كل ما عداه وظل هو على قيد الحياة لظللت أنا حية كذلك، ولو بقي كل شيء وهلك هو لأصبح الكون كله في نظري جبارًا غريبًا لا أمت له بصلة. وما أشبه حبي للنتن بأوراق الغابة، وإني لعلى يقين من أن الزمن سيبدل هذا الحب كما يبدل الشتاء أوراق الشجر، وأما حبي لهيثكليف فشبيه بهذه الصخور الأزلية التي تحت أقدامنا، إنها ضرورية لا غنى عنها وإن لم تبعث من البهجة والانشراح الظاهر إلا قليلًا، أنا هيثكليف يا نلي! إنه لا يبرح ذهني أبدًا -لا بوصفه لذة من اللذات- إلا إذا كنت أنا كذلك لذة دائمة لنفسي- ولكن بوصفه كياني ووجودي، فكفي إذن عن الخوض في حديث الفراق؛ فهو محال أي محال».

وأمسكت لحظة وهي تخفي وجهها في طيات ثوبي، ولكني جذبته بعيدًا عنها، وكنت قد ضقت بحماقتها ذرعًا، فقلت لها: «إذا استطعت أن أفهم شيئًا من هذا الهراء يا سيدتي، فهو يزيدني اقتناعًا بأنك جاهلة بما تضطلعين به من واجبات حين تتزوجين، وإلا فأنتِ فتاة شريرة لا مبادئ لك، فاعفيني إذن من أسرارك لأنني لن أعدك بكتمانها».

فسألتني في لهفة: «ولكنك ستكتمين هذا السر؟».

فرددت قولي السابق: «لا، لن أعدك بذلك».

وكانت على وشك الإلحاح عليَّ في أن أفعل، لولا أن دخل علينا جوزيف فأمسكنا عن الحديث، وانتحت كاثرين بمقعدها ركنًا من أركان الحجرة وأخذت تطعم هيرتن ريثما أنتهي من طهو العشاء، ولما أعددته اختلفت وزميلي، أينا يقدم لمستر هندلي عشاءه، ولم نستقر على رأي إلا حين أوشك الطعام أن يبرد، وكان رأينا الذي انتهينا إليه أن ندعه يطلب عشاءه إن كان له به حاجة، ذلك أن أخوف ما كنا نخافه هو الدخول عليه بعد أن يخلو إلى نفسه برهة.

وقال الشيخ وهو يبحث حوله عن هيثكليف: «وكيف لم يعد هذا النكرة من الحقل إلى الآن؟ أين ذهب هذا العاطل الكسول؟».

قلت: «سأدعوه الساعة، فهو في مخزن الغلال بلا ريب».

وذهبت إلى المخزن وناديته فما سمعت جوابًا، ولما عدت ساررت كاثرين بأني واثقة من أنه سمع أكثر ما قالت، وأخبرتها أنني رأيته يبرح المطبخ حين كانت تشكو من معاملة أخيها له، فقفزت، وقد أخذ الروع منها كل مأخذ، وألقت بهيرتن على المتكأ، وجرت لتبحث عن صاحبها بنفسها دون أن تتروى لحظات تسائل فيها نفسها فيم الاضطراب والجزع، وكيف يمكن أن يكون صاحبها قد غضب لكلامها. وطال غيابها، فرأى جوزيف ألَّا داعي يدعونا لانتظارها فوق ما انتظرنا، وظن في خبثه أنهما يتعمدان التأخر هربًا من سماع صلاته الطويلة، قال: «ولا غرو، فهما أهل لكل سلوك منكر»، فأضاف إلى صلاته العادية التي يتلوها قبل كل طعام بربع ساعة دعاء لهما خاصًا تلك الليلة، وكاد يثني بدعاء آخر لولا أن قطعت عليه سيدته صلاته آمرة إياه بالخروج إلى الطريق والبحث عن هيثكليف أنى وجده ورده إلى البيت من فوره.

قالت: «أريد أن أتحدث إليه، ويجب أن أتحدث إليه قبل أن أصعد إلى مخدعي، إن الباب الخارجي مفتوح، ولا بد أنه انطلق إلى مكان بعيد لا يسمع فيه ندائي، فقد صعدت إلى قمة الحظيرة وناديت بأعلى صوتي فلم أجد من مجيب».

واعترض جوزيف أولًا، ولكنه رأى في هيئتها من الجد ما لا يحتمل اعتراضًا، فلم يجد بدًّا في النهاية من ارتداء قبعته والخروج متذمرًا متأففًا، أما كاثرين فكانت تذرع الغرفة ذهابًا وجيئة وهي تقول: «ترى أين هو، وأين يمكن أن يكون؟ ما الذي بدر مني من حديث يا نلي؟ لقد

نسيت، فهل غاظه مني سوء خلقي عصر اليوم؟ أخبريني بربك ما الذي أغضبه في حديثي، ليته يعود، ليته يعود!».

وصحت بها رغم ما أحسسته أنا أيضًا من قلق: «إنك لتحدثين ضجة في غير موجب، فما أشد ما يروعك التافه من الأمور! وهل يزعجك كثيرًا أن يجول هيثكليف جولة بين البراري في ضوء القمر، أو أن يرقد في غرفة الدريس غاضبًا لا يحير كلامًا. وأنا زعيمة لكِ أنه مختبئ هناك، وسأريك كيف أخرجه من مخبئه!».

وذهبت لأواصل بحثي عنه،ولكن البحث لم يجد فتيلًا، وكذلك كان حظ جوزيف في بحثه.

وقال وهو يدخل البيت: «إن هذا الفتى يزداد شرًّا! فقد ترك الباب الخارجي مفتوحًا على مصراعيه، فخرجت المهرة ووطئت حقل القمح وانطلقت إلى البراري! ولكن السيد سيقيم الدنيا ويقعدها عليها غدًا، وخيرًا يصنع؛ فقد طالت أناته على هذا الفتى وأشباهه من المهملين الغافلين، ولكنه لن يصبر أكثر مما صبر، أتفهمان! حذار أن تخرجاه عن حلمه في غير موجب!».

وقاطعته كاثرين قائلة: «هل وجدت هيثكليف أيها الحمار؟ أكنت تبحث عنه كما أمرتك؟».

قال: «كان أخلق بي أن أبحث عن المهرة لا عن هيثكليف، ولكني لم أجد للبحث عن أيهما سبيلًا في ليلة ظلماء حالكة السواد كهذه الليلة، وليس هيثكليف بالذي يلبي صفيري حين يسمعه، ولعله لا يصم أذنيه حين يسمع صفيرك أنتِ!».

وكانت الليلة في الحق ظلماء حالكة بالنسبة لليالي الصيف، وكان في هيئة السحاب ما ينبئ بقصف الرعود وشيكًا، فقلت إنه خير لنا أن نلزم أماكننا جميعًا؛ لأن المطر الوشيك الهطول كفيل برده إلى البيت دون أن نتكلف عناء، بيد أن كاثرين أبت أن تسكن، وظلت تروح وتغدو بين البيت والباب الخارجي، وقد اضطربت اضطرابًا لا يتيح لها راحة ولا هدوءًا، ثم اتخذت لها في النهاية موقفًا لا تبرحه، وقفت إلى الجدار بقرب الطريق، ولزمت مكانها غير عابئة باعتراضاتي، ولا مكترثة للرعد القاصف ولا لقطرات المطر الكبيرة التي بدأت تهطل من حولها، وهي في أثناء ذلك تنادي ثم تنصت، ثم تنفجر في نوبة من البكاء العنيف الذي لا يضارعها فيه هيرتن ولا أي طفل آخر.

وكاد الليل ينتصف ونحن ساهرون، وإذا العاصفة تجتاح الدار في كل عنفها وشدتها، وهبت الريح هوجاء عاتية، وقصف الرعد فشق -هو أو شقت الريح- شجرة في ركن الدار، وأسقط منها غصنًا ضخمًا على السقف فحطم جانبًا من المدخنة الشرقية، وانهالت الحجارة والسناج على نار المدفأة في المطبخ وخلنا الصاعقة قد انقضت علينا، فخر جوزيف على ركبتيه ضارعًا إلى المولى أن يذكر أبوينا نوحًا ولوطًا، وأن ينجي الأبرار وأن يضرب الفجار كما فعل قديمًا. وخالجني شعور بأن السماء لا بد ناقمة علينا نحن أيضًا، وكان مبعث هذه النقمة في رأيي هو مستر إيرنشو، فهززت أكرة غرفته لأرى هل هو حي

بعد، فسمعته يجيب عاليًا بألفاظ جعلت صاحبي يضرع بأحر من ذي قبل، طالبًا إلى الله أن يفرق بين أمثاله من أولياء الله وبين أمثال سيده من الأثمة الخطاة. ولكن العاصفة مرت بعد عشرين دقيقة دون أن تصيب أحدنا بسوء سوى كاثي، فقد أغرقها المطر لأنها رفضت بعناد أن تتقيه، ووقفت لا تحميها قبعة ولا لفاع، فتشبع شعرها وثيابها بالماء، ودخلت البيت ورقدت على الأريكة وهي تقطر ماء، وقد حولت وجهها عنا ومدت يديها أمامها.

قلت لها وأنا أمس كتفها: «وبعد، لست أخالك عازمة على قتل نفسك يا سيدتي! أتعلمين كم الساعة الآن؟ إنها النصف بعد الثانية عشرة، فتعالي إلى فراشك إذن، ولا فائدة في انتظارك هذا الغلام الأحمق أكثر مما انتظرت. وأحسبه قد مضى إلى جمرتن وسيقضي الليل هناك، وهو يظن أن أحدًا منا لن يسهر إلى مثل هذه الساعة انتظارًا لعودته، أو هو يظن، على الأقل، ألَّا أحد غير مستر هندلي سيظل ساهرًا، وهو يتحاشى، إذا قرع الباب، أن يكون رب البيت هو المجيب».

قال جوزيف: «لا، لا، إنه لم يمض إلى جمرتن، ولن يدهشني أن

يكون مستقرًّا في قاع بركة من هذه البرك، إن هذه الضربة لم يرسلها الله بلا سبب، وخير لك أن تصحي أيتها الآنسة، فالدور عليك الآن لا محالة، شكرًا لله على كل شيء! لأن كل الأشياء تعمل معًا للخير لأجل المختارين الذين أفرزهم من النفاية. أنتِ تعلمين ما يقوله الإنجيل»، ثم أخذ يتلو على مسامعنا الآية بعد الآية مشيرًا إلى موضع كل منها من فصول الكتاب وآياته.

وتوسلت إلى الفتاة العنيدة أن تقوم وتخلع ثيابها المبللة، فلم تجد توسلاتي فتيلًا، فتركت جوزيف يعظ وتركتها تنتفض، ومضيت بالطفل هيرتن إلى الفراش، وكان مستغرقًا في نومه كأن الجميع من حوله نيام، وسمعت جوزيف يقرأ لحظات، وتبينت خطاه البطيئة على السلم بعد ذلك، ثم غلبني النوم.

وفي الغد نزلت متأخرة عن موعدي المألوف، فرأيت على ضياء الشمس الذي تخلل فتحات النافذة كاثرين وهي لا تزال جالسة إلى المدفأة، وكان باب غرفة الجلوس مفتوحًا، والنور يدخل من نافذتيه المفتوحتين، وكان هندلي قد خرج من حجرته ووقف إلى مدفأة المطبخ وهو نعسان زائغ البصر.

وكاني يقول لها حين دخلت: «ماذا بكِ يا كاثي؟ إنك لتبدين مبتئسة كأنك جرو غريق، فما لك مبتلة شاحبة اللون إلى هذا الحد يا ابنتي؟».

قالت على كره: «لقد بللني المطر، وأشعر بالبرد، هذا كل ما في الأمر».

فصحت وقد رأيت السيد على شيء من الصحو: «إنها شقية عنيدة! لقد عرضت نفسها لمطر البارحة فبللها، وظلت طوال الليل لا تبرح مكانها هذا، وعبثًا حاولت حملها على مغادرته».

وحملق مستر إيرنشو في وجهينا مدهوشًا، ثم ردد قولي: «طوال الليل! وما الذي طرد النوم عن جفنيها؟ لعله لم يكن الخوف من الرعد، فقد انتهى قصفه من ساعات».

ولم تشأ إحدانا أن تشير إلى غياب هيثكليف ما دمنا نستطيع كتمانه عنه، فقلت إنني لست أدري كيف تراءى لها أن تظل ساهرة، أما هي فلم تنبس بكلمة. وكان الصبح

صحوًا لطيفًا، ففتحت النافذة على مصراعيها، فامتلأت أرجاء الغرفة بعبير الزهر يتضوع من الحديقة، ولكن كاثرين صاحت بي ساخطة: «أغلقي النافذة يا آلن؛ فإني أكاد أموت بردًا!»، واصطكت أسنانها وهي تنكمش إلى جوار النار التي كادت تخبو جذوتها».

وقال هندلي وقد تناول معصمها بيده: «إنها مريضة، ولعل هذا هو الذي منعها من الذهاب إلى فراشها، ألا تبًّا للمرض وسحقًا! لست أريد أن يزعجني مرض آخر في هذه الدار، ما الذي جعلك تتعرضين للمطر؟».

ورأى جوزيف في إحجامنا عن الجواب فرصة للوقيعة والدس، فقال ينعب كالغراب: «إنه الجري وراء الفتيان كالعادة! لو أنني كنت مكانك يا سيدي لأوصدت بابي في وجوههم جميعًا، الشريف منهم والوضيع. إنك لا تغادر الدار يومًا إلا ويأتي هذا القط لنتن يتمسح هنا، وتجلس الآنسة نلي، ويا لها من فتاة مدهشة، ترقب من المطبخ عودتك، فما إن تدخل أنت من باب حتى يكون هو قد خرج من الباب الآخر، ثم تمضي مولاتنا لمطارحة الغرام بدورها! وما أجمل سلوكها حين تختبئ بين الحقول بعد منتصف الليل مع هذا الغجري الوضيع الشرير هيثكليف! يحسبونني أعمى، ولكنني أرى كل شيء! إنني أرى الفتى لنتن يغدو ويروح، وأراكِ أنتِ» (ووجه خطابه إليَّ) «أنتِ التي لا تصلحين لشيء، أيتها العرافة القذرة، تنهضين وترمحين في البيت في اللحظة التي تسمعين فيها جواد السيد تقرع حوافره أرض الطريق».

فصاحت كاثرين: «صه أيها المتلصص! لست أريد أن أستمع إلى سفاهتك! لقد أتى إدجر لنتن أمس صدفة يا هندلي، وأنا التي طلبت إليه أن ينصرف لما أعلم من زهدك في لقائه وأنت على حالك التي كنت فيها».

قال أخوها: «إنكِ لكاذبة بلا ريب يا كاثي، وما أشد غفلتك أيتها

البلهاء! ولكن دعيني من أمر لنتن الآن، وقولي وأصدقيني القول، ألم تكوني مع هيثكليف في الليلة الماضية؟ لا تخشي أن أوقع به أذى، فإني على شدة بغضي له أدين له بما أولاني بالأمس من معروف، وهو معروف يجعلني أحجم عن دق عنقه، وتلافيًا لهذا سأطرده هذا الصباح طردًا، وإذا ذهب فنصيحتي إليكم جميعًا أن تفتحوا أعينكم، وبهذا وحده أطيق وجودكم».

فأجابت كاثرين وقد أجهشت ببكاء مر: «لم أرَ هيثكليف مساء أمس، وإذا طردته من البيت سأمضي معه، ولكني أحسب أن الفرصة لن تواتيك قط، فلعله قد مضى ولن يعود»، ثم أخذتها نوبة طاغية من البكاء والشهيق، فلم نستطع أن نفهم تتمة عباراتها.

وأمطرها هندلي وابلًا من شتائمه، وأمرها أن تنطلق من فورها إلى غرفتها، وإلا فلن يكون بكاؤها بلا سبب، وحملتها على أن تصدع بالأمر، ولن أنسى ما حييت ذلك المشهد الذي مثلته حين بلغنا غرفتها، فقد أخذ مني الروع كل مأخذ وخلتها قد أشرفت على الجنون، ورجوت جوزيف أن يجري في طلب الطبيب، واتضح أن ما بها هو بداية هذيان الحمى، وأعلن مستر كنث حال رؤيته إياها أنها مريضة وفي خطر، وكانت محمومة ففصدها، وأوصاني بألا أعطيها سوى شرش اللبن والثريد الخفيف طعامًا، وبأن أراقبها لئلا تقذف بنفسها من السلم أو النافذة، ثم غادر الدار لكثرة ما كان ينتظره من عمل بالناحية، وكان الكوخ من أكواخها في العادة يبعد عن صاحبه ميلين أو ثلاثة أميال.

ولست أزعم أنني كنت لها ممرضة حدوبًا رقيقة الفؤاد، ولم يكن جوزيف ولا رب

البيت بأرق مني فؤادًا، وكانت المريضة كأشد ما يكون المرضى عنادًا وإرهاقًا، ولكنها صارعت المرض وصرعته، وقد زارتنا العجوز لنتن عدة مرات طبعًا، ووضعت الأمور في نصابها، وقرعتنا جميعًا وألزمتنا النظام والسكينة، ولما نقهت كاثرين أصرت على أخذها لضيعة ثرشكرس، فحمدنا لها صنيعها، غير أن المرأة المسكينة حق لها أن تندم على هذا الصنيع، فقد امتدت إليها وإلى زوجها عدوى الحمى، وقضى كلاهما الواحد بعد صاحبه بأيام قلائل.

وعادت إلينا سيدتنا الشابة أسلط ما تكون لسانًا، وأحد طبعًا، وأشد صلفًا وخيلاء، وكانت أخبار هيثكليف قد انقطعت منذ الليلة العاصفة الراعدة، فذات يوم استفزتني أشد استفزاز، فأنحيت عليها -لسوء حظي- باللوم محملة إياها مسؤولية اختفائه، وكانت هي الملومة حقًّا، وكانت تعلم ذلك علم اليقين، ولكنها ظلت منذ ذلك اليوم تقاطعني شهورًا عديدة لا تعرفني فيها إلا خادمة، وكذلك قاطعت جوزيف، وكان هو يصر على أن يصارحها برأيه فيها، وعلى أن يحاضرها كأنها لم تزل صبية صغيرة، أما هي فكانت ترى نفسها امرأة وسيدة آمرة ناهية، وكانت تحسب أن مرضها الأخير قد جعل لها الحق في أن تعامل معاملة الإكبار والرعاية. زد على ذلك ما قاله الطبيب من أنها لن تقوى كثيرًا على احتمال معارضة أحد لإرادتها، وأن من الواجب تركها تفعل ما تشتهي، لذلك كانت تنظر إلى كل من يجرؤ على التصدي لها ومعارضتها نظرتها إلى قاتل يريد أن يسلبها الحياة، وكانت تتجنب مستر إيرنشو ورفاقه، أما هو فقد حملته أوامر كنث، وما كان يرى من نذر نوباتها العصبية التي تصحب سورات غضبها، على أن يجيبها إلى كل ما تطلب كائنًا ما كان، وكان في العادة يتحاشى إثارة طبعها الناري، بل لعله كان يسرف في استرضائها وتملق نزواتها، تدفعه إلى ذلك الكبرياء لا المحبة، فقد كان يتوق إلى رؤيتها تكسب لأسرته شرفًا رفيعًا بمصاهرة أسرة لنتن، لذلك لم يكن يعبأ أن تطأنا بقدميها كأننا عبيدها المسخرون ما دامت تتركه وشأنه. وكان إدجر لنتن صبيًّا مفتونًا بها فتنة الرجال بمن يعشقون منذ خلق الله الأرض وإلى أن يرث الله الأرض، ولقد حسب نفسه أسعد الناس طرًّا يوم قادها لعرسهما بكنيسة جمرتن بعد موت أبيه بثلاثة أعوام.

وحملت على مبارحة وذرنج هيتس واصطحابها إلى هذه الدار على عكس ما كنت أشتهي، وكان الطفل هيرتن يناهز الخامسة من عمره، وكنت قد بدأت تعليمه القراءة، كان فراقنا أليمًا، ولكن دموع كاثرين كانت أقوى من دموعنا وأعظم سلطانًا، فلما أبيت أن أرافقها، ولما رأت توسلاتها لا تحرك مني ساكنًا، ذهبت تبكي وتولول لزوجها وأخيها، فأما

زوجها فقد عرض عليَّ أجرًا سخيًّا، وأما أخوها فقد أمرني بأن أحزم متاعي وأنصرف لأنه لم يعد في حاجة إلى نساء في بيته بعد أن ماتت زوجه، وأما هيرتن فسيتولى القسيس أمره وشيكًا، لذلك لم يكن لي مندوحة عن أن أصدع بالأمر، وصارحت سيدي بأنه إنما يتخلص من كل إنسان مهذب في بيته ليمضي إلى حتفه حثيثًا. ثم قبلت هيرتن وودعته، ومنذ ذلك اليوم أصبحنا غريبين، وقد يبدو هذا عجيبًا، ولكني واثقة أن هيرتن نسي كل شيء عن آلن دين، مع أنه كان في عينها أغلى الناس كما كانت هي في عينه.

ولما بلغت هذه المرحلة من قصتها لاحت منها نظرة للساعة التي فوق المدفأة، فأدهشها أن ترى عقربها يشير إلى النصف بعد الواحدة، وعبثًا حاولت أن أحملها على البقاء -والحق أنني أنا أيضًا كنت أميل إلى إرجاء بقية القصة، والآن وقد مضت إلى فراشها، وأنفقت وحدي هنا ساعة أو ساعتين مفكرًا متأملًا، سأستجمع قواي للمضي إلى فراشي كما مضت، رغم ما أحس من ثقل أليم في الرأس والأطراف.

* * *

الفصل العاشر

يا لها من مقدمة رائعة لحياة النسك التي جئت هنا لأحياها! أربعة أسابيع أتقلب فيها في فراش الضنى والألم! أف لهذه الرياح القارسة، وتبًّا لسماء الشمال المربدة وويحي من طرقه المستعصية على السير، ومن هؤلاء الأطباء الريفيين البطيئين! وأف لقلة ما يرى المرء من الوجوه الآدمية في هذه البقعة! وويلي كل الويل من الخبر الذي روعني به كنث، حين قال إن لا أمل لي في الخروج حتى يجيء الربيع!

لقد شرفني مستر هيثكليف بزيارته منذ هنيهة، وقبل أسبوع أرسل لي زوجًا من القطا هدية بمناسبة انتهاء موسمه، يا للوغد! لست أبرئه تمامًا من تبعة هذا المرض الذي أصابني، وكنت مصممًا على أن أصارحه بذلك، ولكني لم أستطع واأسفاه! فكيف أجرؤ على الإساءة إلى رجل تعطف عليَّ بالجلوس ساعة كاملة إلى فراشي، وبالخوض في حديث آخر غير حديث الحبوب والجرعات واللزقات والعلق؟ إنني أقضي الآن فترة هينة لينة، بي ضعف شديد لا يتيح لي أن أقرأ، ولكني أحس أن في استطاعتي التمتع بمتعة أخرى، فلِمَ لا أرسل في طلب مسز دين لتتم لي قصتها؟ إني لأذكر حوادثها الهامة إلى المرحلة التي وقفت عندها، أجل، أذكر أن البطل هرب وانقطعت أخباره أعوامًا ثلاثة، وأذكر أن البطلة تزوجت. إذن سأقرع الجرس في طلبها، وسوف يثلج صدرها أن تراني قادرًا على الحديث والائتناس بالناس. وجاءت مسز دين.

قالت: «باق على موعد الدواء عشرون دقيقة يا سيدي».

قلت لها: «بعدًا للدواء وسحقًا! إنني أريد...».

- لقد أمر الطبيب بالكف عن إعطائك السفوف.

- مرحبًا بأمر الطبيب إذن. والآن استمعي إليَّ ولا تقاطعيني. اقتربي واجلسي هنا، ابعدي أصابعك عن هذه القوارير من الأدوية المرة، أخرجي شغل الإبرة من جيبك.. عظيم. والآن امضي في قصة مستر هيثكليف مبتدئة من النقطة التي وقفت عندها إلى يومنا هذا، أتراه أتم دراسته في أوروبا وعاد إليكم رجلًا سريًّا؟ أم تراه حصل على تعليم مجاني بالكلية، أم هرب إلى أمريكا وأثرى بمص دم الأمريكيين، أم لجأ إلى طريقة أسرع في جمع المال هي قطع الطريق في هذا البلد؟

- لعله فعل بعض هذا كله يا مستر لوكوود، ولكني لا أستطيع أن أجزم لك بشيء من أمره، وقد قلت لك إنني لا أدري كيف حصل على المال ولا كيف تسنى له أن ينتشل ذهنه من هوة الجهل السحيقة التي تردى فيها. ولكن اسمح لي أن أمضي في القصة على طريقتي إذا كنت ترى أنها تسليك ولا تجلب لك السأم. أتشعر بتحسن في صحتك هذا الصباح؟

- تحسن كبير.

- هذا خبر طيب.

مضيت ومس كاثرين إلى ضيعة ثرشكرس، ولقد خيبت ظني فيها تخييبًا سرني، ذلك أن سلوكها طرأ عليه تحسن لم أتوقعه، وكانت تبدو شديدة التعلق بزوجها، بل إنها أظهرت كثيرًا من الود لأخته أيضًا، وما من شك في أن الشقيقين كانا يقومان على راحتها ويرعيانها أشد الرعاية، ولم تكن هذه الشوكة هي التي تنحني لهاتين الياسمينتين، بل كانت الياسمينتان هما اللتين تعانقان الشوكة، ولم يكن التسامح والخضوع متبادلًا بين الفريقين على قدم المساواة، فأما هي فكانت صلبة لا تلين لها قناة، وأما هما فكانا يخضعان لمشيئتها، ومن ذا الذي يثور أو يحتد إذا لم يلق معارضة أو إغفالًا؟ كنت ألحظ أن أخوف ما يخافه المستر إدجر هو أن يعكر مزاجها، وكان يخفي ذلك عنها، ولكنه كان إذا سمعني مرة أجيبها في حدة، أو إذا رأى خادمًا من خدمه يتجهم لأمر من أوامرها العاتية، أفصح عن كدره بعبوس ما كان يعلو وجهه لو كان الأمر يتصل بشخصه، وكم من مرة كلمني بجفاء عن سلاطتي معها، وكان يقول لي إن وقع الحسام أهون عليه من أن يراني أغيظ زوجته، وكنت أكره أن أدخل الحزن إلى قلب هذا السيد الرفيق، فتعلمت أن أخفف من حدة طبعي. ومضت شهور ستة والبارود الذي بين

جنبيها ساكن وادع كأنه الرمل؛ لأن النار التي تفجره لم تدن منه، وكانت تنتاب كاثرين نوبات من الاكتئاب والصمت بين الفينة والفينة، وكان زوجها يشاطرها صمتها احترامًا لها، ويعزو هذه النوبات إلى ما طرأ على بنيتها من تغير نتيجة مرضها الخطير؛ لأن أحدًا لم يعهدها فريسة لهذا الاكتئاب من قبل، حتى إذا أشرقت وعاد إليها بشرها استجاب لإشراقها وبشرها، وفي اعتقادي أنهما كانا ينعمان حقيقة بسعادة عميقة متزايدة.

ولكن هذه السعادة لم تدم، ذلك أن كلًّا منا لا محالة منصرف إلى نفسه مشغول بذاته في النهاية، وكل ما بين الناس من فرق في أنانيتهم هو أن الوادعين النبلاء منهم أبر أنانية من المتغطرسين العتاة. انتهت هذه السعادة حين أشعرت الظروف كلًّا منهما بأن اهتماماته ليست عند صاحبه في المحل الأول، ففي أمسية رطبة من أمسيات شهر سبتمبر كنت عائدة من الحديقة أحمل سلة من تفاح كنت قد جمعته، وكان الظلام قد هبط و القمر يشرف على سور الفناء المرتفع فتتكاثر من نوره الظلال في كل زاوية من زوايا الدار، وحططت حملي على سلم البيت إلى جوار باب المطبخ، وانتظرت قليلًا لأستريح واستزدت أنفاسًا من النسيم الطري العليل، وكانت عيناي ترنوان إلى القمر وظهري إلى الباب، وإذا صوت من خلفي يقول:

- أهذي أنتِ يا نلي؟

كان الصوت عميقًا غريب اللهجة، ولكن الطريقة التي نطق بها اسمي جعلته يبدو لأذني صوتًا مألوفًا معروفًا، فتلفت لأرى صاحبه وأنا وجلة، فقد كانت الأبواب موصدة ولم ألحظ أحدًا حين كنت أدنو من سلم البيت. ورأيت شيئًا يتحرك في السقيفة، ولما دنوت منه تبينت فيه رجلًا طويل القامة أسمر الوجه أسود الشعر يرتدي ثيابًا قاتمة، وكان ينحني على الباب وتمسك أصابعه بالمزلاج كأنما يريد أن يفتح لنفسه. قلت لنفسي: «ترى من يكون هذا؟ أهو مستر إيرنشو؟ لا لا! فليس بين صوته وهذا الصوت من شبه».

قال معاودًا حديثه وأنا أحملق فيه: «لقد انتظرت هنا ساعة كان كل شيء خلالها ساكنًا من حولي سكون القبور. إنني لم أجرؤ على الدخول، ألست تعرفينني؟ تأملي فيَّ فلست بغريب عنكِ!».

وسقط شعاع من القمر على وجهه، فرأيت خدين شاحبين يكسو نصفهما شاربان أسودان، وحاجبين منخفضين وعينين غائرتين عجيبتين، وتذكرت هاتين العينين من

فوري.

فصحت وأنا لا أدري أأخاطب إنسانًا في عداد الأحياء من الناس، وكنت أرفع يدي في دهشة وعجب: «ماذا أرى! ماذا أرى! أهذا أنت قد عدت؟ أهذا أنت حقيقة؟ أهو أنت؟».

قال وهو يحول بصره إلى النوافذ التي كانت تعكس للقمر صورًا عديدة متلألئة ولكنها لا تشف عن ضوء في داخل البيت: «نعم أنا هيثكليف، أهم في الدار؟ أين هي؟ إنك لست مغتبطة بمقدمي يا نلي، لا تضطربي هكذا. أهي هنا؟ تكلمي! أود أن أكلم سيدتك كلمة واحدة، فامضي وأخبريها أن شخصًا من جمرتن يريد أن يقابلها».

قلت: «كيف تتلقى هذا الخبر؟ وماذا هي فاعلة؟ إن العجب ليملك عليَّ مشاعري، إن الخبر سيذهب برشدها، أنت هيثكليف، ما في ذلك شك، ولكنك قد تغيرت! إنني لا أفهم سرك، فهل انخرطت في سلك الجندية؟».

فقاطعني وقد ذهب صبره: «امضي واحملي رسالتي، وسأظل على جمر حتى تفعلي!».

ورفع المزلاج فدخلت، ولكني حين بلغت غرفة الجلوس التي كان يجلس فيها مستر لنتن وزوجه لم أستطع حمل نفسي على تبليغ الرسالة، وأخيرًا عقدت النية على الاعتذار بسؤالهم هل يريدونني أن أوقد الشموع، ثم ولجت الباب.

كانا يجلسان إلى نافذة يتكئ مصراعها المشبك على الحائط، وتشرف على منظر وراء أشجار الحديقة والبستان الأخضر البري، وذلك هو منظر وادي جمرتن بما فوقه من خط طويل من الضباب ينعقد حتى قمته (فلا بد أنك لاحظت أن المصرف الخارج من المستنقعات يتصل، بعد الكنيسة مباشرة، بغدير يسير في منحنى الوادي)، وكانت وذرنج هيتس تعلو فوق هذا الضباب الفضي، ولكن دارنا العتيقة كانت متوارية عن الأنظار؛ لأنها هابطة على المنحدر الخلفي للتل، ورأيت الغرفة ومن فيها، والمنظر الذي يتطلعان إليه، كل هذا كان يبدو هادئًا مطمئنًا، لذلك كرهت أن أبلغ رسالتي، وكدت، بعد سؤالهما عن الشموع، أن أنصرف دون أن أبلغها، لولا أن شعوري بحماقتي حملني على أن أعود وأقول متمتمة: «إن شخصًا من جمرتن يود مقابلتك يا سيدتي».

فسألتني مسز لنتن: «وماذا يريد مني؟».

أجبتها: «لم أسأله».

قالت: «حسن، أسدلي السجف يا نلي وأحضري الشاي، سأعود سريعًا».

ثم غادرت الحجرة، وسألني مستر إدجر عن هذا الشخص في غير اكتراث، قلت: «إنه شخص لا تتوقع سيدتي أن تراه، إنه الفتى هيثكليف الذي كان يعيش في بيت مستر إيرنشو، أتذكره يا سيدي؟».

فصاح: «ماذا تقولين! هذا الغجري الفلاح؟ لِمَ لمْ تقولي هذا لكاثرين؟».

قلت: «صه! يجب ألا تذكره بهذه الأسماء يا مولاي وإلا لأحزنها أن تسمع ذلك منك،

فقد كادت تموت حسرة عليه حين هرب، وأحسبها ستتهلل فرحًا لعودته».

ومشى مستر لنتن صوب نافذة في الجانب المقابل من الحجرة، تشرف على الفناء، ففتحها وأطل منها، ولا بد أنه رآهما أسفله؛ لأنه قال في سرعة: «لا تقفي هناك يا عزيزتي! أدخلي الرجل إن كان يهمك أمره»، وما هي إلا أن سمعت صوت المزلاج، وإذا كاثرين تطير صاعدة السلم وهي تلهث في انفعال يمنعها من إظهار فرحها، بل إن الناظر إلى وجهها كان يحسب أن في الأمر كارثة مروعة.

وطوقت عنق زوجها بذراعيها وقالت لاهثة: «إدجر، إدجر! يا حبيبي إدجر! لقد عاد هيثكليف، لقد عاد!»، ثم ضمت عليه ذراعيها كأنها تعصره عصرًا.

فصاح في جفاء: «حسن، فلا تخنقيني لأنه عاد، إنني لم أرَ فيه ألبتة كنزًا غاليًا، فلا داعي لهذا الهوس».

قالت وهي تخفف من فرحتها: «إنني عليمة بأنك لم تحبه، ولكني أرجوك أن تصافيه الآن مرضاة لي، فهل أخبره بأن يأتي؟».

قال: «أين؟ في غرفة الجلوس؟».

فسألته: «فأين إذن؟».

وبدا عليه الغيظ، وقال إن المطبخ أخلق به مكانًا، فنظرت إليه زوجه نظرة غريبة، هي مزيج من الغضب والسخرية من غلوائه.

وقالت بعد لحظة: «لا، لا أستطيع الجلوس في المطبخ، ضعي خوانين هنا يا آلن، أحدهما لسيدك ومس إيزابيلا وهما من الخاصة، والآخر لهيثكليف ولي لأننا من العامة - أيرضيك هذا يا عزيزي؟ أم ترى أن توقد لي نار في مكان آخر؟ إن كنت ترى ذلك فمر به. أما أنا فسأنزل عدوًا لأعود بضيفي. أخشى أن يكون في فرحي من الغلو ما يجعله يبدو زائفًا!».

وأمسك بها وهي توشك أن تندفع ثانية خارج الحجرة، وقال لي: «اطلبي إليه أنتِ أن يصعد، أما أنتِ يا كاثرين فحاولي أن تكوني فرحة دون أن تظهري رعناء، ولا داعي لأن يراكِ كل من في البيت ترحبين بمقدم خادم هارب وتلقينه لقاء الأخت لأخيها».

ونزلت فألفيت هيثكليف منتظرًا تحت سقيفة الدار، ويبدو أنه كان يتوقع دعوة له بالدخول، وتبعني دون كلام، فأدخلته إلى حضرة سيدي، وكان في الحمرة التي ضرجت وجهيهما ما ينبئ بحدة الحديث بينهما، على أن وجه سيدتي أشرق بعاطفة أخرى حالما طالعت وجه صديقها بالباب، فسعت إليه ومضت به من يديه صوب لنتن، ثم أمسكت بيد زوجها وضغطتها في يد هيثكليف. ورأيت هيثكليف الآن بجلاء على ضوء النار والشموع، فأدهشني ما طرأ عليه من تغير كبير، فقد غدا رجلًا مكتمل التكوين مفتول العضل مديد القامة يبدو سيدي، بالقياس إليه، نحيلًا صغير الجسم، وكان في انتصاب قامته ما يحمل على الظن بأنه انخرط في الجيش، ينبئ ما في طلعته من تعبير وقوة على أنه يكبر لنتن كثيرًا، وكان يبدو على وجهه الذكاء والفطنة، وقد خلا من آثار انحطاطه السابق. على أن حاجبيه المنخفضتين وعينيه السوداوين الناريتين كانت تخفي ضراوة ووحشية هذبت بعض التهذيب، ولكنها كانت وحشية مكبوتة، فكان سلوكه يبدو للناظر محترمًا، لا يلمح

فيه آثار الخشونة، وإن لم يبلغ في رقته مبلغ السلوك المهذب، وكانت دهشة سيدي تعدل دهشتي إن لم تفقها، فظل دقيقة وهو حائر كيف يخاطب هذا الذي سماه فلاحًا، أما هيثكليف فقد ترك يده النحيلة ووقف يطالعه في هدوء حتى يبدأ الكلام.

وقال لنتن في النهاية: «تفضل بالجلوس يا سيدي. إن زوجتي وقد ذكرت أيام الطفولة تريدني أن أرحب بك، ولا شك أن كل شيء يدخل السرور إلى قلبها يرضيني».

قال هيثكليف: «وكذلك أنا، لا سيما إن كان لي في هذا الشيء نصيب، وإنه ليسرني أن أمكث هنا ساعة أو ساعتين».

واتخذ له مقعدًا في مواجهة كاثرين، وظلت هي شاخصة إليه لا تحول عنه عينيها كأنها توجس أن يطير أو يختفي إن حولتهما عنه. أما هو فلم يكثر من التطلع إليها بعينيه، وكانت تكفيه النظرة الخاطفة بين الفينة والفينة، ولكنها كانت تنبئ كل مرة، إنباء لا شك فيه، بما كان يحس عند التقاء النظرات من فرح لا سبيل إلى كتمانه. وقد استغرقا في هذه الفرحة المشتركة استغراقًا لم يدع لهما مجالًا للارتباك أو الاضطراب. أما مستر إدجر فلم يكن هذا شعوره، فقد اصفر وجهه غيظًا وضيقًا، وبلغ هذا الضيق غايته حين قامت زوجه وخطت فوق البساط وأمسكت بيدي هيثكليف ثانية وهي تضحك كمن به لوثة.

وصاحت تقول: «سيخيل إليَّ غدًا أن هذا حلم من الأحلام، ولن أستطيع أن أصدق أنني رأيتك ولمستك وتحدثت إليك مرة ثانية، ومع ذلك فأنت غير جدير بهذا الترحيب أيها القاسي! أتغيب عني ثلاث سنين لا ترسل لي نبأ ولا تفكر في ألبتة!».

قال متمتمًا: «لقد فكرت فيكِ أكثر قليلًا مما فكرت أنتِ فيَّ، إنني لم أسمع بنبأ زواجك إلا من عهد قريب يا كاثي، وبينما أنا منتظر بالفناء كنت أدبر هذه الخطة في نفسي -وهي أن أظفر ولو بنظرة واحدة منك- قد تكون نظرة اندهاش وفرحة متكلفة، ثم أمضي لأسوي حسابي القديم مع هندلي، وبعد ذلك أزهق روحي بيدي قبل أن يحكم عليَّ القانون بالموت. غير أن ترحيبك بي طرد هذه الأفكار من ذهني. ولكن حذار أن تلقيني بعد ذلك بغير هذا الترحيب! لن تحمليني على الهرب ثانية، أأسفت عليَّ حقًّا؟ لقد كنت معذورًا فيما فعلت، ولقد صارعت حياة قاسية مريرة منذ سمعت صوتك آخر مرة، فاصفحي عني؛ لأنني ما كافحت إلا لأجلك!».

وقاطعه لنتن قائلًا وهو يحاول الاحتفاظ بلهجته العادية وبقدر من الأدب: «أرجو أن تجلسي إلى المائدة يا كاثرين وإلا برد الشاي، إن أمام مستر هيثكليف رحلة طويلة ليصل إلى المكان الذي سيقضي فيه ليلته، وأنا ظمآن».

واتخذت مكانها قبالة إبريق الشاي، وأقبلت الآنسة إيزابيلا حين سمعت الجرس يدعوها للشاي، وقدمت أنا كراسيهم للمائدة ثم تركت الحجرة، ولم يستغرق تناول الشاي منهم أكثر من عشر دقائق، فأما قدح كاثرين فلم يمسه الشاي، فما كانت لتسيغ طعامًا أو شرابًا، وأما إدجر فقد انسكب بعض شايه في طبقه ولم يكد يأكل لقمة، وأما ضيفهما فلم يطل مكثه ذلك المساء عن ساعة. وسألته وهو يغادر الدار: هل ستذهب إلى جمرتن؟

أجاب: «لا، إلى وذرنج هيتس. لقد دعاني مستر إيرنشو حين زرته هذا الصباح».

قلت لنفسي: «أيدعوه مستر إيرنشو! أيزور هو مستر إيرنشو! وتأملت هذه العبارة بعد انصرافه وأنا أحس الأسى والألم، فهل تراه أصبح منافقًا مرائيًا، وهل تراه عاد إلينا وهو

يضمر في نفسه سوءًا؟». كنت أحس في قرارة نفسي أن بعده عنا كان خيرًا وأبقى.

وفي منتصف الليل أيقظتني من غفوتي الأولى مسز لنتن، فقد انسلت إلى حجرتي وجلست إلى فراشي، وجذبت شعري لتوقظني.

قالت معتذرة: «لقد طار نومي يا آلن، وأحس أنني في حاجة إلي إنسان يشاطرني سعادتي، إن إدجر غاضب لأنني أطرب لأمر لا يعنيه، وهو يأبى أن ينبس بكلمة، وإذا تكلم فكلام شكس أخرق، ولقد رماني بالقسوة والأنانية لرغبتي في التحدث إليه وهو مريض نعسان. إنه لا يفتأ يختلق المرض إذا غضب أقل غضبة! كنت أمتدح هيثكليف بعبارات قليلة فإذا لنتن يبكي، إما من صداع في رأسه أو من حسد في قلبه، لذلك قمت وتركته».

أجبتها قائلة: «وما جدوى إطرائك هيثكليف أمامه؟ لقد قامت الخصومة والكراهية بينهما صبيين، ولو أنك أطريت مستر لنتن أمام هيثكليف لكره منك ذلك أيضًا. إنها الطبيعة البشرية، فأعفي زوجك من سماع حديثك عن هذا الرجل، إلا إذا أردتِ أن تثيري بينهما الخصومة السافرة».

قالت: «ولكن أليس هذا دليل ضعف شديد في خلقه؟ إنني لا أحسد أحدًا، وأنا لا يسوءني ما لإيزابيلا من شعر أصفر وهاج وبشرة بيضاء ناصعة، ولا تكدرني رقتها وأناقتها ولا ما يبديه أفراد الأسرة جميعًا من ولع بها، بل إنكِ أنتِ أيضًا يا نلي تنحازين لصف إيزابيلا من فورك حين أختلف معها أحيانًا، فأذعن لإرادتها كما تذعن الأم الحمقاء، وأدعوها حبيبتي، وألاطفها وأتملقها لتعود لها بشاشتها. وإنه ليسر أخاها أن يرانا على ود وصفاء، وهذا أمر يسرني. ولكنهما في طباعهما سواء، فهما طفلان مدللان يحسبان أن الدنيا لم تخلق إلا لترضيهما، وأنا أسايرهما وأمازحهما، ولكني أظن أن العقوبة الصارمة قد تقوم من طبعهما ما اعوج».

قلت لها: «إنكِ على ضلال يا مسز لنتن، فهما اللذان يمازحانك، وأنا أعلم ماذا كانت تكون الحال لو لم يفعلا. فلا باس عليكِ من إرضاء نزواتهما العابرة ما دام شغلهما الشاغل هو إرضاء رغائبك جميعًا. على أن أمرًا يهم الفريقين على السواء قد يقع، وعندئذ سيتضح لكِ أن هذين الضعيفين في عينكِ قادران على أن يصبحا مثلكِ عنيدين لا تلين لهما قناة».

قالت ضاحكة: «وحينئذ يقوم الصراع بيننا حتى الموت يا نلي، أليس كذلك؟ لا لا، إن لي من الإيمان بمحبة لنتن لي ما يحملني على الاعتقاد بأنني حتى لو قتلته لما حرك ساكنًا للانتقام مني».

قلت لها: «إن هذا الحب جدير بأن يرفعه درجات في عينيها».

قالت: «إنني أقدره حق قدره، ولكن عليه ألا يبكي ويستدر الرثاء لمثل هذه التوافه، فذلك خلق الأطفال لا الرجال، وكان واجبًا عليه، بدل أن تنهمر دموعه لأنني قلت له إن هيثكليف جدير اليوم باحترام الناس جميعًا، وأنه مما يشرف سيد هذا الريف أن يكون له صديقًا، كان واجبًا عليه أن يقول هذا بالنيابة عني وأن يملأه العطف عليه غبطة وحبورًا. إن عليه أن يألف هيثكليف، ولعله أن يحبه، فلست أشك أن هيثكليف سلك معه سلوكًا رائعًا مع أنه يكون على حق إذا حقد عليه».

فسألتها: «وما قولك في ذهابه إلى وذرنج هيتس؟ لعله قد استقام وصلحت كل أحواله، وأصبح مسيحيًّا نقيًّا يمد يد الصداقة لأعدائه جميعًا!».

قالت: «لقد فسر لي هذا الأمر الذي يحيرني كما يحيرك، فقال لي إنه ذهب ليستقي منكِ المعلومات عني وهو يحسبك ما زلت ساكنة هناك، فمضى جوزيف ينبئ هندلي بمقدمه، وخرج إليه هندلي فسأله عما كان يفعل وكيف كان يعيش، ثم طلب إليه أخيرًا أن يدخل الدار، وكان فيها نفر من الناس يلعبون الورق، فجلس هيثكليف يلاعبهم، فكسب من أخي بعض نقوده، فلما رآه عامر الجيب بالمال طلب إليه أن يعيد الكرة في المساء، فقبل هيثكليف دعوته، وهندلي على ما تعلمين من طيش وخرق يمنعانه من التدبر في اختيار رفاقه، فهو لا يعبأ بالتفكير في الأسباب التي قد تحمله على الريبة في شخص نال منه فيما مضى أبلغ الأذى والهوان. على أن هيثكليف أكد لي أن أهم ما دفعه للاتصال بمضطهده القديم إنما هو رغبته في البقاء على مقربة من الضيعة، وما يحس من تعلق بالبيت الذي ضمنا معًا، ثم أمله في أن تتاح لي الفرصة للقائه هناك أكثر مما لو كان يسكن جمرتن. وفي نيته أن يعرض على أخي أجرًا سخيًّا لقاء إقامته بداره، ولا شك أن جشع أخي سيحمله على الرضى بهذا العرض؛ فلقد عرفته جشعًا على الدوام، رغم أنه يبعثر بالشمال ما يمسك باليمين».

قلت: «وما أحسنه مكانًا يتخذ شاب مسكنه فيه! ألا تخشين العواقب يا سيدتي؟».

قالت: «لست أخشى عل صاحبي شرًّا، فإن ما فيه من صلابة جدير بأن يقيه الخطر، ولكن يساورني بعض الخوف على هندلي، على أنه لن يستطيع أن يلحق بخلقه من الأذى أكثر مما لحق، أما إيذاء جسمه فسأحول دونه. إن ما حدث هذه الليلة قد أصلح ما فسد بيني وبين الله والناس. لقد ملكني السخط والتمرد على العناية الإلهية، أواه يا نلي! لقد احتملت من الشقاء أمره، ولو قد عرف هذا المخلوق شدة مرارته لجلله العار والخزي لأنه نغص عليَّ فرحتي بنزقه، وأنا لم أحتمل هذا الشقاء وحدي إلا رحمة به، ولو أنني جهرت له بما كان يعاودني من ألم ممض لعلمه ذلك أن يتوق مثلي إلى تخفيفه، ولكن لا عليك من هذا، فقد مضى وانقضى، ولن أثأر لنفسي من حماقته، وإن في وسعي الآن أن أحتمل كل شيء، ولو ضربني أحقر المخلوقات على خد لحولت له الآخر، بل لسألته الصفح لاستفزازي إياه، ومصداقًا لما أقول سأمضي توًّا إلى إدجر لأصالحه. مساء الخير! أشعر كأنني ملك كريم!».

وهكذا مضت راضية عن نفسها، وظهر لي في الغد توفيقها في إنفاذ ما اعتزمت، فقد أقلع مستر لنتن عن نزقه وحدته وإن كان غلو كاثرين في مرحها ما زال يفت في عضده، وأكثر من ذلك أنه لم يجرؤ على الاعتراض على أخذها إيزابيلا عصر ذلك اليوم إلى وذرنج هيتس. ولقد كان ثوابه منها على ذلك فيض غامر من المحبة والرضى حول البيت أيامًا عدة إلى نعيم مقيم يرتع في رحابه رب البيت وخدمه.

واستعمل هيثكليف -أو مستر هيثكليف كما يخلق بي أن أدعوه الآن- حريته في زيارة ضيعة ثرشكرس بحذر في بداية أمره، وبدا لي أنه كان يقدر مدى ما يطيق برب البيت من تطفله، كذلك رأت كاثرين من الحكمة أن تحد من الجهر بطربها عند لقائه، ولم يلبث أن وطد حقه شيئًا فشيئًا في زيارة الأسرة، وكان لا يزال يحتفظ بقسط كبير من ذلك التحفظ والكتمان الذي كان طابعه في صباه، فأعانه ذلك على كبت مظاهر الشعور التي تلفت الأنظار، وهدأت هواجس سيدي، وكان من أثر الظروف التي جدت بعد ذلك أن وجهت هذه الهواجس وجهة جديدة فترة من الزمان.

أما ما كدر صفوه فنكبة لم تخطر له على بال، ذلك أن إيزابيلا قد أظهرت لضيفه الذي أغضى عنه تعلقًا فجائيًّا وافتتانًا لا سبيل إلى مقاومته، وكانت إذ ذاك فتاة رائعة الحسن في الثامنة عشرة من عمرها، في خلقها طفولة رغم حدة ذكائها وحدة عاطفتها،

وحدة طبعها أيضًا إذا أثارها مثير. وروع أخوها لهذا الغرام العجيب، وكان يحبها حبًا رفيقًا خالصًا، وكان له من ثاقب عقله ما أدرك به السر في مسلك هيثكليف، وأن معدنه باق على حاله وإن تغير مظهره، بصرف النظر عما رأى من هوان وحطة في مصاهرة رجل لا نسب له ولا لقب، ومن احتمال أيلولة أملاكه لهذا الرجل إذا لم يرزق وريثًا ذكرًا، أما هذا المعدن، معدن هيثكليف، فكان يخشاه وينفر منه أشد النفور، وكان يقشعر من فكرة إيكال إيزابيلا إليه، ولعل نفوره كان يكون أشد لو علم أنها أحبت رجلًا لم ينشد حبها، وأنها لم توقظ في قلبه عاطفة تحمله على أن يبادلها حبًا بحب، ذلك أنه حالما اكتشف وجود هذا الحب ألقى اللوم فيه على تدبير هيثكليف.

وكنا قد لاحظنا خلال فترة أن أمرًا يضني إيزابيلا ويسقمها، وازداد طبعها حدة وإرهاقًا، فكانت تثور في وجه كاثرين ولا تفتأ تغيظها.

وكنا نلتمس لها من ضعف صحتها عذرًا، فقد رأيناها تصوح وتذوي أمام أعيننا، ولكن حدث ذات يوم أن اشتد بها الجموح والتمرد، فدفعت عنها فطورها وهي تشكو عصيان الخدم أوامرها، وتشكو أن كاثرين تريد أن تجعلها صفرًا في البيت، وأن إدجر يهمل أمرها، وأنها أصيبت بالبرد لتركنا الأبواب مفتوحة وإطفائنا النار في حجرة الجلوس كيدًا لها، إلى آخر هذه التهم التي كانت تلقيها على عواهنها، فما كان من مسز لنتن إلا أن أصرت على أن تمضي إيزابيلا من فورها إلى فراشها، ثم كالت لها التقريع والتأنيب مهددة إياها بأن ترسل في طلب الطبيب، وما إن سمعتها تذكر اسم كنث حتى جهرت بأنها بخير، وأنها إنما تشعر بالتعاسة لقسوة كاثرين معها.

وصاحت كاثرين وقد أدهشتها هذه التهمة التي لا تعقل: «كيف تزعمين أنني قاسية عليكِ أيتها المدللة الخبيثة؟ إنك تخلطين من غير شك، فقولي لي بربك متى قسوت عليكِ؟».

وقالت إيزابيلا وهي تنتحب: «أمس، والآن أيضًا!».

قالت زوجة أخيها: «أمس! وفي أي مناسبة؟».

- ونحن نتمشى في البراري، فقد أخبرتني أن أسرح حيث شئت بينما ظللت تتمشين مع مستر هيثكليف.

قالت كاثرين ضاحكة: «وأنتِ ترين هذا قسوة عليكِ؟ لم يكن في قولي ما يشير إلى أننا في غير حاجة لصحبتكِ، ولم نكن نعبأ لوجودكِ معنا أو انصرافكِ عنا، إنما ظننت أن حديث هيثكليف ليس فيه ما يسليكِ».

قالت الفتاة وهي تنتحب: «لا، لا، لقد أردت إقصائي لأنكِ تعلمين أنني كنت أحب أن أبقى معكما!».

قالت تخاطبني: «أهي في صوابها؟ سأعيد على مسامعك حديثنا كلمة كلمة يا إيزابيلا، وعليكِ أن تقولي لي أي شيء في هذا الحديث كان فيه متعة لك».

فأجابت: «لست أبالي الحديث، وإنما كنت أود البقاء مع...».

قالت كاثرين وقد رأتها تتردد في إتمام عبارتها: «مع من؟».

قالت إيزابيلا وقد اشتعل غضبها: «معه، ولست أريد أن أُقصى عنه كل مرة! إنك لشديدة الأنانية يا كاثي، وإنك لتكرهين أن يظفر غيرك بحب الناس!».

وصاحت بها مسز لنتن وقد غلبتها الدهشة: «إنك لقردة حقيرة سليطة! ولكني لست أريد أن أصدق هذه الفكرة الخرقاء، فهل يمكن أن تكوني طامعة في إعجاب هيثكليف وحبه، وأن يكون في نظرك شخصًا محبوبًا؟ إنني أرجو أن أكون قد أخطأت فهمك يا إيزابيلا!».

قالت الفتاة المتيمة: «كلا لم تخطئي، وأنا أحبه أكثر مما تحبين إدجر، وقد يبادلني هذا الحب لو أتحت له الفرصة!».

قالت كاثرين في لهجة حاسمة تشف عن إخلاص وصدق فيما يبدو: «إذن فلن أرضى لنفسي موقفك هذا ولو أعطيت ملك الأرض! نلي، بربك أعينيني على إقناعها بجنونها، أخبريها من هو هيثكليف -مخلوق ضال لا حظ له من رقة أو تهذيب، برية قاحلة من الشوك، وإني لأوثر أن أطرح هذا العصفور الصغير في الخلاء في يوم شتاء قرير عن أن أشير عليك بمنحه حبك. وإن هذا الحلم ما كان يراود عقلك أيتها الفتاة لولا جهلك المؤسف بخلقه، فلا تحسبيه يستر تحت مظهره الصارم نفسًا كريمة محبة، فهو ليس بالماسة الغشيمة، ولا هو بالصدفة الخشنة تضم في باطنها درة غالية، إنما هو رجل ضار شرس لا يرق ولا يرحم. فأنا لا أقول له مثلًا: (دع عدوك هذا أو ذاك ولا تؤذه لأن من اللؤم أو القسوة إيذاءه)، وإنما أقول له: (دعه ولا تؤذه لأني أكره أن أراه يؤذى)، وأنا زعيمة لك يا إيزابيلا بأنه لو وجدك عبئًا ثقيلًا عليه لسحقك كأنك بيضة عصفور. وأنا عليمة بأنه لا يمكن أن يحب فردًا من أسرة لنتن، ومع ذلك فهو لا يمانع ألبتة في الزواج من مالك وما يرجى من ورائك، فإني أرى الجشع يصبح خطية من خطاياه التي لا تفارقه. تلك صورة هيثكليف كما عهدتها، مع أنني صديقته - بل إن صداقتي له تبلغ مبلغًا لعله كان يحملني على الصمت وإخفاء هذه الحقائق عنكِ وتركك تقعين في فخه لو أنني علمت أنه فكر جديًّا في اقتناصك».

ونظرت مس لنتن إلى زوجة أخيها نظرة السخط والاحتقار، وأخذت تقول لها وهي مستشيطة غضبًا: «يا للعار! يا للعار! إنك لشر من مائة عدو، أيتها الصديقة المؤذية!».

قالت كاثرين: «آه! إنك لا تصدقينني إذن؟ وأنتِ تحسبينني مدفوعة إلى هذا الكلام بالأنانية الخسيسة؟».

فأجابت إيزابيلا: «لست أشك في ذلك، وإن جسمي ليقشعر اشمئزازًا منك!».

فصاحت كاثرين: «حسن! ما دامت هذه روحك فجربي بنفسك، لقد انتهيت، وها أنا أترك لك الحديث أيتها السفيهة الوقحة».

ثم غادرت الحجرة، فقالت إيزابيلا وهي تنتحب: «حتم عليَّ أن أتعذب بسبب أنانيتها! إن كل شيء ضدي، كل شيء! لقد عصفت بعزائي الوحيد، ولكنها كاذبة فيما تقول، أليست كذلك؟ فليس مستر هيثكليف شيطانًا رجيمًا، إنما هو رجل ذو نفس كريمة نبيلة مخلصة، وإلا فكيف لم ينسها إلى الآن؟».

قلت لها: «أقصيه عن أفكارك أيتها الآنسة، إنه طير يجلب النحس أينما حل، وليس هو الرجل الجدير بكِ. صحيح أن مسز لنتن كانت عنيفة في كلامها عنه، ولكني لا أستطيع

تكذيبها فيما قالت، فهي أعرف بقلبه مني أو من أي شخص آخر، وهي تكره أن تصوره بأسوأ مما هو. إن الأشراف من الناس لا يخفون فعالهم، فقولي لي بربك كيف كان يعيش؟ وأنى له هذه الثروة؟ ولم يسكن وذرنج هيتس، بيت الرجل الذي يمقته؟ يقولون إن مستر إيرنشو قد ازدادت حاله سوءًا على سوء من يوم أتى هيثكليف، فهما يسهران معًا طوال الليل دون انقطاع، وقد أخذ هندلي يستدين على أرضه، ولم يصبح له من شغل شاغل سوى الخمر والميسر. لم أسمع بهذا كله إلا في الأسبوع الماضي، وقد سمعته من جوزيف حين لقيته في جمرتن. قال لي جوزيف: «نلي، سيأتي رجال الضبط للتحقيق عندنا، فإن أحد أصحاب مستر إيرنشو كاد يبتر أصبعه وهو يمنع صاحبه من طعن نفسه كأنه البقرة، إن سيدي كما تعلمين يسير في طريقه حثيثًا إلى محكمة الجنايات، وهو لا يخشى أن يقف أمام ساحة القضاء، ولا أمام بولس أو بطرس أو يوحنا أو متى أو غيرهم من القديسين. إنه لا يخشى أحد هؤلاء، وهو يود أن يجابههم بوجهه الصفيق. أما ذلك الفتى المدهش هيثكليف فهو في الحق نسيج وحده! إنه ليضحك ملء شدقيه حين يسمع نكات هؤلاء الأبالسة، ألا يذكر لكم حين يزوركم طرفًا من حياته البديعة معنا؟ إليكِ الأسلوب الذي تجري عليه حياته كل يوم، فهو يقوم من نومه عند الغروب، ثم يبدأ لعب الميسر ويشرب البراندي والنوافذ مغلقة وهو يسب ويلعن في لغة تندى لها الجباه، وأما الوغد فيعد نقوده ويأكل وينام ثم ينطلق إلى بيت جاره ليسمر مع زوجته، وبالطبع هو يحدث السيدة كاثرين عن مال أبيها وكيف ينساب إلى جيوبه، وعن أخيها وكيف يركض في الطريق الواسع، بينا يعدو هو أمامه ليفسح له السبيل»، وبعد، فإن جوزيف وغد عريق في اللؤم، ولكنه ليس بكاذب يا مس لنتن، فإذا صح ما روى عن سلوك هيثكليف، فلست أخالك تفكرين في الزواج من رجل مثله. فماذا تقولين؟».

قالت: «آلن، لقد تحالفتِ معهم عليَّ! وإني لن أعير أكاذيبكم ومفترياتكم غير أذن صماء، أي حقد وأي حسد هذا الذي يبعثكم على محاولة إقناعي بأن الحياة تخلو من السعادة والهناء!».

ولست أدري، لو أنها تركت وشأنها، أكانت تقهر هذا الهوى في نفسها أم تمضي في احتضانه إلى النهاية. على أنها لم يتح لها من الوقت ما يكفي للتفكير والتدبر، ذلك أن المحكمة كانت ستنعقد في الغد في المدينة المجاورة لنا، وكان على سيدي أن يحضر هذه الجلسة، وكان مستر هيثكليف عليمًا بغيابه عن الدار فأقبل مبكرًا عما ألفنا منه، وكانت كاثرين وإيزابيلا جالستين في المكتبة، وكانتا على خصام ولكنه خصام صامت، فأما إيزابيلا فكانت مضطربة لما صدر عنها من حماقة، ولما باحت به من مكنون نفسها في سورة غضب عابرة، وأما كاثرين فكانت في الحق مستاءة أشد الاستياء من صاحبتها بعد أن قلبت المسألة على وجوهها، وكانت تحس أنها حتى لو ضحكت ثانية من سفاهتها، فإنها يجب أن تشعرها بأن المسألة ليست هزلًا ولا مزاحًا فيما يتصل بها. ولقد ضحكت فعلًا حين رأت هيثكليف يمر بالنافذة، وكنت أكنس المدفأة فلحظت على شفتيها ابتسامة خبيثة ماكرة، أما إيزابيلا فكانت غارقة في أفكارها، أو في كتابها لست أدري، لذلك ظلت باقية في الحجرة حتى فتح الباب، فاستحال عليها الآن أن تحاول الهروب منها، وما كان أحبه إليها لو استطاعت إليه سبيلًا.

وهتفت به سيدتي وهي تدني من النار مقعدًا: «تفضل، هذا عظيم! إن هنا شخصين هما أحوج ما يكونان إلى ثالث يذيب ما بينهما من جفوة وصمت، ولو خير كلانا في اختيار هذا الثالث لما اختار سواك. هيثكليف، إنه ليملؤ نفسي فخرًا أن أدلك في النهاية على شخص أولع بك مني وأكلف، وإني أنتظر منك أن تزهى بذلك وتتيه خيلاء. لا تنظر إلى نلي فلست أعنيها بكلامي! إن شقيقة زوجي هذه المسكينة لتذوب وجدًا بما أوتيت من

حسن في الخلق والخلق، وإن في مقدورك الآن أن تصبح لإدجر صهرًا»، ثم مضت تقول وقد نهضت الفتاة المضطربة حانقة، فأمسكت بها تعوقها عن الهروب وهي تتصنع المعابثة والدعابة: «لا لا يا إيزابيلا، لن أدعكِ تهربين، لقد كنا نشتجر عليك كأننا هرتان يا هيثكليف، فهزمتني إيزابيلا هزيمة منكرة بما أقامت من حجج على حبها ووفائها لك، ثم إن غريمتي -وهي تأبى إلا أن تكون لي غريمة- زعمت لي أنني لو تأدبت وتركت لها الميدان لصوبت إليك سهمًا ينفذ إلى شغاف قلبك ويصيرك لها عبدًا ما دمت حيًّا ويمحو ذكراي من نفسك أبد الدهر!».

فقالت إيزابيلا وقد ثارت في نفسها العزة والكرامة وأبت أن تحاول التملص من قبضتها القوية: «كاثرين! هلا التزمت جانب الحق فيما تقولين، وهلا كففت عن هذا الافتراء ولو كنت فيه مازحة! وأنت يا مستر هيثكليف، تفضل ومر صديقتك هذه بأن تدع يدي، فقد غاب عنها أني وأنت لسنا صديقين حميمين، وهذا العبث الذي تلهو به يؤذي نفسي ويؤلمها أشد الألم».

أما الضيف فلم ينبس بكلمة، بل استوى على مقعده وبدا عليه أنه لا يأبه لما تحسه إيزابيلا من عاطفة نحوه، فتحولت إلى معذبتها وهمست في أذنها تناشدها في حرارة أن تطلقها لحال سبيلها.

وصاحت مسز لنتن قائلة: «أبدًا! لست أريد أن ترميني ثانية بالأنانية، لن تبرحي هذا المكان، والآن يا هيثكليف لِمَ لا يبدو عليك الرضى والغبطة بما زففت إليك من بشرى؟ لقد أقسمت لي إيزابيلا أن حبها لك يزري بحب إدجر لي، إني على يقين من أنها قالت كلامًا بهذا المعنى -أليس الأمر كذلك يا آلن؟ ولقد صامت عن الطعام والشراب بعد جولتنا يومين حزنًا وسخطًا لأنني أقصيتها عن حضرتك».

قال هيثكليف وهو يدير كرسيه ليواجههما: «أحسبك تفترين عليها، على أي حال هي زاهدة في حضرتي الآن».

ثم تفرس في إيزابيلا كما يتفرس المرء في حيوان غريب كريه -في عقرب هندي مثلًا، يتطلع إليه بدافع الفضول على الرغم مما يثيره في نفسه من نفور وتقزز. ولم تقو الفتاة المسكينة على احتمال هذه النظرة المهينة، فكان وجهها يصفر مرة ويحمر أخرى، واستجمعت قواها لتفك بأصابعها الصغيرة قبضة كاثرين القوية والدمع يترقرق في مآقيها، ولكنها رأت أنها لا تكاد تتخلص من إصبع حتى تطبق على ذراعها إصبع أخرى، ورأت أنها عاجزة عن التخلص من أصابعها جميعًا دفعة واحدة، فاستعانت بأظافرها تنشبها فيها، فما لبثت هذه الأظافر الحادة أن طبعت أهلة حمراء على يد كاثرين.

وصاحت مسز لنتن وهي تخلي سبيلها وتهز يدها ألمًا: «يا لكِ من نمرة! امضي بربك واستري وجهك خزيًا أيتها الثعلبة! ما أشد حماقتك إذ تكشفين أمامه عن هذه المخالب! ألا يخطر ببالك ما قد يستنتجه من هذا؟ دونك يا هيثكليف! إنها آلات فتاكة فحذار».

وأجاب في وحشية بعد أن خرجت وأوصد الباب خلفها: «لو أنني أحسست بالخطر من هذه الأظافر لانتزعتها من أصابعها انتزاعًا. ولكن قولي لي بربك يا كاثي، ماذا كنتِ تقصدين بإثارة المسكينة على هذا النحو؟ لعلك لم تصدقي فيما زعمت؟».

قالت: «بل إني صادقة، لقد مضت عليها أسابيع وهي تكاد تموت وجدًا بك، وكانت

تهذي عنك هذا الصباح كأنها جنت بك، وتقذفني بوابل من الشتائم لأنني صارحتها بنقائصك رغبة مني في التخفيف من وجدها، ولكن لا عليك من هذا - لقد أردت أن أعاقبها على سلاطتها- هذا كل ما في الأمر. وإن حبي لها أيها العزيز هيثكليف ليحملني على منعك من اقتناصها وافتراسها».

قال هيثكليف: «وإن بغضي لها ليمنعني من أن أحاول ذلك، وإن حاولت ففي وحشية وضراوة، لو أنني عشت وحدي مع صاحبة هذا الوجه الكريه الحائل اللون لسمعت من أنبائنا عجبًا، وإن أقل ما أصنع بهذا الوجه هو أن أرسم ألوان قوس قزح على صفحته البيضاء، وأن أحيل زرقة عينيه سوادًا كل يوم أو يومين، إن بين هاتين العينين وعيني لنتن لشبهًا بغيضًا».

قالت كاثرين: «بل قل شبهًا لذيذًا! إنهما عينا يمامة -أو عينا ملك كريم!».

وسألها بعد أن سكت لحظة: «إنها وريثة أخيها، أليست كذلك؟».

أجابت صاحبته: «إن هذه الفكرة تبعث في نفسي الأسى. وإني لأسأل الله أن يرزقني من الذكور ستة يمحون حقها في الميراث محوًا. فاطرد هذه المسألة من ذهنك الآن طردًا، وإني لأرى فيك لهفة شديدة على اقتناص ثروة جارك، ولكن تذكر أن ثروة هذا الجار هي ثروتي».

قال هيثكليف: «ذلك يكون موقفي ولو كانت ثروتي أنا، على أن إيزابيلا ليست مجنونة، وإن كان في تصرفها رعونة، سندع هذا الموضوع كما أشرت بذلك».

ولقد أمسكا فعلًا عن الخوض في هذا الموضوع، ولعل كاثرين كفت عن التفكير فيه أيضًا، ولكني كنت على يقين من أن هيثكليف كان كثير التفكير فيه ذلك المساء، رأيته يبتسم بينه وبين نفسه، أو قل يكشر عن أنيابه، ويرتد إلى أفكاره المشؤومة كلما غابت مسز لنتن عن الحجرة.

واعتزمت في نفسي أن أتجسس حركاته، وكانت عواطفي كلها مع سيدي لا مع زوجته -وخيل إليّ أنني كنت في ذلك محقة لأنه كان رجلًا رقيقًا نبيلًا جديرًا بالثقة، أما هي، فلست أستطيع أن أرميها بنقيض هذه الصفات، ولكنها كانت -فيما بدا لي- تبيح لنفسها من الحرية المفرطة ما جعلني ضعيفة الثقة بمبادئها، قليلة العطف على مشاعرها، لذلك كنت أتوق إلى حادث ليخلص وذرنج هيتس والضيعة جميعًا من مستر هيثكليف في غير ضجة ولا ضوضاء، ويتركنا كما كنا قبل مقدمه. وكانت زياراته كابوسًا جاثمًا على صدري، وعلى صدر سيدي كما خُيِّل إليّ. وكان مقامه في وذرنج هيتس محنة كبرى وبلاء شديدًا، ولقد شعرت أن العناية الإلهية قد تخلت عن ذلك الرجل الضال الذي يسكن تلك الدار وتركته سادرًا في ضلالته، وأن وحشًا ضاريًا يجوس الأرض بينه وبين حظيرته، ويتربص به الفرص لينقض عليه ويفتك به.

* * *

الفصل الحادي عشر

كنت إذا تأملت هذه الأمور في وحدتي أقوم أحيانًا وقد ملكني رعب مفاجئ، فألبس قبعتي لأنطلق فأطمئن على حال أهل وذرنج هيتس، ولقد أقنعت نفسي بأن من واجبي أن أنقل إلى مستر إيرنشو أحاديث الناس عن سلوكه، ولكني تذكرت ما تأصل في نفسه من عادات سيئة، فيئست من إفادته مما قد أنقل إليه من حديث، وأحجمت عن دخول هذا البيت المنحوس وأنا في ريب من استطاعتي حمله على تصديقي.

وذات مرة كنت منطلقة إلى جمرتن فعرجت بالباب العتيق، وكان ذلك في الفترة التي بلغتها الآن من قصتي، في عصر يوم مشرق بارد انكشفت فيه الأرض وجف فيه الطريق وتصلب، فبلغت حجرًا يتفرع عنده الطريق فتخرج من يساره شعبة تتجه إلى المرج -وكان عمودًا خشنًا من الحجر الرملي حفر على وجهه الشمالي الحرفان و. هـ. وعلى وجهه الشرقي الحرف ض، وعلى وجهه الجنوبي الغربي الحرفان ض.ث (ضيعة ثرشكرس)، وهو بمثابة شاخص يرشد المسافرين إلى طريق الضيعة والدار والقرية. وكانت أشعة الشمس تسطع صفراء على قمته الشهباء فتعيد إلى الذاكرة أيام الصيف، وإذا أنا أحس فجأة بفيض من مشاعر الطفولة يتدفق إلى نفسي لسبب لا أعرف له كنهًا. لقد كانت هذه البقعة أثيرة عندي وعند هندلي قبل عشرين عامًا، فتطلعت طويلًا إلى الحجر الذي أبلته عوامل الجو، وانحنيت عليه فرأيت عند قاعه ثقبًا ما زال حافلًا بما كنا نودع فيه من حصى وأصداف وما إليها من أشياء أسرع من هذه عطبًا. وخُيِّل إليَّ أنني أرى ترب طفولتي جالسًا على العشب الذابل وقد مال إلى الأمام رأسه المربع الأسود الشعر وأخذ يجرف التراب بلوح من الاردواز، فصحت على غير إرادتي: «مسكين أنت يا هندلي!»، وراعني ما تراءى لعيني في تلك اللحظة، فقد خلتني أبصر الصبي يرفع وجهه ويشخص إليَّ! وانقشعت هذه الصورة عن ناظري في طرفة عين، ولكني شعرت أثرها بحنين إلى الدار لا أستطيع له ردًّا، ودفعني التطير إلى إطاعة هذا الحافز، وقلت لنفسي: «لعله قد مات، أو أشرف على الموت! ولعل هذا نذير موته!» وكنت كلما دنوت من الدار ازددت اضطرابًا، وما إن لمحتها من بعيد حتى ارتعدت ارتعادًا منكرًا، فقد سبقني هذا الشبح الذي توهمته، ووقف يتطلع إليَّ من خلف الباب، ذلك أول ما خطر لي حين رأيت صبيًّا عسلي العينين ذا لمة مشتبكة يتكئ بوجهه المتورد على القضبان. ولكني بعد روية فطنت إلى أن الصبي لا بد هو هيرتن، هيرتن الذي كنت له أمًّا، لم يطرأ عليه تغير كبير بعد تركي إياه منذ عشرة شهور.

وصحت به وقد نسيت لساعتي ما كان يساورني من هواجس سخيفة: «بورك فيك يا حبيبي! هيرتن، أنا نلي - نلي مربيتك».

ولكنه ابتعد، ومال على حجر كبير فالتقطه.

وبدا لي من فعله أنه لم يعرف فيَّ مربيته نلي، حتى وإن كان هذا الاسم لا يزال حيًّا في ذاكرته، فقلت له: «جئت لأرى أباك يا هيرتن».

ورفع الحجر ليقذفني به، وبدأت ألاطفه بالحديث، ولكني لم أستطع منعه من قذفي بالحجر، فأصاب به قبعتي، ثم أردف ذلك بسيل من الشتائم تدفق من فمه المتعثر، ولست

أدري أكان يفقه معناها أو لا يفقهه، ولكنه كان يرددها ترديد من ألفها ومرن عليها، وكانت سحنته الصغيرة تلتوي التواء منكرًا وهو يفوه بها، ولقد أحزنني منه ذلك بالطبع أكثر مما أغضبني، وكنت على وشك البكاء، فأخرجت من جيبي برتقالة قدمتها إليه لأصالحه، فأحجم أولًا، ثم خطفها من يدي كأنه خالني أغريه بها وأخادعه فقط، ولكني أخرجت له غيرها، وأريتها له من بعيد.

وسألته: «من علمك هذا الكلام الحلو يا حبيبي؟ أهو القسيس؟».

قال: «تبًّا للقسيس، وتبًّا لكِ! أعطيني هذه».

قلت: «قل لي أولًا من علمك هذا فأعطيكها، من معلمك؟».

قال: «إنه أبي الشيطان».

فسألته: «وماذا تعلمت من أبيك؟».

فانقض على البرتقالة، ولكني رفعتها عن متناوله، وسألته: «ماذا

يعلمك؟».

قال: «لا شيء، إلا أن أغرب عن وجهه، إن أبي لا يطيقني لأنني أسبه».

قلت: «آه! والشيطان هو الذي علمك أن تسب أباك؟».

قال: «لا لا».

- فمن إذن؟

- هيثكليف.

فسألته أيحب مستر هيثكليف؟

قال: «نعم!».

وأردت أن أعرف منه السبب، فلم يقل لي أكثر من هذه العبارة: «لست أدري، إنه يرد لأبي ما يعطيني، إنه يسبه لسبي، وهو يخبرني بأن أفعل ما أشتهي».

وسألته: «إذن فالقسيس لا يعلمك القراءة والكتابة؟».

قال: «لا، لقد قيل لي إن القسيس إذا اجترأ على دخول عتبة الدار، ستكسر له أسنانه اللعينة، وتدفع في حلقه، ذلك ما وعد هيثكليف أن يفعل به!».

ووضعت البرتقالة في يده، وطلبت إليه أن ينبئ أباه بأن بباب الحديقة امرأة تُدعى نلي دين تبغي مقابلته والتحدث إليه، وصعد الطريق إلى الدار ودخلها، ولكني بدلًا من أن أرى هندلي خارجًا إليَّ، رأيت هيثكليف يبدو على عتبة البيت، فتوليت من فوري، وهبطت الطريق وأنا أطلق لساقي الريح لا ألوي على شيء حتى بلغت الشاخص الحجري وقد أخذ

الروع مني كل مأخذ كأنني قد أهجت عفريتًا من مرقده، وليس لهذا كبير صلة بقصة إيزابيلا، اللهم إلا من حيث دفعي إلى أن أشدد رقابتي وأبذل ما وسعني من جهد في وقف سريان هذا التأثير الضار إلى الضيعة وإن كنت بعملي هذا سأثير في البيت عاصفة بالتصدي لمسز لنتن ورغباتها.

وحين زارنا هيثكليف زورته التالية اتفق أن كانت مس لنتن في فناء الدار تطعم بعض الحمام، ولم تكن بادلت زوجة أخيها كلمة واحدة منذ ثلاثة أيام، ولكنها كانت قد أمسكت كذلك عن الشكوى والتبرم، وكان في ذلك راحة أي راحة لنا. وكنت أعلم أنه ليس من عادة هيثكليف أن يبدي نحو مس لنتن أي مجاملة إلا إذا دعته الضرورة إلى ذلك، ولكنه ما إن رآها الآن حتى كان همه الأول أن يحتوي واجهة الدار بنظرة محيطة، وكنت واقفة إلى نافذة المطبخ فتواريت، ثم رأيته يخطو ميممًا صوبها ويقول لها كلامًا، وبدا عليها الارتباك والرغبة في الهروب، ولكنه أمسك بذراعها ليحول دون هروبها، فأشاحت بوجهها عنه، ويلوح أنه سألها سؤالًا لم ترد أن تجيب عنه، وألقى على البيت نظرة خاطفة ثانية، ثم اجترأ الوغد فضمها إلى صدره وهو يحسب نفسه في مأمن من عيون الرقباء.

ووجدتني أقول: «إيه يا يهوذا! إيه أيها الخائن! إنك أيضًا منافق، وإنك لتضمر الغش والخديعة؟».

وسمعت صوت كاثرين بقربي يقول: «من تعنين يا نلي؟»، وكنت قد انصرفت إلى مراقبتهما انصرافًا شغلني عن ملاحظة دخولها.

وأجبتها في حدة: «أعني صديقك الخسيس، هذا الوغد السافل، آه، لقد لمحنا، وهو مقبل إلى الداخل! ليت شعري أيجد في نفسه الجرأة لالتماس عذر مقبول يعتذر به عن مطارحة إيزابيلا الغرام بعد أن صارحك بأنه يبغضها؟».

ورأت مسز لنتن إيزابيلا تنتزع نفسها من قبضته وتعدو إلى الحديقة، وبعد دقيقة فتح هيثكليف الباب، ورأيتني أجهر له بسخطي عليه دون أن أستطيع كبح لساني، ولكن كاثرين أمرتني بالصمت وهي حانقة، وهددتني بطردي من المطبخ إذا اجترأت على المضي في سلاطتي، وصاحت بي تقول: «إن من يسمعك يحسبك أنتِ ربة البيت لا أنا! إنكِ لفي حاجة إلى أن ألزمك مكانك لكيلا تتجاوزي حدك! وأنت يا هيثكليف، ما قصدك، وما هذه الضجة التي تثيرها؟ قلت لك دع إيزابيلا وشأنها! إني لأرجو أن تفعل، إلا إذا كنت سئمت استقبال هذه الدار لك، وأردت أن يوصدها لنتن في وجهك!».

وقال الوغد اللئيم: «معاذ الله أن يحاول فعل ذلك!»، ولقد شعرت نحوه في هذه اللحظة بمقت شديد، ومضى يقول: «حفظه الله وديعًا طويل الأناة! إنني لأزداد كل يوم ولعًا بإرساله إلى جنات النعيم».

قالت كاثرين وهي توصد الباب الداخلي: «صه! لا تغظني، قل لي لِمَ ضربت صفحًا عن رجائي إليك؟ أتعرضت هي لك عامدة؟».

وزمجر هيثكليف قائلًا: «وما أنتِ وهذا؟ إن من حقي أن أقبلها إذا رضيت هي، وليس لكِ أن تعترضي، فما أنا بزوجك، وليس بك من حاجة إلى أن تغاري عليَّ».

وقالت سيدتي: «إنني لا أغار عليك، وإنما أغار على سمعتك. ابسط لي وجهك ولا تتجهم! إن كنت تحب إيزابيلا تزوجها، ولكن، أتحبها حقًّا؟ أصدقني القول يا هيثكليف! ها

أنت ذا لا تحير جوابًا. إنني واثقة أنك لا تحبها».

وسألتها: «وهل يوافق مستر لنتن على زواج أخته من هذا الرجل؟».

فقالت في لهجة حاسمة: «يجب أن يوافق».

وقال هيثكليف: «ليكفي نفسه هذا العناء، فإن في وسعي أن أفعل دون حاجة لموافقته. أما أنتِ يا كاثرين فإني أريد أن أصارحك بكلمات قليلة قبل أن نطوي هذا الحديث. أود أن تعلمي بأنني أعرف أنك عاملتني معاملة لئيمة -أقول معاملة لئيمة! أسامعة أنتِ؟ وإذا كنت تخادعين نفسك بأنني غافل عنها فإنك غبية حمقاء، وإذا كنتِ تحسبين أن في إمكانكِ أن تدخلي العزاء إلى نفسي بالكلام المعسول فإنك بلهاء ناقصة العقل، وإذا كنتِ تخالينني أطيق هذه المعاملة دون أن أثأر لنفسي فسأقنعك بخطئك وشيكًا. أما الآن فإني شاكر لك ما أطلعتني عليه من سر إيزابيلا، ويمينًا لأستغلن هذا السر ما وسعني استغلاله، ونصيحتي إليكِ أن تخلي بيني وبين ما أريد».

وصاحت مسز لنتن وقد غلبتها الدهشة: «ما هذا الطور الجديد من خلقه؟ أعاملتك أنا معاملة لئيمة، وأنت تريد أن تثأر لنفسك؟ وعلى أي صورة يكون ثأرك أيها الوحش الجاحد؟ وأي لؤم لقيته مني؟».

قال هيثكليف وقد خفف من غلوائه: «لست أبغي الثأر منك، فما هذه خطتي. إن الطاغية ليسحق عبيده تحت قدميه فلا ينقلبون عليه، وإنما يسحقون من دونهم. فإذا طاب لك تعذيبي ووجدت في التنكيل الشديد بي لذة ولهوًا فافعلي ذلك حبًّا وكرامة، ولكن دعيني ألهو قليلًا بالأسلوب نفسه، وكفي عن إهانتي ما وسعك ذلك. لقد هدمت قصري وسويته بالتراب، فلا تبني مكانه كوخًا حقيرًا ثم ترضين عن نفسك ويأخذك الإعجاب ببرك وعطفك لأنك خلعت هذا الكوخ عليَّ. ولو أنني عرفتك تريدينني حقًّا أن أتزوج إيزابيلا لأزهقت روحي بيدي!».

فصاحت كاثرين: «أوه، إنك تراني شريرة لأنني لست غيورة، أليس هذا هو الحق؟ حسن، إنني لن أعرض عليك ثانية هذه الزوجة. ففي هذا العرض من الشر ما في عرض نفس ضالة على الشيطان، وأنت كالشيطان لا تجد نعيمًا ولذة إلا في إشقاء الناس وإتعاسهم، وآية ذلك ما تفعل الآن. فقد رضي الآن إدجر عنك وزال ما كان يحسه من سخط أول ما حضرت، وبدأت أنا أحس الاطمئنان والهدوء، ولكنك لا ترتضي لنا السلام والوفاق، ويبدو أنك عقدت النية على إثارة الخصام، فاختصم إدجر إذا طاب لك اختصامه، واخدع شقيقته وغرر بها، فتلك أمثل طريقة وأنجعها في شفاء وترك مني».

ثم أمسكت عن الحديث، وجلست إلى النار ثائرة محزونة النفس، فقد بدأ الروح الذي سخرته لخدمتها يصبح شموسًا جموحًا لا سبيل إلى إسكاته أو السيطرة عليه، ووقف هو عند الموقد مكتوف الذراعين يجتر أفكاره الشريرة. وعلى هذا الوضع تركتهما لألتمس مولاي الذي كان لا يدري لطول تأخر كاثرين سببًا.

وبادرني حين دخلت بقوله: «أرأيت سيدتك يا آلن؟».

قلت: «نعم، هي في المطبخ، إن مسلك مستر هيثكليف يكدرها أعظم تكدير، وفي رأيي أن الوقت قد حان لوضع أساس جديد لزياراته. إن الإسراف في اللين ضار أبلغ الضرر، وقد أوصلنا إلى هذه الحال...»، ثم رويت له المشهد الذي شهدت في الفناء،

وقصصت عليه -على قدر ما اجترأت- قصة الشجار الذي تلا هذا المشهد. وخُيِّل إليَّ أنني لم أكن فيها متجنية على مسز لنتن، اللهم إلا إذا زعمت هي ذلك فيما بعد حين اتخذت موقف الدفاع عن ضيفها. وكنت أرى أن إدجر لنتن يجد مشقة في السيطرة على أعصابه إلى نهاية القصة، وبدا لي من عبارته الأولى أنه لا يخلي زوجته من اللوم.

وصاح يقول: «هذه حال لا تطاق! عار عليها أن تجهر به صديقًا وتفرض عشرته عليَّ فرضًا! نادي لي رجلين من البهو يا آلن، فإني لن أسمح لكاثرين بالبقاء لحظة بعد الآن لتجادل هذا الوغد الساقط، وكفاني ما مضى ملاينة لها ومسايرة».

ثم نزل إلى أسفل الدار، وأمر الخدم أن ينتظروا في الدهليز، ثم دخل المطبخ وأنا في إثره، وكان هيثكليف وكاثرين قد عادا إلى نقاشهما الحاد، أو كانت هي على الأقل تقرعه تقريعًا شديدًا، أما هيثكليف فقد سار إلى النافذة وطأطأ رأسه ويبدو أن تعنيفها القوي قد أخافه، ورأى سيدي يدخل قبل أن تلحظه هي، فأومأ إليها إيماءة سريعة لتمسك عن الكلام، ففعلت بعد أن أدركت سر إيماءته.

وقال لنتن موجهًا الخطاب إليها: «كيف؟ أمن اللياقة بقاؤك في هذا المكان بعد ما أسمعك هذا الوغد من ألفاظ لعلك لم تعبأي بما قال لأن هذه لغته التي ألفها لسانه، لقد رضت نفسك على احتمال لؤمه وسفاهته، وقد يدور بخلدك أنني أستطيع أن أروض نفسي على احتمالها مثلك».

قالت في لهجة من يتعمد إثارته، لهجة فيها إغفال لأمره واحتقار لغضبه: «أكنت تسترق السمع خلف الباب يا إدجر؟»، وكان هيثكليف قد رفع عينيه حين سمع حديث زوجها، فما إن سمع جوابها حتى أطلق ضحكة ساخرة بدا لي أنه قصد بها لفت نظر لنتن إليه، ولقد نجح فيما قصد، ولكن إدجر لم يكن ينوي أن يدخل السرور والبهجة على نفس غريمه باندفاعه في سورة من الغضب.

وقال له في هدوء وسكينة: «لقد احتملتك إلى الآن يا سيدي، لا غفلة مني عن ضعتك وانحطاط خلقك، بل شعورًا مني بأنك لست وحدك المسؤول عن هذا الخلق. ولقد أرادتني كاثرين أن أبقي على صحبتك فنزلت على ما أرادت، وكان ذلك مني غباوة وجهلًا، فإن وجودك سم زعاف يلوث أطهر الناس وأبرهم، لذلك لن تدخل هذه الدار بعد اليوم تحاشيًا لأوخم العواقب، وإني لأنذرك الآن بأن ترحل فورًا، وأمهلك ثلاث دقائق، فإذا لم تفعل أُكرهت على الرحيل رحيلًا مزريًا».

أما هيثكليف فاحتوى غريمه بنظرة تفيض احتقارًا، ثم قال:

«كاتي، إن هذا الحمل ليهدد ويتوعد كأنه الثور! وإني لأخشى عليه أن تحطم يدي رأسه، يمينًا يا مستر لنتن إنني لشديد الأسف لأنك لست جديرًا بأن أصرعك أرضًا!».

ونظر سيدي صوب الدهليز ثم أومأ إليَّ أن أنادي الخدم، فصدعت بأمره، ولكن مسز لنتن أوجست شرًّا فتبعتني، فما إن حاولت نداءهم حتى جذبتني إلى المطبخ وأوصدت الباب خلفها بشدة وأغلقته بالمفتاح.

ونظر إليها زوجها نظرة تشف عن الدهشة والغضب، فقالت: «يا لها من وسيلة شريفة! إن كنت لا تجد في نفسك من الشجاعة ما يحملك على مهاجمته فاعتذر إليه أو احتمل ضربه، فإن في هذا إصلاحًا لك وشفاء من التظاهر بما ليس فيك من شجاعة. لا،

سأبتلع هذا المفتاح قبل أن تنتزعه مني! لقد لقيت منكما جزاء سنمار على ما بذلت من عطف! احتملت ضعف الواحد ولؤم الآخر فلم ألق منكما غير عقوق غبي أعمى! إدجر، لقد كنت أدافع عنك وعن أسرتك، وإني لأشتهي الآن أن يجلدك هيثكليف حتى تسقط إعياء لإساءتك الظن بي!».

ولكن زوجها لم يكن في حاجة إلى هذا الجلد ليسقط، فقد حاول أن ينتزع المفتاح من قبضة كاثرين، ولكنها ألقت به إلى النار خشية أن يصل إليه، فأخذته رعدة عصبية شديدة امتقع لها وجهه امتقاعًا شديدًا، ولم يكن يقوى طوال حياته على مقاومة هذا الانفعال العاطفي المفرط، فغلبه على أمره الألم وشعور الهوان والضعف، واتكأ على ظهر مقعد وغطى وجهه.

وصاحت به زوجه: «عجبًا! لو أن إنسانًا سلك مسلكك هذا في الأيام الخوالي لاستحق لقب الفروسية! ما أسرع ما هزمنا وألقينا السلاح! فلن يرفع هيثكليف إصبعه في وجهك إلا إذا سير الملك جيشه ليقضي على جماعة من الجرذان، تشجع! فلن يصيبك ضر! إن أمثالك ليسوا حملًا بل جراء أرنب رضع».

وقال صاحبها: «هنيئًا لكِ يا كاثي هذا الجبان الرعديد! إني أهنئك على ذوقك السليم، هذا هو المخلوق الخسيس الرعديد الذي فضلته عليَّ! إنني أربأ بقبضتي أن تضربه، وإنما أوثر أن أركله بقدمي وأشتفي منه، أتراه يبكي، أم هو مشرف على الإغماء خوفًا وفرقًا؟».

ثم دنا منه ودفع المقعد الذي كان مستندًا إليه، وكان خيرًا لهيثكليف أن يظل بعيدًا، فما أسرع ما انتفض سيدي واقفًا على قدميه ولطمه على حلقه لطمة لو أصابت رجلًا أوهى من هيثكليف لألقته على الأرض صريعًا، أما هيثكليف فقد انبهرت أنفاسه دقيقة، وفيما هو يلهث خرج مستر لنتن إلى الفناء من الباب الخلفي، ومن الفناء سار إلى المدخل الأمامي.

وصاحت به كاثرين: «حسبك! لن تأتي هذه الدار بعد اليوم. فامض الآن لأنه سيعود بغدارتين وستة من الخدم، إنه لن يعفو عنك إذا كان قد سمع حديثنا، لقد أسأت إليَّ يا هيثكليف، ولكن امض الآن ولا تبطئ، وإني ليهون عليَّ أن أرى إدجر في مأزق عن أن أراك أنت فيه».

فأرعد قائلًا: «أتحسبينني ماضيًا بهذه اللطمة تحرق حلقي؟ يمينًا لن أمضي هكذا! وإني لمحطم ضلوعه كما تحطم البندقة العفنة قبل أن أتخطى هذه العتبة! وإذا لم أصرعه الآن فأنا لا محالة قاتله يومًا ما، فإن كنتِ تقيمين لحياته وزنًا فمكنيني منه!».

قلت وقد اخترعت كذبة صغيرة: «إنه لن يأتي، وإنما سيرسل إليك السائق والبستانيين ولست أحسبك تنتظرهم ليقذفوا بك إلى عرض الطريق! إن كلًّا منهم يحمل في يده هراوة، وأكبر ظني أن سيدي سيرقبهم من نوافذ غرفة الجلوس ليتأكد من تنفيذ أوامره».

وكان البستانيان والسائق فعلًا في الخارج، ولكن لنتن كان يرافقهم، وكانوا قد دخلوا فناء الدار، أما هيثكليف فقد راجع نفسه ورأى من الحكمة أن يتحاشى عراكًا مع الخدم الثلاثة، فأمسك محراك النار وحطم قفل الباب الداخلي ولاذ بالفرار قبل أن يدخلوا.

وكانت مسز لنتن مهتاجة ثائرة النفس، فأمرتني أن أصحبها إلى الطابق العلوي وهي تجهل الدور الذي قمت به فيما حدث من اضطراب وعراك، وكنت حريصة على إخفائه عنها.

وصاحت وهي تلقي بنفسها على الأريكة: «نلي، يكاد صوابي أن يذهب! وإني لأحس مئات المقارع تحطم رأسي! قولي لإيزابيلا أن تتجنبني، فما هذه الضجة إلا بسببها، وإني لأتوقع أن يزداد هياجي وتتفاقم ثورتي إذا زادتني هي أو غيرها غضبًا على غضب. ثم قولي لإدجر إذا رأيته الليلة ثانية إنك تخشين عليَّ الوقوع فريسة لمرض خطير، وإني لأشتهي أن يتحقق هذا التهديد، فقد أثارني وأشقاني، وبودي أن أبعث الرعب في نفسه، ثم إنه قد يأتي ويبدأ إهاناته أو شكاواه، فإذا فعل فلست أشك في أنني سأرد على الإهانة بمثلها، ومن يدري أين يقف بنا العراك والمهاترة! بربك افعلي يا عزيزتي نلي، فأنت تعلمين أنني لست أحمل وزر ما حدث. أي شيطان هيأ له أن يسترق السمع؟ لقد كان في حديث هيثكليف بعد أن تركتنا أنتِ كثير من العنف والإهانة، ولكني كنت أستطيع أن أصرفه سريعًا عن مخادعة إيزابيلا، وكل ما عدا ذلك لا يهم في كثير ولا قليل. أما الآن فقد فسد الأمر كله بسبب هذه الشهوة التي أغرت هذا الأحمق بتسمع الطعن فيه، وهي شهوة تتملك بعض الناس كأنها روح نجس يسكن نفوسهم، وما كان إدجر ليضار في شيء لو أن حديثنا لم يبلغ مسمعه، ولكنه حين بادرني بلهجة الاستياء التي تجنى بها عليَّ، بعد أن قرعت هيثكليف من أجله هو حتى بح صوتي، حينئذ لم أعبأ بما قد يفعل أحدهما بالآخر -سيما وقد شعرت بأنه مهما كانت الصورة التي يختتم بها هذا العراك، فلا بد من القطيعة بين الجميع أمدًا لا يعلم أحد نهايته! حسن، إذا كنت لا أستطيع أن أحتفظ بهيثكليف صديقًا -وإذا أصر إدجر على أن يكون دنيئًا غيورًا- فإني سأحاول أن أحطم قلبيهما بتحطيم قلبي، تلك أسرع وسيلة للقضاء على الكل إذا ألجأتني إليها الضرورة القصوى، ولكني سأحتفظ بهذا الإجراء إلى يوم أكره على المغامرة به، ولست أريد أن أفجأ به لنتن. ولقد كان فيه من التعقل ما منعه في الماضي من إثارتي إلى هذا الحد، فعليك أن تشرحي له وجه الخطر في عدوله عن هذه السياسة، وأن تذكريه بما في طبعي من حدة كامنة قد تدفع بي إلى الجنون إذا أثيرت. بربك هلا طرحت هذه النظرة الجامدة واستشعرت شيئًا من القلق نحوي».

ولا شك أن الجمود الذي تلقيت به هذه الأوامر غاظها مني لأنها كانت مخلصة فيها أشد الإخلاص، ولكني كنت أرى أن من كانت مثلها تدبر الإفادة من نوبات غضبها قبل أن تحدث، تستطيع بشيء من قوة الإرادة أن تسيطر على أعصابها بعض السيطرة حتى خلال هذه النوبات، كذلك لم أشأ أن أبعث الرعب في نفس زوجها على حد قولها، وأن أزيد من مضايقاته لأرضي شهوتها، لذلك لم أقل له شيئًا حين رأيته مقبلًا نحو غرفة الجلوس، ولكنني أبحت لنفسي العودة إلى الغرفة لأرى هل يستأنفان العراك من جديد، وكان هو البادئ بالكلام.

قال وقد مازجت صوته رنة لا أثر للغضب فيها ولكنها فياضة باليأس والحزن: «لن أمكث طويلًا، فما جئت طلبًا للخصام أو السلام، إنما أريد أن أعرف شيئًا واحدًا، فهل تنوين بعد ما حدث الليلة أن تبقي على المودة بينك وبين...».

وقاطعته زوجته وهي تضرب الأرض بقدمها قائلة: «بالله كف ولا تزد! إن طبيعتك الباردة لا يمكن أن تثار، إن دمي ليغلي وأنت هادئ بارد، وإن هذا البرود ليجعل دمي يرقص في عروقي رقصًا».

ولكنه مضى في حديثه يقول: «إذن أجيبي عن سؤالي لتستريحي مني. يجب أن

تجيبي، ولن يروعني منك هذا العنف والهياج، فلقد عرفتك قادرة كغيرك من الناس على التجلد وكبح العاطفة حين يروق لك ذلك، فقولي لي عمن تتخلين بعد اليوم، أعني أم عن هيثكليف؟ إنك لن تستطيعي أن تكوني صديقة لي وله في وقت واحد، وأنا أريد أن أعرف أينا تختارين؟».

وصاحت كاثرين في سورة: «وأنا أريد أن أخلو إلى نفسي! ذلك حقي وأنا أطلبه! ألست ترى أنني لا أكاد أقوى على الوقوف؟ إدجر.. اتركني!».

ثم أخذت تقرع الجرس حتى حطمته تحطيمًا أحدث رنينًا، ودخلت الغرفة متباطئة، كانت هذه النوبات الغبية الشريرة خليقة بأن تغيظ أتقى الناس وأكثرهم ورعًا! رأيتها تضرب برأسها مسند الأريكة وتصر على أسنانها كأنها تريد أن تحطمها تحطيمًا! ووقف زوجها يرمقها بنظرة فيها ندم وخوف مفاجئان، وأمرني أن أحضر لها ماء، وكانت أنفاسها قد انقطعت فلم تقو على الكلام، وجئتها بكوب من الماء، ولما أبت أن تشربه رششته على وجهها، وما هي إلا ثوان حتى تمددت وقد تصلب جسدها وغربت عيناها وجلل خديها ما يجلل الموتى من شحوب وامتقاع، وبدا الرعب على وجه لنتن، فهمست في أذنه قائلة: «ليس بها سوء»، وكنت أكره أن أراه يستسلم لها ويلقي سلاحه، مع أنني كنت أنا أيضًا أستشعر الخوف عليها على الرغم مني.

وقال وهو يرتجف: «إن شفتيها تدميان!».

فأجبته في حدة: «لا يروعك هذا!»، ثم أنبأته كيف أنها عقدت النية قبل حضوره على التظاهر بهذه النوبة من نوبات الغضب، وكنت أقص عليه القصة بصوت عال في غير حذر، وأدركت أنها سمعتني، لأني رأيتها تنهض وشعرها يتناثر على كتفيها، وعيناها تقدحان الشرر، وعضلات عنقها وذراعيها نافرة نفورًا غريبًا، ووطنت نفسي على احتمال ما سينالني من كسر عظامي على الأقل، ولكنها لم تزد على أن تحملق حولها لحظة، ثم اندفعت خارجة من الحجرة، وأمرني زوجها أن أتبعها فتبعتها حتى باب حجرتها، ولكنها حالت بيني وبينها بإغلاقها الباب في وجهي.

ولم يبد منها في صباح الغد أي رغبة في النزول لتناول فطورها، فمضيت إلى حجرتها أسألها هل ترغب في أن أجلب لها الطعام حيث هي، ولكنها رفضت رفضًا باتًا، وقد أعدت على مسامعها هذا السؤال وقت الغداء ووقت الشاي وفي اليوم التالي، ولكني لم ألق منها غير الجواب الأول. أما مستر لنتن فكان يقضي وقته في المكتبة، ولم يستفسر عما تفعل زوجته، وجلس إلى إيزابيلا ساعة حاول أثناءها أن يظفر منها بما ينم عن فزعها من تردد هيثكليف واستنكارها لما طارحها من غرام، ولكنه لم يستطع أن يخلص من إجاباتها المراوغة إلى نتيجة، فاضطر إلى الكف عن استجوابها غير راض ولا مطمئن، ولكنه أنذرها بقوله إنه سيتبرأ من أي صلة بها إذا دفعها الجنون إلى تشجيع هذا الخطيب الوضيع.

* * *

الفصل الثاني عشر

كانت مس لنتن تجوس أرجاء البستان والحديقة مكتئبة صامتة، دامعة العين في أكثر الأحايين، وكان أخوها يحبس نفسه وسط كتب لا أحسبه فتحها قط - ولعله كان يضنيه أمل غامض في أن تندم كاثرين على ما اقترفت وتأتيه طالبة الصفح من تلقاء نفسها، أماهي فقد أمسكت عن الطعام والشراب في إصرار وعناد، ولعلها كان تقول في نفسها إن إدجر يكاد يغص لغيابها في كل أكلة، وأنه لم يمنعه من الجري والارتماء تحت قدميها سوى كبرياؤه. وكنت أثناء ذلك ماضية في القيام بشؤون البيت مقتنعة بأن ليس فيه إنسان عاقل سواي، ولم أبال بتعزية مس لنتن في حزنها، ولا بلوم سيدتي على فعلها، ولم أعبأ كثيرًا بتأوهات سيدي الذي كان يهفو إلى سماع اسم زوجته ما دام قد حرم سماع صوتها. لقد صممت على أن أتركهم حتى يلجأوا إليَّ حين يطيب لهم ذلك، ولقد كانت هذه الطريقة في الحق بطيئة بطئًا مضنيًا، ولكني بدأت أغتبط في النهاية لأنني رأيت بادرة ضئيلة تلوح دليلًا على نجاحها كما توقعت.

ذلك أن مسز لنتن رفعت المزلاج عن بابها الموصد في اليوم الثالث، وكانت قد أفرغت كل ما في إبريقها وقنينتها من ماء، فرغبت إليَّ أن أملأهما من جديد، وأن آتيها بصحن من الحساء لأنها مشرفة على الموت في ظنها. قلت لنفسي هذا حديث قصدت به أذن إدجر، غير أني لم أصدق شيئًا من هذا، واحتفظت به لنفسي، ثم أتيتها بشيء من الشاي والخبز المجفف فإذا هي تأكل وتشرب بنهم ثم تستلقي وتقبض يديها في حركة عصبية وتصيح: «سأموت إذن ما دام أمري لا يعني أحدًا! ليتني لم أشرب ولم أطعم».

وبعد برهة طويلة أخذت تقول لنفسها في صوت خافت: «كلا! لن أموت حتى لا يفرح! إنه لا يحبني مطلقًا ولن يشعر بفقدي».

فسألتها هل تبغي شيئًا، وكنت وأنا أوجه إليها هذا السؤال لا أزال محتفظة بهدوئي، على الرغم من شحوب وجهها وحركاتها الغريبة التي تشوبها المبالغة.

فسألتني وهي تدفع الخصلات المتشابكة من شعرها الكثيف بعيدًا عن وجهها المجهد، قائلة: «ماذا يفعل ذلك البليد فاقد الشعور، أتراه راح في سبات عميق أو مات؟».

أجبتها قائلة: «لا هذا ولا ذاك، إن كنتِ تعنين مستر لنتن، فهو في حالة طيبة على ما أعتقد، وإن كانت دراساته تشغله أكثر مما ينبغي، فهو غارق في كتبه على الدوام؛ لأنه لا يجد صحبة في غيرها».

وما كان ينبغي أن أتكلم بهذه الطريقة لو أني كنت أعلم حقيقة حالها، ولكني لم أستطع أن أنتزع من رأسي أنها إنما كانت تمثل فصلًا من فصول اضطرابها».

صاحت مسز لنتن في دهشة بالغة: «غارق في كتبه وأنا أشرف على الموت هنا! وأنا على حافة القبر!»، ثم مضت تقول: «يا إلهي! أتراه يعلم مبلغ ما حل بي من تغيير؟».

ثم أخذت تتطلع إلى صورتها في مرآة معلقة على الحائط المقابل، وتقول: «أهذه كاثرين لنتن؟ لعله يظنني ألهو وألعب، لِمَ لا تقولين له إن الأمر جد رهيب لا هزل؟ نلي، إني

أعتزم، إن لم يكن قد فاتني الأوان، وحالما أعلم حقيقة شعوره، أن أختار أحد حلين: إما أن أموت جوعًا على الفور (وهذا ليس بالحل الموفق ما لم يكن له قلب ينبض بالعطف والحنان)، أو أن أشفى من مرضي وأرحل عن هذا البلد. أواثقة أنك تقولين الصدق عنه الآن؟ كوني حريصة في كلامك وخبريني أصحيح أنه حقًّا لا تعنيه حياتي؟».

قلت: «وكيف يبالي يا سيدتي وهو لا يعلم أنك مضطربة، وهو لا يخشى بطبيعة الحال أنك سوف تقضين على حياتك جوعًا؟».

فبادرتني قائلة: «ألا تظنين أنه يعلم ذلك؟ ألا تخبرينه أني سأفعل؟ أقنعيه يا نلي! قولي له ما تعرفين، قولي إنك واثقة من أنني سأقضي من الجوع!».

قلت: «ولكن هل نسيت يا سيدتي أنك تناولت بشهية هذا المساء شيئًا

من الطعام ستكون له في الغد آثار طيبة في رد قواكِ؟».

فقاطعتني قائلة: «لو أنني كنت واثقة من أن صيامي هذا سوف يقتله لأهلكت نفسي على الفور! إن عيني لم تذوقا طعم النوم هذه الليالي المروعة الثلاث، كم أوذيت فيها وكم تألمت! نلي! لقد بدأ يساورني شعور بأنكِ لا تحبينني. يا للغرابة! لقد كنت أظن أن الناس جميعًا وإن كانوا متحاسدين يحتقر بعضهم بعضًا لا يسعهم إلا أن يحبوني. ولكني أرى الناس هنا قد انقلبوا أعداء لي في سويعات قليلة.. وإني لواثقة من هذا تمام الثقة، وأقصد من هنا منهم، ما أفظع أن أستقبل الموت وسط وجوههم القاسية! فإيزابيلا قد انتابها الفزع والنفور فخافت أن تدخل الغرفة، لأن التطلع إلى كاثرين وهي ترحل عن هذه الدنيا شيء مخيف، بينما يقف إدجر بوقار يشهد النهاية ويحمد الله على أن أعاد السلام إلى منزله، ثم يعود إلى كتبه مرة أخرى! فما له بربك وللكتب يغرق نفسه فيها وأنا أعاني سكرات الموت؟».

ولم تتمكن مسز لنتن من احتمال تلك الفكرة التي نقلتها إليها، فكرة انصراف مستر لنتن إلى دراساته انصرافًا تامًّا، فأخذت تتقلب في الفراش حتى ضاعفت حمى القلق السارية في كيانها إلى درجة الجنون، ومزقت الوسادة بأسنانها ثم نهضت من سريرها والحمى تلهب جسدها، وطلبت إليَّ أن أفتح النافذة، وكان الوقت منتصف الشتاء وكانت الريح تهب عاصفة من الشمال الشرقي، فامتنعت عن فتح النافذة، بيد أن الانفعالات التي بدت واضحة على محياها مع ما صحبها من تغير في حالها أخذت تزعجني أيما إزعاج وأعادت إلى ذاكرتي مرضها الأول وما حذر به الطبيب حينئذ من اجتناب كل ما من شأنه إغضابها، لقد كانت شديدة الثورة منذ لحظة وجيزة، أما الآن فقد اتكأت على إحدى ذراعيها دون أن تلحظ أنني رفضت إطاعة أوامرها، وبدا أنها وجدت طريقة صبيانية للتسرية عن نفسها، أخذت تجذب الريش الذي حشيت به الوسادة من بين الثقوب التي أحدثتها بأسنانها، وترتبها أمامها حسب أنواع الطيور التي تنتمي إليها، وكان تفكيرها قد ضل في ارتباطات أخرى.

كانت تهمس لنفسها وهي تنظم ريش الطيور قائلة: «هذه ريشة من جناح ديك كبير، وهذه من بطة برية وهذه ريشة حمامة، وما داموا قد وضعوا ريش الحمام في الوسادة فلا عجب أني لم أمت! على أنه لن يفوتني أن ألقي بها على الأرض حينما أرقد. وهذه ريشة ديك من ديوك الماء، وهذه أعرفها من بين ألف، إنها ريشة زقزاق؛ ذلك الطير اللطيف الذي كان يطوف في السماء فوق رؤوسنا وسط البراري، لقد كان يريد أن يبلغ عشه قبل أن تمطر السماء بعد أن أحس بأن السحب قد امتلأت وأشرفت على أن تجود

بمائها. وهذه ريشة وجدت ملقاة في المرج فقد هبطت من طائر أخطأه الصائدون، لقد رأينا عشه في الشتاء ووجدناه مليئًا بهياكل صغاره التي لقيت حتفها بعد أن وضعت مصيدة فوقه فلم تجسر كباره على الاقتراب منها، لقد حملته على أن يعد بألا يصيد زقزاقًا بعد ذلك اليوم، وقد أوفى بوعده، ولكني أرى الآن أمامي غيرها من ريش الزقزاق، فهل تراه اصطاد طيورها يا نلي؟ وهل أجد بين ريشها ريشًا أحمر؟ دعيني أنظر إليها».

فقاطعتها قائلة: «دعي هذه الألاعيب الصبيانية»، ثم جذبت الوسادة بعيدًا عنها وقلبت وجهها المثقوب نحو حشية السرير، فقد أخذت تزيل محتوياتها بمقادير كبيرة، ثم قلت: «والآن ارقدي على فراشك وأغمضي عينيك ودعي هذا الهذيان، لقد قلبت نظام الغرفة رأسًا على عقب، فالزغب يملؤها كأنه الثلج»، ثم طفت بالغرفة أجمع الريش الذي انتشر في أرجائها.

ومضت تقول في صوت حالم: «إني أرى فيكِ امرأة تقدم بها العمر يا نلي، فقد اشتعل رأسك شيبًا وتقوس ظهرك، إن سريري هذا هو كهف الجنية الكائن تحت صخرة بنستن، وأراكِ الآن تجمعين أظفار الجنية كي تؤذي أبقارنا، مدعية -وأنا قريبة منك- أنها خصلات من الصوف لا غير، هذه صورتك بعد خمسين عامًا من الآن، وأنا أعلم أنك لست على هذه الصورة الآن، ولست بهاذية كما تظنين خطأ وإلا لاعتقدت أنك قد أصبحت فعلًا تلك الحيزبون الفانية، وإني أرقد تحت صخرة بنستن، لكنني أشعر بالليل يضمنا وأرى أمامي شمعتين على المنضدة يضفي ضوؤهما على سواد الخزانة بريقًا كبريق الكهرمان الأسود».

فسألتها: «الخزانة السوداء؟ أين تكون هذه؟ إنك تهذين في نومك!».

أجابت قائلة: «إنها هناك عند الحائط حيث كانت دائمًا، إنها تبدو عجيبة المنظر، إني أرى وجهًا فيها!».

- ليست هناك خزانة في الغرفة، ولم يسبق أن كان فيها أي خزانة.

قلت ذلك ثم جلست إلى جانبها ورفعت الستار حتى أتمكن من ملاحظتها.

قالت وهي تحدق في المرآة: «ألا ترين ذلك الوجه؟».

ولقد عجزت بعد كل ما قلت عن أن أفهمها أنها ترى وجهها، فنهضت وأسدلت لفاعًا على المرآة.

ولكنها استمرت تهذي وهي قلقة مضطربة وتقول: «إنه لا يزال هناك وها هو ذا يتحرك، وجه من هو يا ترى؟ أرجو ألا يخرج إليَّ متى تركتني وحدي في الغرفة، هذه الحجرة مسكونة يا نلي! وأخاف أن أمكث فيها بمفردي!».

فأخذت يدها بين يدي محاولة أن أهدئ روعها لأن الرعدة كانت تهز جسدها كله وظلت عيناها شاخصتين إلى المرآة، فقلت لها بلهجة التأكيد: «ليس هنا أحد، إن هذا وجهك أنتِ يا مسز لنتن، وقد كنتِ تعرفين ذلك منذ قليل».

فأجابت وهي تلهث: «أنا؟ آه.. وهذه الساعة تدق الثانية عشرة، إنها إذن لحقيقة مفزعة!».

واسترخت ثم جذبت الغطاء وجمعته فوق عينيها، فتسللت إلى الباب وفي نيتي أن أستدعي زوجها، وإذا هي تستدعيني بصرخات مدوية اضطرتني أن أعود إليها مسرعة فإذا أنا أجد اللفاع قد سقط عن المرآة فرأت وجهها فيها، وصحت بها قائلة: «ما الخبر؟ ومن الجبان الرعديد الآن؟ أفيقي لنفسك يا مسز لنتن، إن هذه هي المرآة وأنتِ تشاهدين وجهك فيها، وهأنذا أيضًا أقف إلى جانبك».

وسرت الرعدة في كيانها وبدت الحيرة على وجهها، فأمسكت بي بشدة، ولكن علامات الفزع زالت شيئًا فشيئًا من محياها وشاعت فيه حمرة الخجل محل الشحوب.

ثم قالت في أسى: «معذرة يا عزيزتي فقد ظننت أنني في بيتي بوذرنج هيتس، لقد اضطرب تفكيري لضعف جسمي فصرخت دون وعي. لا تقولي شيئًا عن هذا ولكن لازميني فأنا أرهب النوم وأحلامي تروعني».

فأجبتها قائلة: «إن في النوم فائدة لك يا سيدتي، وكل ما أرجوه أن تكون آلامك وازعًا لك ألا تصومي مرة أخرى».

قالت في مرارة وهي تعصر يديها: «ليتني كنت في سريري بالبيت القديم! وهذه الريح تعصف خلال أشجار الشربين القريبة من النافذة، دعوني أملأ بها صدري، إنها تهب خلال المرج في الخارج، دعوني أتنشق منها نفسًا واحدًا!».

وأردت أن أسري عنها، ففتحت فرجة من النافذة بضع ثوان، فاندفع الهواء البارد إلى الداخل، فبادرت بإغلاقها وعدت إلى مكاني، فوجدت مسز لنتن ترقد هادئة ساكنة، وقد بلل الدمع وجهها وحطم الإجهاد روحها. إن كاثرين ذات الحيوية الدافقة لم تعد الآن سوى طفلة باكية، وعادت كاثرين إلى نفسها فجأة وسألتني: «كم مكثت في هذه الحجرة؟».

أجبتها: «لقد اعتكفت بها منذ مساء الإثنين، والوقت الآن ليل الخميس، أو على الأصح صباح الجمعة».

فصاحت فزعة: «ماذا تقولين؟ في نفس الأسبوع! أيعقل أن يحدث كل هذا في ذلك الوقت الوجيز؟».

قلت: «إنها مدة طويلة لمن يصوم عن الطعام ولا يتناول سوى الماء البارد وينهك أعصابه بشدة الهياج».

فغمغمت قائلة، وهي في شك مما أقول: «إنها تبدو لي ساعات مضنية مريرة، لا شك أنها أكثر مما تقولين. إنني أذكر أني كنت في القاعة بعد أن تشاجرا وأذكر أن إدجر كان قاسيًا في إثارته لي، وأنني احتميت بهذه الحجرة يأسًا وقنوطًا، وما كدت أغلق الباب حتى لفني ظلام حالك وهويت إلى الأرض. إنني لم أستطع أن أفهم إدجر أن استمراره في إثارتي كفيل بأن يصيبني بنوبة أو يؤدي بي إلى الجنون، لم أستطع إفهامه ذلك، فقد عدمت القدرة على التفكير والكلام، ولعله لم يفطن إلى ما أقاسي من عذاب، ولم يكد يبقى لي من الإحساس ما أستطيع به أن أحاول الهرب منه ومن صوته. وقبل أن تعود إليَّ حواسي بدرجة تكفي لأن أرى وأسمع، بدأ الفجر يضفي على الكون ضوءه، والآن سوف أقص عليكِ يا نلي ما مر بخاطري وأخذ يتردد في سمعي وشعوري في إلحاح وإصرار حتى خفت أن يصيبني منه مس. لقد ظننتني وأنا ملقاة هناك ورأسي مستند إلى رجل المنضدة لا تكاد عيناي تبصران إطار النافذة المربع، ظننتني نائمة في مخدعي ذي الألواح

المصنوعة من البلوط في المنزل، وكان قلبي يضطرب بموجة من الأسى لم أكد أذكرها حينما أفقت، لقد أجهدت نفسي كي أتذكر ما حدث لي، ومن عجب أنني لم أذكر ما مر بي خلال السنوات السبع الماضيات كأن تلك السنوات لم تكن جزءًا من حياتي، لم أذكر سوى أنني طفلة وقد مات أبي منذ أيام واكتنفتني تعاسة شديدة لما فرضه هندلي من التفريق بيني وبين هيثكليف. لقد نمت وحدي لأول مرة في حياتي وصحوت يومًا من النوم بعد ليلة ليلاء لم تكف عيناي فيها عن البكاء، ومددت يدي لأفتح مصراعي المخدع فارتطمت بسطح المنضدة وأجريتها على بساط الحجرة وفجأة استعدت ذاكرتي واجتاحتني موجة عارمة من اليأس ابتلعت ما كان ينتابني من ألم. ولست أدري لِمَ اجتاحني شعور قوي بالتعاسة والشقاء، فلا بد أن يكون هذا الشعور وليد اضطراب موقوت حل بي؛ إذ لم يكن ثمة سبب آخر يدعو إليه، ولكنك لو تصورت يا نلي أنني انتزعت من وذرنج هيتس ولما أزل طفلة في الثانية عشرة من عمري وأبعدت عن البيئة التي نشأت فيها وعن هيثكليف، وكان ملء حياتي في ذلك الحين، وأصبحت في برهة خاطفة مسز لنتن وسيدة ضيعة ثرشكرس وزوجة رجل لا أعرف عنه شيئًا، وبذلك أصبحت امرأة مشردة منفية من عالمها الأصيل، لو تصورت هذا لأدركت عمق الهوة التي ترديت فيها. تعجبي كما شئت يا نلي، لقد أسهمت فيما انتهيت إليه من اضطراب فقد كان واجبًا عليكِ أن تحدثي إدجر وتقنعيه بأن يتركني في هدوء. يا إلهي! إن الحمى تلهب كياني! كم أود أن أخرج إلى العراء! ولكم أصبو إلى العودة إلى أيام طفولتي الأولى كي أنعم فيها بالانطلاق والحرية، أهزأ بالإساءات التي تكاد تذهب بعقلي الآن! إني لأعجب مما حل بي من تغير، ولست أدري لم تثيرني بضع كلمات وتفقدني اتزاني؟ إني لعلى ثقة من أنني سوف أستعيد سابق هدوئي واتزاني لو أنني عدت إلى الأعشاب التي تكسو تلك التلال التي نشأت فيها، هلمي يا نلي وافتحي النافذة مرة أخرى وثبتي مصراعيها، لم أراك لا تفعلين ما آمرك به؟ هلمي تحركي!».

قلت: «لأني لا أريد أن أقتلك من أثر البرد!».

فأجابتني مكتئبة حزينة: «تعنين أنك تضنين عليَّ بفرصة الحياة، ومهما يكن من شيء، فأنا لست عاجزة كل العجز، سوف أفتح النافذة بنفسي».

ونهضت في سرعة لم تسمح لي بوقفها، واندفعت إلى النافذة في خطوات مترنحة ففتحتها على مصراعيها وأطلت منها غير مبالية بالهواء القارس الذي كان يضرب كتفيها العاريتين كأنه خنجر. وأخذت أتوسل إليها ثم أرغمتها عنوة على العودة إلى فراشها، فإذا قوتها وهي تهذي تفوق قوتي، فتفلت مني وتعود إلى النافذة. (وقد أيقنت مما بدر منها فيما بعد من تصرفات أنها تعاني هذيانًا عصبيًا)، وكان كل شيء في الخارج غارقًا في الظلام، فلم يكن القمر بازغًا، ولم يك ثمة ضوء منبعث من أي منزل مجاور لنا أو بعيد عنا، فقد كانت الأضواء قد أطفئت منذ وقت طويل، وكانت أضواء وذرنج هيتس محجوبة عنا تمامًا، بيد أن كاثرين كانت تؤكد لي أنها تراها.

وراحت تصيح في لهفة: «انظري، هذه حجرتي وفيها الشمعة وأمامها الأشجار العالية تهزها الرياح، وهذه الشمعة الأخرى في حجرة جوزيف العلوية، إنه سهران. أليس كذلك؟ فهو ينتظر أن أعود من الخارج كي يغلق الباب الخارجي، إن عليه أن ينتظر بعض الوقت فالطريق وعر والذي يعبره مفعم القلب بالأسى ولا بد لنا أن نمر بكنيسة جمرتن في طريقنا! لقد تحدينا أشباحها كثيرًا ونحن معًا، وتراهنا من منا يجسر على الوقوف بين المقابر ويطلب إلى الأشباح أن تظهر له. فهل يمكنك أن تغامر بتحديها الآن يا هيثكليف لو أهبت بك أن تفعل؟ إنك إن فعلت لاحتفظت بك. كلا يا هيثكليف! لن أرقد في المقابر وحدي ولئن دفنوني على عمق اثنتي عشرة قدمًا ثم هدموا الكنيسة فوق قبري أيضًا، فلن استريح ولن أستقر إلى أن آخذك معي!».

وتوقفت كاثرين عن الكلام برهة، ثم مضت تقول بابتسامة غريبة: «إنه يفكر في الأمر! ولكنه يفضل أن أذهب إليه! فليدلني على طريق إليه لا يمر بالمقابر، إنك لبطيء يا هيثكليف، والأجدر بك أن تقنع بنصيبك، فقد كنت تتبعني دائمًا!».

ورأيت من العبث أن أحاول إقناعها، وقد بلغت هذه الحالة من ذهاب العقل، وأخذت أفكر في طريقة تمكنني من أن أصل إلى دثار ألفها به دون أن أتركها تفلت من يدي (ذلك أنني لم أكن أطمئن عليها وهي واقفة وحدها بجانب النافذة المفتوحة)، وما كان شد رعبي إذ سمعت صوت أكرة باب الحجرة ورأيت مستر لنتن يدخلها.. فقد استرعى لغطنا سمعه وهو في طريقه من المكتبة إلى مخدعه الخاص، فوقف مدفوعًا بحب الاستطلاع أو بالخوف ليتبين سبب سهرنا إلى تلك الساعة المتأخرة.

فصحت به أكبح صرخة الدهشة التي بدت على شفتيه حين واجهه منظرنا وجو الحجرة القارس: «أسرع يا سيدي.. إن سيدتي المسكينة مريضة، ولم أعد أستطيع السيطرة عليها وهي في إبان نوبتها. انس غضبك وحاول إقناعها بالرقاد في فراشها، فهي عنيدة لا تلين ولا تطيع إلا نفسها».

فهرع إلينا يقول: «كاثرين مريضة؟ أغلقي النافذة يا آلن! ولكن...».

ولم يتم جملته، فقد أفقده القدرة على الكلام ما بدا من شحوب وجهها وهزالها فلم يسعه إلا أن يجيل النظر بينها وبيني في فزع ودهشة.

فقلت: «لقد كانت سيدتي تعاني آلام المرض في هذا المكان ولا تكاد تطعم شيئًا، ولا تجأر بالشكوى، ولم تسمح لأحد منا بالدخول عليها إلا في هذا المساء، ولهذا لم نستطع أن نخبرك بحالها، فقد كنا نجهلها نحن، على أن مرض سيدتي ليس بذي خطر».

وشعرت وأنا أنطق بهذه الكلمات أن تفسيري للموقف لم يكن لبقًا موفقًا، فقال سيدي وهو مقطب الجبين وبلهجة جافة صارمة: «أتقولين إن مرضها ليس خطيرًا يا آلن دين؟ سوف أحاسبك حسابًا عسيرًا فيما بعد على تقصيرك في إبلاغي ما حدث لها!»، ثم أخذ زوجته بين ذراعيه وجعل ينظر إليها نظرات نمت عن مبلغ ألمه لمصابها.

ولم يبد على سيدتي أنها عرفته في أول الأمر، فقد كانت نظراتها تائهة مشتتة، على أن الهذيان لم يكن دائمًا، فبعد أن حولت عينيها عن منظر الظلام الحالك خارج الغرفة، ركزت نظراتها شيئًا فشيئًا عليه وتبينت من كان يضمها بين ذراعيه.

وصاحت في غضب وانفعال: «ها قد حضرت أخيرًا يا إدجر لنتن! إنك من تلك الأشياء التي يجدها المرء في أقل الأوقات حاجة إليها وإذا احتاجها لم يجدها! سوف نسمع الآن الكثير من عبارات الندم والرثاء -أجل، لقد بدأنا نسمعها- ولكن ما من قوة تستطيع أن تقصيني عن موضع راحتي الضيق هناك حيث لا بد لي من الذهاب قبل ختام الربيع! إن مكاني هناك ولا تظنن أنه بين آل لنتن تحت سقف الكنيسة، بل في الهواء الطلق، في العراء، يقوم عليه شاهد من الحجر، أما أنت فلك أن تذهب إليهم إن شئت أو تأتي إليَّ!».

أجاب سيدي قائلًا: «ماذا بك يا كاثرين؟ هل لم أعد شيئًا لديكِ؟ هل تحبين هذا الوغد هيثــ...؟».

فصاحت به مسز لنتن: «صه! صه في هذه اللحظة، فلئن نطقت بهذا الاسم ثانية أنهيت هذه المسألة على الفور فقفزت من هذه النافذة! إن

لك أن تأخذ جسدي الذي تلمسه الآن، أما روحي فستصعد إلى قمة هذا التل قبل أن تلمس جسدي مرة أخرى، لست أريدك يا إدجر ولم أعد أريدك، عد إلى كتبك، ويسرني أنك وجدت فيها سلوة عني لأن كل ما كان لك من عزاء فيَّ قد انتهى!».

فقاطعتها موجهة قولي إلى مستر لنتن: «إن عقلها يشرد يا سيدي، ولقد ظلت تهذي طيلة المساء، ولكنها إذا وجدت الهدوء والرعاية فستستعيد صحتها. وعلينا بعد الآن أن نحذر من إزعاجها ومضايقتها».

فأجابني مستر لنتن قائلًا: «إني لست في حاجة إلى المزيد من نصحك، فقد كنتِ تعرفين طباع سيدتك وقد دفعتني دفعًا إلى مضايقتها دون أن تشيري أي إشارة إلى ما كانت تقاسي طيلة الأيام الثلاثة الماضية! لقد كان تصرفك هذا مجردًا من الإحساس والعاطفة! إن شهورًا من المرض لم تكن لتسبب هذا التحول الخطير في صحتها!».

فشرعت أدفع عن نفسي هذا الاتهام وقد وجدت من الظلم الصارخ أن يلام إنسان على ما يحدث نتيجة ما يقترفه غيره من شر وعناد، فصحت قائلة: «لقد كنت أعلم أن مسز لنتن عنيدة صلبة الرأي محبة للسيطرة، ولكني لم أكن أعلم أنك تريد أن تستثير طبعها الحاد الوحشي، كما أني لم أكن أدري أنه يجب عليَّ إرضاء لها أن أتغاضى عن زيارات مستر هيثكليف، لقد أديت واجبي كما تفعل الخادم الأمينة، فجزيت بما تجزى به الخادم على أمانتها! على أن ما بدر منك الآن يجعلني على حذر فيما بعد، فعليك في المرة الثانية أن تجمع ما تريد من معلومات بوسائلك الخاصة».

أجاب مستر لنتن قائلًا: «إذا نقلت إليَّ رواية ما مرة أخرى، فسوف أطردك من خدمتي يا آلن دين».

فبادرته قائلة: «إذن لا أخالك ترغب في سماع شيء عما يحدث هنا يا مستر لنتن، فهل أبعث لهيثكليف أن يحضر هنا كلما تغيبت ليبث سيدتي حبه وهواه، ويملأ نفسها بالحقد عليك والمرارة منك؟».

وكانت كاثرين تتتبع الحديث في تيقظ على الرغم من اضطراب عقلها، فصاحت في انفعال شديد: «آه! لقد خانتني نلي، إنها عدوي الخفي! أيتها الساحرة! إذن فأنتِ تستعينين بالجن للإضرار بنا! دعني، فسوف أجعلها تندم على ما فعلت، سأجعلها تولول وتصيح منكرة ما قالت!».

وكان الشرر يتطاير من عيني كاثرين وهي تهذي هذيان الجنون، وجعلت تحاول مستيئسة أن تنطلق من يدي لنتن، أما أنا فقد رأيت ألا أطيل بقائي وقررت أن أستدعي طبيبًا على مسؤوليتي الخاصة، فتركت الحجرة.

وفيما أنا أجتاز الحديقة لأصل إلى الطريق، وجدت في مكان من السور، علق فيه خطاف، شيئًا أبيض يتحرك حركة غير منتظمة، وكان واضحًا أن عاملًا آخر كان يدفعه غير الرياح، فتمهلت لأتبينه على الرغم من عجلتي حتى لا أتوهم فيما بعد أنه مخلوق من العالم الآخر، واشتدت دهشتي وحيرتي حين اكتشفت، باللمس أكثر من النظر، أنه كلبة الآنسة إيزابيلا الصغيرة «فاني»، وقد علقت من رقبتها بمنديل إلى الخطاف وأوشكت أن

تلفظ أنفاسها الأخيرة، فحللت وثاقها على الفور وأخذتها إلى الحديقة. لقد سبق أن رأيتها تتبع سيدتها إلى الدور العلوي من المنزل حيث تنام، وحرت في تعليل وجودها في هذا المكان، وفي معرفة الأثيم الذي أتى تلك الفعلة المنكرة. وبينا كنت أحل العقدة من حول الخطاف، خُيِّل إليَّ أنني سمعت وقع حوافر جياد عن بُعد، ولكني لم أكد أعرها أي اهتمام لما كان يزحم ذهني حينئذ من خواطر عديدة، وإن بدا ذلك الصوت عجيبًا في ذلك المكان في الساعة الثانية صباحًا.

وانطلقت إلى منزل الدكتور كنث فصادفته لحسن الحظ يهم بالخروج من منزله لعيادة أحد المرضى في القرية، فلما رويت له ما وقع لكاثرين لنتن، حضر معي إلى المنزل في الحال، وكان الطبيب خشنًا صريحًا إلى أبعد حدود الصراحة، فعبر لي عن ضعف أمله في نجاة سيدتي من هذه الصدمة الثانية، ما لم تطع تعليماته بصورة أدق من المرة الأولى.

ومضى الطبيب يقول: «ولكني أكاد أقطع يا نلي دين بأن هناك أسبابًا أخرى لمرضها، فماذا يا ترى يجري هناك في الضيعة؟ لقد بلغتنا بعض الأمور الغريبة عما يجري هناك، فإن فتاة قوية مليئة بالحيوية مثل كاثرين لا تمرض لأسباب واهية، وخليق بأمثالها ألا يقعوا فريسة للمرض، فإن من العسير إنقاذهم من الحميات وما إليها من أمراض. خبريني كيف بدأ المرض؟».

أجبته قائلة: «سوف يبلغك سيدي ذلك، ولكنك تعلم ما جبل عليه أفراد أسرة إيرنشو من حدة الطباع، ومسز لنتن تبزهم جميعًا في ذلك. أما مرضها الأخير فقد بدأ بمشاجرة ثارت فيها ثورة عاتية فأصيبت بنوبة من نوع ما، هذا على الأقل ما قالته هي، أما نحن فلم نتبين الأمر على حقيقته لأنها ولت الأدبار وهي في أشد حالات الثورة النفسية وأغلقت عليها بابها، ورفضت أن تتناول أي طعام أو شراب وهي الآن إما هاذية أو شبه حالمة، وهي تعرف من حولها، ولكن عقلها مملوء بمختلف أنواع الأفكار والهواجس العجيبة».

وتساءل الطبيب كنث قائلًا: «وهل يحزن المستر لنتن لمرضها؟».

قلت: «يحزن؟ إن قلبه سيتحطم إذا أصيبت بمكروه، فلا تفزعه أكثر مما يجب!».

فأجابني رفيقي: «لقد حذرته قبل الآن، وعليه أن يتحمل تبعة إهماله تحذيري! ألم تتوثق الصلة بينه وبين هيثكليف من وقت قريب؟».

فأجبته قائلة: «إن هيثكليف يتردد على الضيعة كثيرًا، وإن كانت زياراته المتكررة ترجع إلى صداقته لسيدتي في طفولتهما أكثر مما ترجع إلى ارتياح سيدي لوجوده بيننا. أما الآن فقد أُعفِيَ من مشقة الزيارة، وقد حدث ذلك على إثر ما بدا منه من طموح إلى الظفر بالآنسة إيزابيلا، وما أظن أنه يستطيع دخول البيت بعد ذلك!».

وكان السؤال الثاني من أسئلة الطبيب: «وهل مس لنتن معرضة عنه؟».

فأجبته وأنا راغبة عن مواصلة الخوض في هذا الحديث: «إنها لا تفضي إليَّ بأسرارها الخاصة».

قال الطبيب وهو يهز رأسه: «نعم، إنها لفتاة ماكرة تقدر على كتمان أسرارها، ولكنها بلهاء، فقد سمعت ممن يوثق بكلامه أنها قضت أكثر من ساعتين في الليلة الماضية -ويا لها

من ليلة- تتنزه مع هيثكليف في البستان الواقع خلف داركم. وكان يلح عليها ألا تعود إلى البيت، بل تركب معه على ظهر جواده فيهرب بها! وقد أبلغني من شاهدهما أنها لم تتخلص منه إلا بعد أن أقسمت بشرفها أن تكون على استعداد لذلك الهرب في اللقاء التالي، ولم يسمع مبلغي شيئًا عن موعد ذلك اللقاء بالضبط، ولكن حذري مستر إدجر كي يراقب الموقف جيدًا!».

وأقلقتني هذه الأنباء وملأت نفسي بمخاوف جديدة، فأسرعت أسبق الطبيب، ووجدت الكلبة الصغيرة لا تزال تعوي في الحديقة، فتريثت لحظة كي أفتح لها الباب الكبير ولكنها لم تدخل الدار، بل أخذت تروح وتغدو بين الأعشاب وتدس أنفها فيها، ولو لم أمسك بها وآخذها معي لهربت إلى الطريق! فلما صعدت إلى غرفة إيزابيلا تحققت ظنوني لأني وجدتها خالية، فلو أني عدت إلى المنزل قبل الآن ببضع ساعات لجاز أن يمنعها مرض مسز لنتن من اتخاذ تلك الخطوة الطائشة! ولكن ما العمل الآن؟ لم يكن ثمة إلا احتمال ضعيف في أن نتمكن من اللحاق بالهاربين إذا ما طاردناهما الآن، على أنني أنا نفسي لم يكن في مقدوري أن أتبعهما ولم أجرؤ على إزعاج الأسرة بأكملها وإلا لملأت الدار ضجيجًا واضطرابًا، كما لم أجرؤ على أن أفضي بالأمر لسيدي لانشغاله بالكارثة الأولى، ولأن قلبه لا يحتمل صدمة أخرى. فلم أجد حلًّا أوفق من أن أمسك لساني وأن أترك الأمور تجري في أعنتها. وما لبث أن وصل كنث فذهبت أبلغ سيدي بحضوره وأنا لا أستطيع إخفاء اضطرابي، وكانت كاثرين تنام نومًا مضطربًا، فقد أفلح زوجها في تهدئة شدة لوثتها، وكان وقتئذ واقفًا بجوار فراشها يلحظ كل بادرة تحوُّل تطرأ على ملامح وجهها المعبرة عما كانت تعاني من آلام مبرحة.

وبعد أن انتهى الطبيب من فحصه، طمأن مستر لنتن على أن النوبة سوف تمر بسلام إذا استطعنا إحاطتها بالهدوء التام على الدوام، وتجنب كل إثارة أو انفعال. وأبدى الطبيب لي أنا وحدي أن مسز لنتن لا يهددها خطر الموت بقدر ما يهددها اختلال قواها العقلية اختلالًا دائمًا.

ولم يغمض لي ولا لمستر لنتن جفن في تلك الليلة، ولم يأو أحدنا إلى فراشه، أما الخدم فقد نهضوا مبكرين قبل الساعة التي اعتادوا النهوض فيها بوقت طويل، وأخذوا يتنقلون في أرجاء المنزل بخطوات خافتة ويتبادلون الهمسات كلما قابل أحدهم الآخر في أثناء أداء أعماله المنزلية، وكان كل من في البيت قد نهض يستقبل يومه الجديد نشطًا مجدًا ما عدا الآنسة إيزابيلا، وجعل الخدم يتحدثون عن نومها العميق. وسأل أخوها كذلك هل نهضت من فراشها؟ وبدا عليه القلق لغيابها والاستياء لعدم اهتمامها اهتمامًا لائقًا بصحة زوجته، ووجف قلبي خوفًا من أن يعهد إليَّ سيدي باستدعائها من حجرتها فيقع على عاتقي أمر إبلاغه نبأ هربها. ولكني كفيت هذه المهمة، فقد كانت إحدى الخادمات، وهي فتاة رعناء، تشتري شيئًا من جمرتن في ساعة مبكرة فعادت تلهث وهي تصعد السلم فاغرة فاها ثم تقتحم الحجرة وتصيح والدهشة مرتسمة على وجهها: «يا للكارثة! ترى ماذا يخبئ لنا القدر من محن أخرى! أدركنا يا سيدي! إن سيدتي الصغيرة...».

فنهرتها على الفور، وقد ضقت بصياحها وصخبها وطلبت إليها أن تصمت.

فوجه مستر لنتن كلامه للخادمة قائلًا: «تكلمي بهدوء يا ماري، ما الخبر؟ وماذا حدث لسيدتك الصغيرة؟».

فشهقت الخادمة قائلة: «لقد هربت، لقد هربت! وهرب هيثكليف معها!».

فنهض سيدي منزعجًا وهو يقول: «ليس هذا صحيحًا! ولا يمكن أن يحدث، كيف خطرت هذه الفكرة ببالك؟ اذهبي يا آلن دين وابحثي عنها، إنه أمر لا يصدق ولا يمكن أن يكون قد حدث».

وبينا كان يحدثني، أخذ بيد الخادمة إلى الباب وطلب إليها ثانية أن تحدثه عما دعاها إلى الاعتقاد بهرب سيدتها.

فقالت الخادمة وهي وجلة مضطربة: «قابلني في الطريق صبي اللبان الذي يحضر اللبن هنا كل يوم وسألني هل نحن منزعجون في الضيعة، فاعتقدت أنه يشير إلى مرض سيدتي، وأجبته نعم، فمضى يقول: «أظن أن هناك من يطاردهما الآن!»، فلما لاحظ أنني لا أعلم شيئًا عن هذا الأمر أخبرني أنه رأى رجلًا وسيدة لدى أحد الحدادين على بعد ميلين من جمرتن بعد منتصف الليل بقليل يطلبان دق حذاء حصان، وأن ابنة الحداد قد نهضت من فراشها لمعرفة من يكونان فعرفتهما على الفور ورأت الرجل -وكانت على يقين من أنه هيثكليف الذي لا يمكن أن يخطئه إنسان- رأته يدس جنيهًا ذهبيًّا في يد أبيها مقابل خدماته، وكانت السيدة تخفي وجهها وراء غلالة، ولكن الفرصة ما لبثت أن سنحت لابنة الحداد أن تتأكد من شخصيتها بما لا يدع مجالًا للشك حينما طلبت السيدة كوب ماء فسقطت عنها غلالتها وهي تشرب، وكان هيثكليف يمسك بالسرجين معًا وهما راكبان متجهين بأقصى سرعة أمكنه السير بها في ذلك الطريق الوعر مبتعدًا عن القرية، وأخبرني صبي اللبان كذلك أن ابنة الحداد لم تقل لأبيها شيئًا، ولكنها أذاعت النبأ في كافة أرجاء جمرتن هذا الصباح».

ورأيت إطاعة لأمر سيدي أن أجري فأنظر في حجرة إيزابيلا، ثم أعود فأؤكد صدق الخادمة، وكان مستر لنتن قد عاد إلى مجلسه على مقعد بجوار فراش سيدتي، فلما عدت إلى الغرفة رفع عينيه إلى وجهي فقرأ فيه صدق الرواية، فخفضهما ثانية دون أن يصدر أمرًا أو ينبس ببنت شفة.

وتساءلت قائلة: «هل نحاول اللحاق بهما وإحضارهما؟ وما الطريق إلى ذلك؟».

فأجابني سيدي قائلًا: «لقد ذهبت بمحض إرادتها ومن حقها أن تذهب حيث شاءت، فلا تشغلوني بعد ذلك بأمرها، إنها لم تعد شقيقتي منذ الآن إلا بالاسم، لا لأني تبرأت منها بل لأنها تبرأت مني!».

وكان هذا كل ما قاله في صدد ذلك الموضوع، ولم يستقص أي أخبار

عنها فيما بعد أو يذكرها بأي طريقة كانت إلا حينما طلب إليَّ أن أجمع حاجياتها وأبعث بها إليها في دارها الجديدة أينما كانت هذه الدار، حالما أعلم بمقرها.

* * *

الفصل الثالث عشر

انقطعت أخبار الهاربين شهرين كاملين، وفي خلال هذين الشهرين عانت مسز لنتن أسوأ نوبة من نوبات مرضها وتغلبت عليها. وقد شخص الطبيب المرض بأنه حمى مخية، وما من أم كان يمكنها أن تمرض طفلها الوحيد بإخلاص وتفان كما مرض إدجر زوجته، فكان ملازمًا لها ليل نهار، وكان يحتمل منها كل ما كان يصدر عن أعصابها المريضة وعقلها المختل من منغصات. وكان الطبيب كنث قد لاحظ أن ما استخلصه مستر لنتن بعنايته ودأبه من براثن القبر سيكون مصدرًا دائمًا للقلق في مستقبل الأيام، وأن مستر لنتن يضحي في الواقع بصحته وقوته للإبقاء على حطام من البشرية لا أكثر، إلا أن إدجر فرح فرحًا لا حد له وشكر الله شكرًا جزيلًا حين أعلن الطبيب أنها جاوزت مرحلة الخطر، ولبث ملازمًا لها، يتتبع باهتمام دبيب العافية في بدنها وتداعب صدره الآمال الكبار في أن يستعيد عقلها اتزانه، وأن تعود هي إلى سابق عهده بها.

وغادرت مسز لنتن غرفتها للمرة الأولى في أوائل شهر مارس التالي، وكان مستر لنتن قد وضع مجموعة من أعواد الزعفران الذهبي على وسادتها في الصباح، فوقع بصرها عليها حينما أفاقت، وكانت عيناها قد حرمتا منذ وقت بعيد أي منظر من مناظر البهجة والسرور، فابتهجت بمنظر الأزهار وأخذت تجمع الأعواد جذلة مسرورة وتجعل منها طاقة متماسكة، ثم صاحت: «هذه هي أكثر الزهور تبكيرًا بالظهور على سفوح وذرنج هيتس، وهي تذكرني بالهواء العليل الذي يصحب ذوبان الجليد وبضوء الشمس الدفيء وبالثلج الذي أوشك أن ينصهر، ألا تهب الريح الآن من الجنوب يا إدجر وهلا آذن الثلج بأن يذوب؟».

فأجابها زوجها: «لقد ذاب الثلج فعلًا في هذا المكان يا عزيزتي، ولا أكاد أتبين أكثر من بقعتين يعلوهما الجليد في كل تلك المروج الممتدة أمامي حيث السماء زرقاء والطيور تغرد والقنوات والجداول مليئة بالماء. يا كاثرين! لقد كنت أهفو في مثل هذا الوقت من الربيع الماضي، إلى أن أحضرك هنا لتكوني زوجتي، والآن أتمنى لو أنك كنت بعيدة عن هذا المكان ميلًا أو ميلين في مكان آخر فوق تلك التلال حيث تهب الريح رخاء، وأحس أنها تبرؤك من علتك».

فأجابته المريضة قائلة: «لا.. لن أذهب هناك إلا مرة أخرى واحدة حيث تتركني لأبقى إلى الأبد، وسوف تحن في الربيع القادم مرة ثانية إلى إحضاري هنا لأعيش تحت سقف هذه الدار وسوف تستعيد ذكرى هذه الأيام وترى أنك كنت فيها سعيدًا».

ولكن لنتن طفق يلاطفها ويداعبها مسرفًا في ذلك أشد الإسراف محاولًا أن يسري عنها بأحر عبارات الحب، وما إن وقع نظرها على الزهور مرة أخرى حتى ترقرقت دموعها في عينيها وانحدرت على خديها غير مبالية. وكنا على يقين من أن صحتها قد تقدمت تقدمًا ملموسًا، ورأينا أن طول احتجازها في مكان واحد هو الذي بعث في نفسها ذلك الشعور بالقنوط والكآبة، وأن انتقالها إلى مكان جديد كفيل بأن يزيل بعض هذا الشعور. وطلب إليَّ رب الدار أن أوقد نارًا في غرفة الاستقبال التي هجرناها أسابيع طويلة، وأن أهيئ مقعدًا مريحًا في ضوء الشمس بالقرب من النافذة، ثم أخذ بيدها وأجلسها في المقعد حيث بقيت وقتًا طويلًا تنعم بالدفء اللطيف، وقد أنعشها كما توقعنا ما شاهدت حولها من

مناظر مألوفة لها حقًّا، ولكنها غير مرتبطة بتلك الأفكار المملة التي كانت تراودها في غرفة المرض الكريهة، ولما أقبل المساء بدا عليها التعب والإرهاق ولكنها أبت العودة إلى غرفتها، فاضطررت أن أهيئ لها من أريكة غرفة الاستقبال سريرًا تقضي عليه ليلتها إلى أن أعد لها غرفة أخرى، وأردنا أن نكفيها مشقة الصعود والهبوط من طابق لآخر، فهيأنا لها تلك الغرفة التي تنام فيها أنت الآن وفي نفس الطابق الذي توجد فيه غرفة الاستقبال.

وما لبثت مسز لنتن أن استعادت عافيتها بدرجة مكنتها من الانتقال من غرفة إلى أخرى متكئة على ذراع إدجر. وكنت أنا نفسي أظن أنها قد تسترد صحتها إذا ظلت العناية بها كما هي الآن، وكان هناك سببان يبعثان في نفسي هذه الرغبة، فقد كان يتوقف على بقائها بقاء شخص آخر هو الجنين الكامن بين أحشائها، وكنا نأمل أن يرزق مستر لنتن بوريث يقر به عينًا، ويحول دون وقوع أراضيه في أيدٍ غريبة.

وينبغي أن أذكر أن إيزابيلا -بعد حوالي ستة أسابيع من هربها- بعثت برسالة قصيرة إلى شقيقها، تعلن فيها زواجها من هيثكليف، وكان أسلوبها جافًا فاترًا، وإن كانت قد ذيلت الرسالة باعتذار غامض كتبته بالقلم الرصاص مشفوعًا برجاء أن يعفو عنها لما عساه أن يكون قد سببه تصرفها من إساءة إليه، مؤكدة أنه لم يكن في مقدورها وقتئذ أن تتجنب ما فعلت وأنه ما دام السهم قد نفذ فلا حيلة لها في تدارك ما حدث. وأعتقد أن سيدي لم يجب على هذه الرسالة، وتلقيت أنا بعد أسبوعين خطابًا طويلًا عجبت لصدوره من عروس حديثة العهد بشهر العسل، وسأتلوه الآن لأني ما زلت محتفظة به، وذلك لأن كل ما يخلفه الميت وراءه من آثار يعد ثمينًا إن كان للميت شأن أثناء حياته.

تقول الرسالة:

عزيزتي آلن:

«وصلت إلى وذرنج هيتس في الليلة الماضية وهناك سمعت للمرة الأولى أن كاثرين كانت ولا تزال جد مريضة، وأعتقد أنه لا ينبغي لي أن أكتب إليها كما أن شقيقي لا شك في حال من الثورة أو الحزن لا تمكنه من الإجابة عن خطابي إليه، على أني أشعر بحاجتي إلى الكتابة إلى أي إنسان، والشخص الوحيد الباقي لي هو أنتِ.

أحب أن تبلغي إدجر أنني مستعدة أن أنزل عن العالم وما فيه كي أرى وجهه ثانية، وأن قلبي قد حن إلى ضيعة ثرشكرس بعد مغادرتي إياها بأربع وعشرين ساعة، بل إن قلبي هناك الآن تعمره أحر المشاعر نحوه ونحو كاثرين!

ولكني مع ذلك لا أستطيع أن أقتفي أثر قلبي (وقد وضع خط تحت هذه الكلمات) فليس لأخي ولا لزوجته أن يتوقعا حضوري ولهما أن يستخلصا من كلامي هذا ما يشاءان من نتائج، على ألا يعزوا من ذلك شيئًا إلى ضعف إرادتي أو إلى نقص في حنيني إليهما.

والجزء الباقي من خطابي هذا خاص بك وحدك، إني أحب أن أسألك سؤالين: أولهما: كيف أمكنك الاحتفاظ بما في الطبيعة البشرية من عواطف المحبة حينما كنتِ تسكنين هنا؟ ذلك أني لا أكاد أذكر عاطفة شاطرني إياها أي واحد ممن يحيطون بي.

والسؤال الثاني ينطوي على أمر له أهمية كبرى بالنسبة إليَّ، خبريني هل مستر هيثكليف إنسان؟ وإن كان كذلك، فهل هو مجنون؟ وإن لم يكن مجنونًا فهل هو شيطان؟ سوف لا أذكر لكِ الأسباب التي تدفعني إلى أن أسألك هذين السؤالين، ولكني أرجوكِ أن

تخبريني، إن استطعت، عن حقيقة الرجل الذي تزوجته حينما تحضرين لزيارتي، وينبغي أن يكون حضورك يا آلن في القريب العاجل، لا تكتبي ولكن تعالي لزيارتي وأحضري لي تذكارًا من إدجر.

والآن سوف أخبرك عن الكيفية التي استقبلت بها في وذرنج هيتس -بيتي الجديد حسبما قيل لي. إني أسري عن نفسي بالتحدث عن بعض الأمور مثل افتقاري إلى ضروب الرفاهية الخارجية، فهذه الأمور لا تشغل بالي إلا حينما أفتقدها. ولا شك أن سعادتي تكون عظيمة لو أن افتقاري لهذه الأشياء هو كل تعاستي، وأن باقي ما أشعر به من شقاء ليس إلا حلمًا مفزعًا!

كانت الشمس قد توارت خلف الضيعة حينما ولينا ظهرنا إليها، وانطلقنا في البراري، فاعتقدت أن الوقت كان السادسة مساء، فوقف رفيقي ما يقرب من نصف الساعة لمعاينة البستان والحدائق والمنزل نفسه -في أغلب الظن- بقدر ما وسعه ذلك من الدقة والعناية، ولهذا كان الظلام قد حل حينما ترجلنا في الفناء المرصوف أمام البيت الريفي، فخرج زميلك القديم جوزيف لاستقبالنا حاملًا شعلة في يده، وقد حيانا بطريقة تنم عن أدبه، فقد كان أول ما فعله أن رفع شعلته إلى أن حاذت وجهي، وغمز بعينه بخبث، ومط شفته السفلى، وانصرف إلى الجوادين فاصطحبهما إلى الحظيرة ثم ظهر ثانية ليغلق الباب الخارجي، كأنما كنا نعيش في حصن عتيق.

وتريث هيثكليف برهة للتحدث إليه، أما أنا فقد دخلت المطبخ، وهو جحر قذر مظلم، ولست أشك في أنك إن رأيته لأنكرته، فقد تبدل تبدلًا كبيرًا مذ كنتِ تشرفين عليه، وكان يقف بجوار النار طفل على وجهه سمات التشرد، وكان قوي البنية قذر الملابس، يشبه كاثرين في عينيه وفيما حول فمه.

وقلت لنفسي إنه شقيق زوجة إدجر فهو من أجل ذلك من أقربائي، لهذا يتعين عليَّ أن أصافحه، وأقبله أيضًا، فمن الصواب أن يقيم المرء علاقة طيبة من التفاهم في أول الأمر.

ومن ثم اقتربت منه وحاولت أن أمسك بيده الممتلئة لأصافحه قائلة: «كيف حالك يا عزيزي؟».

فأجابني برطانة لم أتبين منها ما قاله.

حاولت مرة ثانية أن أتحدث إليه فقلت: «هل سنكون أنا وأنت صديقين يا هيرتن؟».

فكان جزائي على هذا الإلحاح أن سبني وهدد بأن يطلق عليَّ كلبه تروتلر إن لم أمض لسبيلي.

وأتبع الشقي تهديده هذا باستدعاء كلبه تروتلر -البولدج الهجين- من وكره في ركن من الأركان، ووجه حديثه إليَّ قائلًا بلهجة آمرة: «هلا انصرفت الآن؟».

ودفعني تعلقي بالحياة أن أمتثل لأمره فخرجت من المطبخ وانتظرت ببابه حتى يدخل باقي الجماعة. بيد أنني لم أعثر لمستر هيثكليف على أثر، فتبعت جوزيف إلى إسطبل الخيل ورجوته أن يصحبني إلى الداخل، فحدجني بنظره وأخذ يتمتم: «إنسانًا

مسيحيًا قد سمع مثل ما تقولين! وكيف أفهم ما تقولينه الآن وأنتِ تقطعين ألفاظك وتمضغينها؟».

فصحت فيه وقد خامرني الشك في سلامة سمعه، وإن كنت قد استأت أيما استياء من بذاءته: «لقد طلبت إليك أن تصحبني إلى داخل المنزل!».

فأجابني: «لست أنا الذي يفعل هذا، فإني مشغول بعملي».

قال هذا وهو يواصل عمله ويحرك فكيه العريضين ثم جعل يتفرس في ملابسي ووجهي بازدراء شديد (وكانت ملابسي أنيقة نظيفة، أما وجهي فأنا واثقة من أنه كان يبدو تعسًا حزينًا كما يشتهي).

لم يسعني إلا أن أسير بمفردي حول الفناء، ودخلت من باب ودلفت منه إلى باب آخر جرؤت على أن أطرقه آملة في العثور على خادم أكثر أدبًا ولباقة في المعاملة. وبعد برهة من الصمت فتح الباب وبرز منه رجل طويل نحيف لا يرتدي رباط عنق، بليد زري الهيئة إلى حد بعيد، وكانت ملامح وجهه ضائعة في خصلات شعره الكثيف الذي تدلى على كتفيه، وعيناه تشبهان عيني كاثرين إذا هي تحولت إلى شبح من الأشباح وزال جمال عينيها.

تساءل الرجل وهو عابس: «من أنتِ وماذا تريدين؟».

أجبته: «كنت أدعى إيزابيلا لنتن ولا شك أنك رأيتني قبل اليوم يا سيدي، وقد تزوجت مستر هيثكليف أخيرًا، وأحضرني إلى هنا بعد استئذانك يا سيدي على ما أعتقد».

قال الناسك وهو يحدجني بنظره كذئب جائع: «إذن فقد عاد هيثكليف؟».

أجبته: «نعم، فقد وصلنا الآن، ولكنه تركني على باب المطبخ، فلما هممت بالدخول منعني من ذلك ابنك الصغير الذي كان يلهو بحراسة المكان، وأكرهني على الخروج بمساعدة كلبه».

فزمجر الرجل الذي سيكون مضيفي وهو يتطلع ببصره إلى الظلام السائد في الخارج متوقعًا وصول هيثكليف، وقال: «لقد فعل ذلك الوغد اللعين خيرًا بأن حافظ على كلمته». ثم جعل يسب بينه وبين نفسه ويتهدد بما كان سيفعله «بالشيطان» لو أنه جرؤ على خديعته.

ندمت على أن حاولت الدخول من هذا الباب الثاني، وشعرت برغبة في الانصراف قبل أن ينتهي من سبابه، ولكنه أمرني بالدخول قبل أن يتسنى لي تنفيذ ما اعتزمت، ثم أغلق الباب بالمزلاج، وكان بالغرفة نار كبيرة هي كل ما في الدار الكبيرة من وسائل الإضاءة، وكانت أرضية الدار قد استحالت إلى لون رمادي متماثل، كما استحالت الصحاف التي كانت في وقت من الأوقات ذات بريق أخاذ كثيرًا ما جذب نظري إليها حينما كنت طفلة صغيرة، استحالت إلى لون داكن شبيه بلون الأرضية بفعل ما علاها من القذارة والأتربة. وتساءلت قائلة: «هل لي أن أدعو خادمة لتقودني إلى غرفة النوم؟»، فلم يجب مستر إيرنشو عن سؤالي هذا وجعل يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وقد دس يديه في جيبيه، وبدا غافلًا عن وجودي، وكان شاردًا غارقًا في أفكاره، ولاحت عليه مظاهر الحقد والكراهية للإنسانية جمعاء إلى حد خفت معه أن أزعجه مرة ثانية.

ولعلك لا تدهشين يا آلن لما انتابني من شعور عميق بالكآبة والألم وأنا جالسة في حال أسوأ من الوحدة في هذه الدار غير المضيافة، عالمة بأنه على مسيرة أربعة أميال من ذلك المكان يقوم ذلك البيت السعيد الذي يضم كل من أحببت في حياتي، وكأن ما كان يفصلني عن ذلك البيت هو المحيط الأطلنطي وليست تلك الأميال الأربعة التي ليس في مقدوري أن أعبرها. وسألت نفسي أين يا ترى ألتمس السلوى؟ وتألمت أكثر ما تألمت ليأسي من العثور على من يمكنه أو يود أن يكون عونًا لي ضد هيثكليف (وهذا أمر أرجو ألا تذكري عنه شيئًا لإدجر أو لكاثرين)، وكنت قد سعيت إلى الإقامة بوذرنج هيتس، وأنا أكاد أشعر بالارتياح لهذه الإقامة لأنها جنبتني العيش معه وحده، ولكن هيثكليف كان يعرف هؤلاء القوم الذين قدمنا للإقامة معهم، ولم يكن يخشى تدخلهم في حياتنا.

جلست تراودني الأفكار الحزينة ودقت الساعة الثامنة والتاسعة، ولا يزال رفيقي يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وقد تدلى رأسه على صدره ولزم الصمت التام، عدا ما كان يصدر عنه بين حين وآخر من أنات أو عبارات سباب لاذعة، وأنصت لعلي أسمع صوت امرأة في الدار، وكانت نفسي في هذه الأثناء نهبًا لنوبات عاتية من الندم والكآبة وتوقع أسوأ الشر، فاضت بها نفسي في آخر الأمر حسرات ودموعًا مسموعة لم يسعني مقاومتها، ولم أكن أدري مبلغ هذا الفيض من الألم والحسرة إلى أن توقف إيرنشو قبالتي ولما يزل يذرع الغرفة بخطوات متسعة، وحدجني بنظرة نمت على ما ثار في نفسه من دهشة، فاغتنمت فرصة هذه الصحوة وقلت:

- إنني متعبة من رحلتي وأريد أن آوي إلى الفراش! فهلا هديتني إلى الوصيفة لأنها لم تقدم بعد للاهتمام بأمري.

أجابني قائلًا: «ليس في الدار وصيفة، وعليكِ أن تعتني بنفسك».

فسألته: «وأين أنام إذن؟»، قلت هذا وقد غلبني الإجهاد والشعور بالتعاسة على أمري، فبكيت بصوت عال غير مكترثة بما في بكائي هذا من المساس بكرامتي.

قال رفيقي: «سوف يقودك جوزيف إلى غرفة هيثكليف، فافتحي هذا الباب تجديه هناك».

وهممت بتنفيذ ما أشار به، ولكنه أمسك بي فجأة وواصل كلامه قائلًا في لهجة غاية في الغرابة: «أرجو أن تغلقي غرفتك بالقفل والمزلاج وإياكِ أن تنسي!».

قلت: «حسنًا يا مستر إيرنشو ولكن لماذا؟».

وكان تساؤلي هذا لأني لم أرتح لفكرة وجودي حبيسة في غرفة واحدة مع هيثكليف.

وهنا أخرج إيرنشو من جيب صداريته مسدسًا غريب الصناعة ربطت بماسورته سكين متحركة، ذات حدين، وقال: «انظري هذا! إن فيه لسلوى عظيمة لرجل يائس، أليس كذلك؟ إني لا أستطيع مقاومة الرغبة في الذهاب إلى غرفته كل ليلة ومعالجة مقبض بابها، فإن وجدتها مفتوحة فقد قضي على هيثكليف! وإني أفعل هذا على الدوام حتى ولو راودتني في اللحظة السابقة لعملي هذا مئات الأسباب التي تدعوني إلى الامتناع عنه، إن شيطانًا يحضني على إحباط مشروعاتي بالقضاء على هيثكليف، فقاومي هذا الشيطان حبًّا فيه أطول ما تستطيعين، ولكن متى حان الوقت المناسب، فلن يسلم من يدي، وإن ساندته

ملائكة السماء جميعًا».

فحصت السلاح بدافع حب الاستطلاع، وراودني خاطر مخيف، قلت لنفسي: «كم أصبح قوية لو أني ملكت هذا السلاح!»، ثم تناولته من يده ولمست حد السكين المتصلة به، فبدا على إيرنشو التعجب لما ساد وجهي في تلك اللحظة من مشاعر لم تكن ناجمة عن شعوري بالخوف والفزع، بل عن رغبة واشتهاء، فانتزع إيرنشو المسدس من يدي في لهفة وطوى السكين وأعادها إلى مكمنها، ثم قال: «لا يهمني ألبتة أن تبلغيه أمر هذا السلاح، فلتنبهيه إلى الخطر واحرسيه، ولا أخالك تجهلين ما بيننا من عداء، ولعل ما يتعرض له هيثكليف من الخطر لا يفزعك».

فسألته قائلة: «ترى ماذا فعل هيثكليف بك وما مبلغ ظلمه الذي يستحق من أجله كل هذا البغض المروع؟ أليس من الحكمة أكثر من هذا أن تدعوه إلى ترك الدار؟».

فأجابني إيرنشو في صوت أشبه بالرعد الهادر: «كلا، ولو عرض هيثكليف مغادرة الدار لقضيت عليه، ولو أنكِ أقنعتِه بمحاولة ذلك لأصبحت أنتِ قاتلة. إنه لا يسعني أن أفقد كل شيء دون أن تتاح لي فرصة لاستعادة ما خسرت، هل يجوز أن يصبح هيرتن متسولًا؟ تبًّا له! سوف أستعيد ما فقدت وأستولي على ذهبه كذلك، ثم أقتله، وسيكون مصيره الجحيم، سيكون أحلك سوادًا في وجودك عشر مرات مما كان عليه في أي وقت مضى!».

لقد أخبرتني يا آلن بما لسيدك القديم من عادات غريبة، وهو بلا ريب قاب قوسين أو أدنى من الجنون، أو أنه كان كذلك في الليلة الماضية على الأقل، لقد ارتجف لوجودي بقربه وشعرت أن ما جبل عليه الخادم من المرارة وسوء الخلق أكثر احتمالًا منه، وما إن عاد إلى سيره الشارد في الغرفة حتى رفعت مزلاج الباب وفررت إلى المطبخ حيث وجدت جوزيف منحنيًا على المدفأة يحملق في إناء كبير معلق فوقها ووعاء خشبي به دقيق شوفان، وقد وضع على مقعد بجانبه، وأخذت محتويات الإناء في الغليان واستدار جوزيف لتقليبها، وحدثتني نفسي أن جوزيف يعد هذا الطعام لعشائنا، وإذ كنت جائعة فقد اعتزمت أن أجعل منه وجبة سائغة، فصحت في حدة: «سوف أعد الطعام بنفسي!»، قلت هذا ثم أبعدت الإناء عن متناول يده وأخذت أخلع قبعتي وملابس الركوب التي كنت أرتديها، وواصلت كلامي قائلة: «لقد طلب إليَّ مستر إيرنشو أن أخدم نفسي بنفسي وها ما سوف أفعله، ولن يكون وضعي بينكم هو وضع سيدة المنزل وإلا مت جوعًا».

وجعل جوزيف يمر بيديه على جوربيه المضلعين اللذين كانا يكسوان رجليه من الركبة إلى القصبة ثم تمتم قائلًا: «رباه! يبدو أن تغيرًا آخر على وشك الحدوث في إدارة الدار في الوقت الذي لا أزال أروض النفس فيه على خدمة سيدين، أما وقد فرض عليَّ الآن أن أطيع سيدة، فقد حان الوقت الذي يتعين فيه أن أترك الخدمة، إنه لم يخطر لي ببال من قبل أنني سوف أضطر يومًا إلى ترك هذه الدار، ولكني أشعر الآن أن هذا اليوم قريب!».

لم ألقِ بالًا لهذه الحسرات، وهممت أنجز عملي في خفة ونشاط، وتحسرت إذ تذكرت أيامًا كلها فرح وبهجة، ولكني اضطررت أن أدفع عني هذا الخاطر من فوري، لقد آلمني أشد الألم أن أذكر سعادتي الماضية وكلما ازداد احتمال عودة هذا الخاطر إلى ذاكرتي، ازدادت سرعتي في تقليب الطعام وإفراغه في الماء.

وكان جوزيف في هذه الأثناء يلحظ طريقتي في الطهو بازدراء متزايد، وفجأة

صاح قائلًا: «إنني أرى يا هيرتن أنك لن تتناول عشاءك الليلة، فلن يكون فطيرك إلا قطعًا غليظة لا رقة فيها، لو كنت مكانك لألقيت بالإناء وجميع ما فيه! ولا سبيل إلى تناوله إلا بابتلاعه دفعة واحدة والتخلص منه، ومن رحمة الله أن ما في قاع الوعاء لم يصب».

ولقد كان الطعام في الواقع غير دقيق الصنع، كما بدا حينما صببناه في الصحاف، وكنا قد أعددنا أربع أوانٍ منه وأحضرنا إبريق لبن سعة جالون من مخزن الألبان، فأخذه هيرتن بين يديه وجعل يعب منه ويسكب اللبن من فتحته الواسعة، فاعترضت على ذلك وطلبت أن يصب ما يريد من اللبن في إناء خاص به قائلة إنه لا يمكنني أن أتناول لبنًا تعرض لهذه القذارة. بيد أن العجوز الساخر ثار لاعتراضي هذا وجعل يكرر على مسامعي أن الصبي ليس أقل مني شأنًا، وأنه صحيح البدن مثلي، وأخذ يبدي عجبه من صلفي وكبريائي، ولم يتوقف الوغد الصغير أثناء ذلك عن رشف اللبن من الإناء وهو يحدجني بنظرات التشفي والتحدي ولعابه يسيل في إناء اللبن.

قلت: «إذن سأتناول عشائي في غرفة أخرى، هل في هذه الدار ما تطلقون عليه غرفة الجلوس؟».

فردد كلمتي في سخرية قائلًا: «غرفة جلوس.. ليس لدينا غرف من هذا القبيل، فإن لم تعجبك صحبتنا فأمامك غرفة السيد، فإن لم تعجبك فلتعودي إلينا».

أجبته قائلة: «إذن سأصعد إلى الطابق العلوي، فأرشدني إلى غرفة به».

ومن ثم وضعت إنائي على الصينية ومضيت لأجلب بنفسي مزيدًا من اللبن، وقام جوزيف وهو يزمجر وتقدمني إلى الغرف التي في أعلى الدار، وفي طريقنا جعل يفتح الأبواب التي تصادفنا من حين لآخر لينظر في داخل غرفها، وفي آخر المطاف دفع بابًا أشبه باللوح المعلق على مفصلات بالية وقال: «هذه غرفة تتسع لأن تتناولي فيها عشاءك من العصيدة، وتجدين غرارة نظيفة من القمح في ركن منها، فإن خفت أن تتسخ ملابسك، فأبسطي منديلك عليها وأنتِ تأكلين.

وكان ما أسماه جوزيف بالغرفة أشبه ما يكون بمخزن لسقط المتاع، تنبعث منها رائحة الغلال القوية، وقد تناثرت أكياسها في كافة الأرجاء مكونة بينها مساحة واسعة خالية وسط الغرفة.

فصحت فيه غاضبة: «ما هذا يا رجل! أهذا مكان يليق للنوم؟ إنني أطلب إليك أن ترشدني إلى غرفة نومي».

قال مكررًا كلمتي في تهكم: «غرفة نوم! سوف أريك كل غرف النوم في هذه الدار، هاك غرفتي!».

قال هذا وهو يشير إلى الغرفة العلوية الثانية التي لم تكن تختلف عن الأولى في شيء عدا حوائطها، فقد كانت أكثر عريًا من حوائط الأولى، وكان بأحد أركانها سرير كبير واطئ لا ستائر له، قد دثر جانب منه بدثار أزرق اللون، فنهرته قائلة: «ليس بي حاجة إلى غرفتك! والآن هلا أخبرتني أيقيم مستر هيثكليف في الطابق العلوي من الدار أو لا يقيم فيه؟».

فأجابني قائلًا: «إذن فأنتِ تسعين إلى غرفة هيثكليف؟»، وكانت لهجته وهو يقول

ذلك كلهجة من وفق إلى كشف جديد، ثم مضى قائلًا: «ولِمَ لم تسأليني ذلك منذ البداية؟ لو فعلت لأطلعتك على الحقيقة وجنبتك مشقة الطواف بأرجاء الدار، إذن فاعلمي أن هذه الغرفة بالذات هي التي ليس في مقدوري رؤيتها، فهو يغلقها على الدوام ولا يستطيع أحد سواه أن يدخلها».

ولم يسعني إلا أن أبدي رأيي قائلة: «إن بيتكم لظريف يا جوزيف، وإن نزلاءه لممن ترتاح إليهم النفس، وأظن أن خلاصة ما في العالم من جنون قد تركزت في ذهني في ذلك اليوم الذي ربطت فيه مصيري بمصيرهم! وعلى كل فليست هذه اللحظة ملائمة لإثارة الموضوع، إن في المنزل غرفًا أخرى، فبالله عليك أن تعجل وتتيح لي أن أستقر في مكان ما!».

لم يرد جوزيف على رجائي هذا، بل سار أمامي نازلًا على الدرج بخطوات ثقيلة لا يلوي على شيء، وما لبث أن توقف أمام غرفة حزرت من وقفته أمامها ومما كانت تحتويه من أثاث رائع أنها أفضل حجرات الدار، وكان بالحجرة بساط طيب وإن كان ما تراكم عليه من أتربة قد طمس معالمه، كما كان بها مدفأة ثابتة في الحائط تدلى منها ورق مقطع، وسرير جميل من خشب البلوط، مزود بستائر قرمزية اللون حديثة الطراز، صنعت من قماش ثمين وإن كانت آثار سوء الاستعمال قد بدت عليها؛ إذ تدلت أطرافها ونزعت من حلقاتها والتوى العمود الذي يحملها على شكل قوس في أحد جانبيه، فهوت الستائر حتى لامست الأرض، كما كانت المقاعد غير سليمة، وكان بعضها مهشمًا، وكانت الألواح الخشبية التي تكسو الجدران مشوهة بما أحدث فيها من حفر وشقوق. وكنت أحاول جاهدة أن أضم شتات شجاعتي لأدخل الغرفة وأضع يدي عليها حينما أعلن دليلي المعتوه: «إن هذه هي غرفة السيد»، وكان عشائي قد برد وفقدت شهيتي للطعام ونفد صبري، فأصررت على أن يهيأ لي في الحال مكان ألجأ إليه، وأريح بدني مما لحقه من عنت وإرهاق.

أجابني الشيخ التقي الورع قائلًا: «وهل إلى هذا المكان من سبيل؟ فليباركنا الرب وليسامحنا! فإلى أين يا ترى تذهبين أيتها الحشرة الفاسدة المتعبة، لقد طفت بكِ كافة غرف المنزل ما عدا غرفة هيرتن الصغيرة، وليس بالدار ثقب آخر يمكنك الإقامة فيه».

ولقد أثارني هذا الكلام فألقيت بالصينية وما عليها من آنية الطعام على الأرض وجلست على قمة السلم وأخفيت وجهي في يدي وجعلت أبكي.

وصاح بي جوزيف قائلًا: «سلمت يدك يا مس كاثرين، سلمت يدك، سيحضر السيد فيكبو وهو يسير فوق هذا الحطام من الأواني فيحدث ما لا تحمد عقباه، فلننتظر لنرى ما يفعل، إن عملك هذا جنون صارخ فيجب عليك أن تكفري عنه من اليوم حتى يحل عيد الميلاد، فقد اقترفتِ ذنبًا بإلقائك نعم الله إلى الأرض ووطئها بقدمك في ثورة غضبك، ولكنني أخطئ خطأً كبيرًا إذا ظننت أن في مقدورك الاستمرار في ثورتك طويلًا، فهل تظنين أن هيثكليف سيحتمل هذه الأساليب الطيبة؟ أرجو أن يصادفك وأنت في هذه الثورة العاتية، إني لأرجو ذلك من قلبي».

ومضى جوزيف يوجه إليَّ لومه وتقريعه إلى أن بلغ وكره في أسفل الدار، وأخذ الشمعة معه، وبقيت أنا في الظلام، على أن فترة التأمل التي تلت هذا التصرف السخيف الذي بدر مني حملتني على التسليم بضرورة التغلب على كبريائي وكبح جماح غضبي والعمل على إزالة آثار ذلك التصرف، وسرعان ما أتتني النجدة عن طريق الكلب «تروتلر»، وقد تبينت الآن أنه ابن كلبنا القديم سكلكر. وكان تروتلر هذا قد أمضى أيام طفولته في ضيعتنا فأعطاه أبي إلى مستر هندلي. وقد بدا أنه عرفني فقد دفع أنفه إلى أنفي تحية

لي، ثم أسرع يلتهم العصيدة، وبينا هو منصرف إلى طعامه تلمست طريقي من درجة إلى أخرى أجمع حطام الآنية وأزيل بمنديلي آثار اللبن المنسكب على حاجز السلم، وما كدنا ننتهي من جهادنا هذا حتى طرق سمعي وقع أقدام إيرنشو وهو يسير في الدهليز. وسرعان ما ضم مساعدي ذيله بين ساقيه ولجأ إلى الحائط، وتسللت أنا إلى أول باب صادفته في طريقي، ولم يفلح الكلب في محاولته اجتناب إيرنشو، وهو ما حزرته بعد أن طرق سمعي صوت جلبة في أسفل الدار تبعها عواء الكلب عواء طويلًا أليمًا، وكان حظي خيرًا من الكلب، فقد مر بي إيرنشو ودلف إلى الغرفة وأغلق بابها، وما لبث أن حضر جوزيف مع هيرتن ليرقده في سريره، وكنت قد اتخذت غرفته ملجأ لي وملاذًا، فلما رآني الرجل العجوز قال: «أعتقد أن هناك متسعًا لك ولكبريائك في الدار الآن، فهذه الغرفة خالية، ويمكنك الإقامة فيها أنت والشيطان فهو -لسوء الطالع- لا بد أن ينضم إلى صحبتكما السيئة!».

ولشد ما سرني أن أنتفع بهذه الإشارة، وما كدت ألقي بنفسي في مقعد قريب من المدفأة حتى أغفيت، وكان نومي عميقًا وإن كان قد تسلل لي في سرعة فائقة، فصحوت لأجد هيثكليف يحاول إيقاظي وكان قد قدم لتوه من الخارج، وأخذ يتساءل في لطف وأدب عما كنت أفعل في الغرفة، فأخبرته بأن سهري إلى تلك الساعة المتأخرة من الليل يرجع إلى احتفاظه بمفتاح غرفتنا معه، فثار ثورة عاتية لأني نسبت الغرفة إلينا معًا وأقسم أغلظ الأيمان بأنها ليست غرفتي ولا يمكن أن تكون غرفتي وأنه... ولكني لا أود أن أعيد هنا ألفاظه النابية أو أن أصف سلوكه العادي، فهو بارع في إذكاء كراهيتي له ولا يمل من السعي الدائب لهذا الغرض، وأحيانًا أتعجب كل العجب فيطغي عجبي على ما أشعر به من الفزع والخوف منه، على أني أؤكد لكِ أن النمر أو الثعبان السام لا يمكن أن يثيرا من الفزع في نفسي مثل ما يثيره هذا الزوج، لقد أخبرني بمرض كاثرين وأخذ يتهم شقيقي بأنه تسبب فيه، وأقسم أن أكون بديلة لإدجر في احتمال تعذيبه إلى أن يضع يده عليه.

إني أكرهه أشد الكراهية وأشعر بالتعاسة وبمدى حماقتي، ولكن إياكِ أن تبوحي بشيء من ذلك لأحد في الضيعة، إني سأنتظر كل يوم حضورك فلا تخيبي أملي!».

إيزابيلا.

* * *

الفصل الرابع عشر

ما إن انتهيت من تلاوة هذه الرسالة حتى قصدت سيدي وأخبرته أن أخته قد وصلت إلى وذرنج هيتس، وأنها أرسلت إليَّ خطابًا تعرب فيه عن أسفها لمرض مسز لنتن، وعن رغبتها الشديدة في رؤياه، وأملها في أن يبعث إليها معي -في أقرب فرصة- ما يدل على صفحه عنها.

فصاح بي قائلًا: «الصفح؟ وما جريرتها يا آلن حتى أصفح عنها، إنك تستطيعين أن تذهبي إلى وذرنج هيتس بعد ظهر اليوم -إن شئت- وتبليغها أنني لست غاضبًا، ولكني آسف لأني فقدتها ولا سيما أنني لا أستطيع أن أعتقد أنها ستكون سعيدة، على أنه من المفروغ منه أنني لن أذهب لزيارتها ففراقنا أبدي. أما إن كانت راغبة حقًّا في إسداء معروف إليَّ، فلتقنع ذلك الوغد الذي تزوجته بمغادرة البلاد».

فتوسلت إليه قائلة: «ولكن هلا كتبت لها كلمة وجيزة يا سيدي».

أجابني قائلًا: «كلا، فلا ضرورة لذلك، لأن كل اتصال بيني وبين أسرة هيثكليف سيكون نادرًا ندرة اتصاله بي، أي أنه لن يحدث على الإطلاق».

وقد أحزنني هذا البرود من إدجر وظللت طول الطريق من الضيعة إلى وذرنج هيتس أجهد ذهني محاولة أن أجد الكلمات التي تلطف من وقع ما أنقله من كلامه، وتخفف من الأثر الذي سوف يحدثه في نفس إيزابيلا رفض أخيها أن يكتب إليها بضعة أسطر على سبيل المواساة. ولعلها كانت ترتقب حضوري منذ الصباح، فقد رأيتها تنظر من خلال النافذة وأنا مقبلة على الحديقة، فلما أومأت لها تراجعت بسرعة كمن يخاف أن يراه أحد، ودخلت أنا الدار دون أن أطرق الباب، فإذا البيت الذي كان يرى من قبل بهيجًا سعيدًا قد تحول إلى دار موحشة كئيبة، ويقيني أنني لو كنت مكان سيدتي الصغيرة لقمت على الأقل بتنظيف المدفأة والمناضد وإزالة ما عليها من تراب بمنفضة، ولكن يبدو أن السيدة الصغيرة قد شاطرت أهل الدار إهمالهم الذي احتواها فيما احتوى. وكان وجهها الجميل ممتقعًا مستهترًا وشعرها غير مرجل وقد تدلت بعض خصلاته في غير نظام، وعقصت بعضها الآخر حول رأسها في إهمال ظاهر. وأغلب الظن أنها لم تبدل ثيابها منذ العشية، ولم يكن هندلي موجودًا، أما هيثكليف فكان جالسًا إلى مائدة يقلب بيني يديه أوراقًا في محفظته، فلما رآني نهض وسألني عن أحوالي بود ظاهر وقدم لي كرسيًّا للجلوس، وكان هيثكليف الشخص الوحيد في الدار الذي بدا لي رقيقًا مهذبًا، وكان -في ظني- في أحسن أحواله، وقد لمست أن الأوضاع قد تبدلت وتغيرت لدرجة أن الغريب الذي يرى هيثكليف يحسبه سيدًا كريم المحتد، وأن زوجته امرأة شرسة سيئة الطباع. أقبلت إيزابيلا ترحب بي بحرارة، ومدت يدها خلسة لتتناول الخطاب المنتظر، فهززت لها رأسي، ولكنها لم تفهم إشارتي، فتبعتني إلى حيث وقفت أمام المشجب لأعلق قبعتي وهمست إلى ملحة في أن أعطيها ما أحضرته فورًا. ففطن هيثكليف لمغزى حركتها وقال: «إن كان معك شيء لإيزابيلا يا نلي -ولا شك أن معك شيئًا- فأعطيها إياه ولا داعي للتخفي، فليس بيننا أسرار».

فأجبته وقد رأيت من الأصوب أن أقول الحق دون مواربة: «ليس معي شيء، وقد

أمرني سيدي أن أخبر شقيقته ألا تتوقع منه رسالة أو زيارة في الوقت الحاضر، وهو يعرب يا سيدتي عن حبه ويبعث إليك بتمنيات السعادة وبصفحه عما سببت له من كدر، ولكنه يرى أن يقطع الاتصال بين الأسرتين منذ الآن، فلم تعد هذه الاتصالات تجدي نفعًا».

فارتعدت شفتا مسز هيثكليف رعدة خفيفة، وعادت إلى مقعدها بجوار النافذة ووقف زوجها إلى جواري بجانب الموقد وراح يسألني عن كاثرين، فأخبرته بكل ما رأيت من المناسب أن أفضي به إليه عن مرضها. وتمكن هيثكليف أن يستخلص مني معظم حقائق ذلك المرض بما كان يوجه إليَّ من أسئلة، وقد لمتها، بما تستحق من لوم، على ما سببته لنفسها من آلام، وأنهيت قصتي بأن أعربت عن أملي في أن يقتدي هيثكليف بعمل مستر لنتن، ويجتنب كل اتصال بأسرته مهما يكن في هذا الاتصال من خير أو شر.

وقلت له: «إن سيدتي تستعيد صحتها الآن، ولكنها لن تعود إلى سالف عهدها من القوة والعافية، وإن كانت قد نجت من الموت. فإن أردت لها الخير بحق فلا تعترض طريقها بعد الآن، وخير ما تفعله أن تغادر هذه البلاد برمتها، ولكيلا أجعلك تأسف على ذلك، أخبرك أن كاثرين لنتن تختلف اليوم عن كاثرين إيرنشو صديقتك القديمة، بقدر الاختلاف بين هذه السيدة الصغيرة وبيني، فقد تبدل مظهرها تبدلًا كبيرًا وتغير خلقها أكثر من شكلها، وإن الشخص الذي يعاشرها بحكم الضرورة لن يحفظ لها الود إلا على ذكرى ماضيها، وبدافع الرحمة الإنسانية، وقيامًا بواجبه نحوها!».

فعقب هيثكليف على كلامي هذا وهو يجاهد كي يبدو هادئًا: «من الممكن جدًّا أن يقتصر شعور سيدك نحوها على الرحمة الإنسانية والقيام بالواجب، ولكن أتتوهمين أنني سأترك كاثرين لواجبه وإنسانيته؟ وهل يمكن أن تقارني شعوري نحو كاثرين بشعوره نحوها؟ وقبل أن تغادري هذه الدار سأنتزع منك وعدًا بتمكيني من مقابلتها، وسواء أقبلت هذا أم رفضته فسوف أراها! فماذا أنتِ قائلة؟».

أجبته قائلة: «أقول يا مستر هيثكليف إن الواجب يقتضي ألا تفعل ذلك، وإنك لن تقابلها عن طريقي، فإن أول لقاء بينك وبين سيدي سيقضي عليها قضاء مبرمًا».

فأردف قائلًا: «إنه من الممكن اجتناب هذه النتيجة بفضل مساعدتك، أما إن كان هناك خطر في حدوثها -أي إن كان هو سببًا في أن يكدر عليها صفو حياتها، مهما يكن هذا التكدير ضئيلًا، فسيكون مبررًا لي للانتقام منه انتقامًا مروعًا! وليتك تصدقينني القول إلى أي حد تتألم كاثرين لموته، ذلك أن خوف إيلامها هو الذي يحول بيني وبين القضاء على حياته، ولكِ الآن أن توازني بين شعورنا، فلو كنت أنا في مكانه وكان هو في مكاني لما أقدمت مطلقًا على إيذائه، بالرغم من المقت الشديد الذي يملأ جوانحي نحوه، والذي أحال حياتي جحيمًا لا يطاق، ولكِ ألا تصدقي ما أقول إن أردت ذلك، ولكني أؤكد لكِ أنني لو كنت مكانه لما حرمته مقابلتها ما دامت راغبة في مقابلته. أما إن رغبت عنها فإني لن أتردد في تلك اللحظة في أن أخلع قلبه وأرتوي من دمائه، وإلى أن يحدث هذا -وإن لم تصدقيني، فإنك بلا شك تجهلينني- إلى أن يحدث هذا فإني أفضل أن أموت موتًا بطيئًا موجعًا على أن أمس شعرة واحدة من رأسه!».

فقاطعته قائلة: «ومع ذلك فأنت لا تشعر بتبكيت ضميرك وأنت تسعى إلى القضاء على كل أمل في استعادتها كامل صحتها بتذكيرها بوجودك بعد أن أوشكت أن تنساك، وتعريضها لنوبات عاتية من الشقاق والمتاعب».

قال: «وهل تظنينها أوشكت أن تنساني حقًّا؟ إنك تعلمين أنها لم تنسني قط،

وتدركين بقدر ما أدرك أنا أنها كلما فكرت في إدجر مرة فكرت في هيثكليف ألف مرة! لقد راودتني في فترة تعسة من فترات حياتي، فكرة نسيانها لي، لقد أحالت هذه الفكرة حياتي جحيمًا لا يُطاق حين عودتي إلى هذا الريف في الصيف الماضي، ولكن لا شيء غير توكيدها هي يمكن أن يجعلني أفكر في هذه الفكرة الرهيبة مرة أخرى، فإذا حدث هذا فإن لنتن يكون عندي لا شيء، وكذلك هندلي، وكل ما تراءى لي في أحلامي، ويكون مستقبلي وقتئذ محصورًا في كلمتين اثنتين: هما الموت والجحيم؛ لأن الحياة بعد فقدانها هي الجحيم، ومع ذلك فقد كنت من الحماقة بحيث تصورت لحظة من اللحظات أنها تقدر حب إدجر لنتن لها أكثر مما تقدر حبي، إن حب إدجر لها مهما اشتد لن يبلغ في مدى ثمانين عامًا مبلغ حبي إياها في يوم واحد! وإن قلب كاثرين ليبلغ من العمق في حبه ما يبلغه قلبي، ولأن يجتمع البحر والمحيط في مسقاة للخيل أقرب من أن يستأثر إدجر بكل عواطفها! إنه في الواقع ليس أعز عليها من كلبها أو حصانها! ليس في مقدوره أن يحب كما أحب أنا، فكيف يتسنى لها أن تحب فيه ما لا يملك؟».

فصاحت إيزابيلا به وقد ثار شعورها ثورة مفاجئة، قائلة: «إن كاثرين وإدجر متحابان أقصى ما يكون الحب، ولا يحق لإنسان أن يتحدث عنهما بهذه الصورة، ولن أحتمل أن يُهان أخي وأنا صامتة!».

وعقب هيثكليف على حماستها هذه متهكمًا فقال: «إن أخاكِ يحبك أنتِ أيضًا حبًّا لا مزيد عليه، أليس كذلك؟ ولهذا يتخلى عنكِ ويلقي بكِ في خضم العالم بهمة ونشاط يثيران الدهشة».

فأجابته قائلة: «إنه لا يعلم ما أقاسي، فإني لم أخبره بأمرنا!».

- إذن فأنتِ قد أخبرته بشيء ما، فقد كتبت إليه، أليس كذلك؟

- لأقول له إنني تزوجت، وقد رأيت ما كتبت بنفسك.

- أو لم تكتبي شيئًا آخر منذ ذلك الحين؟

- لا.

قلت: «إن سيدتي الصغيرة تبدو أسوأ حالًا لما طرأ عليها من تغير، والظاهر أن ما يحمله لها شخص آخر من الحب ليس كافيًا، وقد أستطيع أن أحزر من يكون هذا الشخص، ولكن يجدر بي ألا أذكر اسمه».

فعقب هثكليف قائلًا: «أظن أن حبها هو الذي تناقص، إن طباعها تنحط حتى أضحت امرأة شرسة مضيعة لا أكثر! وأضناها السعي لإدخال السعادة إلى قلبي في وقت مبكر جدًّا، ولعلك لا تصدقين أنها في اليوم التالي لزواجنا جعلت تبكي طالبة أن تعود إلى بيتها، على أنها سوف يوائمها هذا البيت أحسن موائمة بسبب ما هي عليه من قلة الظرف، وسأحرص على ألا تفضحني بتجوالها في خارجه».

قلت له: «لعلك تقدر يا سيدي أن مسز هيثكليف تعودت أن تلقى الرعاية، وأنها نشأت فتاة وحيدة يخدمها الجميع، فمن الواجب أن تأتيها بخادمة تعنى بنظافة الدار كما ينبغي أن تعاملها برقة، ومهما يكن رأيك في مستر إدجر، فليس في وسعك أن تشك في قدرتها على الشعور بالعواطف العميقة، فلولا ذلك لما هجرت الراحة والنعيم والأصدقاء في

دارها القديمة لتقيم معك في برية كهذه!».

فأجابني قائلًا: «لقد تركت كل هذا تحت تأثير وهم خادع صورني لها في صورة بطل من الأبطال، وعلى أمل أن تجد من حبي المتسم بالشهامة تدليلًا لا حد له، وإنه لا يسعني أن أنظر إليها نظرتي إلى شخص رشيد، فهي لم تتخل عن فكرتها الخيالية عن خلقي وشخصيتي والتصرف في ضوء الفكرة الخاطئة التي تمنتها، واعتقادي أنها بدأت آخر الأمر تفهمني على حقيقتي، فإني لا أرى على وجهها تلك الابتسامات والتجهمات البلهاء التي كانت تستفزني في بادئ الأمر، ولا أكاد ألمس منها ذلك العجز الأخرق عن أن تكتشف أنني كنت جادًّا حينما أعرب لها عن رأيي فيها وفي افتتانها بي، وقد اقتضاها مجهودًا ضخمًا أن تكتشف هذه الحقيقة وهي أنني لم أكن أحبها أبدًا، وقد كنت أعتقد في وقت ما أنه لا شيء يمكن أن يفهمها هذه الحقيقة، ومع ذلك فقد كان فهمها لها فهمًا قاصرًا، فقد أعلنت صباح اليوم فقط، كأنما كانت تعلن أنباء مفزعة، أنني قد أفلحت فعلًا في حملها على كراهيتي، كأن هذا قد اقتضاها مجهودًا جبارًا! فإن كنت قد أفلحت فيه لكان عليَّ أن أشكر الله عليه جزيل الشكر، ولكن أيمكنني أن أثق في قولك يا إيزابيلا؟ أواثقة أنتِ من كراهيتك لي؟ وهل إذا تركتك وحيدة نصف يوم، لا تهرعين إليَّ متنهدة مستعطفة؟ لعلها تفضل أن أظهر لها الود والرقة أمامك، فإنه مما يؤذي غرورها أن أجهر بالحقيقة، ولكني لا أبالي أن يعلم من يعلم أن العواطف كانت كلها من جانب واحد، وهي حقيقة لم أخفها عنها في أي وقت مضى، فلا يمكنها والأمر كذلك أن تتهمني بأني خدعتها بإظهار عواطف رقيقة مهما قلت نحوها، لقد كان أول عمل قمت به أمامها حينما تركنا الضيعة أن شنقت كلبتها الصغيرة، فلما توسلت إليَّ أن أبقي على حياتها، كان أول ما نطقت به هو رغبتي في أن أشنق كل ما يمت إليها بصلة ما عدا شخصًا واحدًا، ولعلها ظنت أنني أعنيها بهذا الاستثناء، ولكن ما من فظاظة ووحشية كانت تكفي لتبعث فيها الاشمئزاز، بل إني لأخالها تعجب في خبيئة نفسها بهذه الفظاظة والوحشية ما دام شخصها الثمين في عصمة من الأذى! فهل هناك ما هو أعظم بلاهة وسفاهة من أن تتصور هذه الإنسانة التعسة ضيقة الأفق مضيعة الكرامة أنني أحبها؟ فأرجو يا نلي أن تخبري سيدك أنني لم أرَ في حياتي مخلوقًا أهون وأتفه منها، فهي سبة حتى لاسم لنتن، ولقد كنت أترفق أحيانًا في اختبار مدى تحملها للمذلة والهوان لمجرد عجزي عن ابتكار أساليب جديدة لهذه المذلة وذاك الهوان، ومع ذلك فقد كانت تعود إلى التذلل والاستعطاف إلى حد يجللها بالعار. وخبري سيدك كذلك أن يهدئ من ثورة قلبه الأخوي المنطبع على الاستبداد والتسلط، وأبلغيه أنني ألتزم حدود القانون، وأنني اجتنبت حتى هذه اللحظة أن أتيح لها اكتساب أي حق ولو يسير لطلب الفرقة، وليعلم سيدك إلى ذلك أنها لن تشكر له سعيه للتفريق بيننا. أما إن رغبت هي في الانصراف عني فلتنصرف، فإن ما أعانيه من ضيق لبقائها أقوى مما أستمتع به من لذة تعذيبها!».

قلت: «إن هذا يا مستر هيثكليف حديث رجل مجنون! وأغلب الظن أن زوجتك مقتنعة أنك مجنون بحق، واقتناعها هذا هو سبب تحملها حتى اليوم ما تسببه لها من آلام، أما وقد قلت الآن إن في مقدورها الانصراف عنك، فلا شك أنها سوف تغتنم فرصة هذا الإذن، إنك يا سيدتي لست بمسحورة حتى تطيقي البقاء معه برغبتك ورضاكِ!».

فتألقت عينا إيزابيلا حقدًا وحنقًا، ودلّ ذلك -بما لا يدع مجالًا للشك- على نجاح زوجها فيما بذل من محاولات لحملها على كراهيته، قالت: «حذار يا نلي مما يقول، لا تصدقي كلمة واحدة من حديثه فهو كذاب أشر، إنه وحش وليس إنسانًا، لقد سبق أن قال إن في استطاعتي الانصراف عنه، فأقدمت على المحاولة ولكنني لا أجسر على أن أكررها اليوم، وكل ما أطلبه إليك يا آلن أن تعدي بألا تنقلي حرفًا واحدًا من هذا الحديث المخزي

إلى أخي أو إلى كاثرين، فمهما يكن ما يدعيه فإنه لا يرغب إلا في أن يحطم قلب إدجر غيظًا وإذلالًا، وهو يزعم أنه لم يتزوجني إلا ليجعلني مطية للتسلط على أخي، ولكني لن أمكنه من ذلك، إن الموت لأهون عندي مما يريد، وكل أملي ورجائي أن ينسى حيطته الشيطانية ويقدم على قتلي! فلذتي الوحيدة الآن أن أموت أو أراه ميتًا!».

قال هيثكليف: «حسبك هذا الآن»، ثم وجه حديثه إليَّ قائلًا: «عليكِ يا نلي أن تتذكري ما قالته أمامك إذا دعيت لأداء الشهادة أمام المحكمة، وانظري إلى سحنتها.. إنها تقترب إلى تلك الدرجة من الحقد والغيظ التي أرغب أن تبلغها، كلا يا إيزابيلا! إنه يتعين في هذه الحالة ألا تتركي لنفسك، وأنا بوصفي حاميك الشرعي، لا بد أن أضعك تحت الحراسة، مهما يكن كرهي لذلك الواجب، هيا اصعدي الآن إلى الطابق العلوي لأن عندي ما أقوله لنلي سرًّا.. لا ليس هذا بالطريق الصحيح إلى الطابق العلوي، لقد أمرتك بالصعود إلى الطابق العلوي! هذا هو الطريق أيتها الطفلة».

قال هذا وأمسك بها من الخلف ودفعها إلى خارج الغرفة، وعاد إليَّ يتمتم: «لم يعد للرحمة مكان في قلبي.. إني لم أعد أشعر بها! فكلما عظم ألم الديدان فأمعنت في التلوي ازداد شوقي إلى سحقها والقضاء عليها! إن ما بي من آلام نفسية لشبيه بالألم الناشئ عن بروز الأسنان، وإن قدرتي على سحقها لتزداد بقدر ما يزداد ألمي».

قلت وأنا أسرع إلى تناول قبعتي كي أنصرف: «أتدري معنى كلمة الرحمة؟ ألم تستشعر شيئًا منها يومًا في حياتك؟».

فقاطعني وقد لحظ رغبتي في الانصراف قائلًا: «ضعي هذه القبعة، إن الوقت لم يحن بعد لخروجك، اقتربي مني يا نلي، فإني إما أن أقنعك وإما أن أكرهك على أن تعينيني على مقابلة كاثرين بغير إمهال، وأقسم أنني لا أضمر سوءًا، ولا أبغي اضطرابًا ولا أهدف إلى إثارة مستر لنتن أو إهانته، وكل مرادي أن أسمع منها كيف هي الآن، ولماذا مرضت، وأن أسألها هل في مقدوري أن أكون ذا فائدة لها، لقد أمضيت البارحة ست ساعات في حديقة الضيعة وسأذهب إلى هناك هذه الليلة أيضًا، وسأظل أحوم حول المكان كل ليلة وكل نهار حتى أجد وسيلة للدخول، فإذا التقى بي إدجر لنتن فلن أتردد في أن أصرعه وأكيل له الضربات ما يكفل سكونه طول مقامي، فإذا اعترض خدمه طريقي فسوف أهددهم وأبعدهم بهذين المسدسين، ولكن ألا ترين أن خيرًا من هذا أن يحال دون حدوث احتكاك بيني وبين الخدم أو سيدهم؟ إن في مقدورك أن تفعلي ذلك في يسر، فسوف أنبهك لوجودي فتدخليني دون أن ينتبه أحد إلى دخولي، حالما تكون كاثرين منفردة في غرفتها، وعليكِ بعدئذ أن تقفي للحراسة حتى أنصرف وأنتِ مرتاحة الضمير؛ لأنك بذلك تحولين دون وقوع ما لا تحمد عقباه».

فاحتججت لما في تأديتي هذا الدور في دار سيدي من خيانة له، ثم بينت له ما في القضاء على ما تنعم به مسز لنتن من هدوء وطمأنينة إرضاء لرغبات هيثكليف من قسوة وأنانية وقلت: «إن أبسط الأمور العادية المألوفة كفيلة بأن تزعج مسز لنتن وتسبب لها آلامًا مبرحة، فقد أصبحت كتلة من الأعصاب المرهقة ولا يمكنها تحمل وقع المفاجأة، وإني لواثقة من ذلك كل الثقة، فلا تصمم على رغبتك يا سيدي وإلا اضطررت إلى إبلاغ سيدي بما تعتزم حتى يتخذ من الاحتياطات ما يكفل الأمان لداره وأهله من التدخل الذي لا مبرر له في شؤونهم».

فصاح بي هيثكليف قائلًا: «وفي هذه الحال سأحتاط من جانبي بأن أقبض عليكِ أيتها المرأة، فلن تبرحي وذرنج هيتس حتى صباح الغد، إن من الحماقة أن تزعمي أن

كاثرين لا تتحمل رؤيتي، أما عن مفاجأتي لها بالزيارة، فإني راغب عن ذلك، وعليكِ أن تهيئيها لزيارتي، فتطلبي إليها السماح لي بالحضور، إنك تقولين إنها لا تذكر اسمي على الإطلاق، وأن ما من أحد يذكرني أمامها، ولا غرابة في ذلك، فليس في مقدور كاثرين أن تذكرني لأحد في الدار، ما دام التحدث عني من الأمور المحرمة، وهي تظن أنكم جميعًا أعين عليها لزوجها، وإني لا يخامرني أدنى شك في أن كاثرين تعاني الأمرين ببقائها بينكم! وإني لأحزر من صمتها، بقدر ما أحزر من أي أمر آخر، مبلغ ما تعاني من آلام، تقولين إنها قلقة على الدوام يشيع الاضطراب في نظراتها ولفتاتها، فهل هذا دليل على هدوئها واستقرارها؟ وتقولين إن ذهنها مضطرب مشوش، فهل يمكن أن يكون غير ذلك في عزلتها المخيفة؟ وذلك المخلوق التافه الدنيء يرعاها بدافع من الشعور بالواجب والإنسانية، وبوازع من العطف والبر! أيسر عليه أن يزرع شجرة بلوط في أصيص ورد، ويتوقع لها النماء والازدهار، من أن يتصور أنه قادر على أن يعيد إليها قوتها وعافيتها في معين عنايته الضحل! والآن فلنحسم الأمر بيننا، هل تفضلين البقاء هنا حتى أشق طريقي إلى كاثرين على الرغم من لنتن وخدمه؟ أو تؤثرين أن تكوني صديقتي كما كنت على الدوام، وتلبي رغبتي؟ احزمي رأيك على الفور، فما من سبب يدعوني للتريث لحظة أخرى إذا أصررت على عنادك المنبعث من طبعك الذميم».

لقد جادلته يا مستر لوكوود جدلًا طويلًا، واحتججت كثيرًا وعارضته خمسين مرة، ولكنه اضطرني إلى الموافقة، في آخر الأمر، فتعهدت أن أحمل خطابًا منه إلى سيدتي ووعدته إذا ما وافقت على مقابلته أن أخبره حالما يتغيب مستر لنتن عن المنزل المرة التالية حتى يتسنى له الحضور والتسلل داخل المنزل بوسائله الخاصة، على أن أتعمد التغيب عن المنزل وأبعد عنه الخدم الآخرين في ذلك الوقت، فهل كان عملي هذا صوابًا أو خطأ؟ يؤسفني أن أقول إنه كان تصرفًا أخطأه التوفيق وإن دعت إليه الضرورة، فقد اعتقدت أنني حلت بموافقتي دون وقوع انفجار آخر، كما ظننت أن زيارته قد تحدث تغيرًا مرضيًا في حالة كاثرين العقلية، ثم إني تذكرت تقريع مستر لنتن الصارم لي على نقلي الروايات والأقاويل، فحاولت أن أهدئ من روعي ومن تبكيت ضميري بأن أؤكد وأكرر تأكيدي مرات عديدة، بأن خيانتي للأمانة، إن كانت تستحق ذلك الاسم القاسي العنيف، سوف تكون آخر الخيانات، على أنني بالرغم من ذلك كنت وأنا عائدة إلى داري أكثر اكتئابًا وحزنًا مما كنت في ذهابي إلى وذرنج هيتس، وظللت نهبًا للهواجس والظنون العديدة قبل أن أحمل نفسي في النهاية على تسليم الرسالة لمسز لنتن.

ولكن ها قد حضر كنث، سوف أهبط إليه وأخبره بما عليه صحتك الآن من تحسن، إن قصتي طويلة ولا تصلح لتمضية صباح آخر.

قلت لنفسي لعمري إنها قصة طويلة ومحزنة، وكانت المرأة الطيبة في هذه الأثناء تهبط الدرج إلى الطابق الأسفل من الدار لاستقبال الطبيب، وقلت إنها ليست تمامًا من ذلك النوع من القصص الذي كنت أختاره للتسرية عن نفسي، ولكن لا بأس من ذلك، فسوف أستخلص دواءً شافيًا من أعشاب مسز دين المرة المذاق، ويجدر بي أولًا أن أحذر ذلك الإغراء الذي يطل من عيني كاثرين هيثكليف البراقتين، فسأكون في موقف غريب حقًّا! وإنني أسلمت قلبي لهذه الفتاة الصغيرة وتبينت أن الابنة ليست سوى نسخة طبق الأصل من أمها.

* * *

الفصل الخامس عشر

مضى أسبوع اقتربت خلاله من الشفاء كما اقتربت من الربيع! لقد استكملت سماع القصة من جارتي مدبرة المنزل في الأوقات التي كنا نجتمع فيها بعد أن تفرغ من أعمالها الأكثر أهمية من روايتها. وسوف أواصل الآن رواية القصة بكلمات محدثتي متوخيًا الإيجاز بعض الشيء، فجارتي بوجه عام تتوخى الصدق والاعتدال في روايتها، ولست أظن أن في استطاعتي تقويم أسلوبها.

قالت محدثتي: في مساء اليوم الذي زرت فيه وذرنج هيتس كنت أعلم أن مستر هيثكليف يحوم حول الدار كأني أراه تمامًا، فتجنبت الخروج من المنزل؛ إذ كنت لا أزال أحمل خطابه في جيبي ولم أشأ أن يعاود تهديدي ومضايقتي أكثر مما فعل. وكنت قد حزمت أمري على ألا أسلمه لسيدتي حتى يتغيب سيدي عن الدار؛ لأنني لم أكن على ثقة مما يحتمل أن يسببه في نفس كاثرين من أثر، ونجم عن ترددي هذا أن الخطاب لم يصلها إلا بعد ثلاثة أيام، وكان اليوم الرابع يوم أحد فجئت بالخطاب إلى غرفتها بعد أن انصرفت الأسرة كلها إلى الكنيسة، ولم يبق بالمنزل سوى خادم واحد لملاحظته معي، وكنا قد اعتدنا إغلاق أبواب الدار أثناء ساعات الخدمة، ولكن الجو في ذلك اليوم كان دفئًا ممتعًا إلى درجة أغرتني بأن أفتح الأبواب على مصاريعها، تنفيذًا للتعهد الذي قطعته على نفسي لأني كنت أعرف الشخص الذي سيحضر إلى الدار، وقلت للخادم إن السيدة تشتهي البرتقال، وإن عليه أن يسرع إلى القرية ليأتي بشيء منه ندفع ثمنه في الصباح، ولما انصرف الخادم صعدت إلى الطابق العلوي من الدار.

وكانت مسز لنتن ترتدي ثوبًا أبيض فضفاضًا وقد وضعت دثارًا خفيفًا فوق كتفيها، واتخذت مجلسها بجانب النافذة كالمعتاد، وكان شعرها الكثيف الطويل قد أزيل جزء منه في بدء مرضها، والآن رأيتها قد مشطته تمشيطًا بسيطًا محتفظة بغدائره الطبيعية التي تدلت على خديها وعنقها، ولاحظت أن مظهرها قد تبدل كما ذكرت لهيثكليف، لكن هذا التبدل كان في لحظات صفوها وهدوئها، يضفي عليها جمالًا ربانيًا، لقد خبا البريق في عينيها وحلت محله دعة حالمة حزينة، ولم تعد نظراتها تشعر بأنها مركزة على ما حولها، فقد كانت تبدو على الدوام شاخصة إلى الأفق البعيد.. البعيد بعدًا سحيقًا.. حتى لكأنها تشخص إلى ما وراء هذا العالم. وكان شحوب وجهها -بعد أن خف هزاله حين استعادت وزنها- وتعبيره الخاص الناشئ عن حالتها الذهنية، يزيدان من الاهتمام الذي تثيره كاثرين في نفس الناظر وإن أوحيا بأسبابهما، ويكذبان في نظري ونظر كل من رآها ما بدا من دلائل على نقاهتها، ويؤكدان أن كاثرين محكوم عليها بالفناء لا محالة.

وكانت تبسط كتابًا أمامها على أسكفة النافذة، وكان الهواء الرقيق الذي لا يكاد المرء يشعر بمروره، يعبث بصفحاته من حين إلى حين، واعتقادي أن لنتن هو الذي وضعه في ذلك المكان؛ ذلك أن كاثرين لم تحاول قط التسرية عن نفسها بالقراءة أو بأي عمل آخر، فكان زوجها يقضي بجانبها الساعات الطوال محاولًا إثارة اهتمامها بأمر من الأمور التي كانت فيما مضى تبعث في نفسها السرور، وكانت تشعر بما يهدف إليه بهذه المحاولة، وتحتمل جهوده بلطف ووداعة في لحظات صفوها، ولم تكن تظهر له عدم جدوى تلك الجهود والمحاولات إلا بأن تحبس في صدرها أنة مجهدة متعبة من آن إلى آن، ثم تصده في النهاية بابتساماتها وقبلاتها الممعنة في الحزن والكآبة، وكانت تعزف عنه أحيانًا أخرى

في عناد، وتخفي وجهها بيديها، بل كانت تذهب إلى أبعد من ذلك بأن تدفعه عنها في غضب، فيضطر إلى تركها وقد تأكد لديه ألَّا جدوى ترجى من جهوده.

وكانت أجراس كنيسة جمرتن لا تزال تدق والجدول يسري في الوادي مترفقًا هادئًا فيصل خرير مائه إلى الآذان، فكان بذلك بديلًا حلوًا من دمدمة أوراق الصيف التي لم يكن قد حان وقت سماعها بعد، والتي كانت تطغي على نغمات الموسيقى في الضيعة حين تكون الأشجار مورقة، وكانت هذه الموسيقى تسمع في وذرنج هيتس على الدوام في الأيام الهادئة التي تلي ذوبان الثلج أو فصلًا من المطر المستمر، وكانت

كاثرين تفكر في وذرنج هيتس وهي تصغي -أي إذا كانت قادرة على التفكير والإصغاء إطلاقًا- ولكنها كانت تشخص بعينيها الشاردتين الشاخصتين إلى الأفق البعيد -كما ذكرت من قبل- ولم تكن نظراتهما تدل على قدرة صاحبتهما على تمييز الأشياء المادية سواء بالأذن أو العين.

تقدمت إلى كاثرين ودسست الخطاب برقة في إحدى يديها وكانت تعتمد بها على ركبتها، وقلت: «هذا خطاب لك يا مسز لنتن، وعليك أن تقرأيه فورًا لأنه في حاجة إلى رد، فهل لي أن أفض غلافه؟»، فأجابتني: «نعم»، دون أن تغير اتجاه عينيها، ففضضت الغلاف فإذا الرسالة موجزة غاية الإيجاز، ومضيت أقول: «والآن اقرئيها»، فسحبت يدها وسقطت الرسالة منها فأعدتها إلى حجرها، ووقفت أنتظر حتى يروق لها أن تلقي نظرة على الرسالة، ولكن طال انتظاري لذلك، فواصلت حديثي قائلة: «هل ترين أن أقرأها أنا يا سيدتي؟ إنها من مستر هيثكليف».

ففزعت لسماع الاسم، وبدت على وجهها ومضة مجهدة دلت على محاولة التذكر وترتيب الأفكار، فرفعت الرسالة وبدت كأنها تتلو ما سطر فيها حتى إذا ما وقع نظرها على الإمضاء تنهدت، ولكني أدركت عجزها عن الإلمام بفحوى الرسالة، فقد طلبت إليها الإجابة على الرسالة، فاكتفت بأن تشير إلى الاسم ونظرت إليَّ في لهفة صامتة حزينة.

قلت وقد أدركت حاجتها إلى من يفسر لها ما في الرسالة: «إنه راغب في مقابلتك، وهو الآن في الحديقة، يترقب على أحر من الجمر سماع ما أحمل له من رد».

وبينما كنت أتحدث إليها، شاهدت كلبًا كبيرًا يرقد على النجيل المشمس في الحديقة، وما لبث أن رفع أذنيه كأنما يهم بالنباح، ولكنه سرعان ما خفضهما وجعل يهز ذنبه طربًا معلنًا بذلك أن شخصًا ما مقبل لا يرى أنه من الغرباء.

وفي هذه اللحظة رأيت مسز لنتن تنحني إلى الأمام وتصغي وقد أمسكت أنفاسها، وفي اللحظة التالية ترامى إلى أذني وقع أقدام تعبر البهو، ذلك أن الدار -وقد فتحت أبوابها- قد أغرت هيثكليف بالدخول إغراء لا يستطيع مقاومته، وأغلب الظن أنه اعتقد أنني أميل إلى التنصل من الوعد الذي قطعته على نفسي، فقرر الاعتماد على جرأته، ورأيت اللهفة ترتسم على محياها وهي تتطلع إلى باب غرفتها، ولكن هيثكليف لم يهتد إلى الغرفة الصحيحة من بادئ الأمر فأومأت إليَّ أن أدخله، بيد أنه سرعان ما اهتدى إليها قبل أن أبلغ الباب، وما إن فتحه حتى اخترق الحجرة في خطوة أو خطوتين، فلما بلغ كاثرين تلقفها بين ذراعيه وضمها إلى صدره.

وظل خمس دقائق لا ينطق بكلمة ولا يطلقها من بين يديه، وجعل يقبلها أينما وقعت شفتاه، وما أظن أنه منحها طول حياته قبلات بهذا القدر، ولكن سيدتي هي التي

قبلته أولًا، وقد بدا لي بوضوح أنه لا يقوى على النظر إلى وجهها لشدة ما كان ينتابه من آلام! فقد شعر منذ اللحظة التي وقعت عينه عليها بالحقيقة التي سبق أن كشفتها، وهي أنه لا أمل يرجى في شفائها، وأنه مقضي عليها بالموت.

وكانت أولى كلماته بعد ذلك: «أي كاثي، أي حياتي! كيف أحتمل هذا؟»، قالها في صوت لم يحاول معه أن يخفي فيه ما احتواه من يأس، ثم أخذ يحملق فيها حملقة ظننت من قوتها أنها سرعان ما تدفع الدمع إلى مآقيه، ولكن الألم الممض كان قد الهب عينيه فتحجرتا ولم تفيضا.

ثم أسندت كاثرين ظهرها إلى المقعد، وقابلت نظرة هيثكليف بنظرة منها وهي مقطبة الجبين فجأة، فقد كان مزاجها دليلًا على انفعالاتها وعواطفها المتقلبة، قالت: «أنت وإدجر قد حطمتما قلبي يا هيثكليف! ولكنكما تقبلان عليَّ لتتباكيا على ما فعلتما كأنكما الخليقان بالرثاء! كلا، لن أرثي لحالكما، فقد قتلتماني وأفدتما من قتلي على ما أعتقد، فها أنت ذا قوي البنية موفور العافية! فكم من السنين تريد أن تعيش بعد موتي؟».

وكان هيثكليف قد ركع على إحدى ركبتيه ليعانقها، فلما هم بأن ينهض واقفًا، أنشبت يدها في شعره وأبقته راكعًا.

ثم مضت تقول في مرارة: «ليتني أستطيع أن أمسكك هكذا حتى نموت معًا! ولن أبالي كم تعاني! وماذا يعنيني من عذابك؟ ولم لا تتعذب أنت؟ إنني أتعذب، أتنساني؟ وهل ستكون سعيدًا بعد أن أوارى التراب؟ ألن تقول بعد عشرين عامًا هذا قبر كاثرين إيرنشو؟ لقد أحببتها منذ زمن طويل وفجعت بموتها، ولكن هذا كله قد انتهى الآن، فكم أحببت بعدها من نساء، وأطفالي الآن أحب إليَّ مما كانت، وحين أموت لن أبتهج بلقياها، فسوف يسوؤني أن أترك أطفالي! أهذا ما سوف تقول يا هيثكليف؟».

فصاح بها هيثكليف وهو يجذب رأسه بعنف فيحررها من قبضتها ويصر على أسنانه: «لا تمعني في تعذيبي كيلا أجن كما جننت».

وكان منظر الاثنين في عين المشاهد الهادئ وهما على هذه الحالة غريبًا مخيفًا، وحق لكاثرين أن تعتقد أن الجنة ستكون منفى لها ما لم تتخل عن خلقها في نفس الوقت الذي تنبذ فيه جسدها الفاني، وكانت علامات الحقد والرغبة في الانتقام بادية على خدها الكالح وشفتها التي ذهب لونها وهرب منها دمها، وعينها البراقة، وقد استبقت بين أصابعها المنقبضة خصلة من الشعر الذي كانت تقبض عليه، أما رفيقها فإنه وهو يهم واقفًا معتمدًا على إحدى يديه كان قد قبض على ذراعها باليد الأخرى بشدة وعنف دون أدنى مراعاة لحالتها الصحية، حتى إنني رأيت على ذراعها، بعد أن أطلقها من قبضته، أربع علامات زرقاء قد ارتسمت واضحة على جلدها الذي اختفى منه لونه.

ومضى هيثكليف يقول بوحشية: «هل أصابك مس من الشيطان فتخاطبيني بهذه اللهجة، وأنتِ تحتضرين؟ ألا تقدرين أن هذه الكلمات ستبقى مطبوعة في ذاكرتي تنهش فيها أبد الدهر بعد أن تفارقيني؟ وأنتِ تعلمين أنك كاذبة حين تتهمينني بقتلك وتعلمين يا كاثرين أنني لا أنساكِ أو أنسى وجودي! ألا يكفيك في أنانيتك الجهنمية أنني سأصلى عذاب الجحيم هنا حين تشملك أنتِ الراحة الأبدية!».

فتأوهت كاثرين وقد نبهها إلى ضعفها البدني خفقات قلبها العنيفة المضطربة التي أخذت تتلاحق ضربات واضحة مسموعة، تحت وطأة ما بها من اهتياج، ولم تنبس كاثرين

ببنت شفة حتى مضت النوبة، فمضت تقول بلهجة أكثر رقة: «إني لا أرجو لك من العذاب يا هيثكليف أكثر مما أعاني منه الآن، وكل ما أرجوه ألا نفترق أبدًا، وكلما عذبتك كلمة من كلامي بعد وفاتي، تذكر دائمًا أنني أشعر بذلك العذاب نفسه وأنا تحت الثرى، فاغفر لي وتعال اركع هنا، فإنك لم تؤذني في حياتك مرة، فإذا غذيت الضغينة وأنميتها في نفسك فسيكون هذا أسوأ وقعًا من تذكر كلماتي القاسية! فهلا أتيت عندي هنا مرة أخرى؟ تقدم!».

فتقدم هيثكليف إلى مقعدها من الخلف ومال عليها، ولكنه لم يمل بالقدر الذي يتيح لها أن ترى وجهه الذي ذهب الانفعال بلونه، فاستدارت كي تنظر إليه،ولكنه لم يتح لها هذه الفرصة، ودار حول نفسه بسرعة وتقدم إلى المدفأة حيث وقف صامتًا موليًا ظهره نحونا، فتابعته مسز لنتن بنظراتها وقد انتابتها الريبة فيما يفعل، وكانت كل حركة يأتيها تثير في نفسها عاطفة جديدة، وبعد برهة صمت ونظرة طويلة مضت تقول موجهة حديثها لي في لهجة نمت عن غضبها وخيبة أملها:

«ها أنت ذي ترين يا نلي أنه لا يريد أن يلين لي لحظة كي يحول بيني وبين القبر! وبهذه الطريقة يحبني! ولكن لا بأس! إنه ليس بهثكليف الذي أحب، فهيثكليف الذي أعرف سيظل موضع حبي وإعزازي وسأصحبه معي لأنه يسكن روحي»، ثم مضت تقول وقد راحت في تفكير عميق: «وأشد ما يضايقني هو هذا السجن المهدم المتداعي الذي يضمني، فقد ضقت به ذرعًا ويضنيني الشوق إلى الهرب منه إلى العالم العظيم حيث أريد أن أبقى أبد الدهر، فلا يكفيني أن أراه حائلًا خلال دموعي، ويبرح بي الشوق إليه خلال جدران قلبي المكلوم، فإن الرغبة تستبد بي أن أعيش فيه وأختلط به، إنك تظنين يا نلي أنك خير مني وأوفر حظًّا لأنك تنعمين بكامل صحتك وعافيتك، وأراك آسفة على ما أصابني، ولكن اطمئني فعما قليل ستتبدل هذه الحال وسأرثي أنا لحالك، وسيكون مقامي أعلى وأرفع من مقامكم جميعًا بما لا يترك مجالًا للموازنة بينهما، ولكن لعمري هل سيكون بجانبي؟»، ثم مضت كاثرين تحدث نفسها قائلة: «لقد ظننت أنه يريد أن نلتقي في العالم الآخر، يا عزيزي هيثكليف! لا تكتئب ولا تحزن، تعال إليَّ يا هيثكليف».

ثم نهضت كاثرين مدفوعة بلهفتها وشوقها معتمدة على مسند مقعدها، فلم يطق هيثكليف صبرًا على هذا النداء الصادق والتفت إليها وقد ارتسمت أمارات اليأس الشديد على وجهه، فقد كانت عيناه جاحظتين مخضلتين بالدمع، استقرت نظرتهما الوحشية عليها آخر الأمر، وأخذ صدره يعلو ويهبط في انفعال عنيف.

ووقف الاثنان لحظة وهما منفصلان، ولا أكاد أذكر بعد ذلك كيف التقيا، ولكني شاهدت كاثرين تقفز فيتلقفها هيثكليف، والتحم الاثنان في عناق خلت أن سيدتي لن تنجو منه حية، والحق أنها بدت لعيني وكأنها غابت عن رشدها، ورأيته يرتمي على أقرب مقعد، فلما أسرعت إليها لأرى هل أغمي عليها، زمجر وأزبد كأنه كلب مسعور وضمها إليه في غيرة شرهة، ولم أك أشعر في حضرته أنه بشر مثلي وبدا لي أنه لن يفهم ما أقول وإن توجهت إليه بالحديث، فوقفت بعيدًا وأطبقت فمي وأنا في حيرة شديدة.

وبدرت من كاثرين حركة سرت عني من فوري بعض قلقي، فقد رفعت يدها لتجذب إليها عنقه، ولتضغط بخدها على خده وهو ممسك بها، أما هو فأمطرها وابلًا من القبلات المحمومة وراح يناجيها كمن فقد صوابه:

«لقد علمتني الآن إلى أي حد بلغت قسوتك وغدرك! لماذا احتقرتني؟ لماذا كشفت عن قلبك يا كاثي! لن أسري عنك بكلمة واحدة، وأنت أهل لهذا لأنك قتلت نفسك! أجل!

لكِ أن تقبليني وأن تبكي ما شاء لك البكاء، وأن تنتزعي مني القبلات وتفجري الدموع، فقبلاتي ودموعي ستكون مصدر عذابك الأبدي، لقد أحببتني فبأي حق تخليت عني؟ بأي حق؟ أجيبي، أفي سبيل نزوة طائشة شعرت بها نحو إدجر لنتن؟ لم تكن ألوان الشقاء أو الفقر أو الهوان أو الموت أو أي شيء مما يمكن أن يصبه الله أو الشيطان بمستطيعة أن تفرق بيننا، لكنك أنت فرقت بيننا بمحض إرادتك، كلا! لم أحطم قلبك، بل أنت التي حطمته وبتحطيمه حطمت قلبي أيضًا! إنه لمن سوء طالعي أنني قوي البنية، فهل تحسبينني أريد أن أعمر في هذه الدنيا؟ أي حياة ستكون حياتي إذا ما... رباه! أتريدين أن تقيمي في القبر برفقة روحك؟».

فقالت كاثرين وهي تنتحب: «دعني وشأني، دعني وشأني، إن كنت قد أذنبت فها أنذا أموت تكفيرًا عن ذنبي، حسبي هذا! ولكنك أنت أيضًا تركتني، ولكني لا ألومك على تركي! لقد صفحت عنك فاصفح عني!».

أجابها قائلًا: «ما أصعب الصفح وأنا أنظر إلى هاتين العينين وألمس هاتين اليدين الذابلتين، قبليني ثانية ولا تدعيني أنظر إلى عينيك، إني أغفر لك ما فعلته بي، إني أحب قاتلي ولكن قاتلك أنت كيف أحبه؟».

وتلت ذلك فترة من الصمت وقد أخفى كل منهما وجهه بوجه الثاني، وتخضل كل وجه بدمع صاحبه، واعتقادي أنهما على الأقل اشتركا في البكاء، فقد بدا واضحًا أن مناسبة خطيرة كتلك المناسبة كفيلة بأن تستدر الدمع من عيني هيثكليف.

وما لبث القلق أن سرى إلى نفسي بعد أن مضى عجز النهار مسرعًا، وعاد الخادم الذي أرسلته في مهمة خارج الدار، وكان في وسعي أن ألاحظ في ضوء الشمس الآفلة وراء الوادي أن جمعًا من الناس بدأ يحتشد خارج مدخل كنيسة جمرتن.

وقلت: «لقد انتهت الصلاة في الكنيسة، وسيكون سيدي هنا بعد نصف ساعة».

فزمجر هيثكليف ولعنني واشتد ضمه لكاثرين ولم تبد هي حراكًا.

وما لبثت أن رأيت جماعة من الخدم قادمين من الطريق في اتجاه المطبخ ومن ورائهم مستر لنتن نفسه غير بعيد عنهم كثيرًا، وفتح مستر لنتن الباب بنفسه، وأقبل نحو البيت متباطئًا متثاقلًا، وأكبر الظن أنه أراد أن ينعم بجو الأمسية الدفيء دفء ليالي الصيف.

وصحت قائلة: «لقد بلغ سيدي الدار، فأسرع بربك وانزل! ولن تصادف أحدًا على الدرج الأمامية، هيا! عجل واختبئ بين الأشجار حتى يدلف إلى الدار».

فقال هيثكليف وهو يحاول أن يخلص نفسه من بين ذراعيها: «ينبغي أن أذهب الآن يا كاتي، ولكني إن عشت فسأراكِ قبل أن تأوي إلى فراشك، فلن أبعد عن نافذتك خمس خطوات!».

فتعلقت به وشدت قبضتها حوله بأقصى ما يطيقه جهدها الواهن وهي تقول: «لا تنصرف عني. إنك لن تخرج.. لن تذهب».

فرجاها أن تتركه ينصرف قائلًا في ضراعة: «لن أغيب أكثر من ساعة».

فأجابته: «ولا دقيقة واحدة».

فأصر العاشق الدخيل على رجائه، وقد استبد به الفزع قائلًا: «لا بد لي أن أنصرف؛ فسيصعد لنتن على الفور».

وكان في وسع هيثكليف أن يقوم على قدميه ويخلص بذلك نفسه من قبضة يدها، لولا أنها تشبثت به وهي تلهث، وقد بدا العزم الجنوني على وجهها واضحًا جليًّا، وجعلت تصرخ قائلة: «كلا، لا تذهب، إنه اللقاء الأخير! إن إدجر لن يؤذينا، سأموت يا هيثكليف! سأموت!».

فاستسلم هيثكليف وألقى بنفسه على كرسيه وهو يصيح بها قائلًا: «لعنة الله على هذا الأبله! ها هو ذا قادم نحونا، صه يا حبيبتي! اسكتي يا كاثرين، سأبقى ولئن أطلق عليَّ الرصاص وأنا في موضعي هذا لأموتن وأنا أباركه».

ثم عادا إلى العناق مرة أخرى، وسمعت سيدي يصعد السلم فأخذ العرق البارد يتصبب من جبيني، واستبد بي الفزع، فصحت بهيثكليف بانفعال شديد: «أتستسلم لهذيانها؟ إنها لا تعي ما تقول، فهل تريد أن تقضي عليها لأنها لا تملك من الفطنة ما تسوس بها نفسها؟ انهض! ففي مقدورك الخروج من هذا المأزق على الفور، إن فعلتك هذه لأبشع فعلة أقدمت عليها في حياتك، وإن فيها لقضاء علينا جميعًا سيدًا، وسيدة، وخدمًا».

وعصرت يدي من فرط الاضطراب وصحت به مرة ثانية، وتعجل مستر لنتن في سيره متجهًا نحو غرفتنا، وقد طرقت سمعه ضوضاؤنا، وفي غمرة انزعاجي واضطرابي سرني غاية السرور أن أرى ذراعيها تتهاويان عن عنقه ورأسها يميل إلى الخلف.

قلت في نفسي: إما أن تكون قد غشي عليها أو ماتت، وموتها خير، إنه أحسن كثيرًا من بقائها مصدرًا للمتاعب والكوارث لكل من حولها.

وما لبث أن ظهر إدجر في الغرفة، وما إن رأى زائره المتطفل حتى وثب عليه وقد شحب وجهه من فرط الدهشة والغضب، ولست أدري ماذا كان يريد أن يفعل به لولا أن غريمه شل حركته على الفور بأن ألقى بين ذراعيه بزوجته الفاقدة الوعي، وابتدره قائلًا: «انظر! اسعفها أولًا، ما لم تكن شيطانًا فاقد الشعور، ثم خاطبني بعد ذلك!».

ثم غادر هيثكليف الحجرة وانتظر في غرفة الجلوس، واستدعاني مستر لنتن لمعاونته فتمكنًّا بعد مشقة، وبعد أن توسلنا بوسائل عديدة، أن نعيد إلى كاثرين وعيها، وإن لم نرد إليها رشدها، فقد ظلت مشدوهة شاردة تئن وتتوجع ولا تعرف أحدًا ممن حولها، ونسي إدجر أمر صديقها البغيض في غمرة قلقه على زوجته، أما أنا فلم أنسه، فقد اغتنمت أول فرصة أتيحت لي فخرجت إليه أناشده أن ينصرف مؤكدة له أن حالتها قد تحسنت، وأنني سآتيه بأخبارها في الصباح.

فأجابني قائلًا: «سوف لا أرفض الخروج من الدار ولكني سألزم الحديقة، وأوصيك يا نلي أن تبري بوعدك فتأتيني بأنبائها صباح الغد، وستجدينني تحت أشجار اللاريش القائمة هناك، احرصي على هذا فإن لم تحضري أتيت لزيارتها مرة أخرى سواء أكان إدجر بالدار أم خارجها!».

وما إن انتهى هيثكليف من حديثه حتى ألقى بنظرة سريعة خلال باب الغرفة

المفتوح نصف فتحة، وبعد أن اطمأن إلى صحة ما أخبرته به، دلف خارجًا فتخلصت الدار من وجوده المشؤوم.

* * *

الفصل السادس عشر

ولدت كاثرين الصغيرة التي شاهدتها في وذرنج هيتس حوالي منتصف تلك الليلة.. ولدت صغيرة الجسم في الشهر السابع من الحمل، وما لبثت أن ماتت الأم بعد ساعتين من ولادتها قبل أن تسترد من الوعي ما يمكنها من افتقاد هيثكليف أو التعرف على إدجر! وكان مصاب إدجر لفقدها فادحًا يجل عن كل وصف، وقد نمت عنه تلك الآثار العميقة التي تركها في نفسه، ومما زاد في فدح المصاب في اعتقادي أن إدجر كان بغير وريث ذكر، ولقد ذابت نفسي أسى لهذا الخاطر وأنا أنظر إلى تلك الطفلة اليتيمة الضعيفة، وذممت لنتن الكبير بيني وبين نفسي (لتحيزه الذي لا غرابة فيه) بأن خص بميراثه ابنته بدلًا من ابنة ابنه.

مسكينة حقًّا هذه الفتاة التي لم يرحب بمقدمها إنسان! ولو أنها ظلت تبكي حتى ماتت بعد ولادتها بسويعات لما وجدت من يحزن عليها أو يقيم لمصيرها وزنًا! ولقد عوضنا الصغيرة فيما بعد خيرًا عن إهمالنا شأنها وقتئذ، بيد أن استقبالنا مولدها كان متسمًا بعدم العناية الذي ينتظر أن تتسم به نهاية حياتها.

وأشرق الصباح التالي بديعًا خارج الدار، وما لبث أن تسلل الضوء خلال ستائر الغرفة الساكنة الهاجعة، فغمر الفراش ومن رقدت عليه بنوره اللطيف الرقيق، وكان لنتن قد وضع رأسه على الوسادة بجانب زوجته المتوفاة، وأغمض عينيه، وكانت ملامحه الجميلة الغضة شاحبة كملامح الموتى لا تكاد تفترق عن ملامح زوجته الراقدة إلى جانبه، وإن كان الشحوب الذي ساد تقاطيع وجهه شحوب من أنهك الألم قواه واعتصر قلبه فاستسلم، أما شحوبها فشحوب السكينة الأبدية، وكان جبينها منبسطًا ناعمًا، وأجفانها مغمضة وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامة، ولعمري أنه ما من ملك في السماء كان يفوقها جمالًا وبهاء وهي راقدة رقدتها الأخيرة، ووقفت برهة أشاطر الفقيدة تلك السكينة اللا نهائية التي كانت تنعم بها، ولم يسبق أن امتلأت نفسي بذلك الشعور من القداسة الذي احتواها وأنا أجيل النظر في تلك الصورة الوادعة الساكنة من صور الراحة القدسية، وألفيتني أردد دون وعي تلك الكلمات التي ظلت ترددها قبل موتها بساعات قليلة: «إنها فوقنا جميعًا وبعيدة عن متناولنا! وسواء أكانت روحها لما تزل على الأرض أم صعدت الآن إلى السماء، فهي في سلام ووئام مع خالقها!».

ولست أدري هل شعوري بالسعادة وأنا أتأمل وجه الميت في غرفته دون أن يشاركني في هذا التأمل نادب أو نائح استبد به الحزن والأسى، لست أدري هل هذا الشعور شعور خاص بي أو هو شعور عام، إنني أرى في وجه الميت راحة أبدية لا تقدر الدنيا أو الجحيم أن تقطعه عليه، ويملؤني الإيمان بذلك العالم اللا نهائي الخالي من الظلال -تلك الأبدية التي ضمت الميت في رحابها- حيث الحياة الخالدة والعطف الخالص والبهجة الكاملة المطلقة، ولاحظت في هذه المناسبة كم ينطوي الحب على الأنانية حتى إن كان حبًّا كحب مستر لنتن حين أسف هذا الأسف على انطلاق كاثرين وتحررها السعيد! ولعلي لا أكون مغالية إذا قلت إنه قد يراود الإنسان الشك في مدى استحقاق كاثرين لملاذ آمن هادئ في الآخرة بعد كل ما قدمت يداها أثناء حياتها من ضروب العناد وإشاعة القلق وإثارة الاضطراب. هذا التفكير قد يراود الإنسان في حالات هدوئه واستقراره الذهني والنفسي، ولكن ما أبعده عن الخاطر إذا ما ألفى الإنسان نفسه أمام جثتها! فقد أكدت ما

تنعم به صاحبتها من هدوء النفس وبدا هذا التأكيد وكأنه وعد قطع بأن تنعم بالسكينة والسلام في حياتها الأبدية.

هل تعتقد يا سيدي أن أولئك الناس سوف يسعدون في العالم الآخر؟ وددت من صميم قلبي لو عرفت جواب هذا السؤال.

ورفضت أن أجيب عن سؤالها، فقد بدا لي مخالفًا للعقائد الدينية، فمضت في حديثها:

على أننا إذا ما استعرضنا حياة كاثرين لنتن، فقد لا نجد فيها للأسف ما يبرر الاعتقاد بأنها سعيدة في آخرتها، وعلى كل يجدر بنا أن نتركها لخالقها.

لما خيل إليّ أن سيدي قد استغرق في النوم، جرؤت بعد شروق الشمس بقليل على التسلل من الدار إلى حيث الهواء المنعش في الخارج، وقد اعتقد الخدم أنني خرجت كي أفيق من أثر النعاس الذي انتابني نتيجة سهري الطويل، والواقع أنني كنت أسعى لرؤية مستر هيثكليف، فلو أنه بقي رابضًا عند أشجار اللاريش طيلة الليل لما علم بالضجة التي أحدثتها وفاة كاثرين في الضيعة، إلا إذا كان قد رأى الرسول يركض بجواده في طريقه إلى جمرتن، أما إن كان قد اقترب من الدار، فأكبر الظن أن يكون قد حزر من الأضواء التي أخذت تنتقل فيها من مكان لآخر، ومن فتح الأبواب الخارجية وإغلاقها، إن أمرًا ذا بال قد حدث في الداخل. ولقد كانت تراودني الرغبة في أن أراه ويداخلني الخوف من لقائه، فقد كنت أشعر بضرورة إبلاغه النبأ المخيف وتستبد بي الرغبة في أن أنتهي من هذه المهمة الثقيلة وإن حرت في كيفية نقل الخبر إليه، وأخيرًا وجدته على بعد بضع خطوات مني في البستان متكئًا على شجرة عتيقة من شجر الدردار وقد خلع قبعته وتلبد شعره بقطرات الندى التي تجمعت على الأغصان المزهرة وبدأت تتساقط على الأرض من حوله، وما من شك في أنه سلخ في وقفته هذه زمنًا طويلًا؛ فقد رأيت شحرورين يمران على بعد لا يكاد يزيد على ثلاثة أقدام منه، ثم يقفلان عائدين بجانبه لبناء عشهما، ولا يأبهان لقربه منهما أكثر مما يأبهان لقطعة من الخشب، فلما شعر الطائران باقترابي منهما فرا على الفور، ورفع هيثكليف عينيه ووجه إليّ حديثه قائلًا: «لقد ماتت، أعلم هذا ولم أكن في حاجة إليكِ لتبلغيه إليّ. أبعدي منديلك هذا ولا تبكي أمامي، لعنة الله عليكم أجمعين! فليست بها حاجة إلى دموعكم!».

وكنت أبكي أسفًا عليه بقدر أسفي عليها، فكثيرًا ما نرثي لحال من لا يشعرون بالأسى لأنفسهم أو لغيرهم، لقد أدركت حالما نظرت إلى وجهه، أنه قد علم قبل مجيئي بوقوع الكارثة، ومرت بخاطري فكرة حمقاء، فقد ظننت أن ثورة قلبه قد خمدت، وأنه كان يصلي في سكون، لأني رأيت شفتيه تتحركان، ونظراته متجهة إلى الأرض.

أجبته وأنا أكبح نحيبي وأجفف خدي: «أجل ماتت، وانتقلت إلى ملكوت الله كما آمل، وسوف نلتقي بها جميعًا إذا ما استخلصنا العبرة مما حل بها ونبذنا شرورنا واتبعنا طريق الخير!».

وتساءل هيثكليف وهو يحاول السخرية من حديثي، فقال: «وهل اتعظت هي مما فعل غيرها؟ وهل ماتت ميتة القديسات؟ دعي هذا الحديث وخبريني كيف وافاها الأجل المحتوم؟ كيف ماتت...؟».

وحاول هيثكليف أن ينطق باسمها ولكنه لم يقدر على ذلك، فضم شفتيه وظل

صامتًا يكبح ما يصطرع في جوفه من ألم، متحديًا في ذات الوقت عطفي عليه وإشفاقي على مصيره، بنظرة وحشية ثاقبة لم تهن ولم تضعف، وما لبث أن واصل حديثه قائلًا: «حدثيني كيف ماتت؟»، وكان على الرغم من شدته وقسوته توَّاقًا إلى من يشد أزره ويسانده في محنته؛ فقد لاحظت بعد أن انتهى من صراعه النفسي العنيف أنه يرتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدمه بالرغم منه.

وحدثت نفسي قائلة: «يا لك من تعس شقي، فإن قلبك وأعصابك لا تختلف عما لغيرك من الرجال! فلعمري لِمَ تحرص على أن تخفي شعورك وإحساسك عن الناس؟ إنك لا تستطيع أن تخدع ربك بكبريائك! كأني بك تدعوه إلى أن ينتزع منك هذا الشعور ويضطرك في النهاية إلى البكاء والنحيب مذلة وهوانًا».

وأجبته بصوت مرتفع قائلة: «لقد ماتت في هدوء كأنها حمل رقيق! تنهدت ثم استرخت كما يفعل الطفل إذ ينتبه من نعاسه لحظة ثم يغط في النوم! ولم تمض خمس دقائق على ذلك حتى شعرت بقلبها ينبض نبضة واحدة خفيفة ثم يسكن إلى الأبد!».

قال: «ولكن ألم تذكرني أبدًا؟»، وقد ألقى بسؤاله هذا مترددًا كأنما خشي أن يتضمن ردي عليه من التفاصيل ما لا يطيق سماعه.

قلت: «إنها لم تنتبه من إغمائها ولم تتعرف على أحد منذ فارقتها، إنها ترقد الآن وعلى ثغرها ابتسامة حلوة، وكانت ذكرى أيامها السعيدة الأولى آخر ما جال بخاطرها من أفكار، لقد اختتمت حياتها بحلم رقيق، وإني لأسأل الله أن تنعم بمثل هذه الدعة والسلام حينما تبعث إلى الحياة في الآخرة!».

فصاح بي بشدة مروعة وهو يئن ويضرب الأرض بقدمه، وقد انتابته نوبة مفاجئة من الانفعال الشديد الذي لا ضابط له: «بل لتبعث إلى الحياة لتصلى عذابًا مقيمًا! لقد ظلت كاذبة حتى النهاية، أين هي الآن؟ إنها ليست هناك في السماء، ولم يطوها العدم، فأين هي؟ لقد قلت إنه لا يعنيك ما أعاني من عذاب؟ وإني الآن أدعو الله وأكرر هذا الدعاء حتى يجمد لساني، وهو ألا يمن عليك يا كاثرين إيرنشو بالراحة ما بقيت أنا حيًّا! لقد زعمت أنني قتلتك، إذن فلتقض روحك مضجعي ولتطف بي كما تطوف روح القتيل بقاتله فيما أظن! فإني أعلم أن الأشباح تحوم في الأرض، كوني معي دائمًا في أي صورة تشائين، ولتدفعي بي إلى الجنون! ولكن لا تتركيني في هذه الهاوية حيث أسعى إليكِ فلا أجدكِ! يا إلهي! إن ما يستبد بي من حزن لا يمكن أن يوصف! إنني لا أستطيع أن أعيش دون حياتي! لا أستطيع أن أحيا بغير روحي!».

وأخذ هيثكليف ينطح جذع الشجرة الضخم برأسه، ثم رفع رأسه وزأر، لم يكن يصرخ كصراخ الآدميين، بل يزأر كما يزأر الوحش بطعنة الصياد بالمدي والحراب حتى يموت، ولقد شهدت بضع بقع من الدم على لحاء الشجرة، كما كانت يده وجبهته ملطختين بالدماء، فلعله قد فعل أثناء الليل ما فعله أمامي، ولم يثر عمله هذا في شعورًا بالرحمة والإشفاق، بل شعور الخوف والفزع، ولكني على الرغم من ذلك لم أشعر بالرغبة في تركه على هذه الحال، إلا أنه لم يكد يسترد وعيه بالقدر الذي يمكنه من أن يراني أرقبه حتى زأر يأمرني بالانصراف، فأطعته وانصرفت وأنا مؤمنة بأن التسرية عنه أو تهدئته شيء ليس في طاقتي مهما أوتيت من حذق.

وحدد لتشييع جنازة مسز لنتن يوم الجمعة التالي لوفاتها، وقد بقي تابوتها حتى ذلك الحين بغير غطاء في غرفة الجلوس الكبرى، وقد نثرت عليه الزهور والأعشاب

العطرية، وكان لنتن يمضي ليله ونهاره إلى جانبها، وكأنه حارس لا يغفل ولا ينام، وأذيع الآن سرًّا لم يطلع عليه في حينه سواي، هو أن هيثكليف كان يمضي لياليه -لياليه على الأقل- خارج الدار لا ينعم بنوم أو براحة، ولم يكن ثمة اتصال بيني وبينه وإن كنت أحس بأنه ينتوي دخول الدار إذا ما أمكنه ذلك، وحدث يوم الثلاثاء بعد أن خيم الظلام بقليل أن اضطر سيدي إلى الاعتكاف وقد نال منه التعب والإرهاق، فقصدت إلى إحدى النوافذ ففتحتها على مصراعيها مدفوعة إلى ذلك بالرغبة في تلبية رجاء هيثكليف وإلحاحه عليَّ أن أتيح له الفرصة كي يلقي نظرة وداع أخيرة على وجه معبودته الشاحب، ولم يفت هيثكليف أن يغتنم هذه الفرصة في حرص وسرعة، وكان حذرًا فلم يأت بحركة أو يحدث صوتًا ينم عن وجوده، والحق أنه ما كان في مقدوري أنا نفسي أن أتبين حضوره لولا ما لاحظته من تغير وضع الغلالة التي تغطي وجه الفقيدة، ولولا أنني لمحت على أرض غرفتها خصلة من الشعر الأصفر قد ربطت بخيط فضي، تحققت من فحصي لها، أنها قد أخذت من ضفيرة كانت معلقة حول عنق كاثرين، وكان هيثكليف قد فتح الحلية التي ضمت هذه الخصلة وأفرغ محتوياتها واستبدل بها خصلة من شعره الأسود، فعقدت الخصلتين وأودعتهما الحلية.

وقد دعي مستر إيرنشو بطبيعة الحال إلى حضور جنازة أخته، غير أنه لم يحضر ولم يعتذر، وبذلك لم يمشِ في جنازة كاثرين سوى زوجها ومستأجري الأرض والخدم، أما إيزابيلا فلم تُدْعَ.

وقد أدهش الفلاحين ألا تدفن كاثرين في الكنيسة تحت النصب الذي يحمل اسم أسرة لنتن، ولا في مقابر أسرتها هي خارج الكنيسة، بل حفر قبرها على سفح التل في ركن من أركان المقبرة، كان حائطه من الانخفاض بحيث اعتلته الأزهار والنباتات البرية التي تسلقت فوقه من المناقع، وكاد يغطيه لبدها، ويرقد زوجها الآن إلى جوارها، ويعلو قبر كل منهما شاهد صغير، وعند أقدامهما وُضع حجر أشهب بسيط يدل على القبرين.

الفصل السابع عشر

كان يوم الجمعة الذي وصفت آخر يوم صحو طالعنا قبل شهر من الجو الرديء، ففي المساء تبدل الطقس، وتغيرت الريح من جنوبية إلى شمالية شرقية جالبة معها المطر أولًا، ثم الجليد والثلوج، وفي الغداة لم يكن في وسع المرء أن يتصور أن هذا الجو جاء في ذيل ثلاثة أسابيع من الصيف، فقد طمرت ثلوج الشتاء الورود والأزهار، وكفت القنابر عن شدوها، وذبلت أوراق الشجر الغضة واسودت، وما كان أشد برد ذلك الغد ووحشته واكتئابه! ولزم سيدي حجرته، ولزمت أنا القاعة المقفرة وأحلتها إلى حجرة للأطفال، وهكذا جلست وهذه الطفلة الباكية على ركبتي أهدهدها وأنا أرقب كسف الثلج المنهمرة تتراكم خارج النافذة التي لا تغطيها سجف، وإذا الباب يُفتح وشخص يدخل مبهور الأنفاس ضاحكًا! وظللت دقيقة أشعر فيها بالغضب أكثر من الدهشة، وقد حسبت الشخص خادمة فصحت بها: «كفي عن هذا الضحك! كيف تجرؤين على إبداء وقاحتك هذه هنا؟ وماذا يقول مستر لنتن إذا سمعك؟».

وأجاب صوت نسائي: «عفوًا! ولكنني أعلم أن إدجر في فراشه، ولا أستطيع أن أمسك عن الضحك».

قالت هذا، ثم أقبلت نحو المدفأة وهي تلهث وتمسك جنبها بيدها.

ومضت تقول بعد برهة: «لقد عدوت الطريق كله من وذرنج هيتس إلى هنا! وذلك باستثناء أجزائه التي طرت فيها طيرانًا، ولم أستطع أن أحصي عدد السقطات التي سقطت، أواه، إن كل عضو فيَّ يصدع! لا تنزعجي! سأفسر لكِ تصرفي هذا حالما أستطيع، وعليكِ فقط أن تتكرمي بالخروج وطلب عربة تحملني إلى جمرتن، وأن تخبري إحدى الخادمات أن تجلب لي بعض ثيابي من الصوان».

وكانت الدخيلة هي مسز هيثكليف، ولا شك أن الحال السيئة التي بدت عليها لم تكن مما يعين على الضحك، فقد كان شعرها مرسلًا على كتفيها يقطر ثلجًا وماء، وكانت ترتدي ثوب الفتيات الذي ألفت من قبل أن ترتديه، والذي كان يناسب سنها أكثر مما يناسب مركزها، وكان ثوبًا قصيرًا بكمين قصيرين، و لم تكن ترتدي لفاعة على رأسها ولا على عنقها، وكان ثوبها من حرير خفيف التصق بجسمها لابتلاله بالماء، ولم يكن يقي قدميها سوى خفين رقيقين، يضاف إلى هذا كله جرح عميق تحت أذنها لم يمنعه من شدة النزف سوى البرد، ووجه مبيض كله خدوش وكدمات، وجسد لا يكاد يقوى على التماسك من شدة الإعياء، وهكذا ترى أن روعي الأول لم يهدأ كثيرًا حين أتيح لي أن أتأملها.

قلت لها: «سيدتي العزيزة، لن أحرك ساكنًا ولن أسمع منك كلمة قبل أن تخلعي عنك كل ثيابك وتستبدلي بها ثيابًا جافة، ولن تذهبي إلى جمرتن هذه الليلة بلا ريب، فلا داعي إذن لطلب عربة».

قالت: «سأذهب بلا ريب، ماشية أو راكبة، ولكنني لا أمانع في ارتداء ثياب ملائمة، آه، انظري كيف يقطر الجرح دمًا على عنقي الآن! إن دفء النار يلهبه».

وأصرت على أن أنفذ تعليماتها قبل أن تأذن لي بلمسها، ولم ترض بأن أضمد لها

جرحها وأعينها على تبديل ثيابها إلا بعد أن أمرت سائق العربة بالاستعداد للرحلة وأمرت خادمة بحزم بعض ما يلزمها من ثيابها.

وقالت بعد أن أنجزت عملي هذا وجلست هي على مقعد مريح إلى جوار المدفأة وأمامها قدح من الشاي: «والآن يا آلن اجلسي أمامي ونحي طفلة كاثرين المسكينة بعيدًا فأنا لا أحب أن أراها! وحذار أن تظني أنني لا أحب كاثرين كثيرًا لما رأيته من سلوكي الأخرق حين دخلت، فلقد بكيتها أيضًا بكاء مرًّا -أجل، أكثر مما يجدر بإنسان آخر أن يبكيها، فلقد افترقنا على خصام كما تذكرين، ولن أغتفر لنفسي هذا الذنب، ولكنني رغم هذا كله لم أكن لأعطف عليه -ذلك الوحش الضاري! أعطني محراك النار! هذا آخر ما أحمل من بضاعته! ثم استلت الخاتم الذهبي من خنصرها وألقت به على الأرض ومضت تقول وهي تدقه بالمحراك في غل صبياني: «سأحطمه تحطيمًا! ثم أحرقه بالنار!»، وتناولت الخاتم بعد ما حاق به وطرحته في الجمر وقالت: «إلى النار!

سيشتري غيره إذا استردني ثانية، إن في وسعه أن يأتي ليطلبني نكاية بإدجر، ولست أجرؤ على هذا الكلام مخافة أن تتسلط الفكرة على رأسه الشرير! ثم إن إدجر لم يكن مترفقًا بي، أليس كذلك؟ ولست أرضى بأن آتي إليه طالبة معونته، ولا بأن أزج به في مزيد من المشاكل بسببي، لقد أكرهتني الضرورة على الالتجاء إلى هذا البيت، ولو أنني -حتى لو لم أعلم بأنه في حجرته وبأنني لن ألقاه- كنت سأقف بالمطبخ وأغسل وجهي وأستدفئ وأطلب إليكِ أن تجلبي لي حاجياتي ثم أنطلق ثانية إلى أي مكان بعيد عن متناول زوجي اللعين- هذا الشيطان الرجيم! آه، لشد ما أثرت غضبه المجنون! آه لو كان قد ألقى القبض عليَّ! من المؤسف أن إيرنشو لا يضارعه قوة وبأسًا، وإلا لما انطلقت من الدار إلا بعد أن أشهد مصرعه على يد هندلي إذا استطاع!».

فقاطعتها قائلة: «حسن، لا تتكلمي بهذه العجلة يا سيدتي! وإلا زحزحت المنديل الذي ربطته حول وجهك وجعلت الجرح ينزف من جديد. اشربي شايك والتقطي أنفاسك وكفي عن الضحك، فالضحك للأسف لا محل له تحت سقف هذا البيت وفي حالتك هذه!».

قالت: «هذا حق لا مراء فيه، أتسمعين هذه الطفلة! إنها لا تكف عن العويل - أرسلي بها بعيدًا عن مسمعي ساعة، فإني لن أزيد!».

وقرعت الجرس وعهدت بالطفلة إلى إحدى الخادمات، ثم سألتها ما الذي حملها على الهروب من وذرنج هيتس في هذه الحالة السيئة، وإلى أين تنوي الذهاب ما دامت تأبى المكث معنا.

فأجابت: «كان يجب عليَّ أن أمكث، وكانت هذه رغبتي، لكي أشرح صدر إدجر وأعنى بالطفلة من جهة، ولأن ثرشكرس بيتي الذي يليق بي العيش فيه، ولكنني أؤكد لكِ أنه لن يرضى بهذا! فهل تظنينه يطيق أن يراني أحيا حياة رغيدة بهجة؟ ويطيق أن يتصور أننا نحيا في هدوء دون أن يصمم على تكدير هذا الصفو؟ إنني الآن راضية لاطمئناني إلى أنه يمقتني مقتًا يجعله يضيق بي أشد الضيق إذا كنت على مسمع منه أو مشهد. وإنني لألحظ عضلات وجهه حين أدخل عليه تتقلص تقلصًا غير إرادي فيبدو عليها الكره واضحًا، من جهة لعلمه بما عندي من مبررات وجيهة لكرهه، وفي جهة أخرى لكرهه المتأصل فيه من قديم، وهو كره قوي يطمئنني إلى أنه لن يطاردني أينما ذهبت في أنحاء إنجلترا إذا نجحت في الهروب من وجهه، وعلى ذلك يجب عليَّ أن أكون بمنأى عنه، لقد أفقت من رغبتي الأولى في أن أقتل بيده، ولست أستطيع أن أتصور في وضوح أن من الجائز أن أكون مبقية على محبته، إذا... لا، لا! إنه لو كان حتى متيمًا بحبي لكشفت

طبيعته الشريرة عن وجودها بطريقة ما، ولقد كان لكاثرين ذوق شديد الالتواء لأنها أعزته هذا الإعزاز رغم ما تعلمه من حقيقة طبعه، يا للوحش! ليته يمحق من الوجود ويمحى من ذاكرتي محوًا!».

قلت: «صه، صه! إنه بشر، فكوني أكرم نفسًا، فإن من الناس من هم شر منه!».

أجابت: «إنه ليس بشرًا، وليس له حق في كرمي وصفحي، لقد أعطيته قلبي، فأخذه وعركه عركًا مميتًا ثم قذف به إليَّ ثانية، إن الناس يحسون بقلوبهم يا آلن، وما دام قد حطمني فليس في طاقتي أن أعطف عليه، ولن أرضى بالعطف عليه ولو ناح وأنَّ إلى آخر يوم من حياته، وبكى بدل الدمع دمًا على كاثرين! كلا، لن أرضى بهذا!»، وهنا بدأت دموع إيزابيلا تنهمر، ولكنها نفضتها لتوها عن أهدابها ثم واصلت حديثها تقول: «تسألينني ما الذي دفعني إلى الهرب في النهاية؟ لقد أكرهت على محاولة الهرب لأنني أفلحت في إثارة سخطه إثارة تزيد على خبثه ولؤمه، فإن اقتلاع الأعصاب بكماشة محماة بالنار يتطلب من الهدوء أكثر مما يتطلبه دق الرأس، لقد أثرته إثارة أنسته حرصه الجهنمي الذي كان يفخر به، فانساق إلى العنف القاتل، ولقد لذ لي أن أستطيع إرهاقه على هذه الصورة، وأيقظ شعور اللذة غريزة حب البقاء في داخلي، فانطلقت هاربة من بين يديه، فإذا وقعت بينهما ثانية فمرحبًا بما ينزله بي من انتقام ذريع».

«كان من الواجب كما تعلمين أن يحضر مستر إيرنشو أمس مأتم شقيقته، ولقد عاف الخمر أو اعتدل في شربها خصيصًا، فلم يذهب إلى

فراشه في السادسة مجنونًا ويستيقظ في الثانية عشرة مخمورًا، وعلى ذلك فقد قام مكتئبًا مغمومًا كمن يزمع الانتحار، لا يصلح للذهاب إلى الكنيسة أكثر مما يصلح للذهاب إلى مرقص، وبدل أن يمضي إلى المأتم جلس إلى النار يعب الجن أو البراندي عبًا.

«وكان هيثكليف -وإني لأرتعد لذكر اسمه!- غريبًا عن بيته من الأحد الماضي إلى اليوم، ولست أدري هل أطعمته الملائكة أو أطعمه ذووه من الشياطين، ولكن الذي أدريه أنه لم يتناول وجبة واحدة معنا طوال أسبوع تقريبًا، وكان قد عاد إلى البيت في الفجر وصعد إلى حجرته وأغلق عليه الباب بالمفتاح -كأن أحدًا يحلم بالتماس صحبته! وظل في حجرته معتكفًا كأنه عابد من جماعة المثودست، غير أن الإله الذي كان يصلي له رماد وتراب لا يحس، وكان إذا ذكر اسم الله خلط بينه وبين أبيه الشيطان خلطًا عجيبًا! فإذا فرغ من هذه الصلوات الغالية -وكان يمضي فيها عادة إلى أن يبح صوته ويختنق في حلقه- انطلق خارجًا ومقصده بيت الضيعة رأسًا! ولست أدري لِمَ لمْ يرسل إدجر في طلب رجل من رجال الضبط يسلمه إليه! أما أنا فلم أستطع -رغم حزني على كاثرين- أن أمنع نفسي من اعتبار هذه الفترة التي أنقذت فيها من جوره المهين فترة راحة ممتعة.

«واستعدت من الشجاعة ما جعلني أستطيع سماع محاضرات جوزيف دون أن أذرف دمعة، والحركة في البيت وأنا أقل وجلًا من ذي قبل حين كنت أحس كأنني لص خائف، ولعله لا يخطر لكِ ببال أنني كنت أبكي لأي عبارة تصدر من جوزيف، ولكنه هو وهيرتن رفيقان بغيضان إلى نفسي، وإني لأوثر أن أجلس إلى هندلي وأسمع حديثه الرهيب عن أن أجلس إلى «السيد الصغير» وتابعه الأمين، ذلك العجوز الكريه! فإذا كان هيثكليف بالبيت اضطررت في الأكثر إلى الالتجاء إلى المطبخ وهما فيه، وإلا مت بردًا بين الحجرات المهجورة الرطبة، وإذا لم يكن بالبيت -وهو ما حدث هذا الأسبوع- وضعت منضدة ومقعدًا في ركن من أركان مدفأة حجرة الجلوس ولم أعبأ بما يشغل به مستر إيرنشو نفسه، ولم يتدخل هو في ترتيبي، وقد غدا اليوم أهدأ طبعًا مما كان من قبل، ما لم

يثره أحد، فازداد وجومه وابتئاسه وقل غضبه وحدته، ويؤكد جوزيف أنه قد أصبح ولا ريب رجلًا جديدًا، وأن الرب قد مس قلبه، وأنه قد طهر «كما بنار» وقد أعاني البحث عن علامات هذا التغير في قلبه، ولكن هذا ليس من شأني.

«وجلست الليلة البارحة في ركني أقرأ كتبًا قديمة حتى قاربت الساعة الثانية عشرة، وبدا لي الصعود إلى الطابق العلوي أمرًا مقبضًا للنفس وأنا أسمع الثلوج العاصفة تتساقط من الخارج وأفكاري لا تفتأ تنقلب إلى المقبرة والقبر المحفور حديثًا! ولم أكن أجرؤ على رفع عيني من الكتاب الذي أقرأ حتى يتراءى لي هذا المشهد الحزين توًّا. وكان هندلي يجلس أمامي وقد مال برأسه على يده، ولعله كان يفكر في الموضوع ذاته، وكان قد كف عن الشراب حين بلغ درجة هي دون الجنون قليلًا، وظل ساعتين أو ثلاثًا لا يطرف ولا ينبس ببنت شفة، ولم يكن يتردد في البيت صوت سوى صوت الريح العاصفة التي كانت تهز النوافذ بين الحين والحين، وفرقعة الفحم الخفيفة في المدفأة، وطقطقة المقص الذي كنت أقطع به ذبالة الشمعة الطويلة بين وقت وآخر، وأكبر ظني أن هيرتن وجوزيف كانا غارقين في النوم، وكنت أحس أشد الحزن، وأتأوه وأنا أقرأ، فقد بدا لي كأن الفرحة كلها قد فارقت هذه الحياة الدنيا إلى غير رجعة.

«وأخيرًا قطع هذا السكون الحزين صوت قفل المطبخ، ذلك أن هيثكليف عاد من سهرته قبل موعده المألوف، ولعل هذا راجع إلى هبوب العاصفة المباغتة، وكان الباب مقفلًا، فسمعناه يدور ليدخل من الباب الثاني، وقمت ووجهي يفصح إفصاحًا لا أقوى على مقاومته بما على شفتي من كلام، فأغرى هذا رفيقي الذي يحدق في اتجاه الباب بأن يتحول وينظر إليَّ ويقول:

«سأعوقه خمس دقائق في الخارج، ولا أظنك تمانعين في هذا؟».

«فأجبته: «كلا، لك أن تعوقه الليل كله لأجلي، افعل بربك! ضع المفتاح في القفل واسحب المزلاج!».

«وفعل إيرنشو هذا قبل أن يصل ضيفه إلى الباب الأمامي، ثم عاد وأحضر كرسيه إلى الجانب الآخر من المنضدة التي كنت أجلس إليها، واتكأ عليها وأخذ يفتش في عيني عن عاطفة تشاركه الحقد المضطرم الذي ينبعث من عينيه، ولما كان يبدو قاتلًا ويحس بأنه قاتل، فإنه لم يجد ما كان يفتش عنه تمامًا، ولكنه وجد ما يكفي لتشجيعه على الكلام.

«قال: «كلانا مدين لهذا الرجل الواقف بالباب دينًا ثقيلًا عليه أن يسويه معه! فإذا لم يكن كلانا جبانًا استطعنا أن نتضافر لنرد له دينه، فهل أنتِ في لين أخيكِ وطراوته؟ هل أنتِ مصممة على الاحتمال إلى النهاية دون أن تحاولي الثأر منه ولو مرة؟».

«فأجبته: «لقد سئمت الاحتمال الآن، ويسرني أن أنزل به عقابًا لا يرتد على رأسي، ولكن الخيانة والعنف سلاحان ذوا حدين، فهما يصيبان من يلجؤون إليهما بشر مما يصيبان أعداءهم!».

«فصاح هندلي: «الخيانة والعنف جزاء وفاق للخيانة والعنف! إنني لن أطلب إليكِ أن تصنعي شيئًا يا مسز هيثكليف، فقط اجلسي في مكانك والزمي الصمت، قولي لي الآن هل تستطيعين؟ إنني واثق من أنك لن تكوني أقل مني اغتباطًا برؤية نهاية هذا الشيطان، وإنه لقاض عليك ما لم تسبقيه إلى ذلك، وإنه لقاض عليَّ كذلك، لُعِنَ الوغد الزنيم! إنه يقرع الباب كأنه أصبح رب البيت فعلًا! عديني أن تلزمي الصمت، وأنا قمين لكِ بأن

تصبحي امرأة حرة قبل أن تدق الساعة الواحدة، أي بعد ثلاث دقائق لا أكثر!».

«واستل من صدره السلاح الذي وصفت لكِ في خطابي وهمَّ بإطفاء الشمعة، ولكنني خطفتها منه وأمسكت بذراعه قائلة:

«لن ألزم الصمت، وعليك ألَّا تمسه، اترك الباب مغلقًا واسكت!».

«فصاح الرجل اليائس: «لا! لقد عقدت نيتي، وأقسم بالله لأنفذن ما انتويت! وسأقدم لكِ هذا الصنيع رغم أنفك، وسأنصف هيرتن من عدوي! ولا حاجة بكِ إلى إعمال ذهنك لكي تحميني من التهمة، فقد مضت كاثرين، ولن يأسف على موتي أحد، ولن يشعر بالخزي أحد ولو قطع عنقي في هذه اللحظة، وقد آن وقت الفراغ من هذا الأمر!».

«وكأني كنت أقاوم دبًّا أو أجادل مع مجنون، ولم يبق لي إلا أن أعدو إلى نافذة وأحذر ضحيته المقصودة بما ينتظرها من مصير.

«وقلت له فيما يشبه الانتصار: «خير لك أن تلتمس الليلة ملجأ غير هذا البيت! فإن مستر إيرنشو ينوي أن يضربك بالرصاص إذا أصررت على محاولة الدخول!».

«فأجاب وهو يوجه إليه وصفًا ظريفًا لا أريد ذكره، خير لكِ أن تفتحي الباب أيتها الـ...».

«فأجبته: «لن أتدخل في هذا الأمر، فادخل وتلق الرصاص إن شئت، لقد أديت واجبي».

«ثم أغلقت النافذة وعدت إلى مكاني بجوار المدفأة، وليس في نفسي من النفاق ما أستطيع به أن أتظاهر بأي شيء من القلق والخوف مما يتهدده من خطر، وأخذ إيرنشو يسبني سبًّا عنيفًا ويؤكد أنني لا زلت أحب هذا الوغد اللئيم ويرميني بكل ضروب الشتائم لما أبديت من جبن وخسة، وكنت في صميم نفسي أقول (ولا أشعر في هذا بأي تبكيت من ضميري) إن من الرحمة بهندلي أن يضع هيثكليف حدًّا لتعاسته، وأن من الرحمة بي أن يقذف بهيثكليف إلى نهايته التي هو جدير بها! وبينما كنت جالسة أقلب في خاطري هذه الأفكار قذف هيثكليف بالطاقة التي تقع خلفي إلى الأرض بضربة من يده، ثم أطل وجهه الأسود من الفتحة كأنه الوباء، وكانت الدعامات أضيق من أن تتيح لكتفيه أن يتبعا رأسه، فابتسمت اغتباطًا بسلامتي الموهومة، وكان شعره وثيابه قد بيضتها الثلوج، وأسنانه الوحشية الحادة التي كشف عنها البرد والغضب تلمع في الظلمة.

«وقال لي وهو ينظر إليَّ نظرة كالحة: «افتحي لي يا إيزابيلا وإلا جعلتك تندمين!».

«فأجبته: «لا أستطيع ارتكاب جريمة قتل، فإن مستر هندلي يقف مستعدًّا مدججًا بسكين ومسدس محشو».

«قال: «أدخليني من باب المطبخ».

«فأجبته: «سيسبقني إليه هندلي، وما أحقره حبًّا ذلك الذي لا يجعلك تحتمل رخة من الثلج! لقد كنا هادئين في فرشنا ما أشرق قمر الصيف، ولكن ما إن يعود برد الشتاء

وزمهريره حتى تهرع لتختبئ! لو كنت مكانك يا هيثكليف لمضيت وتمددت على قبرها ومت كما يموت الكلب الوفي. إن العالم لم يعد مكانًا يستحق أن تعيش فيه الآن، أليس كذلك؟ لقد استقر في ذهني بصورة واضحة أن كاثرين كانت مسرة حياتك وبهجتها، ولست أتصور كيف تفكر في البقاء بعدها!».

«وصاح رفيقي وهو يندفع إلى الطاقة: «إنه هناك، أليس كذلك؟ لو استطعت أن أخرج ذراعي لضربته!».

«إنني لأخشى يا آلن أن تحكمي بأنني شريرة حقًا، ولكنك لا تعرفين كل شيء، فلا تحكمي عليَّ إذن، فإنني ما كنت لأعين أحدًا على الاعتداء على حياة، وإن تكن حياة هيثكليف نفسه، ولو أعطيت الأرض وما فيها، أما أن أتمنى موته فذلك ما لم يكن لي فيه حيلة، لذلك عرتني الخيبة الشديدة وفت في عضدي الخوف من عواقب حديثي الساخر حين ارتمى هيثكليف على سلاح إيرنشو وانتزعه من يده.

«وانطلق المسدس، والتصقت السكين بمعصم إيرنشو وهو يرتد إلى الخلف، فاجتذبها هيثكليف عنوة وكشط جلد صاحبها وهي تمر به ثم دفعها في جيبه وهي تقطر دمًا، وأخذ حجرًا وحطم الفاصل بين نافذتين وقفز إلى داخل الحجرة، وكان غريمه قد سقط فاقد الرشد من شدة الألم وغزارة الدم الذي كان ينزف من وريد أو شريان كبير في ذراعه، وأخذ الوغد يركله ويطؤه بقدميه ويضرب رأسه غير مرة في البلاط وهو يمسكني في الوقت نفسه بإحدى يديه ليحول بيني وبين استدعاء جوزيف، وقد رأيته يبذل جهدًا جبارًا ليمنع نفسه من الإجهاز على عدوه تمامًا، ولكن أنفاسه كانت قد انقطعت، فأمسك في النهاية، وجر جسم عدوه الذي بدا جامد الحركة ووضعه على الأريكة، ثم مزق كم سترة إيرنشو وضمد جرحه في ضراوة وهو يبصق ويلعن أثناء ذلك بنفس القوة التي كان يركله بها من قبل، وإذ كان قد أطلق يدي فقد بادرت بالبحث عن الخادم العجوز الذي فهم شيئًا فشيئًا مضمون قصتي السريعة، فهرول إلى أسفل الدار يلهث وهو يهبط السلم درجتين أو ثلاثة في خطوة واحدة.

«ماذا يجب أن نفعل الآن؟ ماذا يجب أن نفعل الآن؟»، فأرعد هيثكليف: «هذا هو الذي يجب أن تفعله، إن سيدك مجنون، فإذا ظل شهرًا آخر على هذه الحال نقلته إلى مستشفى للمجاذيب، وكيف حدث أنك أغلقت عليَّ البابين أيها الكلب الأهتم؟ لا تقف تتمتم وتزمجر هناك، تعال، فإنني لن أقوم بتمريضه، اغسل هذا، وحاذر من أن يسقط عليه شيء من لهب شمعتك، فإني أحسب نصف دمه من البراندي!».

«فصاح جوزيف وهو يرفع يديه وعينيه في رعب: «إذن كنت تقتله؟ فهل شهد أحد مثل هذا! ليت الله...».

«ودفع به هيثكليف إلى الأرض على ركبتيه وسط الدماء ورمى له بمنشفة، ولكنه بدل أن يجفف الأرض ضم يديه وبدأ يصلي صلاة أثارت ضحكي لما احتوت من عبارات عجيبة، وكنت في حالة نفسية لا يستغرب فيها صدور أي شيء مني، والواقع أنني كنت مستهترة استهتار المذنبين وهم عند المشنقة».

«وقال الطاغية: «أوه، لقد نسيتك، عليكِ أن تقومي أنتِ بهذا العمل، اركعي، تتآمرين معه عليَّ أيتها الحية، أليس كذلك؟ اركعي، فهذا النوع من العمل يناسبك!».

«وأخذ يهزني حتى اصطكت أسناني، ثم دفعني إلى جوار جوزيف الذي واصل

صلاته إلى نهايتها، ثم قام يقسم بأنه ماضٍ إلى ترشكرس من فوره، وقال إن مستر لنتن ضابط قضائي، وأنه لا بد محقق في هذا الأمر، ولو ماتت له خمسون زوجة لا زوجة واحدة، وبلغ من عناده وتصلبه أن هيثكليف رأى من الحكمة أن يستخلص من بين شفتي قصة

ما حدث في إيجاز، وكان واقفًا يشرف عليَّ وهو يضطرم حقدًا بينما كنت أسرد القصة على مضض ردًّا على أسئلته، واقتضى إقناع العجوز بأن هيثكليف لم يكن المعتدي كثيرًا من الجهد، لا سيما أن إجاباتي كانت تنتزع مني انتزاعًا، ومهما يكن من شيء فقد أثبت إيرنشو بعد قليل أنه لا زال حيًّا، وبادر جوزيف بإعطائه جرعة من الكحول استعاد سيده بفضلها حركته وشعوره، وإذ كان هيثكليف يعلم أن غريمه لم يحس بشيء من العلاج الذي أجري له وهو فاقد الوعي، فقد وصفه بأنه ثمل إلى درجة الهذيان، وقال إنه لن يطيق بعد اليوم سلوكه الوحشي، ولكنه نصحه بأن يمضي إلى فراشه، وتركنا لشدة سروري بعد أن بذل لغريمه هذه النصيحة الحكيمة، وتمدد إيرنشو على لوح المدفأة، ومضيت أنا إلى حجرتي وأنا أعجب لنجاتي بهذه السهولة. ولما نزلت اليوم قبل الظهيرة بنحو نصف ساعة ألفيت مستر إيرنشو جالسًا إلى المدفأة جد مريض، وكان شيطانه يتكئ على المدفأة وهو لا يكاد يقل عنه شحوبًا وهزالًا، ولم يبد على أيهما ميل إلى تناول الغداء، وبعد أن انتظرت حتى برد الطعام بدأت أتناوله وحدي، ولم يعقني عائق عن الأكل بكل شهية، وكنت أجد ضربًا من الشعور بالرضى والاستعلاء وأنا ألقي على رفيقي الصامتين نظرة بين الحين والحين، وأحسست براحة الضمير الهادئ المطمئن بين جنبي، وبعد أن فرغت من طعامي جرؤت على السماح لنفسي بمتعة نادرة هي الاقتراب من المدفأة، فسرت إليها حول مقعد إيرنشو وجثوت إلى جواره في ركن الحجرة.

«ولم يكن هيثكليف ينظر في ناحيتي، فتطلعت إليه أتأمل قسمات وجهه في اطمئنان وثقة كأنها استحالت حجرًا، ورأيت سحابة ثقيلة تجثم على جبينه الذي ظننته يومًا يفيض رجولة، وأخاله اليوم يفيض شرًّا وخبثًا، ورأيت عينيه الشبيهتين بعيني الأفعوان وقد كاد الأرق يطفئ بريقهما، ولعله كان يبكي لأن أهدابهما كانت مبللة، أما شفتاه فقد تجردتا من سخريتهما الوحشية، وصمتتا وعليهما سيماء الحزن العميق، ولو كان رجلًا غيره لحجبت وجهي أمام حزن كحزنه، أما في حالته هو فقد وجدتني راضية مغتبطة، ولم تفتني فرصة رميه بسهم في محنته رغم ما يبدو في إهانة عدو مهزوم من خسة ودناءة، فقد كان ضعفه الفرصة الوحيدة التي أستطيع فيها الاستمتاع برد الإساءة بمثلها».

وقاطعتها قائلة: «واخجلتاه يا سيدتي! كأنك لم تفتحي كتابًا مقدسًا في حياتك، وما أجدرك إذا نكب الله أعداءك بأن تقنعي بقضاء الله فيهم، وأن من الخسة والغرور أن تزيديه عذابًا على عذاب!».

فواصلت حديثها تقول: «أسلم لك بأن هذا صحيح في عمومه، ولكن بربك أي شقاء ينكب به هيثكليف يستطيع أن يرضيني ما لم يكن لي فيه يد؟ وإنني لأوثر أن يقاسي أقل مما يفعل الآن بشرط أن أكون السبب في آلامه، وأن يعلم هو أنني السبب فيها، أواه، إنني مدينة له بدين ثقيل، ولست آمل أن أغفر له إلا بشرط واحد، هو أن أجزيه عينًا بعين، وسنًّا بسن، وأن أرد له كل عذاب بعذاب مثله، وأن أهبط به إلى مستواي، وإذ كان هو البادئ بالأذى، فليكن البادئ بطلب الصفح، وحينئذ، حينئذ فقط يا آلن قد ترين مني شيئًا من السماحة والكرم، ولكن تحقيق هذا الثأر ضرب من المحال، لذلك لا أستطيع أن أغفر له، وطلب هندلي شربة ماء، فسألته عن حاله، فقال: «لم أبلغ من السوء ما أشتهي، ولكنك إذا استثنيت ذراعي، فإني أحس كل عضو في جسمي ينبح كأنني كنت أقاتل فيلقًا من الشياطين!».

«قلت معقبة: «أجل، ولا عجب، لقد كانت كاثرين تفخر بأنها تقف حائلًا بينك وبين ما قد يقع على جسمك من أذى، وكانت تعني بذلك أن بعض الأشخاص لن يؤذوك مخافة إغضابها، من الخير أن الناس لا يقومون حقًّا من قبورهم، وإلا لكانت شهدت البارحة مشهدًا يقشعر منه البدن! ألا تحس الأوجاع في جسمك، وألا تشعر بالجروح في صدرك وكتفيك؟»».

«فأجاب: «لا أدري، ولكن ماذا تعنين؟ هل اجترأ على ضربي وأنا ملقى على الأرض؟»».

«فهمست في أذنه: «لقد وطأك بقدميه وركلك وضرب بك الأرض، وكان لعابه يسيل شوقًا إلى تمزيقك بأنيابه، ولا عجب فهو نصف إنسان بل أحط، أما ما بقي منه فشيطان رجيم»».

«وتطلع مستر إيرنشو وتطلعت إلى محيا عدونا المشترك، وكان لانصرافه إلى آلامه لا يحس بما يدور حوله، وكلما طال وقوفه كشفت أفكاره بأجلى صورة عن سوادها خلال قسمات وجهه.

«وقال الرجل البرم وهو يئن ويتلوى ليقف ثم يعود فيسقط يائسًا وقد اقتنع بعجزه عن النضال: «أواه، لو أن الله منحني من القوة ما أستطيع بها أن أخنقه في آلامي هذه الأخيرة لمضيت إلى الجحيم فرحًا متهللًا»».

«قلت بصوت مسموع: «كلا، يكفيه أنه قتل أحدكما، فالناس كلهم يعلمون في ثرشكرس أنه لولا مستر هيثكليف لظلت أختك إلى اليوم حية ترزق، ومهما يكن من شيء فإن من الخير أن يكون الإنسان مكروهًا منه عن أن يكون محبوبًا، وحين أذكر كيف كانت السعادة ترفرف علينا -كيف كانت كاثرين سعيدة قبل مجيئه- أجدني راغبة في أن ألعن ذلك اليوم الذي أتى فيه!»».

«وأكبر الظن أن هيثكليف لاحظ صدق هذه العبارات أكثر من ملاحظته روح قائلها، وراعني أن انتباهه قد أثير، لأن عينيه أخذتا تذرفان دموعهما خلال أهدابه، وكانت الزفرات تخنق أنفاسه، وحدقت في وجهه صراحة وضحكت ضحكة ملؤها الاحتقار، وأبرقت طاقات الجحيم الملبدة بالغيوم لحظة، ولكن الشيطان الذي ألفت أن أراه مطلًّا منها كان محجوبًا معرقًا إلى حد لم أخش معه أن أغامر بضحكة أخرى ساخرة.

«وقال الباكي: «قومي من هنا واغربي عن وجهي»، أو في القليل كانت هذه كلماته كما حزرتها لأن صوته لم يكد يبين.

فأجبته: «عفوًا، ولكنني أنا أيضًا كنت أحب كاثرين، وإن أخاها لفي حاجة إلى رعاية سأمنحه إياها إكرامًا لها، أما وقد ماتت الآن فإني لأراها في هندلي، وإن له لعينيها بالضبط، لولا أنك حاولت أن تسملهما، وأورثتهما هذا السواد والاحمرار».

«فصاح بي وهو يهم بحركة جعلتني أهم بأخرى: «اغربي عن وجهي أيتها المعتوهة الحقيرة قبل أن أمحقك تحت قدمي محقًا!»».

«وواصلت حديثي وأنا أتحفز للهروب: «ولكن لو أن كاثرين المسكينة وثقت بك واتخذت هذا اللقب الزري الحقير المحط، لقب مسز هيثكليف، لكان هنا شأنها هي الأخرى

بعد قليل! فما كانت كاثرين لتصبر على سلوكك اللعين، وكان لا بد أن تعرب عن مقتها لك وكرهها لك».

«وكان ظهر المتكأ، وجسم إيرنشو، يقومان سدًّا بيني وبين هيثكليف، لذلك لم يحاول أن يصل إليَّ، بل اختطف سكينًا من المائدة وقذف بها إلى رأسي، فأصابتني تحت أذني وأوقفت الكلمة التي كنت على وشك النطق بها في حلقي، ولكنني انتزعت السكين، وقفزت إلى ناحية الباب، ورميته بكلمة أخرى أرجو أن تكون قد تغلغلت في قلبه أكثر قليلًا مما تغلغلت سكينه في أذني، وكان آخر ما رأيت منه هجمة مجنونة أوقفتها ذراعا مضيفه، وسقط كلاهما ملتصقين عند المدفأة، وأمرت جوزيف أثناء هروبي بطريق المطبخ أن يبادر إلى سيده، وصدمت في طريقي هيرتن وكان يعلق ولدة من الجراء في ظهر كرسي بالباب، وأخذت أقفز وأثب وأطير طيرانًا على الطريق المنحدر في سعادة غامرة كأنني روح هاربة من المطهر، وتفاديت حنايا الطريق واندفعت رأسًا في البرية وأنا أتدحرج فوق الجسور وأخوض المستنقعات مندفعة كأنني أطوح بنفسي إلى منارة ثرشكرس، وإني لأوثر ألف مرة أن يقضي عليَّ بأن أصلى أبد الدهر نار جهنم عن أن أقيم، ولو ليلة واحدة، تحت سقف وذرنج هيتس مرة أخرى».

وأمسكت إيزابيلا عن الكلام، ورشفت رشفة من الشاي، ثم قامت، وطلبت إليَّ أن أضع قبعتها على رأسها، وألبسها لفاعة كبيرة أحضرتها، وضربت صفحًا عن توسلاتي إليها بالبقاء ساعة، ثم ركبت على مقعد، وقبلت صورتي إدجر وكاثرين، وقبلتني أنا الأخرى، ثم نزلت إلى العربة تصاحبها فاني التي كانت تنبح في بهجة غامرة فرحًا بعودة سيدتها، وانطلقت بها العربة فكان هذا آخر عهدنا بزياراتها، ولكنها بدأت تبادل سيدي الرسائل بانتظام حين استقرت الأمور عن ذي قبل، وفي ظني أنها اختارت الجنوب لها وطنًا جديدًا، فسكنت قرب لندن، وهناك ولدت

غلامًا بعد هربها بشهور قليلة، فأسمته لنتن، وأبلغت أخاها منذ البداية بأنه مخلوق عليل حاد الخلق.

وسألني مستر هيثكليف حين لقيني في القرية يومًا عن مقرها الجديد فأبيت أن أخبره، وقد عقب على رفضي بقوله إن الأمر ليس ذا بال، إنما عليها أن تحاذر من المجيء عند أخيها، ويجب ألا تسكن معه إذا كان لزامًا عليه أن يعولها، وقد اكتشف مسكنها ومولد الطفل عن طريق غيري من الخدم رغم امتناعي عن تزويده بالمعلومات التي طلبها، ولكنه مع ذلك تركها وشأنها دون أن يزعجها، وهو تسامح منه يرجع الفضل فيه في ظني إلى كراهيته لها. وكثيرًا ما كان يستفسر عن الطفل إذا رآني، فلما سمع اسمه ابتسم ابتسامة كالحة، وقال: «إنهم يريدونني أن أكرهه هو الآخر، أليس كذلك؟».

فأجبت: «لست أظنهم يريدون أن تعرف عن الطفل شيئًا».

قال: «ولكنني سآخذه حين أشاء، فليطمئنوا إلى هذا!».

وماتت أم الطفل لحسن حظها قبل أن يأتي هذا الوقت، وكان موتها بعد ثلاثة عشر عامًا من موت كاثرين، وكان لنتن يناهز الثانية عشرة أو يزيد قليلًا.

وفي اليوم التالي لزيارة إيزابيلا لنا على غير انتظار، لم أجد فرصة مواتية للتحدث إلى سيدي، فقد كان يتجنب الحديث مع الناس ولم يكن على استعداد لمناقشة أي موضوع، فلما أتيحت لي الفرصة لحمله على الاستماع إليَّ، رأيت أن قد سره نبأ هجران

أخته لزوجها، وكان يكرهه كرهًا شديدًا لا يكاد يبدو ميسورًا لرجل له طبيعته الهادئة الوديعة، وبلغ مقته له من العمق والحدة مبلغًا جعله يمتنع عن ارتياد أي مكان قد يرى فيه هيثكليف أو يسمع عنه شيئًا، وأحاله هذا كله، بالإضافة إلى حزنه، إلى ناسك يعتزل الناس جميعًا، فاعتزل منصب الضابط القضائي الذي كان يشغله، وكف حتى عن الاختلاف إلى الكنيسة، وتجنب الذهاب إلى القرية في جميع المناسبات، وأنفق حياته محتجبًا داخل حدود البستان والبيت، لا يتخلل ذلك إلا جولات يخرج فيها وحده بين البراري، وزورات لقبر زوجته، يقوم بها على الأكثر في المساء أو الصباح الباكر قبل أن يخرج غيره من المتجولين، ولكنه كان أطيب من أن يظل طويلًا غارقًا في تعاسة شاملة، فهو لم يتمن أن تطوف به روح كاثرين في منامه، وجلب الزمن في أعقابه تسليمًا وأسى، هو أعذب من الفرح العادي، وكان يستعيد ذكراها في حب رقيق حار، يخالطه تطلع إلى الحياة الآخرة التي لم يكن يخامره شك في أنها مضت إليها.

وكان له في الأرض أيضًا عزاء وصلات محبة، وقد ذكرت لك أنه ظل أيامًا لا يهتم بالطفلة الشاحبة التي خلفت أمها الراحلة، ولكن هذا الجمود ذاب سريعًا كما تذوب الثلوج في أبريل، واستطاعت هذه المخلوقة الصغيرة أن تحتل في قلبه مكان السيد المتصرف قبل أن تلفظ كلمة أو تحبو خطوة، وأسماها كاثرين، ولكنه لم يكن يناديها باسمها كاملًا قط، كما أنه لم يكن ينادي أمها أبدًا من قبل باسمها المصغر كاثي، ولعل هذا مرجعه أن هيثكليف قد ألف أن يدعوها بهذا الاسم الأخير، فكانت طفلته هي دائمًا «كاثي»، وكانت في عينه تختلف عن أمها، ومع ذلك فهي حلقة الاتصال بها، وقد انبعث حبه لها من صلتها بأمها أكثر كثيرًا من كونها ابنته هو.

وكان من عادتي أن أقارن بينه وبين هندلي إيرنشو، وأحاول جهدي أن أفسر تفسيرًا مرضيًا هذا التناقض بين سلوكهما في ظروف مشابهة، فقد كان كلاهما كلفًا بزوجته، متعلقًا بطفله، وحيرني أنهما لم يسلكا طريقًا واحدًا سواء للخير أو للشر، وخطر لي أن هندلي، وهو فيما يبدو أكثر الرجلين عنادًا، قد أثبت للأسف أنه أسوأ حالًا وأضعف شأنًا من صاحبه، فلما اصطدمت سفينته ترك ربانها مكانه، واندفع ملاحوها بين مظاهر الفوضى والاضطراب بدل أن يحاولوا إنقاذها، فاستحال بذلك خلاص السفينة المنكودة، أما لنتن فقد أبدى ما تتسم به الروح الوفية الأمينة من شجاعة صادقة، ووضع الرجل ثقته في الله فأسبغ الله عليه العزاء، كان أحدهما يرجو، والآخر يتردى في حمأة اليأس، وهكذا اختارا حظيهما وكتب لهما بالحق أن يحتملا ما اختارا، ولكنك يا مستر لوكوود لست في حاجة إلى الاستماع إلى العبرة التي استخلصتها من هذا كله، وفي

استطاعتك أن تصدر حكمك على هذه الأشياء كما أفعل، أو على الأقل في رأيك أنك ستحكم عليها بنفسك، وهذا شبيه بذاك. وانتهى إيرنشو إلى ما كان منتظرًا أن ينتهي إليه، فأعقب موته وفاة أخته، ولم تكد تمضي عليها ستة شهور، ولم تصلنا ألبتة في ضيعة ثرشكرس أي أنباء واضحة عن حاله قبل موته، وكل ما سمعته من أنباء كان حين ذهبت إلى وذرنج هيتس لأعينهم على الاستعداد لمأتمه، وكان مستر كنث قد أتى لينبئ سيدي بالخبر.

وقال الطبيب يومًا، وقد دخل الفناء راكبًا في ساعة أنذرني بكورها بما سأسمع من أنباء سيئة: «حسن يا نلي، لقد جاء الدور عليكِ وعليَّ لنلبس الحداد الآن، فمن تظنين قد فقدنا؟».

قلت في اضطراب: «من؟».

فأجاب وهو يترجل ويعلق لجامه على خطاف في الباب: «أحزري! وشمري ميدعتك فإنكِ في حاجة إلى بذل الجهد».

قلت: «ليس مستر هيثكليف بلا ريب؟».

قال الطبيب: «ماذا! أتذرفين الدمع عليه لو مات؟ لا، إن هيثكليف شاب قوي شديد المراس، وهو اليوم يبدو مشرقًا، وقد رأيته الساعة، وقد أخذ يستعيد ما فقد من وزنه بعد موت نصفه الأفضل».

فأعدت عليه سؤالي وقد فرغ صبري: «من هو إذن يا مستر كنث؟».

فأجاب: «هندلي إيرنشو! هندلي صديقك القديم، وجليسي الشرير، وإن كان قد استوحش منذ زمن طويل بحيث أصبح لا يصلح لي صاحبًا، والآن! قلت إننا سنذرف الدمع، ولكن ليطمئن بالك! فقد مات موتة جديرة به، مات ثملًا مخمورًا كأحسن ما يشتهي، يا للمسكين! إنني أيضًا آسف عليه، والمرء لا يسعه إلا أن يفتقد صاحبه القديم رغم ما أصابه من جرّاء خبثه، ورغم ما لقيت منه من جحود كثير، ويبدو أنه لم يكد يبلغ السابعة والعشرين، وهذه سنك، فهل يدور بخلد أحد أنكما ولدتما في عام واحد؟!».

وأعترف لك أن هذه اللطمة كانت أقسى عليَّ من موت مسز لنتن، فهاجت في نفسي ذكريات الأيام الخالية، وجلست تحت سقيفة البيت وبكيته كما أبكي قريبًا من دمي ولحمي، ورغبت إلى مستر كنث أن يقصد غيري من الخدم لإنباء سيدي بمقدمه، ولم أستطع منع نفسي من ترديد هذا السؤال: «هل لقي الإنصاف في مرضه؟»، وظلت الفكرة العنيدة تزعجني رغم أني حاولت صرفها عني، وقد بلغ من إلحاحها عليَّ أني صممت على الاستئذان في الذهاب إلى وذرنج هيتس والمعاونة في إتمام ما يؤدى للميت من فروض أخيرة، وكره مستر لنتن أن يجيبني إلى ما رغبت، ولكنني رجوته رجاءً حارًّا لافتقار الميت إلى أصدقاء، وقلت له إن لسيدي القديم وأخي في الطفولة حقًّا في خدماتي لا يقل عن حقه هو علي، ثم ذكرته بأن الطفل هيرتن كان ابن أخي زوجته، وأن عليه أن يقوم عليه وصيًا ما دام الطفل يفتقر إلى كفيل أقرب إليه منه، وأن عليه كذلك أن يستفسر عن مصير ثروة الميت ويرعى مصالح أخي زوجته، فقال إنه في حال لا تسمح له بالاهتمام بهذه الأمور، ولكنه طلب إليَّ أن أتحدث فيها إلى محاميه، وأخيرًا أذن لي بالذهاب، وكان محاميه هو محامي إيرنشو أيضًا، ومضيت إلى القرية، ورجوت المحامي أن يصحبني، ولكنه هز رأسه، وأشار عليَّ بأن من الخير أن ندع هيثكليف وشأنه، مؤكدًا لي أنه لو عرفت الحقيقة لتبين أن هيرتن لا يملك شروى نقير.

وقال: «لقد مات أبوه مدينًا، وأملاكه كلها مرهونة، وفرصة الغلام الوحيدة الآن أن نتيح له أن يبعث في قلب الدائن شيئًا من الاهتمام به، لعله أن يترفق في معاملته».

ولما وصلت وذرنج هيتس قلت إنني جئت للتحقق من أن كل المراسم تؤدى للميت كما يليق، وأعرب جوزيف عن رضائه لحضوري، وكان يبدو حزينًا مكتئبًا، أما مستر هيثكليف فقال إنه لا يرى حاجة لوجودي، ولكن في وسعي أن أبقى وأرتب مراسم المأتم إن شئت.

ثم عقب على ذلك بقوله: «لو أنصفنا لكان واجبًا أن يدفن هذا الأحمق على مفرق الطرق دون أي احتفال، لقد اتفق أن تركته عشر دقائق عصر

البارحة، وفي هذه الفترة أغلق من دوني بابي البيت، وقضى الليل في الشراب متعمدًا الانتحار! واقتحمنا عليه الحجرة هذا الصباح حين سمعناه يشخر شخيرًا كشخير الحصان، فوجدناه راقدًا على المتكأ، ولو أننا سلخنا جلده ونزعنا فروة رأسه لما استطعنا أن نوقظه، وأرسلت في طلب كنث فأتى ولكن بعد أن أصبح هذا الحيوان رمة، فوجده ميتًا باردًا يابس الجثة، وهكذا ترين أنه كان من العبث بذل مزيد من العناء لأجله».

وأيد الخادم العجوز هذه الرواية، ولكنه تمتم قائلًا: «كنت أفضل أن يذهب هيثكليف في طلب الطبيب! ولو فعل لبذلت لسيدي من العناية خيرًا مما بذل، ثم إنه لم يكن ميتًا حين غادرت البيت، لم يكن ميتًا البتة!».

وأصررت على أن يقام له مأتم وقور، وقال مستر هيثكليف إنه لا يمانع في أن أنفذ إرادتي في هذا الأمر أيضًا، ولكنه ذكرني بأنه هو الذي سيؤدي نفقات هذا كله، وكان يبدو قاسيًا مستهترًا لا تنم هيئته عن الفرح أو الحزن، فإذا نمت عن شيء فعن رضاء صارم بنجاحه في مهمة عسيرة. صحيح أنني لمحت مرة في محياه ما يشبه فرحة الانتصار، وذلك في اللحظة التي حمل فيها القوم تابوت الميت من البيت، وكان فيه من النفاق ما أتاح له أن يشيع الميت مع المشيعين، وقبل أن يمضي مع هيرتن رفع الطفل البائس على المنضدة وتمتم في لذة عجيبة: «والآن يا بني أنت ملكي! وسنرى هل لا ينبت هذا العود أعوج كما نبت سابقه، وهل لا تلويه الريح كما لوت صاحبه من قبل؟».

واغتبط الطفل الساذج بهذا الحديث، وأخذ يعبث بعارضي هيثكليف ويربت خده، ولكنني أدركت ما يرمي إليه، وعقبت عليه بالقول في حدة: «يجب أن يصحبني هذا الصبي إلى ضيعة ثرشكرس يا سيدي، فليس في الدنيا شيء أقل منه انتماء لك!».

فسألني: «هل هذا رأي لنتن؟».

فأجبته: «بطبيعة الحال، لقد أمرني أن آخذه إليه».

فقال الوغد: «حسن، لن نتجادل في هذا الموضوع الآن، ولكني أجد في نفسي رغبة في محاولة تربية طفل، فأخبري سيدك بأنه لا بد لي من أن أملأ مكان هذا بولدي إذا حاول أخذه مني، ولست أعدك بأنني سأفرط في هيرتن بغير مقاومة، ولكني سأكره الآخر على المجيء ما في ذلك شك، فلا تنسي أن تبلغي سيدك هذا».

وكان في هذه الإشارة ما يكفي لغل أيدينا، وقد أعدت فحواها على مسامع سيدي عن عودتي، ولم يكن إدجر لنتن شديد الاهتمام بالأمر منذ البداية، لذلك أمسك عن حديث التدخل فيه، ولست أخال أنه كان مستطيعًا بلوغ مأربه على أي صورة لو أنه كان شديد الرغبة في ذلك.

وأصبح الضيف الآن السيد المتصرف في وذرنج هيتس، وأحكم قبضته على تركة الميت، وأثبت للمحامي، الذي أثبت هو الآخر لمستر لنتن، أن إيرنشو قد رهن له كل شبر من أرضه ليحصل على المال الذي يشبع به جنون الميسر، وهكذا أصبح هيرتن كلًّا على عدو أبيه اللدود، وهو الخليق بأن يصير كبير سراة الناحية كلها بعد موت أبيه، وبات يعيش في منزله خادمًا لا يتقاضى عن خدماته أجرًا، عاجزًا عن استرداد حقه لافتقاره إلى الأصدقاء الذين يعينونه على هذا، ولجهله بما أصابه من حيف وغبن.

* * *

الفصل الثامن عشر

وواصلت مسز دين قصتها قائلة: «كانت الأعوام الاثنا عشر التي تلت هذه الفترة المحزنة أسعد ما عرفت في حياتي، ولم يكن ينغص عليَّ صفوي فيها أكثر من الوعكات الخفيفة التي كانت تطرأ على ابنة مستر لنتن -سيدتي الصغيرة- كما تطرأ على سائر الأطفال أغنيائهم وفقرائهم، أما فيما عدا ذلك فقد نمت وترعرعت بعد الشهر السادس، واستطاعت أن تمشي وتتكلم بطريقتها الخاصة قبل أن تزدهر الأعشاب مرة ثانية فوق قبر أمها، وكانت أظرف من عرفت طفلة تشيع البهجة والنور في بيت مبتئس موحش، رائعة الحسن، لها عينا إيرنشو السوداوان الجميلتان وشقرة آل لنتن وقسماتهم الدقيقة وشعرهم المجعد الأصفر، وكان شديدة الحيوية، ولكنها لم تكن حيوية تشوبها الخشونة، وكان يلطف منها قلب مرهف العاطفة نشيطها إلى درجة مسرفة، وقد ذكرتني بأمها قدرتها هذه على التعلق الشديد بالناس، ولكنها لم تكن مع هذا شبيهة بها، فقد كان في وسعها أن تكون لطيفة وديعة كالحمامة، وكان في صوتها رقة وفي عبارتها تفكير، ولم يكن غضبها يبلغ حد السورة، ولا حبها يصل إلى درجة الوحشية، فقد كان حبًّا عميقًا رقيقًا، ومع ذلك فلا بد لي من الاعتراف بما كان لها من نقائص تقابل هذه المواهب، فقد كان فيها ميل إلى السلاطة وطول اللسان، وفيها إرادة ملتوية يكتسبها الأطفال المدللون كلهم بغير استثناء سواء منهم من كان لطيفًا أو شرسًا، فإذا اتفق أن غاظها خادم لم يكن لها من جواب على ذلك إلا أن تقول له: «سأخبر بابا!»، فإذا لامها أبوها، حتى بنظرة منه، خلت لومه هذا كارثة فطرت قلبها، ولست أخاله كلمها كلمة قاسية في حياته، أما تعليمها فقد اضطلع به كله وجعل منه تسليته، وقد جعل منها حب الاستطلاع وحدة الذكاء -لحسن الحظ- طالبة قديرة؛ فكانت تتلقى العلم في سرعة وشغف، وكان تقدمها مشرفًا له بوصفه معلمها.

ولم يحدث لها أن تجاوزت مرة حدود البستان بمفردها حتى ناهزت الثلاثة عشر ربيعًا، وكان مستر لنتن يصحبها ميلًا أو نحوه خارج هذه الحدود في مناسبات نادرة، ولكنه لم يكن يكلها في هذا إلى أي إنسان آخر، فكانت جمرتن اسمًا على غير مسمى في أذنيها، وكانت الكنيسة هي البناء الوحيد الذي دنت منه أو دخلته إذا استثنيت بيتها، أما وذرنج هيتس ومستر هيثكليف لم يكن لهما في حياتها وجود، وهكذا عاشت في عزلة تامة عن المجتمع، ولكنها كانت، فيما يبدو، راضية بحالها هذه رضاء تامًّا، صحيح أنها كانت إذا أشرفت بنظرها على الريف من نافذة حجرتها قالت أحيانًا:

«كم من الزمن سيمضي يا ألن حتى أستطيع المسير إلى قمة هذه التلال؟ لست أدري أي شيء على جانبها الآخر -أهو البحر؟».

فكنت أجيبها: «لا يامس كاثي، إنها تلال أيضًا كهذه تمامًا».

وسألتني مرة: «وكيف تحسين وأنت واقفة تحت هذه الصخور الذهبية اللون؟».

ذلك أن انحدار صخور «بنستون» انحدارًا مفاجئًا لفت نظرها لا سيما حين كانت شمس الغروب تضيئها وتلمع على ذراها، وكانت الأرض كلها من حولها ترقد في ظلالها، وقلت لها إنها لم تكن سوى كتل من الحجر لا تكاد تحتوي شقوقها من التربة ما يكفي لأن يقيم شجرة ضئيلة».

وواصلت أسئلتها: «ولِمَ يطول سطوعها بعد أن يهبط علينا المساء هنا؟».

وأجبتها: «لأنها شاهقة الارتفاع عنا هنا، إنك لتعجزين عن تسلقها لو أردتِ لأنها شديدة العلو والانحدار، والثلوج تسقط عليها دائمًا في الشتاء قبل أن تصلنا، وقد وجدت ثلجًا تحت هذه الفجوة السوداء التي ترينها على الجانب الشمالي الشرقي حتى في قلب الصيف!».

وصاحت في طرب: «مرحى، مرحى، لقد تسلقتها إذن! وإذن فسأستطيع أن أذهب إلى هناك أنا أيضًا حين أكبر، هل ذهب إليها أبي يا آلن؟».

قلت في عجلة: «لو سألتِ أباكِ لقال إنها لا تستحق عناء الرحلة

إليها، وألطف منها كثيرًا هذه البراري التي تجولين فيها بصحبته، إن بستان ثرشكرس أجمل بقاع الأرض قاطبة».

وتمتمت لنفسها تقول: «ولكني أعرف البستان ولا أعرف هذه، وسيبهجني أن أجيل البصر حولي وأنا على قمة هذه الذروة الشاهقة، وستحملني إليها فرسي الصغيرة «منى» في يوم من الأيام».

واتفق أن إحدى الخادمات ذكرت في حديثها عن هذه التلال كهفًا يُسمَّى كهف الجنية، فاستبدت بها الرغبة في القيام بهذه الرحلة، وألحت على أبيها إلحاحًا حمله على أن يعدها بأن يأخذها إلى الكهف حين تكبر، ولكن مس كاثرين كانت تقيس عمرها بالشهور، فكانت لا تفتأ تقول لأبيها: «هل بلغت من العمر ما يسمح لي بالرحلة إلى صخور بنستون؟»، وكانت إحدى حنايا الطريق إليها تمر بقرب وذرنج هيتس، ولم يجد إدجر بين جنبيه قلبًا يطاوعه على أن يمر بهذا البيت، لذلك لم تكن تلقى منه غير هذا الجواب: «لم تبلغي بعد هذا العمر يا حبيبتي، لم تبلغيه بعد!».

قلت إن مسز هيثكليف عاشت أكثر من اثني عشر عامًا بعد هجرانها لزوجها، وكان أفراد أسرتها يتصفون بالبنية الرقيقة، وكانت هي وأخوها إدجر يفتقران إلى هذه العافية التي يتمتع بها جل أهل هذا الريف، ولست أدري على التحقيق بأي مرض ماتت، ولكني أحسبها ماتت بمرض أخيها نفسه، وهو ضرب من الحمى يبدأ بطيئًا ولكنه لا يفارق المريض، ثم يقضي عليه في النهاية قضاء عاجلًا، وقد كتبت إلى أخيها تنبئه بما تتوقعه من نهاية بعد أن ألزمها المرض الفراش شهورًا أربعة، ورجته أن يذهب إليها إذا استطاع، لأن عليها واجبات كثيرة تريد أن تتممها، ولأنها تشتهي أن تودعه، وتعهد إليه بولدها لنتن وديعة في يده، وكانت تعلل النفس بأن هيثكليف سيترك لنتن له كما تركه لها من قبل، وتحب أن تقنع نفسها بأن أباه لا يريد أن يضطلع بعبء تربيته أو تعليمه، ولم يتردد سيدي لحظة في إجابة سؤلها، فهرع إليها وهو على ما أعلم من زهد في مبارحة بيته إذا دعي في ظروف عادية، ووكل كاثرين إلى رعايتي الخاصة في غيابه، مكررًا أمره بألا تتجاوز في سيرها حدود البستان حتى إذا كانت في صحبتي، أما ذهابها في غير صحبة، فأمر لم يدر بخلده.

واتصلت غيبته ثلاثة أسابيع، وفي اليوم الأول أو اليومين الأولين جلست الصبية في ركن من أركان المكتبة والحزن يمنعها من القراءة أو اللعب، ولم تكن تسبب لي عناء وهي هادئة على هذا النحو، ولكن هذا الهدوء أعقبته نوبة من الضيق والضجر والتبرم، ولما كان العمل الكثير والتقدم في السن لا يسمحان لي بالجري معها هنا وهناك لأسليها كما كنت

أفعل من قبل، فقد وفقت إلى وسيلة تستطيع أن تسلي بها نفسها، فكنت أبعث بها في جولات حول البيت، آنًا ماشية وآنًا راكبة، فإذا عادت أعرتها آذانًا صاغية تستمع إلى مغامراتها كلها، الحقيقي منها والخيالي.

وكان الصيف قد أينع وبلغ غايته، وكانت تجد لذة في هذه الجولات التي تخرج فيها وحدها حتى لتحاول البقاء خارج البيت من الفطور إلى وقت الشاي، أما الأمسيات فتقضيها في سرد قصصها الخيالية على مسمعي، ولم أخشَ تجاوزها الحدود لأن الأبواب كانت تغلق عادة، وكنت أعتقد أنها لو وجدتها مفتوحة على مصاريعها لما جرؤت على الخروج بمفردها، ولكني لسوء الحظ وضعت ثقتي في غير موضعها الصحيح، ذلك أن كاثرين جاءتني في الساعة الثامنة من صباح يوم من الأيام تقول إنها اليوم تاجر عربي سيعبر الصحراء بقافلته، وأن عليَّ أن أعطيها زادًا يكفيها ويكفي بهائمها، وهي فرس وثلاثة جمال يحرسها سلاقي كبير وكلبا صيد، فجمعت لها زادًا موفورًا من أطايب الطعام وضعته في سلة علقتها على جانب من السرج، وقفزت هي إلى ظهر الفرس جذلة طروبًا تتقي شمس يوليو بقبعتها العريضة ونقابها الحريري، ثم انطلقت تعدو وهي تضحك في مرح وتسخر من تحذيري إياها ألا تسير بفرسها ركضًا، وأمري لها أن تعود مبكرة، ولم تظهر الخبيثة وقت تناول الشاي، ولكن السلاقي عاد لأنه كان كلبًا عجوزًا يحب الراحة، أما كاثي والفرس وكلبا الصيد فلم نعثر لهم جميعًا على أثر، وبعثت رسلًا إلى هذا الطريق وذاك، وأخيرًا مضيت أبحث عنها بنفسي، وكان

هناك عامل يشتغل عند سياج يحيط بإحدى المزارع على حدود البيت، فسألته: هل رأى الصبية؟

فأجاب الرجل: «رأيتها في الصباح، وطلبت إليَّ أن أقطع لها غصنًا من شجر البندق، ثم قفزت بفرسها الصغيرة فوق السياج في أوطى بقعة منه وانطلقت وغابت عن بصري».

وفي وسعك أن تتصور شعوري حين سمعت هذا النبأ، وخطر لي لتوي أنها لا بد قد ذهبت قاصدة صخور بنستون، وصحت: «ماذا يكون مصيرها؟»، ثم اندفعت من ثغرة كان الرجل يصلحها ويممت صوب الطريق الرئيس، وسرت كأنني في سباق لأكسب رهانًا، وقطعت ميلًا بعد ميل، حتى انحنى الطريق فوجدتني على مرأى من وذرنج هيتس، ولكني أينما سرحت بصري لم أعثر لكاثرين على أثر، وتقع الصخور على نحو ميل ونصف من بيت مستر هيثكليف، أعني على أميال أربعة من ثرشكرس، وخفت أن يدركني الليل قبل أن أبلغها، وقلت لنفسي: «وماذا تكون الحال إذا زلت قدمها وهي تتسلق هذه الصخور فلقيت حتفها أو تكسرت بعض عظامها؟»، وكان قلقي في الحق يضنيني، وكان الإحساس بالارتياح الكثير أول ما خالجني حين وقعت عيناي على تشارلي، أشرس الكلبين، راقدًا تحت نافذة وقد انتفخ رأسه وسال الدم من أذنه، وفتحت الباب الخارجي وجريت إلى الباب أقرعه بشدة ليفتحوه لي، واستجابت للقرع امرأة أعرفها كانت تعيش في جمرتن قبل ذلك، ثم التحقت بخدمة هيثكليف بعد موت مستر إيرنشو.

وقالت المرأة: «آه، لقد جئت باحثة عن سيدتك الصغيرة! لا تخافي فهي هنا في مأمن من الخطر، ولكنني مغتبطة أنكِ لست السيد».

قلت وأنا مبهورة الأنفاس من سرعة السير وشدة الخوف: «إذن فهو ليس هنا، أليس كذلك؟».

فأجابت: «نعم، نعم، فقد خرج هو وجوزيف، وأحسبهما لن يعودا إلا بعد ساعة أو

أكثر، ادخلي لتستريحي قليلًا».

ودخلت، ورأيت كاثي -حملي الضال- جالسة إلى المدفأة تتأرجح في مقعد صغير كانت تجلس فيه أمها وهي صبية، وكانت قبعتها معلقة على الحائط، وبدا عليها أنها رفعت الكلفة تمامًا، فكانت تضحك وتثرثر مع هيرتن كأبهج ما يتصور المرء الضحك والثرثرة، وكان هيرتن قد أصبح فتى يافعًا مفتول العضل يناهز الثامنة عشرة، يحدق فيها في كثير من الفضول والدهشة، وهو لا يفقه إلا القليل من هذا السيل من الملاحظات والأسئلة الذي لم يفتأ يتدفق من لسانها.

وقلت لها وأنا أخفي فرحتي تحت وجه غضوب: «حسن جدًا يا آنسة! هذه آخر رحلة تخرجين فيها إلى أن يعود أبوكِ، إنني لن أطمئن إلى تركك تجاوزين عتبة الدار وحدك مرة ثانية، أيتها الصبية الخبيثة!».

وصاحت في جذل وهي تطفر وتقبل إليَّ عدوًا: «مرحى يا آلن! سيكون في جعبتي قصة طريفة أقصها عليكِ الليلة، وهكذا عثرت عليَّ، هل سبق لكِ أن جئت إلى هذا البيت من قبل؟».

قلت: «البسي قبعتك هذه وهيا بنا إلى البيت فورًا، إنني لمحزونة أشد الحزن بسببك يا مس كاثي، فقد أتيت خطأً كبيرًا! ولا جدوى في التجهم والبكاء، فلن يعوضني هذا عما عانيت وأنا أذرع الأرض بحثًا عنكِ، فكيف يوصيني مستر لنتن أن أبقيك في البيت، ثم تتسللين خارجه على هذا النحو! إن هذا يدل على أنكِ ثعلبة صغيرة خبيثة، ولن يضع إنسان فيكِ ثقته بعد اليوم».

وقالت وهي تنتحب وقد ساءها كلامي حين سمعته: «ماذا أتيت من ذنب؟ إن أبي لم يوصني بشيء، وهو لن يوبخني يا آلن.. إنه لا يحتد معي ألبتة كما تحتدين!».

وقلت لها مرة أخرى: «هيا، هيا! سأعقد لك هذا الشريط، والآن لا أريد مزيدًا من النزق، عار عليكِ! لقد بلغت الثالثة عشرة، وأنتِ تتصرفين كالأطفال!».

قلت هذا حين رأيتها تدفع القبعة عن رأسها وتجري إلى المدفأة بعيدًا عن متناول يدي.

وقالت الخادم: «لا تقسي على الصبية اللطيفة يا مسز دين، لقد حملناها نحن على دخول البيت، وقد كانت تؤثر أن تمضي في رحلتها، خشية أن تقلقي عليها، وقد عرض هيرتن أن يصحبها، ورأيت أن هذا واجبه؛ لأن الطريق وعر فوق التلال!».

ووقف هيرتن أثناء هذا النقاش ويداه في جيبيه وقد عقد الارتباك لسانه، وإن بدا عليه عدم الارتياح لتطفلي عليهما.

ومضيت أقول غير عابئة بتدخل المرأة: «كم من الوقت يجب عليَّ أن أنتظركِ؟ سيدركنا الظلام بعد عشر دقائق، أين الفرس يا مس كاثي؟ وأين فينكس؟ إنني سأتركك إذا لم تعجلي، فاختاري ما يحلو لكِ».

فأجابت: «إن الفرس في الفناء، وفينكس محبوس هناك، وهو معضوض، وكذلك تشارلي، كنت أوشك أن أقص عليكِ الأمر كله، ولكنكِ محتدة غاضبة لا تستحقين أن

تسمعي قصتي».

والتقطت قبعتها ودنوت منها لأضعها على رأسها من جديد، ولكنها أخذت تقفز حول الحجرة حين شعرت أن أهل الدار ينحازون إليها، وجريت خلفها فجرت كالفأر من فوق الأثاث ومن تحته ومن خلفه، وجعلت مطاردتي لها أمرًا يبعث على السخرية، وضحك هيرتن والمرأة، وضحت هي معهما، وغدت أكثر نزقًا، حتى اشتد بها ضيقي فصحت: «حسن يا مس كاثي، لو علمت بيت من هذا الذي أنتِ تحت سقفه لسرك أن تخرجي منه».

فقالت موجهة كلامها إلى هيرتن: «إنه بيت أبيك، أليس كذلك؟».

فأجاب وهو يطرق ويحمر خجلًا: «كلا».

ولم يستطع أن يثبت لنظرة طويلة من عينيها، وإن كانت هاتان العينان شديدتي الشبه بعينيه.

فسألته: «بيت من إذن؟ بيت سيدك؟».

واشتد احمرار وجهه وإن اختلف الشعور هنا، وتمتم يشتم، ثم تحول عنها.

ومضت الصبية المتعبة توجه إليَّ الخطاب: «من يكون سيده؟ لقد كان يقول: «بيتنا» و«أسرتنا»، فظننته ابن رب البيت، ثم إنه لم يقل لي آنسة ألبتة، وكان يجب عليه أن يفعل ما دام خادمًا، أليس كذلك؟».

وأربد وجه هيرتن حين سمع هذا الكلام الصبياني، وهززت محدثتي في صمت، وأخيرًا أفلحت في إعدادها للرحيل.

وقالت تخاطب قريبها الذي تجهل أمره كأنها تخاطب سائسًا من سائسي الخيل في بيتها: «والآن أحضر لي فرسي، ولك أن تصحبني إن شئت، فإنني أريد أن أرى أين يظهر صائد العفاريت في المستنقع، وأن أسمع قصصك عن الجنيات، ولكن عجل! ما خطبك! أقول لك أحضر فرسي!».

وزمجر الفتى يقول: «سأراكِ تصلين نار الجحيم قبل أن أكون خادمك!».

وسألته كاثرين في دهشة: «ستراني ماذا؟».

فأجاب: «تصلين نار الجحيم أيتها الساحرة الوقحة!».

وقاطعتهما قائلة لها: «أرأيت يا مس كاثي! أرأيت كيف ورطت نفسك في هذه الصحبة الفاضلة، يا لها من ألفاظ جميلة تصلح لخطاب شابة! لا تبدئي الشجار معه من فضلك، تعالي نبحث عن منى بنفسنا وننصرف».

فصاحت وقد أعجزتها الدهشة عن الحركة: «ولكن كيف يجرؤ على مخاطبتي بهذه العبارات يا آلن؟ ألم يوجد ليصدع بما آمره؟ أيها المخلوق الشرير، سأخبر أبي بما قلته.. والآن هيا!».

ولم يبد على هيرتن أنه يعبأ بتهديدها هذا، فترقرق الدمع في عينيها غيظًا واتجهت

إلى المرأة وقالت لها: «أحضري أنتِ فرسي وأطلقي سراح كلبي فورًا».

فأجابت المرأة: «على رسلك يا آنسة، فلن يضيرك أن تتأدبي في

مخاطبة الناس، فإذا كان مستر هيرتن هذا ليس ابن رب البيت فإنه ابن خالك، أما أنا فإني لم أؤجر لأخدمك».

وصاحت كاثي وهي تضحك في سخرية: «هذا ابن خالي!».

وأجابت لائمتها: «أجل إنه لكذلك».

ومضت كاثرين تقول وقد اشتد كربها: «بربك يا آلن لا تدعيهم يقولون كلامًا كهذا، لقد ذهب أبي ليحضر ابن عمتي[5] من لندن، وابن عمتي ابن رجل سري، أيكون هذا...»، ثم أمسكت، وأجهشت بالبكاء وقد أزعجتها فكرة القرابة بينها وبين مثل هذا الصعلوك.

وهمست في أذنها أقول: «صه صه! ففي وسع الناس أن يكون لهم أبناء عمومة وخؤولة من كل لون، دون أن يسيء ذلك إليهم في شيء، وليس عليهم إلا أن يتجنبوا معاشرتهم إذا كانوا أرذالًا لئامًا».

وواصلت حديثها وقد جدد التفكير حزنها، فارتمت بين ذراعي مستعيذة بي من هذه الفكرة: «إنه ليس ابن خالي يا آلن... ليس ابن خالي».

واشتد غيظي منها ومن الخادمة لما أفشيا من أسرار، ولم يخامرني الشك في أن هيثكليف سيبلغ بقرب وصول لنتن، وهو الخبر الذي أذاعته كاثرين، وكذلك كنت واثقة من أن أول ما سيخطر ببال كاثرين إذا عاد أبوه هو أن تسأله تفسيرًا لما زعمته الخادمة من صلة بينها وبين هذا القريب السيئ التربية، وبدا عل هيرتن التأثر لحزنها بعد أن أفاق من تقززه حين حسبته الفتاة خادمًا، فذهب وجاء بالفرس إلى الباب، ثم أراد مصالحتها فأخذ من الوجار جروًا مقوس الأرجل ووضعه في يدها، ثم أخبرها بأن تكفكف دموعها! وقال إنه لم يقصد الإساءة إليها، أما هي فقد أمسكت عن البكاء هنيهة، ورمقته بنظرة ملؤها الرهبة والارتياع، ثم أجهشت بالبكاء من جديد.

ولم أستطع منع نفسي من الابتسام لما بدا عليها من نفور من الفتى المسكين، وكان شابًّا رياضي الجسم حسن التكوين مليح الوجه، قويًّا سليمًا، ولكنه كان يرتدي من الملابس ما يناسب شغله اليومي سواء في المزرعة أوبين البراري التي يجوسها التماسًا للأرانب وحيوان الصيد،ومع ذلك فقد خُيِّل إليَّ أنني أستطيع أن أتبين في قسمات وجهه عقلًا تكمن فيه مواهب لم يؤت مثلها أبوه من قبل، صحيح أنها فضائل تضل في تيه من الأعشاب البرية الضارة التي تطغى على هذا النبت المهمل، ولكنها رغم ذلك دليل على تربة غنية خليقة بأن تثمر ثمرًا وفيرًا إذا أتيحت لها ظروف مواتية غير هذه. وفي ظني أن مستر هيثكليف لم يؤذه في بدنه، وذلك راجع إلى طبيعة الفتى الجريئة التي لا تغرى بهذا الضرب من الظلم، ولأنه كان خلوًّا من الرهافة الهيابة التي تضفي في رأي هيثكليف لذة على سوء المعاملة، ويبدو أن هيثكليف وجه شره وجهة أخرى هي أن يجعل من هذا الغلام وحشًا، فلم يسمح بتعليمه القراءة أو الكتابة قط، ولم يوبخه على عادة سيئة لا يضيق بها مربيه، ولم يأخذ بيده خطوة واحدة في طريق الفضيلة أو يعلمه عقيدة واحدة تقيه الرذيلة، وقد تبين لي مما بلغني من أنباء أن جوزيف أسهم كثيرًا في إفساد الفتى بتحيزه له تحيزًا ينطوي على ضيق الفكر ويحمله على تملقه وتدليله بوصفه ولدًا لأنه رأس الأسرة

القديمة، وكان يلقي كل اللوم فيما يرتكب هيرتن من أخطاء على مغتصب ثروته، كما كان شأنه في الماضي حين يتهم كاثرين إيرنشو وهيثكليف، وهما صبيان بعد، بمضايقة سيده مضايقة تذهب بصبره، وبأنهما يكرهانه «بسلوكهما القذر» كما كان يقول على التماس العزاء في الخمر، فإذا سب الفتى لم يوبخه أو يعاقبه، وكذلك كان يفعل مهما كان سلوكه شائنًا، ويُخيَّل إليَّ أن جوزيف كان يحس الرضى حين يراه يتمادى في غيه، وكان يسلم بأن الفتى قد فسد، وأن روحه مصيرها الهلاك، ولكنه كان يعتقد أن هيثكليف هو المسؤول عن هذا، وأنه هو الذي سيطلب دم هيرتن، فيجد في هذه الفكرة عزاء كبيرًا، وغرس جوزيف في نفس الفتى الاعتزاز باسمه وعراقة أصله، ولو أوتي الشجاعة لبذر بذور الكراهية بينه وبين رب البيت، ولكن خوفه من هيثكليف كان يبلغ حدًّا لا يصدقه العقل، فقصر التعبير عن شعوره نحوه

على إشارات يتمتم بها وعلى تهديد له يحدث به نفسه. ولست أزعم أنني وثيقة العلم بأحوال أهل وذرنج هيتس وعاداتهم في تلك الحقبة، ولكنني استقيت هذا مما كنت أسمع من أنبائهم، فإني لم أرَ من أمرهم إذ ذاك إلا أقله، وكان القرويون يؤكدون أن مستر هيثكليف على رأسهم في كل وقت، وأنه مالك صعب المراس ثقيل الوطأة على مستأجريه، ولكن البيت في داخله استعاد ما كان يمتاز به قديمًا من مظاهر الراحة حين كانت المرأة تدبر شؤونه، ولم تعد تمثل بين جدرانه مشاهد الشغب التي ألفها أهله على حياة هندلي، وكان رب البيت، وما زال، مبتئسًا مكتئبًا اكتئابًا لا يغريه بمعاشرة ا لناس أيًّا كانوا أخيارًا أو أشرارًا.

على أنني بهذه الأقوال لا أتقدم في سرد قصتي، لقد رفضت مس كاثي قبول الجرو الذي قدمه لها هيرتن ليسترضيها، وطالبت بكلبيها تشارلي وفينكس، فجيء بهما يعرجان مطأطئي الرأس، وانطلقنا عائدين إلى البيت وكلنا كاسف البال متبرم، ولم أستطع أن أنتزع من سيدتي الصغيرة قصة هذا اليوم وكيف أمضته، اللهم إلا أنها خرجت في رحلتها قاصدة صخور بنستون كما ظننت، وأنها وصلت إلى باب بيت الضيعة دون حادث، فلقيت هيرتن مصادفة وقد خرج يتبعه بعض كلابه، فهاجمت كلبيها، واشتبك الفريقان في معركة حامية الوطيس قبل أن يفلح صاحباها في التفريق بينها، وكان هذا الحادث وسيلة التعارف بينهما، وأخبرت كاثرين هيرتن من هي وما مقصدها وطلبت إليه أن يدلها على الطريق، وانتهت بإغرائه بأن يصحبها، وفتح لها هيرتن مغاليق كهف الجنية وغيره من البقاع العجيبة، ولكنها لم تتعطف عليّ بوصف الأشياء الممتعة التي شهدتها لأنها كانت غاضبة عليّ، على أنني استخلصت أن مرشدها ظل أثيرًا عندها إلى أن أساءت إليه حين دعته بالخادم، كذلك أساءت إليها خادمة هيثكليف حين زعمت أنه ابن خالها، ثم حزت في نفسها الألفاظ التي خاطبها بها، فهي التي لم تألف في بيتها إلا أن يدعوها الكل «بالحبيبة» و«العزيزة» و«الملكة» و«الملاك»، كيف يسبها غريب بهذه العبارات الجارحة! إنها لم تستطع أن تسيغ هذا، ولقد جهدت أشد الجهد حتى انتزعت منها وعدًا بألا تبلغ أباها هذه الإساءة، وبينت لها إعراضه عن أهل وذرنج هيتس جميعًا، وأنه سيأسف أشد الأسف إذا عرف أنها ذهبت إلى بيتهم، ولكني أكدت أكثر ما أكدت ما ينتظرني من غضب أبيها إذا ما باحت له بإهمالي لأوامره، هذا الغضب الذي سيضطرني إلى الرحيل عنهم، وهو احتمال لا تطيقه كاثي، لذلك قطعت على نفسها عهدًا أوفت به لأجل خاطري، فلقد كانت رغم هذا كله فتاة ظريفة.

* * *

الفصل التاسع عشر

تسلمنا رسالة سوداء الإطار أنبأتنا باليوم الذي سيعود فيه سيدي، ذلك أن إيزابيلا ماتت، فكتب يطلب إليَّ أن أعد لابنته ثياب الحداد، وأن أجهز لابن أخته الصبي حجرة وما إليها من أسباب الراحة، وكادت كاثرين تطير من الفرحة بقرب لقائها لأبيها، وأخذت تعلل نفسها بما سترى في ابن عمتها «الحقيقي» من مواهب لا تُحصى، وجاء المساء الذي انتظرنا فيه وصولهما، وكانت كاثي مشغولة منذ الصباح الباكر بطلباتها الصغيرة الخاصة، ثم ألزمتني بإلحاحها المستمر أن أسير معها في فناء البيت للقائهما وقد ارتدت ثوبها الأسود الجديد.. ولم تكن المسكينة تستشعر أي حزن واضح المعالم لموت عمتها.

وأخذت تثرثر ونحن نسير الهوينا فوق الربى والوهاد المكسوة بالعشب، والأشجار تبسط علينا ظلالها، فقالت: «إن لنتن يصغرني بشهور ستة بالضبط، لشد ما يبهجني أن يكون لي تربًا ألاعبه! لقد أرسلت عمتي إيزابيلا لأبي خصلة جميلة من شعره، فكانت أشد شقرة من شعري، أقرب إلى لون الكتان ولها نعومته، وأنا أحرص على الاحتفاظ بها في صندوق زجاجي صغير، وطالما قلت لنفسي كم يكون سروري برؤية صاحبها. آه! إنني سعيدة -وأبي، أبي العزيز الحبيب! هيا يا آلن، هيا بنا نجري!».

وجرت، ثم عادت، ثم جرت مرة أخرى، وأعادت هذا مرات قبل أن تصل خطاي المتئدة الباب الخارجي، ثم جلست على المرتفع المعشب المجاور للطريق، وحاولت أن تنتظر في صبر، ولكن هيهات، فقد عجزت عن البقاء في مكانها دقيقة واحدة.

وصاحت: «ما أبطأ وصولهما! هأنذا أرى غبارًا يثور في الطريق.. إنهما قادمان! لا! متى يصلان؟ ألا يحسن بنا أن نسير بعض الطريق للقائهما.. نصف ميل يا آلن، نصف ميل فقط؟ قولي نعم بربك، نسير إلى هذه المجموعة من أشجار النامول عند زاوية الطريق!».

ورفضت هذا بشدة، وأخيرًا انتهى قلقنا، وأقبلت عربة السفر، وصاحت مس كاثي ومدت ذراعيها حالما وقعت عينها على وجه أبيها يطل من النافذة، وهبط أبوها من العربة وشوقه إليها لا يكاد يقل عن شوقها إليه، ومضت برهة طويلة قبل أن يفكرا في أحد سوي نفسيهما، وبينما كانا يتعانقان تطلعت إلى داخل العربة لأختلس نظرة إلى لنتن، فوجدته نائمًا في ركن منها مدثرًا بمعطف ثقيل مبطن بالفراء كأن الوقت شتاء، وكان صبيًا شاحب اللون رقيق الجسد له وجه فتاة يحسبه الناظر أخًا أصغر لسيدي لما بينهما من شبه شديد، ولكني تبينت في مظهره ابتئاسًا سقيمًا لم يكن في إدجر لنتن ألبتة، ورآني إدجر أنظر إلى الصبي، وبعد أن صافحني أشار عليَّ أن أغلق باب العربة وأترك الصبي نائمًا لأن الرحلة أتعبته، وكانت كاثي تتوق إلى إلقاء نظرة عليه، ولكن أباها أخبرها بأن تصحبه، وسار كلاهما مجتازين البستان بينما أسرعت قبلهما لإنباء الخدم وإعدادهم للعمل.

وقال مستر لنتن لابنته وقد وقفا أسفل السلم الأمامي: «إن ابن عمتك يا حبيبتي ليس في قوتك ولا مرحك، واذكري أنه فقد أمه منذ وقت قريب، لذلك لا تتوقعي منه أن يشاركك اللعب والجري لتوه، ولا تضايقيه كثيرًا بالكلام، واتركيه في راحة هذا المساء على الأقل، فهلا فعلت؟».

فأجابت كاثرين: «نعم نعم يا أبت، ولكني تواقة إلى رؤيته، وهو لم يطل من العربة

مرة واحدة لأراه».

ووقفت العربة، وأوقظ النائم، ثم حمله خاله وأوقفه على الأرض.

وقال له وهو يقرب بين يديهما الصغيرتين: «هذه ابنة خالك كاثي يا لنتن، لقد أصبحت كلفة بك، فلا تحزنها بالبكاء هذه الليلة، وحاول أن تبتهج الآن، فقد انتهت الرحلة، وليس عليك إلا أن تستريح وترفه عن نفسك كما تشاء».

فأجاب الصبي وقد جفل من مصافحة كاثرين: «إذن دعني أذهب إلى فراشي»، ثم رفع أصابعه إلى عينيه ليكفكف الدموع التي بدأت تنحدر

منهما.

وهمست في أذنه وأنا أدخله البيت: «كفى كفى، إنك ولد طيب، ستجعلها تبكي هي الأخرى.. انظر كيف تبدو أسيفة لأجلك!».

ولست أدري هل كان أسفها لأجله، ولكنها بدت بوجه حزين كوجهه ثم عادت إلى أبيها، ودخل ثلاثتهم الدار وصعدوا إلى المكتبة حيث كان الشاي معدًا، وبدأت أنضو عن لنتن قلنسوته ومعطفه، وأجلسته على مقعد بجوار المائدة، ولكن ما إن جلس حتى عاود البكاء، وسأله سيدي ما خطبه؟

فقال الغلام، وهو ينتحب: «لا أستطيع أن أجلس على كرسي!».

وأجاب خاله في صبر: «إذن فاذهب إلى الأريكة، وستحضر إليك آلن بعض الشاي».

وأحسست بأن خاله لا شك قد لقي أثناء الرحلة عناء أي عناء من جراء هذه الوديعة الكثيرة الشكوى والتبرم، وسار لنتن ببطء إلى الأريكة ورقد عليها، وحملت كاثي مقعدًا صغيرًا وأخذت قدحها إلى جواره، وجلست صامتة أول الأمر، ولكن ذلك لم يدم طويلًا، فقد كانت مصممة على أن تجعل من ابن عمتها الصغير ذلك الغلام المدلل الذي تحلم به، فبدأت تداعب غدائره المجعدة وتقبل وجنته وتقدم له الشاي في صحنها كأنه طفل صغير، وسره هذا لأنه لم يكن خيرًا من الطفل الصغير، فجفف دموعه وافتر ثغره عن ابتسامة ضعيفة واهنة.

وقال لي السيد بعد أن راقبهما دقيقة: «أعتقد أن حاله ستتحسن جدًا إذا استطعنا أن نحتفظ به عندنا يا آلن، فإن وجوده في صحبة صبية من سنه سينفخ فيه روحًا جديدة عما قريب، وما دام تواقًا إلى العافية فسيبلغها».

وقلت لنفسي: «نعم، إذا استطعنا أن نحتفظ به».

وخامرتني أشد الريب في إمكان تحقيق هذا الأمل، ثم ساءلت نفسي ترى كم يعمر هذا الصبي العليل في وذرنج هيتس؟ وأي ضرب من الأتراب والمعلمين سيلقى وهو ما بين أبيه وهيرتن؟ وما لبثت ظنوننا أن تحققت -وتحققت بأسرع مما توقعت- وكنت قد صعدت بالصبيين إلى الطابق العلوي بعد تناول الشاي، ووضعت لنتن في فراشه وبقيت معه حتى نام؛ لأنه لم يسمح لي بمغادرته قبل ذلك، ثم نزلت ووقفت بجوار المائدة في بهو المنزل أضيء شمعة لمستر إدجر ليأخذها إلى حجرة نومه، وإذا خادمة تخرج من المطبخ وتنبئني

بأن جوزيف خادم مستر هيثكليف بالباب يريد التحدث إلى رب البيت.

قلت وقد أصابني اضطراب شديد: «سأسأله أولًا عن حاجته، فهذا الوقت لا يصلح ألبتة لإزعاج الناس، لا سيما في اللحظة التي يعودون فيها من سفر طويل، ولست أظن سيدي مستطيعًا لقاءه».

وفيما كنت أتكلم كان جوزيف قد عبر المطبخ وظهر أمامي في البهو، وكان يرتدي ثياب الأحد ويصطنع أقدس مظاهر وجهه وأكثرها فظاظة، وأخذ ينظف حذاءه على الممسحة وفي إحدى يديه قبعته وفي الأخرى عصاه.

قلت له في برود: «مساء الخير يا جوزيف، أي مهمة تلك التي أتت بك الليلة؟».

فأجاب في ازدراء وهو لا يعبأ بي: «إنما جئت لأتحدث إلى مستر لنتن!».

وواصلت حديثي: «لقد مضى مستر لنتن إلى فراشه، ولست أظنه يريد أن يستمع إليك الآن، ما لم يكن عندك رسالة هامة تريد أن تبلغها له، فيحسن بك أن تجلس هناك وتفضي إليَّ بما تريد».

ومضى الرجل يسألني وهو يجيل بصره في صف الأبواب المغلقة: «أي هذه الحجرات حجرته؟».

وأدركت أنه مصمم على رفض وساطتي، فصعدت إلى المكتبة على مضض شديد، وأنبأت رب البيت بقدوم هذا الزائر في هذه الساعة المتأخرة، وأشرت عليه بصرفه حتى الغد، ولكن جوزيف لم يتح له الفرصة ليأذن لي بصرفه؛ لأنه صعد في إثري واقتحم الحجرة ووقف

مسمرًا على طرف المنضدة البعيد وقبضتاه تمسكان برأس عصاه، ثم بدأ يتكلم في نبرة عالية كأنه يتوقع معارضة:

«لقد أرسلني هيثكليف في طلب ولده ولن أعود من دونه».

وصمت إدجر لنتن دقيقة، وعلت سحنته مسحة من الحزن العميق، وكانت حال الغلام في ذاتها كافية لإثارة عطفه عليه، ولكنه إذ ذكر آمال إيزابيلا ومخاوفها وأمانيها التي كانت تتوق إلى تحقيقها لولدها، وأنها استودعته ابنها وتركته لرعايته، شعر بحزن مرير لاحتمال نزوله عنه، وفتش في قلبه عن سبيل يتقي بها هذه الضرورة، ولكن لم يكن أمامه من سبيل، ولو أنه أفصح عن أي رغبة في الاحتفاظ بالغلام لزاد ذلك الطالب تحكمًا وتعسفًا، فلم يبق إلا التخلي عنه، على أنه صمم على ألا يوقظه من نومه.

وأجاب في هدوء: «أخبر مستر هيثكليف أن ابنه سيصل إلى وذرنج هيتس غدًا، فهو الآن في فراشه، متعب إلى حد لا يتيح له الخروج في هذه الرحلة، ولك أن تخبره أيضًا أن والدة لنتن رغبت إليَّ أن أبقيه تحت رعايتي، وصحته الآن في خطر».

وقال جوزيف وهو يضرب الأرض بعصاه ويتكلم بلهجة الآمر الناهي: «كلا كلا! لن يكون هذا، ولن يعبأ هيثكليف بأم الغلام ولا بك، ولا بد أن يسترد ولده، ويجب أن آخذه.. فانظر ما أنت فاعل!».

وأجاب لنتن في لهجة قاطعة: «لن تأخذه الليلة! فانزل من فورك وأعد ما قلته على مسامع سيدك. خذيه يا آلن. انصرف».

وأمسك بذراع الشيخ الساخط يعينه على الخروج، وأخرجه من الحجرة، ثم أغلق الباب.

وصاح جوزيف وهو يبتعد في بطء: «حسن جدًّا! سيأتي لك غدًا بنفسه، فاقذف به خارجًا إن استطعت!».

* * *

الفصل العشرون

كلفني مستر لنتن أن آخذ الصبي إلى بيت أبيه في الصباح الباكر على فرس كاثرين مخافة أن يتحقق هذا الوعيد، وقال لي: «يجب ألا تقولي لابنتي شيئًا عن مكانه لأنه لن يكون لنا الآن سلطان على مصيره خيرًا كان أو شرًّا، فلن تستطيع الاختلاط به بعد اليوم، وخير لها أن تظل جاهلة بقربه منها لئلا يجعلها هذا قلقة تواقة إلى زيارة وذرنج هيتس، وحسبك أن تقولي لها إن أباه أرسل في طلبه فجأة، فاضطر إلى الرحيل عنا».

وشق على لنتن أن يوقظ من نومه في الساعة الخامسة، وأدهشه أن يسمع أن عليه أن يعد نفسه لسفر جديد، ولكني هونت عليه الأمر بقولي إنه سينفق فترة من الوقت مع أبيه، مستر هيثكليف، الذي يتوق إلى رؤيته، والذي لم يشأ أن يؤجل استمتاعه بلقاء ولده إلى أن يفيق من وعثاء السفر الأخير.

وصاح الغلام مذهولًا: «أبي! إن أمي لم تخبرني بأن لي أبًا، أين يسكن؟ إني أفضل البقاء مع خالي».

فأجبته: «إنه يسكن غير بعيد من بيتنا، وراء هذه التلال بالضبط، وليست المسافة بعيدة، ولكنك تستطيع أن تأتي إلى هنا سيرًا على الأقدام حين تسترد عافيتك، وخليق بك أن تغتبط لأنك ذاهب إلى بيت أبيك ولأنك ستراه، ويجب أن تحاول أن تحبه كما كنت تحب أمك، فإذا فعلت أحبك هو أيضًا».

فسألني لنتن: «ولكن لم أسمع به من قبل؟ ولِمَ لمْ يعش مع أمي كما يفعل الناس جميعًا؟».

فأجبته: «كانت مشاغله ترغمه على البقاء في الشماء، بينما كانت صحة أمك تحتم عليها أن تقيم في الجنوب».

وواصل الغلام أسئلته: «ولِمَ لمْ تحدثني أمي عنه؟ لقد كانت تتحدث كثيرًا عن خالي، وقد تعلمت أن أحبه منذ زمن طويل، فكيف تريدينني أن أحب أبي؟ إنني لا أعرفه!».

قلت: «لا بأس، إن كل الأطفال يحبون آباءهم، ولعل أمك ظنت أنها لو حدثتك عنه كثيرًا لرغبت في الحياة معه، فلنسرع إذن بالخروج، فإن الركوب في صباح جميل كهذا خير من البقاء في الفراش ساعة أخرى».

وسألني: «أتذهب معنا الفتاة الصغيرة التي رأيتها أمس؟».

فأجبته: «ليس الآن».

ومضى يسأل: «وهل يذهب خالي؟».

قلت: «لا، سأرافقك أنا إلى هناك».

وارتمى لنتن على وسادته من جديد وسرح، ثم بكى أخيرًا وقال: «لن أذهب من دون خالي، لا أدري أين تريدين أن تأخذيني».

وحاولت إقناعه بأن من الخبث أن يبدي زهده في رؤية أبيه، ومع ذلك فقد قاوم محاولتي إلباسه ثيابه، فاضطررت للاستعانة برب البيت فلاطفه حتى قام من فراشه، وخرج المسكين آخر الأمر بعد أن بذلت الكثير من التأكيدات الخداعة بأن غيابه لن يطول، وبأن مستر إدجر وكاثي سيزورانه، إلى غير ذلك من الوعود الكاذبة التي اصطنعتها وأعدتها على مسامعه بين الحين والحين أثناء الرحلة، وما لبث الهواء النقي المتضوع بأريج الخلنج، والشمس الساطعة، وخطى منى المتئدة، أن خففت من ابتئاسه، فبدأ يوجه إليَّ الأسئلة عن بيته الجديد، وعن أهله، في اهتمام ونشاط أعظم.

وسألني بعد أن أدار وجهه ليلقي نظرة أخيرة على الوادي الذي تصاعد منه ضباب خفيف كوَّن غمامة صوفية على حافة السماء الزرقاء: «هل وذرنج هيتس بيت لطيف كضيعة ثرشكرس؟».

فأجبته: «إن الشجر لا يحدق به هذا الإحداق، وهو ليس في سعة بيتنا، ولكنك تستطيع أن تشهد منه منظرًا رائعًا للريف المحيط به، ثم إن الهواء هناك أنسب لصحتك لأنه أنقى وأجف، وقد يبدو لك البناء عتيقًا

معتمًا لأول وهلة، ولكن البيت محترم، فهو ثاني بيت في هذه الناحية، وسيريك أجمل البقاع فيها هيرتن إيرنشو -وهو ابن خال مس كاثي، فهو إذن قريبك أنت أيضًا، وسيكون في وسعك أن تأتي بكتاب إذا كان الجو صحوًا وتتخذ لك مجلسًا للقراءة من فجوة خضراء، ولا بأس بأن يخرج خالك معك في جولة بين الحين والحين، والواقع أنه كثيرًا ما يسير على هذه التلال».

فسألني: «وما شكل أبي؟ أهو صغير السن مليح الصورة كخالي؟».

قلت: «إنه صغير، ولكن له شعرًا أسود وعينين سوداوين، وهو يبدو صارمًا عن خالك، وهو أ»ول منه وأضخم كثيرًا، وقد لا تجده لأول وهلة مهذبًا لطيفًا كخالك؛ لأن ذلك ليس طبعه، ولكن لا تنس أن تكون معه صريحًا مخلصًا، وهو بطبيعة الحال سيكلف بك أكثر مما يكلف بك أي خال، لأنك ابنه».

وقال لنتن وهو يدير كلامي في ذهنه: «شعر أسود وعينان سوداوان، لست أستطيع تصور شكله، إذن فلست أشبهه، أليس كذلك؟».

فأجبته: «ليس الشبه كبيرًا بينكما»، ولكني قلت لنفسي إنه ليس بينهما ذرة من شبه، بعد أن نظرت آسفة إلى وجه رفيقي الشاحب وجسده النحيل وعينيه الذابلتين الكبيرتين -وهما عينا أمه بالضبط- لولا أنهما خلتا من كل أثر لروحها الوثابة المتقدة، تلك الروح التي لا تلمع في عينيه إلا لحظة حين تتقدان بغضب مريض».

وتمتم يقول: «عجيب أنه لم يأتِ قط ليرى أمي ويراني! هل رآني قط في حياته؟ إن كان قد فعل فلا بد أنني كنت إذ ذاك رضيعًا، فإنني لا أذكر عنه شيئًا ألبتة!».

قلت له: «يا سيد لنتن، إن ثلاثمائة ميل ليست بالشيء اليسير، ونظرة الشخص الكبير إلى حقبة السنوات العشر تختلف اختلافًا كبيرًا عن نظرة الطفل إليها، وأغلب الظن

أن مستر هيثكليف كان يعتزم زيارتكما من صيف إلى صيف، ولكنه لم يجد فرصة مواتية، والآن قد فات أوان الكلام في هذا، فلا تضايقه بأسئلتك في هذا الموضوع، فلن تجني من وراء ذلك إلا تنغيصه».

وغرق الغلام في تأملاته بقية الرحلة حتى وقفنا بباب حديقة المزرعة، وراقبته لكي ألحظ تأثراته في سحنته، فرأيته يلقي نظرة على واجهة البيت المنحوتة ونوافذه المنخفضة، وعلى شجيرات عنب الديب المتطوحة وأشجار الشربين المعوجة وقد بدا عليه التدقيق والاهتمام، ثم هز رأسه، فقد أحس في قرارة نفسه بأنه غير راضٍ البتة عن مظهر مسكنه الجديد، ولكن كان له من الحصافة ما جعله يؤجل الشكوى، فلعل في داخل البيت ما يعوض النقص في مظهره، وذهبت لأفتح الباب قبل أن يترجل، وكانت الساعة السادسة والنصف، وقد فرغت الأسرة من إفطارها، والخادمة ترفع الأطباق وتمسح المائدة، ووقف جوزيف بجوار مقعد سيده يقص عليه شيئًا عن حصان أعرج، وكان هيرتن يتهيأ للذهاب إلى حقل الدريس.

وقال هيثكليف حين رآني: «هذه أنتِ يا نلي! لقد خشيت أن يضطرني سيدك إلى الذهاب إليه بنفسي لأسترد منه ما لي، لقد أحضرته معكِ، أليس كذلك؟ لنر ما شكله».

ثم قام ومشى إلى الباب بخطى واسعة، وسار في إثره هيرتن وجوزيف في فضول شديد، ونظر لنتن المسكين إلى وجوه ثلاثتهم نظرة الخوف.

وقال جوزيف بعد أن دقق النظر إلى الغلام: «إنه يبادلك النظرات يا سيدي كأنك أنت ولده!».

وأطلق هيثكليف ضحكة ساخرة بعد أن حدَّق في ولده تحديقًا جعله يضطرب اضطرابًا شديدًا، ثم صاح:

«يا إلهي! يا له من غلام رائع الحسن! يا له من فتى جميل يفتن الناظرين! ألا تظنينهم غذُّوه على القواقع واللبن المفروز يا نلي؟ عليَّ اللعنة! ولكنه شر مما توقعت.. ويعلم الشيطان أنني لم أكن في تقديري متفائلًا!».

وطلبت إلى الصبي المرتعد الحائر أن يترجل ويدخل، أما هو فلم يفقه

معنى كلام أبيه تمامًا، ولم يدر هل الكلام موجه إليه أو المقصود به غيره، بل إنه لم يكن بعد متأكدًا من أن ذلك الغريب الساخر العابس الوجه هو أبوه، ولكنه تشبث بي في خوف متزايد، ولما جلس مستر هيثكليف وأمره قائلًا: «تعال هنا»، أخفى الغلام وجهه على كتفي ثم بكى.

وقال هيثكليف وهو يمد يده ويجره في خشونة إلى ما بين ركبتيه ويرفع رأسه من ذقنه: «كفى كفى! كف عن هذا السخف! فإننا لن نؤذيك يا لنتن.. أليس هذا اسمك؟ إنك بجملتك ابن أمك! فأين نصيبي فيك أيها الفرخ البكَّاء؟».

ثم نزع قلنسوة الغلام ودفع خصل شعره الأشقر الغزير إلى الخلف، وتحسس ذراعيه النحيلتين وأصابعه الصغيرة، وكان لنتن قد كف عن البكاء أثناء هذا الفحص ورفع عينيه الزرقاوين الكبيرتين ليتأمل فاحصه.

وسأله هيثكليف بعد أن اطمأن إلى أن أطرافه جميعها تستوي رقة وهزالًا: «أتعرفني؟».

وقال لنتن وفي عينيه نظرة خوف غامض: «لا».

- ألعلك سمعت بي؟

فأجاب ثانية: «لا».

«لا! عار أي عار على أمك ألا توقظ فيك عاطفة الاحترام لأبيك! إذن فاعلم أنك ابني، وأن أمك كانت امرأة قذرة لأنها تركتك في جهل من أمر أبيك، والآن حذار أن تجفل أو يحمر وجهك! وإن كان مما يعزيني أن أرى دمك ليس أبيض اللون، كن ولدًا طيبًا أعوضك عن أمك، اجلسي يا نلي إن كنتِ متعبة، وإلا فانصرفي، وإني لأحسبك ستبلغين ذلك الإمعة ساكن ثرشكرس ما ترين وما تسمعين؟ وهذا الغلام لن يستقر له قرار ما دمت تتسكعين حوله».

فأجبته: «حسن، أرجو أن تترفق بالغلام يا مستر هيثكليف، وإلا فإنك لن تستطيع الإبقاء عليه طويلًا، وهو كل ما لك من رحم في هذه الدنيا الواسعة، فاذكر هذا!».

قال وهو يضحك: «سأترفق به غاية الترفق، فلا يخامرك ريب في هذا، إنما يجب ألا يترفق به غيري، فإنني غيور عليه حريص على أن أختص نفسي بمحبته، ولنبدأ الآن هذه المعاملة الرفيقة - يا جوزيف، هات للغلام فطوره، وأنت يا هيرتن، أيها العجل الخبيث، انصرف إلى عملك»، ثم واصل حديثه بعد انصرافهما: «أجل يا نلي، إن ابني هو الوريث المنتظر لبيتكم، ولست أريده أن يموت حتى أستوثق من أنني سأرثه، ثم إنه ولدي، وأنا تواق إلى الانتصار برؤية ولدي سيدًا على أملاكهم، يستأجر أبناءهم ليفلحوا أرض آبائهم لقاء أجر معلوم، هذا هو الاعتبار الوحيد الذي يجعلني أطيق هذا الجرو، فإنني لأحتقره لشخصه وأمقته للذكريات التي يثيرها في نفسي! ولكن في هذا الاعتبار الكفاية، فهو معي في مأمن، وسيلقى من رعايتي ما تلقاه ابنة سيدك من رعاية أبيها، لقد أعددت له في الطابق العلوي حجرة فرشتها بأثاث جميل الطراز، ولقد استخدمت له معلمًا يحضر ثلاث مرات في الأسبوع ويقطع إلينا عشرين ميلًا ليعلمه ما يشتهي أن يتعلم، ولقد أمرت هيرتن أن يطيعه، والواقع أنني رتبت له كل شيء لأبقي على عزته وسيادته فوق خلطائه، على أنني آسف لأنه لا يستحق هذا العناء كله، ولو كان لي في الحياة أمنية أنعم بها لتمنيت أن أراه فتى جديرًا بالفخر، ولكن هذا الحقير الشكاء البكاء خيب أملي أي خيبة!».

وبينما كان يتكلم عاد جوزيف يحمل صحفة من عصيدة اللبن وضعها أمام لنتن، ولكن الصبي تململ حين رأى هذا اللون الخشن ونظر إليه في نفور وأكد أنه لا يستطيع أن يأكله، ورأيت أن الخادم العجوز يشارك سيده إلى حد كبير احتقاره للصبي، وإن اضطر إلى إخفاء هذا الشعور لأن هيثكليف كان يعني، في غير لبس، أن يعامل الخدم ولده باحترام.

قال جوزيف، وهو يعيد كلمات لنتن، وينظر في وجهه ويخفض صوته حتى قارب الهمس؛ مخافة أن يسمعه سيده: «لا تستطيع أن تأكله؟ ولكن السيد هيرتن لم يكن يأكل غير هذا وهو صبي، وما كان يصلح له يصلح لك، هذا رأيي!».

وقال لنتن في حدة: «لن آكله! خذه بعيدًا عني».

وخطف جوزيف الطعام في سخط وأحضره إلينا، وقال وهو يدفع بالصحفة تحت أنف هيثكليف: «أفي هذا الطعام ما يعيبه؟».

وقال هيثكليف: «ما الذي يعيبه؟».

فأجاب جوزيف: «ولكن هذا الفتى المرفه يقول إنه لا يستطيع أكله، على أنني أظنه محقًّا! فقد كانت أمه كذلك - كانت ترانا أقذر من أن نزرع القمح لنصنع لها خبزها».

وقال رب البيت غاضبًا: «لا تذكر لي سيرة أمه، فأته بطعام يستطيع أن يأكله، هذا كل ما في الأمر ما طعامه العادي يا نلي؟».

وأشرت عليه بأن يأتيه باللبن المغلي أو الشاي، وتلقت الخادم أوامر بإعداد شيء منه، وقلت لنفسي مهلًا، فإن أنانية أبيه قد تسهم في تهيئة أسباب الراحة للغلام، وهو يرى بنيته الضعيفة التي تتطلب المعاملة الرفيقة، سأعزي مستر إدجر بإنبائه بهذا الاتجاه الذي يتخذه مزاجه هيثكليف وهواه، وإذ لم أجد مبررًا لبقائي في البيت أكثر مما بقيت، فقد تسللت إلى الخارج بينما كان لنتن مشغولًا بصد كلب يحاول التودد إليه، ولكنه كان أشد يقظة من أن يخدع، فما إن أغلقت الباب من خلفي حتى سمعت صرخة تلتها هذه الكلمات يكررها في جنون:

«لا تتركيني! لن أبقى هنا! لن أبقى هنا!».

ثم رُفع مزلاج الباب وأُنزل، وأبى القوم أن يدعوه يخرج، وامتطيت ظهر منى وحثثتها على الجري، وهكذا انتهت وصايتي القصيرة على الغلام.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

لقد لقينا من كاثي الصغيرة نصبًا في ذلك اليوم، فقد استيقظت والبهجة تغمر نفسها والشوق يحدوها إلى الذهاب لابن عمتها، فما إن سمعت برحيله حتى انفجرت تبكي وتنوح في انفعال اضطر إدجر نفسه إلى محاولة تهدئتها، فأكد لها أنه عائد عن قريب، ولكنه أضاف إلى ذلك قوله: «إذا استطعت أن آتي به»، وهيهات أن يستطيع! وقد كان لها في هذا الوعد عزاء قليل، ولكن الزمن كان أقدر على منحها السلوى، فهي وإن ظلت تسأل أباها بين الحين والحين عن موعد عودة لنتن، فإن ملامحه تضاءلت في ذاكرتها مع الزمن تضاؤلًا عجزت معه عن تمييزه حين رأته بعد ذلك.

وكنت إذا لقيت خادمة وذرنج هيتس اتفاقًا أثناء وجودي في جمرتن لقضاء حاجة، سألتها عن حال الغلام؛ لأنه كان يعيش في عزلة كعزلة كاثرين تقريبًا، ولم يكن يراه أحد، وفهمت منها أنه ما زال عليلًا، وأنه إنسان متعب لأهل الدار، وقالت إنه يبدو أن مستر هيثكليف يمقته أكثر من ذي قبل، وإن جهد في إخفاء هذه الكراهية، وإنه يمقت رنين صوته ولا يطيق البتة الجلوس معه في حجرة واحدة عدة دقائق متصلة، وقل أن يتبادلا الكلام الكثير، وكان لنتن يتلقى دروسه ويقضي أمسياته في حجرة صغيرة يسمونها البهو، وإلا رقد في فراشه طوال اليوم لما كان يصيبه على الدوام من سعال وبرد وأوجاع وآلام شتى.

ومضت المرأة تقول: «ولم أعرف في حياتي مخلوقًا جبانًا مثله، ولا شخصًا أكثر منه احتفالًا بنفسه، فإذا تركت النافذة مفتوحة قليلًا في ساعة متأخرة من المساء لم يفتأ يعيد القول، أواه، إن برد الليل يقتلني! وهو يصر على أن نوقد له نار المدفأة في قلب الصيف، وعلى أن رائحة التبغ التي ينفثها جوزيف من قصبته سم زعاف، ويحب الحلوى وأطايب الطعام، ويطلب اللبن دائمًا ولا يمله، وليس يهمه في شيء أن يلسعنا نحن الباقين برد الشتاء، ثم يجلس مدثرًا بمعطفه المبطن بالفراء على كرسيه إلى جوار المدفأة وعلى رفيها خبز محمر وماء أو أي شراب آخر يرشف منه على مهل، فإذا أقبل هيرتن ليسليه مدفوعًا بالعطف عليه -فهيرتن ليس بالفتى الشرير وإن يكن فظًّا- لم يكن بد من أن يفترقا، أحدهما يلعن والثاني يبكي. وفي اعتقادي أن رب البيت كان يطيب له أن يضربه هيرتن حتى يقضي عليه لولا أنه ولده، وأنا واثقة أنه لو علم ببعض ما يخص نفسه به من عناية بالغة لفكر في طرده من البيت، ولكنه يجنب نفسه خطر التعرض لهذا الإغراء فلا يدخل القاعة إطلاقًا، وإذا بدر هذا السلوك من لنتن وهو في حجرة الجلوس في حضرة أبيه، أرسله من فوره إلى الطابق العلوي.

واستنتجت من هذه الرواية أن انعدام العطف على لنتن قد جعل منه غلامًا أنانيًّا لا تطيب عشرته، ما لم يكن كذلك أصلًا، وعلى ذلك فقد تضاءل اهتمامي بأمره، وإن شعرت بالحزن على ما أصابه وتمنيت لو كان قد ترك لنا في بيتنا، وقد شجعني مستر إدجر على جمع المعلومات عن الصبي، وأحسبه كان يطيل التفكير في أمره، ولا يمانع في بعض المغامرة لكي يراه، وقد طلب إليَّ مرة أن أسأل الخادمة ألا يأتي ألبتة إلى القرية؟ وقالت المرأة إنه لم يأتِ سوى مرتين راكبًا في صحبة أبيه، وكان يبدو في المرتين مضني من أثر الرحلة، ويظل كذلك أيامًا ثلاثة أو أربعة، وما لم تخني ذاكرتي، فإن هذه الخادمة تركت وذرنج هيتس بعد مجيئه بسنتين، وخلفتها امرأة لا أعرفها، وما زالت باقية عندهم.

ومضت السنون في ثرشكرس رخاء كسيرتها الأولى حتى بلغت مس كاثي السادسة عشرة، ولم نكن نبدي أي مظهر من مظاهر الفرح للاحتفال بعيد ميلادها؛ لأنه كان يوافق كذلك يوم ذكرى موت أمها، وكان أبوها قد ألف أن يقضي هذا اليوم في المكتبة، فإذا كان الغروب سار حتى فناء كنيسة جمرتن، وأطال مكثه هناك إلى ما بعد منتصف الليل، لذلك كانت كاثرين تلتمس التسلية بوسائلها الخاصة، وكان هذا اليوم العشرون من شهر مارس يومًا من أيام الربيع الجميلة، فلما اعتكف أبوها في حجرته نزلت سيدتي الشابة وهي ترتدي ثياب الخروج، وقالت إنها استأذنت أباها في جولة معي في طرف البرية، فأذن لها بشرط ألا نبعد كثيرًا عن البيت وأن نعود في خلال ساعة.

وصاحت: «أسرعي إذن يا آلن! فأنا أعرف أين مقصدي، إنني أريد الذهاب إلى مستعمرة للطير البري لأرى هل بنى أعشاشه أم لم يبنِها بعد».

فأجبتها: «لا بد أن المسافة إلى هذا المكان بعيدة؛ لأن هذا الطير لا يبيض على حافة البرية».

قالت: «ليست بعيدة، فقد ذهبت مع أبي على مقربة من المكان».

ولبست قبعتي وخرجت معها دون أن أعير الأمر مزيدًا من الاهتمام، وقفزت تسبقني، وعادت إلى جواري، ثم انطلقت مرة أخرى كأنها كلب صيد صغير، ووجدت في بداية الأمر ترفيهًا ومتعة في الإصغاء إلى القنابر تشدو من حولي، وفي السير في ضوء الشمس الدافئ الجميل، وفي النظر إلى ربيبتي وقرة عيني بغدائرها الذهبية تطير طليقة من خلفها، وبوجنتها المشرقة كأنها الوردة البرية المتفتحة في نعومتها وصفائها، وبعينيها اللتين يشع منهما سرور لا يشوبه كدر، لقد كانت في تلك الحقبة من عمرها مخلوقًا سعيدًا وملكًا كريمًا، وإنه لمن المؤسف أنها لم تستطع أن ترضى بحالها إذ ذاك.

قلت لها: «حسن، أين طيرك البري يا مس كاثي؟ كان يجب أن نكون قد بلغنا مكانه، فقد خلفنا سياج بستان ثرشكرس وراءنا بمسافة كبيرة».

فكانت لا تفتأ تقول: «إنه أبعد قليلًا يا آلن، أبعد قليلًا. تسلقي هذا التل، واعبري هذا السد، فإذا بلغت الجانب الآخر سأكون قد أيقظت الطير».

ولكن التلال والسدود التي كان عليَّ أن أتسلقها وأعبرها تكاثرت إلى حد أضناني في النهاية، فأخبرتها أنه لا بد لنا من الكف عن هذا والعودة إلى البيت، وصحت بها أناديها لأنها خلفتني وراءها بمسافة كبيرة، ولكنها لم تسمعني، أو لعلها لم تعبأ بصيحاتي، فقد مضت تقفز في طريقها وأنا في إثرها مكرهة. وأخيرًا توارت في منخفض من الأرض، وقبل أن تتراءى لي ثانية كانت أقرب إلى وذرنج هيتس بميلين عنها إلى بيتها، ورأيت شخصين يدركانها، وكنت واثقة أن أحدهما هو مستر هيثكليف نفسه.

لقد ضبطت كاثي وهي متلبسة بسرقة أعشاش القطا أو على الأقل بالتنقيب عن هذه الأعشاش، وكانت أرض وذرنج هيتس ملكًا لهيثكليف، فأخذ يوبخ المتعدية على طيره.

وسمعتها وأنا أسير إليهم بمشقة تقول وهي تبسط يديها مصداقًا لدعواها: «لم آخذ شيئًا ولم أجد شيئًا، ولم يكن قصدي أن آخذها، ولكن أبي أخبرني أن هنا قدرًا كبيرًا منها، وكنت أريد أن أرى بيضها».

وحدجني هيثكليف بابتسامة خبيثة يعرب بها عن معرفته بجماعتنا، وعن سوء نيته نحوها بناء على هذه المعرفة، ثم سألها من هو أبوها؟

فأجابت: «إنه مستر لنتن صاحب ثرشكرس، أحسب أنك لا تعرفني، وإلا لما كلمتني بهذا الأسلوب».

قال متهكمًا: «إذن فأنتِ تظنين أباك رجلًا كبير القدر؟».

فسألته كاثرين وهي ترمقه في دهشة: «وما أنت؟ هذا الرجل رأيته من قبل، فهل هو ابنك؟».

وأشارت إلى هيرتن الذي كان يصحب هيثكليف، والذي لم يطرأ عليه من التغير إلا مزيد من ضخامة البدن وقوة العضل أضافتها إليه سنتان من العمر، ولكنه بدا في ارتباكه وجلافته المعهودين.

وقلت لها مقاطعة: «لقد غبنا الآن ثلاث ساعات بدلًا من ساعة واحدة يا مس كاثي، فلا بد لنا أن نعود من فورنا».

وأجاب هيثكليف غير عابئ بكلامي: «كلا، هذا الفتى ليس ابني، ولكن لي ابنًا، وقد رأيته هو أيضًا من قبل، وأظن أنك ومربيتك ستنتعشان إذا نلتما قسطًا من الراحة، وإن تكن هي تتعجل العودة، فهلا درتما حول هذا النتوء من الأرض المعشبة ودخلتما بيتي؟ إن ما تصيبان من راحة سيعينكما على الإسراع في السير إلى بيتكما، وستلقيان عندنا كل ترحيب».

وهمست في أذن كاثرين محذرة إياها من قبول هذا الاقتراح مهما يكن السبب؛ لأن هذا القبول ضرب من المحال.

ولكنها سألتني بصوت عال: «ولماذا؟ لقد أضناني الجري، والأرض مبتلة بالندى، ولست أستطيع الجلوس هنا، فهيا بنا يا آلن، ثم إنه يقول إنني رأيت ابنه من قبل وأنا أظنه مخطئًا في هذا، ولكنني أحسبني على علم بمكان بيته، إنه بيت المزرعة الذي زرته في عودتي من الرحلة إلى صخور بنستون، أليس كذلك؟».

«أجل إنه لكذلك، والآن يا نلي اسكتي - سيروح عنها أن تدخل بيتنا، امض أمامنا يا هيرتن مع الصبية، وأنتِ سيري معي يا نلي».

وصحت وأنا أجاهد لتخليص ذراعي من قبضته: «كلا، لن تذهب إلى بيتكم قط»، ولكنها كانت قد بلغت أرض المدخل الحجرية تقريبًا بعد أن جرت حول منعطف الطريق بأقصى سرعة، أما رفيقها الذي عين لمرافقتها فلم يبد عليه أنه يرافقها، فقد ابتعد عنها في إحجام وهما على الطريق ثم اختفى.

وواصلت حديثي قائلة: «إن هذا لخطأ عظيم يا مستر هيثكليف، فأنت تعلم أنك لا تريد من ورائه خيرًا، سترى الفتاة لنتن في بيتك، وتبلغ أباها كل شيء حالما نعود، وسيقع اللوم في هذا على عاتقي».

فأجاب: «أنا أريدها أن ترى لنتن، فهو يبدو في هذه الأيام أحسن صحة من ذي

قبل، وقلما يكون في حال يصلح فيها لأن يراه الناس، وسنقنعها بعد قليل بأن تكتم سر هذه الزيارة. فأي ضير في هذا؟».

فأجبته: «الضير في أن أباها سيبغضني لو علم أنني سمحت لها بدخول بيتك، وإنني واثقة أنك تدبر خطة خبيثة حين تشجعها على دخوله».

قال: «إن خطتي لا غبار عليها، وسأحيطك بأطرافها كلها، وهي أن يحب الواحد منهما صاحبه ويتزوجها، وإنني بهذا أسخو في معاملة سيدك، فليس أمام فتاته هذه فرصة أو أمل، ولو أعانتني على تحقيق أهدافي لأشركتها في الميراث مع لنتن فورًا».

فأجبته: «فإذا مات لنتن، وهناك شك كبير في أنه سيعمر، آل الميراث إلى كاثرين».

قال: «كلا، لن يؤول إليها، فليس في الوصية فقرة تنص على هذا، إن ثروته في هذا الحال ستؤول إليَّ، ولكني تفاديًا للنزاع أريدهما أن يتزوجا وأنا مصمم على تنفيذ ما اعتزمت».

قلت له وقد بلغنا باب البيت حيث كانت مس كاثي تنتظرنا: «وأنا مصممة على أنها لن تقرب بيتك معي بعد اليوم».

وأمرني هيثكليف بأن ألزم الصمت، وسبقنا صاعدًا الطريق، ثم أسرع ليفتح الباب، ورمقته سيدتي الشابة بالنظرة بعد النظرة كأنها لا تستقر على رأي في أمره، ولكنه ابتسم لها الآن حين التقى بصره ببصرها، ورقق من صوته وهو يخاطبها، وكنت من الغباوة بحيث خيل إليَّ أن ذكرى أمها قد تحول بينه وبين الرغبة في إيذائها، وكان لنتن واقفًا إلى جوار المدفأة، وقد عاد من جولة في الحقول لأنه كان لا يزال يرتدي قلنسوته، وكان ينادي على جوزيف ليحضر له حذاءً جافًا، ورأيته وقد طالت قامته بالنسبة لسنه التي تنقص عن السادسة عشرة شهورًا، وكانت قسماته لا تزال جميلة، وعيناه ألمع وبشرته أنضر مما أذكر، وإن كان هذا البريق مؤقتًا والفضل فيه للهواء الصحي والشمس الدفئة، واتجه مستر هيثكليف إلى كاثي وسألها: «والآن من هذا؟ أتستطيعين أن تحزري؟».

قالت وهي تنظر إلى الواحد ثم إلى الآخر في ريب: «أهو ابنك؟».

فأجاب: «نعم، نعم، ولكن هل هذه هي المرة الوحيدة التي رأيته فيها؟ فكري! آه! إن ذاكرتك سريعة النسيان، يا لنتن، ألا تذكر ابنة خالك التي كنت تلح علينا في رؤيتها؟».

وصاحت كاثي وقد أشرق وجهها في دهشة يخالطها الطرب حين سمعت الاسم: «ماذا، لنتن! أهذا لنتن الصغير؟ إنه أطول مني! هل أنت لنتن؟».

وتقدم الفتى وأجاب نعم، فقبلته الفتاة في حرارة، وأخذا يتأملان في عجب ما صنع الزمن بكلٍ منهما، فأما كاثرين فكانت قد أوفت قامتها على الغاية، وكان بدنها ممتلئًا وعودها ممشوقًا لدنًا كالبان، والعافية والمرح يتدفقان من كل عضو فيها، وأما لنتن فكانت نظراته وحركاته شديدة الفتور وجسده بالغ النحول، ولكن كان فيه رشاقة خففت من هذه العيوب وجعلته غير ثقيل، وبادلته ابنة خاله كثيرًا من أمارات المحبة، ثم اتجهت إلى مستر هيثكليف وكان واقفًا بالباب يقسم انتباهه بين داخل الحجرة وخارجها، أعني أنه كان يتظاهر بملاحظة ما في الخارج، في حين أنه لم يكن ملقيًا باله إلا لما في الداخل.

وصاحت وقد بلغته لتحييه: «وأنت إذن عمي! لقد خُيِّل إليَّ أنني أعجبت بك وإن كنت قد أغلظت لي القول أول الأمر، لِمَ لا تزورنا في بيتنا مع لنتن؟ إنه لعجيب أن نعيش هذه السنوات كلها جيرانًا متلاصقين وأنت لا تزورنا ألبتة، ماذا فعلت في هذا إلى اليوم؟».

فأجاب: «كنت أزور بيتكم كثيرًا في فترة أو فترتين قبل أن تولدي - والآن، تبًّا لهذا! إن كان لا يزال عندك قبلات فابذليها للنتن، فإنك لتضيعينها عليَّ عبثًا».

وصاحت بي كاثرين وهي تطير إليَّ لتغمرني بقبلاتها السخية: «أيتها الخبيثة آلن! أيتها الشريرة آلن! كيف تمنعينني من الدخول إلى هذا البيت، ولكنني سأسير هذه الرحلة كل صباح بعد اليوم، فهل تأذن لي يا عماه؟ وسأحضر أبي أحيانًا، ألا يسرك أن ترانا؟».

وأجاب العم وهو يخفي في سحنته عبوسًا مبعثه نفوره البالغ من الزائرين المقترحين كليهما: «بالطبع»، ثم واصل حديثه متجهًا إلى الفتاة: «ولكن مهلًا، فقد عنَّ لي خاطر أرى من الخير أن أخبرك به بعد أن أعملت الفكر، ذلك أن مستر لنتن متحامل عليَّ لأننا تشاجرنا في حقبة من حياتنا شجارًا فيه عنف لا يليق بمسيحيين، فلو أنكِ ذكرتِ له رغبتك في زيارتنا لمنع هذه الزيارات جملة، فخير لكِ إذن ألا تذكري له هذه الرغبة، ما لم تكن رؤيتك لابن عمتكِ بعد اليوم أمرًا لا يهمك، لكِ أن تأتي لزيارتنا إن شئتِ، ولكن عليكِ ألا تذكري هذا لأبيكِ».

وسألته كاثرين وقد بدت عليها خيبة الأمل القوية: «ولِمَ تشاجرتما؟».

وأجاب هيثكليف: «كان يراني أفقر من أن أصلح زوجًا لشقيقته، وحز في نفسه أن أتزوجها. لقد جرحت كبرياؤه، ولن يغفر لي هذه الفعلة».

وقالت الشابة: «هذا خطأ! وسأخبره برأيي يومًا ما، ولكنني ولنتن لا ذنب لنا في هذه الخصومة بينكما، إذن فلن آتي أنا إلى هنا، وليأت هو إلى ثرشكرس».

وغمغم ابن عمتها قائلًا: «ستكون الرحلة طويلة عليَّ، فمسير أميال أربعة كفيل بأن يقتلني، لا، احضري أنتِ لزيارتنا يا مس كاثرين بين الحين والحين، ليس كل صباح، بل مرة أو مرتين في الأسبوع».

وحدج الأب ابنه بنظرة ملؤها الاحتقار المرير، ثم تمتم قائلًا لي: «أخشى يا نلي أن تضيع جهودي عبثًا، فإن مس كاثي، كما يدعوها هذا الأخرق، ستعرف قدره وتقذف به إلى الشيطان، آه لو كان هيرتن في مكانه! - أتعرفين أنني أشتهي هيرتن بكل انحطاطه عشرين مرة في اليوم، ولو كان هيرتن شخصًا آخر لأحببته، ولكنني أحسبه في مأمن من حبها، سأقيم منه غريمًا لهذا المخلوق الرعديد ما لم يتحرك وينشط، ونحن نقدر أنه لن يعمر حتى الثامنة عشرة، ألا تبًّا له من تافه حقير! إنه منصرف إلى تجفيف قدميه ولا ينظر إليها ألبتة - لنتن!».

فأجاب الصبي: «نعم يا أبي».

«أليس عندك ما تريه لابنة خالك خارج الدار، ولا حتى أرنبًا أو عش عرسة؟ خذها إلى الحديقة قبل أن تبدل حذاءك، واصحبها إلى الإسطبل لتريها حصانك».

وقال لنتن يسأل كاثي في لهجة تنم عن زهده في الحركة بعد أن دخل: «ألا

تفضلين البقاء في الداخل؟».

فأجابت وهي ترنو إلى الباب بنظرة كلها شوق إلى الخروج، وقد بدت عليها الرغبة في الحركة والنشاط: «لست أدري».

ولزم هو مكانه واقترب أكثر من ذي قبل إلى النار منكمشًا بجوارها، وقام هيثكليف إلى المطبخ ومنه إلى الفناء ونادى هيرتن، ولبى هيرتن النداء، وما لبثا أن دخلا الحجرة كلاهما، وكان الفتى يغسل وجهه كما بدا من نضرة خديه وابتلال شعره.

وصاحت مس كاثي وقد ذكرت مزاعم الخادمة: «آه، سأسألك أنت يا عمي، إن هذا ليس ابن خالي، أليس كذلك؟».

وبدت على كاثرين الحيرة.

ومضى هيثكليف يسألها: «ألا ترينه فتى مليحًا؟».

ووقفت الفتاة السليطة على أطراف أصابعها وهمست عبارة في أذن هيثكليف فضحك لها، وتجهم وجه هيرتن، وأدركت أنه شديد الحساسية لكل ما يشتم منه الإهانة، وكان ظاهرًا أن لديه فكرة غامضة عن نقصه، ولكن سيده أو وصيه طرد عنه هذه الجهامة؛ إذ قال:

«ستكون أنت الأثير عندنا يا هيرتن! إنها تقول إنك... ماذا قلت؟ حسن، إنه نعت يملؤك فخرًا وغرورًا. والآن! اصحبها أنت في جولة حول المزرعة، وتذكر أن تسلك معها سلوك رجل مهذب! فلا تستعمل ألفاظًا قذرة، ولا تحدق في الآنسة حين لا تكون ناظرة إليك، وإذا تكلمت ففي بطء، ولا تضع يديك في جيوبك، اذهب الآن وقدم لها خير ما تستطيع من تسلية».

وراقبتهما وهما يسيران أمام النافذة، وكان وجه إيرنشو منصرفًا عن رفيقته انصرافًا تامًّا، وبدا عليه أنه يفحص المنظر الطبيعي المألوف لديه باهتمام الغريب وعناية الفنان، واختلست كاثرين نظرة ماكرة إليه تنطوي على قليل من الإعجاب، ثم انصرفت إلى البحث بنفسها عن أسباب الترويح، وانطلقت مرحة تنشد لحنًا تملأ به فراغ الحديث.

وقال هيثكليف: «لقد ألجمت لسانه، فلن يجرؤ على النطق بكلمة طوال الوقت! أتذكرينني يا نلي وأنا في مثل سنه - لا، بل أصغر منه بسنوات، أكنت أبدو في غباوته وارتباكه، كما يقول جوزيف؟».

فأجبته: «وأكثر، لأنك كنت تجمع الوجوم إلى هذا».

ومضى يبسط أفكاره أمامي: «إنني أجد فيه لذة، فلقد حقق آمالي فيه، ولو كان غبيًّا بفطرته لما وجدت فيه نصف هذه اللذة، ولكنه ليس غبيًّا، وفي وسعي أن أشاركه مشاعره كلها لأنني أحسست بها من قبل، وأنا أعلم مثلًا ما يعاني الآن بالضبط، ومع ذلك فما هذا إلا بداية آلامه، ولن يستطيع أن يخرج من حمأة جلافته وجهله؛ لأنني دفعته إليها بإحكام أشد، وإلى درك أسفل مما فعل بي أبوه الوغد من قبل، ذلك أن هيرتن فخور ببهيميته، فلقد علمته أن يحتقر كل ما لا يمت إلى الحيوانية بسبب ويعده سخيفًا تافهًا، ألست ترين أنه لو أتيح لهندلي أن يرى ولده لكان فخورًا به؟ فخورًا به فخري بولدي

تقريبًا، ولكن هناك فرقًا بينهما، فأحدهما ذهب يبتذل لرصف الأرض، والآخر صفيح يصقل ليحاكي طاقمًا من الفضة، إن ابني ليس فيه أي شيء ثمين ذي قيمة، بيد أنه سيتاح لي أن أعينه ليحقق أقصى ما يستطيع من هذا المعدن الخسيس تحقيقه، أما ابنه فقد كانت له فضائل من الطراز الأول، ولكنها فقدت وانقلبت إلى ضدها، ليس عندي شيء آسف عليه، أما هو فعنده مما يوجب أسفه أشياء لا يعرف كثرتها غيري، وخير ما في هذا كله أن هيرتن شديد التعلق بي! ولزام عليكِ أن تسلمي لي بأنني غلبت هندلي في هذا، فلو أن هذا الوغد الميت نفض عنه تراب القبر ليسبني على أخطاء ابنه لأتيح لي أن أتفكه وأستمتع برؤية هذا الابن يدفع أباه عني ويصده في سخط؛ لأنه اجترأ على إهانة صديقه الوحيد في هذه الدنيا!».

وندت عن هيثكليف ضحكة شيطانية مكتومة حين خطرت له هذه الفكرة، ولم أحر جوابًا لأنني رأيته لا يتوقع مني الجواب، وبدأت تظهر أثناء هذا بوادر التململ على صاحبنا الصغير الذي كان يجلس على مبعدة منا لا يتاح له الاستماع إلى حديث أبيه، وأكبر الظن أنه ندم على ما ضيع من متعة تجلبها صحبة كاثرين مخافة أن يبذل في سبيلها جهدًا يسيرًا، ولاحظ أبوه نظراته القلقة التي يرسلها إلى النافذة، ويده الممتدة إلى قلنسوته في تردد.

فصاح به وهو يتكلف الإخلاص: «قم أيها الولد الكسول! الحق بهما! إنهما لم يتجاوزا بعد ركن الحديقة عند مكان خلايا النحل».

واستجمع لنتن شجاعته وهمته وبارح المدفأة، وكانت النافذة مفتوحة، وبينما كان يخطو إلى الخارج سمعت كاثي تسأل تابعها النفور عن الكتابة المنقوشة فوق الباب، وحملق هيرتن فوقه وهرش رأسه كما يفعل أي جلف أصيل.

ثم أجاب: «إنها كتابة لعينة لا أستطيع قراءتها».

وصاحت كاثرين: «لا تستطيع قراءتها؟ أنا أستطيع، فهي مكتوبة بالإنجليزية، ولكني أريد أن أعرف لم كتبت هناك».

وضحك لنتن في سخرية، وكان هذا أول ما أبدى من مرح، ثم قال لابنة خاله: «إنه يجهل القراءة، أفي استطاعتك أن تتخيلي وجود إنسان بليد كهذا؟».

وسألته مس كاثي في جد: «أكل ما فيه سوي؟ أم أنه إنسان ساذج؟ ألست على صواب، لقد سألته الآن مرتين، وفي كل مرة كان يبدي من ثقل الفهم ما يحملني على الظن بأنه لا يفهمني، والحق أنني لا أستطيع فهمه!».

وعاد لنتن يضحك من جديد وهو ينظر في سخرية وتعيير إلى هيرتن الذي لم يبد عليه في تلك اللحظة أنه خلا تمامًا من الفهم والإدراك.

وقال: «ليس به شيء سوى الكسل، أليس كذلك يا إيرنشو؟ إن ابنة خالي تحسبك أبله، وتلك نتيجة احتقارك للدرس في الكتب، كما تقول. هل لحظت يا كاثرين لكنته اليوركشيرية الصارخة؟».

وزمجر هيرتن وقد بدا أسرع خاطرًا في الرد على رفيقه اليومي: «وأي نفع في الكتب بحق الشيطان؟»، وكان يوشك أن يواصل حديثه لولا أن الصبيين أصابتهما نوبة

طاغية من الضحك، فقد أطرب سيدتي الطائشة أن تكتشف أن في استطاعتها جعل حديثه الغريب هذا موضوع ترفيه وتفكهة.

وسأله لنتن وهو يضحك ضحكًا مكتومًا: «وأي لزوم لكلمة الشيطان في هذه العبارة؟ لقد قال لك أبي ألا تستعمل ألفاظًا وقحة، ولكنك لا تستطيع أن تفتح فاك دون أن تفوه بلفظ منها، والآن حاول أن تسلك مسلك الإنسان المهذب، حاول هذا!».

وأجاب الجلف الغاضب: «لولا أنك أقرب إلى الأنوثة منك إلى الرجولة لصرعتك الآن، أجل، أيها المتشدق الهزيل المسكين!»، ثم ابتعد عنهما ووجهه يضطرم بنار الغيظ الذي يخالطه الخجل! ذلك أنه شعر بأنه أهين، وكان حائرًا لا يدري كيف يرد الإهانة.

وابتسم هيثكليف حين رآه ينصرف، وكان يستمع مثلي إلى هذا الحديث، ولكنه ما لبث أن حدج الصبيين المهذارين اللذين ظلا يثرثران عند الباب بنظرة ملؤها الكراهية الشديدة، وكان الفتى يستشعر النشاط وهو يناقش عيوب هيرتن ونقائصه ويقص نوادره عنه، والفتاة تستطيب حديثه الوقح الحقود دون أن تلقي بالًا إلى ما يكشف عنه من طبيعة شريرة، وبدأت أكره لنتن أكثر مما أعطف عليه، وألتمس بعض العذر لأبيه في احتقاره إياه والغض من شأنه.

وبقينا إلى ما بعد الظهر، فقد عجزت عن انتزاع مس كاثي قبل ذلك ولكن سيدي لم يكن لحسن الحظ قد بارح حجرته، فظل جاهلًا غيبتنا الطويلة، وبينما نحن في طريقنا إلى البيت كان بودي أن أبصر فتاتي بخلق القوم الذين رحلنا عن بيتهم، ولكن وقر في نفسها أنني متحاملة عليهم.

وصاحت تقول: «أجل! إنك تنحازين إلى رأي أبي يا آلن، فأنا أعلم أنك متحاملة، وإلا لما خدعتني طوال هذه السنين وأوهمتني أن لنتن يقيم بعيدًا عنا، إنني في الحق شديدة الغضب منك، على أنه يسرني كثيرًا أنني لا أستطيع إظهار هذا الغضب! ولكن عليكِ أن تكفي عن مهاجمة عمي، فاذكري أنه عمي، وسأوبخ أبي لأنه تشاجر معه».

ومضت في حديثها على هذه الصورة حتى زهدتني في محاولة إقناعها بما هي سادرة فيه من خطأ، ولم تذكر خبر الزيارة لأبيها تلك الليلة لأنها

لم تره، ولكنها أفشت السر كله في الغد، لسوء حظي وشدة أسفي، ومع ذلك كان يخالط أسفي بعض العزاء، فقد كنت أرى أباها أقدر مني على الاضطلاع بعبء إرشادها وتحذيرها، ولكنه كان شديد التردد في إعطائها من الأسباب الوجيهة ما يبرر رغبته في أن تتجنب كاثرين الاتصال بأهل وذرنج هيتس، في حين كانت هي تريد مبررات كافية لكل قيد يحد من إرادتها المدللة.

قالت له بعد أن تبادلا تحية الصباح: «أبت! أحزر من لقيت أمس في جولتي في البراري، ما لي أراك قد جفلت يا أبت! إنك لم تكن على حق، أليس كذلك؟ لقد لقيت... ولكن أصغ إليَّ تعرف كيف كشفت خديعتك لي، وخديعة آلن التي تحالفك في هذا، ولكنها رغم ذلك كانت تتظاهر بالعطف عليَّ عطفًا شديدًا حين ظللت أعلل نفسي بعودة لنتن دون جدوى!».

وقصَّت على أبيها في أمانة قصة رحلتها وما تخلف عنها من نتائج، ولم ينطق هو بشيء حتى فرغت منها، وإن حدجني غير مرة بنظرة ملؤها اللوم، ثم أدناها منه وسألها

هل تعرف السبب في أنه أخفى عنها وجود لنتن على مقربة منها؟ وهل يخطر لها ببال أنه أراد أن يحرمها لذة بريئة قد تستمتع بها.

فأجابت: «السبب أنك كنت تكره مستر هيثكليف».

فقال: «إذن فأنتِ تعتقدين أنني أهتم بإرضاء عواطفي أكثر من عواطفك يا كاثي؟ كلا، إن السبب هو أن مستر هيثكليف يكرهني، وهو رجل جهنمي يسره أن يؤذي ويهدم من يكرههم إذا أتاحوا له أقل فرصة، وكنت أعلم أنكِ لن تستطيعي المحافظة على صلتك بابن عمتك دون أن تتصلي بأبيه، وكنت أعلم أنه سيبغضك بسببي، فاتخذت الحيطة لكيلا تقابلي لنتن بعدها، وذلك لخيركِ أنتِ لا لأي سبب آخر، وكان في نيتي أن أقفك على سر هذا الأمر يومًا ما حين تكبرين، وإني لآسف لأني أخرت هذا اليوم».

وقالت كاثرين وهي غير مقتنعة ألبتة: «ولكن مستر هيثكليف كان جد لطيف يا أبي، ولم يمانع في أن يزور أحدنا الآخر، وقد قال إن في وسعي أن أذهب إلى بيته حين أشاء، ولكنه حذرني من أن أخبرك لأنك تشاجرت معه ولم تغتفر له زواجه من عمتي إيزابيلا، ولا تريد أن تغتفر هذا له، فأنت إذن الملوم، إنه راغب في أن نكون صديقين، لنتن وأنا، أما أنت فلست براغب في هذا».

ولما شعر سيدي بأنها تأبى أن تثق بما قال عن سوء نية هيثكليف، رسم لها صورة سريعة من تصرفاته مع إيزابيلا، وذكر لها الطريقة التي حصل بها على ملكية وذرنج هيتس، ولم يكن يطيق الإفاضة في هذا الحديث؛ لأنه رغم زهده فيه كان لا يزال يطوي جوانحه على الرعب والبغض اللذين ملآ قلبه نحو عدوه القديم منذ أن ماتت مسز لنتن، وكان لا يفتأ يفكر في مرارة: «لولاه لكانت اليوم حية!»، وكان هيثكليف في عينه رجلًا قاتلًا، أما ابنته، وهي التي لا خبرة لها بشرور سوى ما يند عنها من طفيف عصيان أو جور أو غضب ينشأ عن حدة في الطبع وافتقار إلى التبصر، ولا تلبث أن تندم عليه في اليوم الذي تقارفه فيه، فقد أدهشها هذا الحقد الذي يستطيع أن يطول ويستر رغبة في الثأر ويخفيها سنين طوالًا ثم ينفذ خططه عامدًا متعمدًا دون وازع من ضمير، وبدا عليها من التأثر العميق والفزع البالغ من جراء هذه الصورة الجديدة للطبيعة البشرية -ولم تكن قد صادفتها بعد في درسها وتفكيرها- ما لم يجد معه أبوها ضرورة لمواصلة الحديث في هذا الموضوع، فاكتفى بأن قال: «ستعلمين فيما بعد يا حبيبتي لِمَ أريدك أن تتجنبي بيته وأسرته، فعودي الآن إلى سابق مشاغلك وملاهيك، ولا تفكري فيهما بعد اليوم».

وقبلت كاثرين أباها وجلست إلى دروسها هادئة ساعتين على مألوف عادتها، ثم رافقته إلى فناء الدار، وانقضى النهار كله كما كانت تنقضي أيامنا، ولكني حين مضيت إلى حجرتها في المساء لأعينها على خلع ثيابها، وجدتها تبكي وهي جاثية إلى جوار فراشها.

وقلت لها: «واخجلتاه أيتها الطفلة الحمقاء! لو أنك جربت الأحزان الحقة لأخجلك أن تذرفي دمعة على هذه الصدمة التافهة، فإنكِ لم

تعرفي ظل الحزن الصحيح مرة واحدة في حياتك يا مس كاثرين، فافرضي مثلًا أنني أنا وأبوكِ كنا ميتين، وأنكِ تركت وحيدة في هذه الدنيا، فماذا يكون شعورك عندها؟ وازني بين حالك الآن ومحنة كهذه واحمدي الله على ما منحك من أصدقاء بدل أن تطمعي في أكثر منهم».

فأجابت: «لست أبكي لأجل نفسي يا آلن، وإنما لأجله، فهو يتوقع أن يراني ثانية

غدًا، وسيخيب ظنه الآن، وسينتظرني دون جدوى!».

قلت لها: «هراء! هل تتصورين أنه فكر فيكِ كما فكرتِ فيه؟ أليس لديه هيرتن رفيقًا؟ إنكِ لا تجدين إنسانًا واحدًا في كل مائة يبكي لفقد قريب لم يره سوى مرتين في أمسيتين اثنتين، إن لنتن سيحزر السبب ولا يشغل باله بكِ أكثر مما فعل».

فسألتني وهي تقف على قدميها: «ولكن ألا يحسن بي أن أكتب له كلمة أنبئه فيها بسبب تخلفي؟ ثم أرسل له هذه الكتب التي وعدت بإعارته إياها؟ إن كتبه ليست في جمال كتبي، وقد رغب كثيرًا في أن يستعيرها حين أخبرته بأنها ممتعة، ألا يحسن بي أن أكتب إليه يا آلن؟».

قلت في حزم: «لا أبدًا، لا أبدًا، لأنك إن فعلت، فسيرد عليكِ، ولن ننتهي من هذه الرسائل قط، لا يا مس كاثرين، إن هذه الصلة يجب أن تقطع كلية، وهذا ما ينتظره منكِ أبوكِ، وهو ما سأتحقق من تنفيذه».

فعادت تقول في ضراعة: «ولكن كيف تستطيع رسالة صغيرة...؟!».

فقاطعتها قائلة: «اصمتي، فلن نبدأ من جديد حديث رسائلك الصغيرة، قومي إلى فراشك».

فحدجتني بنظرة خبيثة، وقد بلغ من خبثها أنني أبيت أول الأمر أن أقبلها قبلة المساء، فغطيتها وأغلقت عليها الباب في استياء شديد، ولكني ما إن بلغت نصف طريقي حتى ندمت على ما فعلت، وعدت إلى حجرتها في سكون، فماذا وجدت؟ وجدت الآنسة واقفة إلى الخوان وأمامها ورقة بيضاء وفي يدها قلم، فأخفتهما بعيدًا حالما دخلت كمن يرتكب ذنبًا.

وقلت لها: «لن يحمله لكِ أحد لو كتبته، أما الآن فسأطفئ شمعتك هذه».

ووضعت الغطاء على لهب الشمعة لأطفئها، فتلقيت منها أثناء ذلك صفعة على يدي شفعتها بعبارة مغيظة: «يا لكِ من مشاكسة!»، ثم غادرت حجرتها ثانية، فأغلقت الباب ورائي بالمزلاج، وقد أصابتها نوبة من أعنف نوبات غضبها، ثم كتبت الخطاب فعلًا وحمله إلى صاحبه بائع اللبن الذي يأتي من القرية، ولكني لم أعلم بهذا إلا بعد فترة من الزمن، ومضت الأسابيع واستعادت كاثي هدوءها، وإن أغرمت بالتسلل إلى أركان البيت وحدها، وكانت إذا فاجأتها وهي تقرأ جفلت وانحنت على كتابها لتخفيه بلا ريب، وكنت ألحظ أطراف ورق مفكك تبرز من بين صفحات الكتاب، كذلك تعلمت أن تنزل من غرفتها مبكرة وتحوم حول المطبخ كأنها تنتظر وصول شيء، وكان لها درج صغير في خزانة بالمكتبة تظل ساعات تعبث به، فإذا تركته حرصت على أن تأخذ مفتاحه.

وبينما كانت تفتش في درجها هذا يومًا، لاحظت أن ما كان يحتويه من لعب وطرف صغيرة قد انقلب قطعًا من الورق المطبق، فأثار هذا فضولي وشكوكي، وصممت على اختلاس نظرة إلى كنزها الخفي، فما إن اطمأننت إلى وجودها وأبيها في الطابق العلوي ليلًا حتى أخذت أبحث بين مفاتيح البيت عن مفتاح أفتح به درجها، وأخيرًا وجدته، ففتحته وأفرغت محتوياته كلها في ميدعتي وحملتها إلى غرفتي لأفحصها على مهل،ودهشت، رغم أن الشكوك كانت تخامرني من قبل، حين وجدتها عددًا وافرًا من الخطابات التي أرسلها لنتن هيثكليف ردًا على خطاباتها، واستنتجت من وفرتها، أنها لا بد

كانت ترد إليها يوميًا تقريبًا، وكان أقدمها تاريخًا خطابات مضطربة موجزة، ولكنها ما لبثت تدريجًا أن طالت إلى رسائل غرامية مستفيضة، فيها حماقة لا يستغرب صدورها عن كاتب في سن لنتن، ولكن فيها إلى ذلك لمسات منبثة هنا وهناك

خُيِّلَ إليَّ أنها منقولة عن مصدر أكثر منه خبرة، وقد بدا لي بعضها خليطًا عجيبًا من الحماسة والفتور، يبدأ بعاطفة مشبوبة ثم يختتم بالعبارات الجوفاء المصطنعة التي يكتبها تلميذ لمحبوبة وليدة خياله، ولست أدري هل كانت كاثي راضية عن هذه الرسائل أو غير راضية، ولكن الذي أدريه أنني وجدتها تافهة لا وزن لها، وبعد أن قلبت منها عددًا يكفي للحكم عليها، ربطتها في منديل ووضعتها جانبًا وأغلقت الدرج الفارغ.

ونزلت سيدتي الشابة مبكرة على مألوف عادتها وذهبت إلى المطبخ، ورأيتها تذهب إلى الباب عند وصول غلام صغير، وبينما كانت اللبانة تملأ وعاءه، دفعت شيئًا في جيب سترته وانتزعت منها شيئًا، ودرت حول البيت عن طريق الحديقة وكمنت للرسول، فدافع دفاع الأبطال عن وديعته، وأرقنا اللبن فيما بيننا، ولكنني أفلحت في انتزاع الرسالة منه، ثم هددته بأوخم العواقب إن لم يمض إلى بيته رأسًا، وظللت تحت الحائط وقرأت رسالة مس كاثي الغرامية، وكانت أبسط وأبلغ من رسائل لنتن، غاية في الجمال وغاية في الحماقة، وهززت رأسي ودخلت البيت وأنا أفكر في الأمر، وإذ كان اليوم مطيرًا، فإنها لم تستطع الترويح عن نفسها بجولة في البستان، لذلك التمست العزاء في درجها عقب فراغها من درس الصباح، وكان أبوها جالسًا إلى مكتبه يقرأ، أما أنا فقد تعمدت أن أشتغل بتشقيق حواشي ستار النافذة، وأنا أرقب حركاتها في انتباه، ولست أحسب أن عصفورة عائدة إلى عشها الذي تركته عامرًا بصغارها المشقشقة لتجده خاويًا منهوبًا، قد أفصحت بصيحاتها الحادة وخفقات جناحيها عن يأسها القاتل بأكثر مما أفصحت كاثرين بلفظ «أواه» ترددة دون سواه، وبالتغير الذي بدلها وجهًا غير وجهها الطافح بالبشر والسعادة، ونظر إليه مستر لنتن وهو يقول:

«ما خطبك يا حبيبتي؟ هل أصابك ضر؟».

وكان في لهجته ونظرته ما أكد لها أنه ليس مكتشف كنزها.

فقالت وهي تلهث: «لا يا أبت! آلن! آلن! اصعدي معي.. إنني مريضة!».

ولبيت دعوتها ورافقتها إلى الخارج.

وما إن احتوتنا حجرتها وحدنا حتى جثت على ركبتيها وبدأت تقول لي: «أواه يا آلن! لقد أخذتها أنتِ! أواه! رديها إليَّ، ولن أعود إلى هذا أبدًا! لا تخبري أبي، إنكِ لم تخبريه يا آلن؟ قولي إنكِ لم تخبريه! لقد كنت غاية في الرداءة، ولكني لن أعود إليه بعد اليوم!».

وأمرتها أن تقف على قدميها بلهجة تنم عن الصرامة قائلة: «إذن فقد سرت في هذا شوطًا كبيرًا يا مس كاثرين فيما يبدو، وجدير بكِ أن تخجلي من هذه الرسائل! ويا لها من مجموعة طيبة من الهراء تدرسينها في ساعات فراغك، حقًا، إنها لخليقة بأن تطبع، ترى ماذا يظن أبوك حين أبسطها أمامه؟ إنني لم أطلعه عليها بعد، ولكن لا تتصوري أنني سأكتم عنه أسرارك السخيفة، يا للعار! ولا بد أنكِ كنتِ البادئة بكتابة هذا السخف، ولست أشك في أنه لم يكن يخطر له ببال أن يبدأ بالكتابة».

قالت وهي تنتحب وقلبها يوشك أن ينفطر: «لم أكن البادئة! لم أفكر مرة في حبه إلى أن...».

فصحت وأنا أتكئ على اللفظ بكل ما وسعني من احتقار: «حبه! حبه! هل سمع أحد بمثل هذا من قبل؟ ما أشبه هذا بأن أتحدث عن حبي لصاحب المطحن الذي يأتينا مرة كل عام ليشتري قمحنا! ويا له من حب جميل حقًّا! وأنتِ لم تري لنتن في المرتين جميعًا أربع ساعات في حياتك! هذا هو الهراء الصبياني سأحمله إلى المكتبة لنرى ماذا يقول أبوكِ في هذا الحب؟».

وهجمت تريد أن تخطف رسائلها الغالية، ولكنني أمسكت بها فوق رأسي، فانهال عليَّ مزيد من تضرعاتها الجنونية تتوسل إليَّ بها أن أحرقها -أو أفعل بها أي شيء إلا أن أطلع أبيها عليها، وإذ كنت في وقع الأمر أميل إلى الضحك منها ميلي إلى توبيخها -لأنني لم أكن أعد المسألة أكثر من غرور صبياني- فقد لنت بعض الشيء في النهاية،

وقلت لها: «لو وافقت على أن أحرقها، فهل تعدينني صادقة ألا ترسلي بعد اليوم أو تتسلمي خطابًا ولا كتابًا (لأنني أرى أنكِ أرسلتِ له كتبًا) ولا خصلًا من الشعر، ولا خواتم، ولا لعبًا؟».

وصاحت كاثرين وقد غلبت كبرياؤها خجلها: «إننا لا نرسل لعبًا».

قلت: «ولا شيئًا البتة يا سيدتي؟ إن لم تعدي، فإني ماضية إلى أبيكِ الآن».

وصاحت وهي تمسك بثوبي: «أعدكِ يا آلن! أواه! احرقيها، احرقيها!».

ولكني حين شرعت في إفساح مكان في الموقد للرسائل بمحراك النار، بدت لها التضحية أفدح من أن تطيقها، فرجتني في حرارة أن أبقي لها على رسالة أو رسالتين منها.

- واحدة أو اثنتين يا آلن أحتفظ بهما من أجل لنتن!

وفككت المنديل وبدأت أسقط الرسائل من زاوية منه وتصاعدت اللهب إلى المدخنة.

وصرخت وهي تقذف بيدها إلى النار: «لا بد أن أحتفظ برسالة منها أيتها المنكودة الغليظة القلب»، ثم انتزعت من الموقد قصاصات أكلت نصفها النار، فأحرقت بذلك أصابعها.

قلت: «حسن جدًّا... ولا بد أن أحتفظ أنا ببعضها لأطلع أباكِ عليها!»، وهززت الباقي منها في المنديل واتجهت صوب الباب من جديد.

وأفرغت قصاصاتها المسودة في النار، وأشارت إليَّ بأن أكمل تقديم المحرقة، وفعلت، وقلبت ما تخلف عنها من رماد، ودفنته تحت مجرفة من الفحم، أما هي فقد مضت إلى حجرتها خرساء يملؤها شعور الإهانة البالغة، ونزلت لأنبئ سيدي بأن وعكة ابنته قد زالت أو كادت، ولكني استصوبت أن أدعها تأخذ قسطًا من الراحة، وأبت أن تتناول غداءها، ولكنها عادت إلينا عند تناول الشاي شاحبة اللون محمرة العينين مقهورة ذليلة المظهر، وفي صباح الغد رددت على رسالة لنتن بقصاص من الورق كتبت عليها: «إن السيد هيثكليف

مرجو ألا يرسل خطابات أخرى إلى مس لنتن؛ لأنها لن تتسلمها»، ومنذ ذلك اليوم كان الغلام يأتي بجيوبه خاوية.

الفصل الثاني والعشرون

انتهى الصيف وأقبلت مطالع الخريف، وكان عيد الملاك ميخائيل قد فات، ولكن موسم الحصاد تأخر في تلك السنة، وبقيت بعض حقولنا تنتظر ضم محصولها، وكثيرًا ما كان مستر لنتن وابنته يسيران بين الحصادين، ويطيلان مكثهما إلى الغروب ريثما يرفع العمال ما بقي من حزم القمح، ولما كان المساء باردًا رطبًا، فقد أصيب سيدي ببرد خبيث جثم على رئتيه، وألزمه البيت طوال الشتاء كله دون انقطاع تقريبًا.

وكانت كاثي المسكينة، بعد أن روعتها مغامرتها الغرامية الصغيرة، أشد حزنًا ووجومًا مذ نفضت منها يدها، وكان أبوها يصر على أن تقتصد في القراءة وتستكثر من الرياضة، ولكنها لم تعد تحظى بصحبته في جولاتها، لذلك رأيت من واجبي أن أعوضها بصحبتي ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ولكنه كان عوضًا ضئيلًا؛ إذ لم يكن في قدرتي أن أستخلص من مشاغلي العديدة أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات أرافقها فيها، هذا فضلًا عن أن صحبتي لم تكن تلذ لها كما تلذ لها صحبة أبيها بطبيعة الحال.

وكنا في عصر يوم من أكتوبر أو بواكير نوفمبر، عصر بليل منعش تسمع فيه وقع قطرات الماء وحفيف أوراق الشجر الذابلة على الأعشاب والطرقات، ويحتجب فيه نصف السماء الزرقاء الباردة خلف الغيوم، وكانت غيومًا داكنة مبرقة تتجمع سريعًا من الغرب وتنذر بمطر غزير، فرجوت سيدتي الشابة أن تدع جولتها لأنني كنت واثقة من أن السماء ستمطرنا وابلًا، ولكنها أبت، فارتديت معطفًا على مضض، وأخذت مظلتي لأرافقها في جولة إلى نهاية البستان، وكانت جولة تقليدية تؤديها عادة حين تكون معنوياتها في هبوط، وتلك كانت حالها دائمًا حين تزداد صحة أبيها سوءًا، وهو ما لم نكن نعرفه قط من كلامه، ولكنا كنا نحزره من ازدياد صمته واكتئاب وجهه، ومشت كاثرين حزينة، لا تجري ولا تقفز كسابق عهدها، وإن كانت خليقة بأن تغريها الريح الباردة بالعدو السريع، وكنت ألمحها مرات من طرف عيني ترفع يدًا إلى خدها لتنفض شيئًا عنه، وجلت ببصري بحثًا عن وسيلة تلهيها عن إدمان الفكر، فرأيت على جانب الطريق سدًّا وعرًا عاليًا لا تكاد تستقر عليه أشجار البندق وأشجار البلوط الضامرة، وقد تعرت جذورها إلى منتصفها، وكانت التربة أكثر تخلخلًا من أن يستقيم فوقها شجر البلوط، وقد لوت الرياح الهوج بعضه حتى غدا أفقيًا، وكان يطيب لمس كاثرين في الصيف أن تتسلق سيقان هذه الأشجار وتجلس بين أغصانها وتتأرجح على ارتفاع عشرين قدمًا من الأرض، وكنت رغم اغتباطي برشاقتها ومرحها الصبياني أراه واجبًا عليَّ أن أوبخها كلما ضبطتها وهي على هذا الارتفاع الشاهق، ولكني كنت أسوق توبيخي بأسلوب تفهم منه ألَّا ضرورة تدعوها إلى الهبوط، وكانت تظل راقدة في مهدها هذا الذي تداعبه الريح من الغداء إلى الشاي لا يشغلها شاغل إلا أن تنشد لنفسها بعض الألحان القديمة -التي كنت أنشدها لها في طفولتها- أو ترقب الطيور التي تشاركها الأفنان تطعم صغارها وتغريها بالطيران، أو تسكن في مكانها وقد أغمضت جفنيها بين اليقظة والأحلام أسعد ما يكون إنسان على هذه الأرض.

قلت لها وأنا أشير إلى ركن تحت جذور شجرة من هذه الأشجار الملتوية: «انظري يا سيدتي! إن الشتاء لم يصل إلى هذا المكان بعد، فإن هناك زهرة صغيرة هي آخر ما تخلف من حشد الأزهار الكأسية الزرقاء التي كانت تجلل هذه المنحدرات المعشبة في شهر يوليو بغيمة من البنفسج، فهلا تسلقت إلى هناك وقطفتها لتريها لأبيكِ؟».

وحدقت كاثي طويلًا في الزهرة الوحيدة التي ترتجف في تربتها، ثم قالت: «لا، لن أمسها، ولكنها تبدو مكتئبة، أليس كذلك يا آلن؟».

قلت: «أجل، وهي مقرورة شاحبة مثلك، إني أرى خديك قد غاض لونهما، فلنشبك يدينا ولنجر، ولعلي مستطيعة مجاراتك لأنك أصبحت ضعيفة واهنة».

ولكنها عادت تقول: «لا»، ثم مضت في سيرها البطيء وهي تقف بين الحين والحين ساهمة عند قليل من الطحلب، أو خصلة من العشب

المبيض، أو نبات فطري يمد ثمره البرتقالي اللامع بين أكوام من الأوراق الدكناء، وكانت لا تفتأ ترفع يدها إلى وجهها الذي تشيح به عني.

وسألتها، وقد دنوت منها ووضعت ذراعي على كتفها: «كاثرين، لِمَ تبكين يا حبيبتي؟ جدير بكِ ألا تبكي لإصابة أبيكِ بالبرد، واحمدي الله لأن مرضه ليس شرًّا من هذا».

وهنا أطلقت العنان لدموعها حتى خنقتها العبرات، وقالت:

«أواه، سيكون شرًّا من هذا، وماذا أصنع حين يتركني أبي وتتركينني أنتِ وحيدة من بعدكما؟ إنني لا أستطيع أن أنسى كلماتك يا آلن فهي ترن دائمًا في أذني، كم ستتغير الحياة وكم ستقفر الدنيا حين يموت أبي وأنتِ؟».

فأجبتها: «لا يدري أحد أينا سيسبق صاحبه، ومن الخطأ أن يستبق المرء الشر قبل وقوعه، فلنرج أن تمضي سنوات وسنوات قبل أن يودع أحدنا هذه الحياة، فأبوك شاب بعد، وأنا قوية البدن لم أكد أبلغ الخامسة والأربعين، وقد عمرت أمي إلى الثمانين وظلت امرأة نشيطة مرحة إلى آخر رمق من حياتها، ولنفرض أن مستر لنتن قد مد له في الأجل حتى يبلغ الستين، فإن هذا معناه أنه سيعيش أكثر من سني حياتك التي عشتها إلى اليوم يا سيدتي، أليس من الحماقة إذن أن يبكي الإنسان على كارثة قبل وقوعها بعشرين سنة؟».

فأجابت وهي تتطلع إليّ راجية رجاء واهنًا أن تسمع مني مزيدًا من التعزية: «ولكن عمتي إيزابيلا كانت أصغر من أبي!».

وقلت لها: «لم يتح لعمتك إيزابيلا ما أتيح لأبيك من رعايتك ورعايتي، ولم تكن حياتها سعيدة كحياته، ولم يكن لديها ما يغريها بالحياة مثل ما لديه، فما عليكِ سوى أن تعني بأبيك، وتشرحي صدره بأن تدعيه يراكِ مبتهجة، وتجنبيه القلق والهم أيًّا كان السبب، فاذكري هذا يا كاثي! ولا أخفي عليكِ أنكِ قد تقتلينه إذا كنت مستهترة طائشة تغرمين غرامًا خياليًّا أحمق بابن رجل يسره أن يرى أباكِ في لحده، وإذا تركته يكتشف أنك تجتوين هذه القطيعة التي رآها صوابًا».

وقالت صاحبتي: «إني لا أجتوي شيئًا على الأرض غير مرض أبي، ولا يهمني شيء بالقياس إلى أبي، وما دمت مالكة لقواي فإنني لن أفعل أو أقول ما يغيظه أبدًا، أبدًا، أبدًا؛ لأنني أوثره عن نفسي يا آلن، وآية ذلك أنني أصلي كل ليلة أن يطول أجلي عن أجله لأنني أوثر أن أشقى أنا عن أن يشقى هو بموتي، وهذا دليل حبي له خيرًا من نفسي».

فأجبتها: «كلام طيب، ولكن عليكِ أن تثبتي هذا الحب بالفعل أيضًا، فإذا تماثل أبوكِ للشفاء فلا تنسي هذه العهود التي قطعتها على نفسك في ساعة الخوف».

وبينما نحن نتجاذب هذا الحديث، دنونا من باب يفتح على الطريق، فتسلقته سيدتي وجلست على قمة الجدار وقد عاد إليها إشراقها وابتهاجها، ومدت يدها لتقطف بعض ثمار الورد التي بدت متفتحة حمراء على الأغصان العليا لأشجار الورد البرية التي تحجب جانب الطريق الرئيس، وكانت ثمارها الدنيا قد ذبلت، ولكن العليا منها لا تستطيع لمسها سوى العصافير، إلا إذا صعد إليها صاعد من مكان كاثي، وفيما هي تمد ذراعها لتقطفها سقطت قبعتها عن رأسها؛ وإذ كان الباب مغلقًا فقد عنَّ لها أن تنحدر لتلتقطها، وحذرتها من السقوط، ونزلت هي في خفة وتوارت عن نظري، ولكن العودة كانت أشق؛ لأن الأحجار كانت ناعمة مصقولة، ولأن شجيرات الورد والعليق لم تكن مما يعينها على التسلق، ولم يخطر لي هذا بغباوتي حتى سمعتها تصرخ وتصيح: «آلن! عليكِ أن تذهبي وتحضري مفتاح الباب، وإلا اضطررت إلى الجري حتى خص الحارس، فإني لا أستطيع تسلق الجدار على هذا الجانب!».

قلت لها: «لا تبرحي مكانكِ، فإني أحمل في جيبي ربطة المفاتيح، ولعلي أستطيع فتح الباب بمفتاح منها، وإلا ذهبت لآتي بمفتاح».

وأخذت كاثرين تلهو بالرقص أمام الباب رائحة غادية، بينما كنت أجرب المفاتيح الكبيرة كلها واحدًا بعد الآخر، وجربت آخرها فلم يفتح، وكنت على وشك أن أهرول إلى البيت بأسرع ما أستطيع بعد أن طلبت»»»»

.

إليها من جديد ألا تبرح مكانها، وإذا صوت مقبل على المكان يوقفني، وكان الصوت صوت جواد يجري خببًا، وكفت كاثي عن رقصها كذلك.

وهمست قائلة: «من هذا؟».

وأجابت صاحبتي وهي تهمس في قلق: «ليتكِ تستطيعين فتح الباب يا آلن».

وهنا صاح صوت عميق (هو صوت الراكب) قائلًا: «يا مس لنتن! يسرني أن ألقاكِ، لا تتعجلي الدخول؛ لأني سأسألك تفسيرًا وسأحصل عليه».

وأجابت كاثرين: «لن أكلمك يا مستر هيثكليف؛ لأن أبي يقول إنك رجل شرير، وإنك تكرهه وتكرهني، وكذلك تقول آلن».

قال هيثكليف (وكان هو المتكلم): «لا دخل لهذا بالغرض من حديثي، فأنا لا أكره ابني فيما أحسب، وهو موضوع حديثي الذي أطالبك بالاستماع إليه الآن، أجل، يحق لكِ أن تحمري خجلًا، أو لم تجري على الكتابة إلى لنتن قبل شهرين أو ثلاثة؟ فهل كنتِ تبثينه الغرام هازلة؟ لقد كان جديرًا بكما أن تجلدا على هذا! لا سيما أنتِ؛ لأنكِ أكبر منه، وأقل حساسية كما اتضح لي، إنني أحتفظ بخطاباتك، وإذا بدرت منكِ أي وقاحة أرسلتها لأبيكِ، وأحسب أنكِ مللت هذا المزاح فأطرحته عنكِ، أليس كذلك؟ حسن، ولكنك طرحت معه لنتن في حمأة اليأس، فلقد كان جادًّا في حبه لكِ، لقد كان يحبكِ حقًّا، وإنه وربي لماضٍ إلى حتفه بسببك، فقد تحطم قلبه، حقيقة لا مجازًا، من جراء تقلبك هذا، وإن حاله لتزداد

سوءًا يومًا بعد يوم، على الرغم من أن هيرتن ظل ستة أسابيع يجعل منه أضحوكته الدائمة، وعلى الرغم من أنني لجأت معه إلى وسائل أعنف وحاولت ترويعه ليقلع عن حماقته، وما لم تعينيه على الشفاء مما ألم به، فلست أشك في أننا سنواريه لحده قبل أن يأتي الصيف!».

وصحت به من داخل الباب: «كيف تكذب هذا الكذب المفضوح على الفتاة المسكينة؟ امض في طريقك من فضلك! كيف تخترع عامدًا هذه الأضاليل الحقيرة؟ يا مس كاثي، سأخلع القفل بحجر، ولا تصدقي هذا الهراء الدنيء، فمن الواضح لكِ أن يستحيل على إنسان أن يموت بسبب حبه لشخص غريب عنه».

وغمغم اللئيم المفضوح: «لم أكن أعلم بوجود من يسترق السمع هنا، ثم أضاف بصوت أعلى: «أيتها الفاضلة مسز دين، إنني أعجب بكِ ولكني لا أعجب بنفاقكِ، كيف تكذبين أنتِ هذا الكذب المفضوح فتزعمين أنني أكره هذه الفتاة المسكينة؟ وتلفقين القصص المروعة لتقصيها عن بيتي؟ يا كاثرين لنتن (إن اسمك نفسه ليدفئ قلبي) يا بنيتي اللطيفة، سأكون بعيدًا عن بيتي طوال هذا الأسبوع، اذهبي وانظري هل صدقتك القول أو كذبتك، اذهبي يا حبيبتي! تصوري أباكِ في موضعي، ولنتن في موضعك، ثم انظري كيف تقدرين حبيبك اللاهي إن هو أبى أن يخطو خطوة واحدة في سبيل راحتك بعد أن يرجوه أبوكِ بنفسه؟ ولا تقعي في هذا الخطأ عينه بسبب الغباوة وسوء الفهم، إنني أقسم لكِ بحياتي أنه ماضٍ إلى قبره، ولن يستطيع أحد إنقاذه سواكِ!».

وانفتح القفل تحت ضرباتي وخرجت من الباب، وأعاد هيثكليف القول وهو يرمقني بصرامة: «أقسم أن لنتن يسير حثيثًا إلى حتفه، وأن الحزن والخيبة يعجلان عليه، فإذا أبيتِ أن تسمحي لها بالذهاب يا نلي فاذهبي أنتِ، ولكنني لن أعود إلى بيتي قبل أسبوع من اليوم، وأحسب أن سيدك نفسه لن يمانع في أن تزور الفتاة ابن عمتها».

قلت لها وأنا آخذ بذراعها وأكاد أجرها جرًّا إلى الداخل: «ادخلي»، ذلك أنها تباطأت وأخذت تتأمل بعينيها المضطربتين قسمات محدثها التي بدت صارمة لا تكشف عن خداعه الدفين.

ودفع جواده بقربها ثم انحنى نحوها وهو يقول: «أعترف لكِ يا مس كاثرين أنني ضيق برم بلنتن، وأن هيرتن وجوزيف أشد مني ضيقًا وبرمًا به، وأعترف لكِ أنه يعيش بين معشر فيهم صرامة وغلظة، إن الفتى ليتضور شوقًا إلى العطف والحب، وإن كلمة رقيقة منكِ لخير دواء لدائه، فلا تعبأي بتحذيرات مسز دين القاسية، وكوني كريمة النفس

وحاولي أن تزوريه، فإنه ليحلم بكِ ليل نهار، ولا سبيل إلى إقناعه بأنكِ لا تبغضينه؛ لأنكِ لا تكتبين له ولا تزورينه».

وأغلقت الباب، ودحرجت حجرًا لأعين به القفل المفكوك على التماسك، ثم نشرت مظلتي وجذبت وديعتي تحتها لأن المطر بدأ يتساقط خلال أغصان الشجر المتناوحة منذرًا لنا بالإياب على عجل، وحالت هذه الهرولة بيننا وبين التعقيب بشيء على مقابلتنا لهيثكليف ونحن نغذ السير إلى البيت، ولكنني أدركت بفطرتي أن قلب كاثرين قد رانت عليه الآن ظلمة مضاعفة، وبدت قسمات وجهها بالغة الحزن إلى حد يصعب معه تمييزها، وكان واضحًا أنها تقبلت كل ما سمعت على أنه الصدق بحذافيره.

وكان أبوها قد اعتكف في حجرته قبل أن نعود، وتسللت كاثي إليه لتسأل عن

صحته فوجدته قد نام، فعادت وطلبت إليَّ أن أجلس معها في المكتبة، وتناولنا الشاي معًا، ثم رقدت على البساط وطلبت إليَّ ألا أتكلم معها لأنها متعبة، فأتيت بكتاب وتظاهرت بالقراءة، وما إن خالتني قد استغرقت في القراءة حتى عادت إلى بكائها الصامت، ويبدو أنها كانت تجد في الدموع الآن سلواها المحببة، وتركتها تستمتع ببكائها برهة، ثم أخذت أعاتبها ساخرة من مزاعم هيثكليف عن ولده كأنني واثقة من أنها ستوافقني على رأيي، ولكن وا أسفاه! فإني لم أوت من البراعة ما أستطيع به إزالة الأثر الذي أحدثته فيها قصته، وذلك كان هدفه بعينه.

وأجابت كاثي: «قد تكونين على صواب يا آلن، ولكن لن يهدأ لي بال حتى أعرف الحقيقة، ويجب أن أخبر لنتن أنه ليس ذنبي أنني لا أكتب له، وأقنعه بأنني لن أتغير».

فكيف يجدي غضبي واحتجاجي أمام غفلتها هذه؟ لقد افترقنا تلك الليلة على خصام، ولكن الغد طالعني ميممة شطر وذرنج هيتس إلى جوار فرس سيدتي الصغيرة، فقد عز عليَّ أن أشهد حزنها، وأن أرى محياها المطرق الشاحب وعينيها الثقيلتين، وأذعت معللة نفسي بأمل واهٍ، وهو أن لنتن نفسه قد يثبت، باستقباله لنا، مبلغ ما في قصة أبيه من كذب واختلاق.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

كانت الليلة المطيرة فاتحة لصبح يشيع فيه الضباب -ويختلط فيه الصقيع بالرذاذ- وجرت في طريقنا الغدران التي كونها المطر تهبط بخرير من المرتفعات، وابتلت قدماي بالماء تمامًا، وكنت ضيقة الصدر فاترة الهمة، وهذا بالضبط هو المزاج الذي يجعل صاحبه يجسم ويبالغ في هذه الأشياء الثقيلة، ودخلنا بيت المزرعة من طريق المطبخ لنتحقق من غياب مستر هيثكليف كما زعم؛ لأنني كنت ضعيفة الثقة بما أكده لنا.

ووجدنا جوزيف يرتع وحده في نعيمه بجوار نار صاخبة، وإلى جانبه على المائدة قدح من الجعة تبدو منه قطع كبيرة من كعك الشوفان المحمر، وقصبته القصيرة السوداء في فمه، وجرت كاثرين إلى المدفأة لتصطلي، وسألته هل سيده بالبيت؟ ولكن سؤالي ظل بغير جواب فترة طالت حتى لقد ظننت العجوز قد أصابه الصمم، فأعدته على مسامعه بصوت أعلى.

ودمدم أو قل صرخ من أنفه قائلًا: «لا! لا! عليكما أن تعودا من حيث جئتما».

وصاح صوت غضوب انبعث من الحجرة الداخلية في نفس الوقت الذي كنت أرد فيه على جوزيف: «جوزيف! كم من المرات يجب أن أناديك؟ لم يبق في المدفأة غير جمرات قليلة يا جوزيف! تعال حالًا».

ولكن كان واضحًا من انصراف جوزيف إلى التدخين العنيف والتحديق في المدفأة بثبات أنه لا يعبأ بهذا النداء، أما الخادمة وهيرتن فقد اختفيا، ولعل الأولى كانت خارج الدار لأمر ما، ولعل الثاني كان مشغولًا بعمله، واستطعنا أن نتبين في هذا النداء صوت لنتن فدخلنا.

وقال الصبي وهو يحسب القادمين خادمه المهمل: «أواه! ليتك تموت من البرد في حجرة على السطح!».

ولكنه أمسك حالما اكتشف خطأه، وطارت إليه ابنة خاله.

وقال وهو يرفع رأسه من مسند المقعد الكبير الذي كان متكئًا عليه: «أهذه أنتِ يا مس لنتن؟»، ومضى يقول بعد أن أفاق قليلًا من عناق كاثرين، في حين وقفت هي تنظر في ندم شديد: «لا.. لا تقبليني، فالعناق يبهر أنفاسي، واحسرتاه لي! لقد قال أبي إنكِ قادمة لزيارتي، هلا أغلقت الباب من فضلك؟ لقد تركته مفتوحًا، وهؤلاء -هؤلاء القوم البغيضون إلى نفسي لا يريدون أن يجيئوا بمزيد من الفحم إلى المدفأة، ما أشد البرد!».

وقلبت بقايا الجمر، وأحضرت بنفسي ملء دلو من الفحم، وشكا العليل من أنني أثرت عليه الرماد، ولكنني لم أوبخه على سوء طبعه؛ لأنه كان يسعل سعالًا مزعجًا ويبدو محمومًا مريضًا.

وغمغمت كاثرين تقول بعد أن انبسط جبينه المقطب: «حسن يا لنتن، أمسرور أنت برؤيتي؟ وهل في استطاعتي أن أنفعك على أي وجه؟».

فسألها: «لِمَ لمْ تحضري من قبل؟ كان يجب أن تأتي بدلًا من أن تكتبي. لقد أرهقني إرهاقًا شديدًا أن أكتب إليكِ هذه الخطابات الطويلة، وكنت أوثر عليها أن أتحدث إليكِ، والآن أنا لا أطيق الحديث ولا أطيق غيره، لست أدري أين ذهبت زله!»، ثم نظر إليَّ وقال: «هلا ذهبت إلى المطبخ لتتبيني الأمر؟».

ولما كنت قد خرجت من خدمتي السابقة بغير جزاء ولا شكور، ولما كنت أكره أن أجري في البيت انصياعًا لأمره، فقد أجبته: «ليس هناك أحد سوى جوزيف».

فصاح في غيظ وهو يشيح بوجهه: «أريد أن أشرب، إن زله لا تفتأ تهيم في جمرتن مذ سافر أبي، فبئس هذا! وأنا مكره على أن أنزل إلى أسفل الدار هنا؛ لأنهم مصممون على ألا يسمعوا لي نداء البتة وأنا في الطابق العلوي».

وسألته بعد أن رأيت أن كاثرين قد صدت في محاولتها التودد إليه: «أيهتم بك أبوك يا مستر هيثكليف؟».

فصاح: «يهتم؟ إنه على الأقل يجعلهم هم أكثر اهتمامًا بي، يا للصعاليك! أتعلمين يا مس لنتن أن هذا الوحش هيرتن يضحك عليّ! إنني أمقته! بل إنني أمقتهم جميعًا، فهم قوم بغيضون إلى نفسي».

وبدأت كاثي تبحث له عن قليل من الماء، فعثرت على إبريق في الخزانة، فملأت كوبًا وأحضرته له، فطلب إليها أن تضيف إلى الماء ملء ملعقة نبيذ من زجاجة على المائدة، وبدا أهدأ من ذي قبل حين ابتلع قدرًا يسيرًا من الشراب، وقال إنها جد لطيفة.

وعادت تسأله سؤالها الأول وهي مغتبطة؛ إذ تبينت ابتسامة يوشك أن يفتر عنها فمه: «وهل أنت مسرور برؤيتي؟».

فأجاب: «نعم مسرور، إن الاستماع إلى صوت كصوتك شيء جديد! ولكنني كنت مغيظًا لأنكِ أبيت أن تحضري، وقد أقسم أبي أنني السبب في هذا، ورماني بأنني صعلوك حقير رواغ خليق بالرثاء، وقال إنك تحتقرينني، وأنه لو كان في مكاني لأصبح اليوم أكثر نفوذًا وسلطانًا على ضيعة ثرشكرس من أبيك، ولكنكِ لا تحتقرينني، أليس كذلك يا مس…!».

وقاطعته سيدتي الشابة تقول: «أرجو أن تدعوني بكاثرين أو كاثي، تقول أحتقرك؟ كلا! إنني أحبك أكثر من أي إنسان آخر بعد أبي وآلن، ولكنني لا أحب مستر هيثكليف، ولن أجرؤ على المجيء هنا حين يعود. هل تطول غيبته؟».

فأجاب لنتن: «لن تطول، ولكنه يمضي كثيرًا إلى البراري منذ بدأ موسم الصيد، وفي وسعك أن تقضي معي ساعة أو ساعتين أثناء ذلك، قولي إنك ستفعلين، وأحسبني لن أكون حاد الطبع معك إذا أتيت، فأنتِ لن تغيظيني، وسوف تكونين على الدوام مستعدة لمعاونتي، أليس كذلك؟».

قالت كاثرين وهي تداعب بيدها شعره الناعم الطويل: «أجل، لو استطعت الحصول على موافقة أبي لأنفقت نصف وقتي معك.. ليتك كنت أخي أيها الجميل لنتن!».

فقال في لهجة أبهج: «وهل كنتِ تحبينني كما تحبين أباكِ؟ ولكن أبي يقول إنك

ستحبينني أكثر من أبيكِ ومن الناس جميعًا لو كنت زوجتي، لذلك أوثر أن تكوني كذلك».

فأجابت في جد: «لا، لن أحب أحدًا أكثر مما أحب أبي، والناس يكرهون زوجاتهم أحيانًا، ولكنهم لا يكرهون إخوتهم وأخواتهم، ولو كنت أخي لعشت معنا ولأحبك أبي كما يحبني».

ونفى لنتن أن الناس يكرهون زوجاتهم، ولكن كاثي أكدت قولها، واستشهدت في حكمتها المعهودة بكراهية أبيه لعمتها، وحاولت أن أقطع عليها حديثها الأخرق، ولكنني لم أفلح في إسكاتها إلا بعد أن أفشت كل ما تعلم من هذا الأمر، وأكد هيثكليف أن قصتها كاذبة وقد أخذ الغيظ منه كل مأخذ».

وقالت في نزق: «لقد قصها عليَّ أبي، وأبي لا يكذب».

وصاح لنتن: «إن أبي يحتقر أباك! وهو يدعوه بالأحمق الجبان».

وردت عليه كاثرين: «إن أباك رجل شرير، ومن اللؤم أن تجرؤ على إعادة ما قال: «ولا بد أن شره هو الذي حمل عمتي إيزابيلا على تركه كما فعلت».

فقال الغلام: «إنها لم تتركه، لا تكذبيني».

وصاحت سيدتي الشابة: «لقد تركته».

فقال لنتن: «حسن، سأقول لكِ شيئًا! إن أمك كانت تكره أباكِ، فما قولك في هذا؟».

وصاحت كاثرين وقد عقد الغضب لسانها: «أواه!».

وأضاف لنتن: «وكانت تحب أبي».

فقالت مبهورة الأنفاس محتقنة الوجه غضبًا: «أيها الصبي الكذاب! إنني أمقتك بعد ما قلت!».

وصاح لنتن بصوته الرفيع، وهو يغوص في ركن مقعده ويرمي رأسه إلى الخلف ليستمتع بسورة غريمته الواقفة من خلفه: «كانت تحبه! كانت تحبه!».

وقلت له: «صه يا سيد هيثكليف! لعل هذه القصة أيضًا من صنع أبيكِ».

فأجاب: «لا، ليست من صنعه، اخرسي أنتِ! كانت تحبه يا كاثرين، كانت تحبه!».

ودفعت كاثي المقعد دفعة عنيفة وقد جن جنونها، فسقط لنتن على أحد مسنديه، وانتابته لتوه نوبة من السعال الخانق قضت على انتصاره سريعًا، وطالت النوبة إلى حد أخافني حتى أنا، أما ابنة خاله فقد انخرطت في البكاء العنيف وقد روعها ما جنت وإن لم تفه بكلمة، وسندته بيدي حتى فارقته النوبة، وهنا دفعني بعيدًا عنه ومال برأسه على صدره في صمت، وكفكفت كاثرين دموعها، واتخذت لها مقعدًا في مواجهته، وأخذت تتطلع إلى نار المدفأة في وجوم.

وسألته بعد سكون دام عشر دقائق: «كيف حالك الآن يا سيد هيثكليف؟».

فأجاب: «ليتها تحس بما أحس، هذه المخلوقة القاسية الحقود! إن هيرتن لا يمسني قط، ولم يضربني أبدًا طول حياته، وقد كنت اليوم أحسن حالًا، ولكن هأنذا..»، ثم تلاشى صوته مع نحيبه.

وغمغمت كاثرين وهي تعض شفتها خشية أن تنفجر بالبكاء ثانية: «إنني لم أضربك!».

وطفق لنتن يئن ويتوجع كمن برح به الألم، وظل على هذه الحال ربع ساعة، وكان واضحًا أنه عمد بهذا إلى تعذيب ابنة خاله؛ لأنه كان يشيع الألم في نبرات صوته كلما لمح منها شهقة تحاول كظمها.

وأخيرًا قالت، وقد تحطمت أعصابها فوق ما تطيق: «إنني آسفة لما سببت لك من أذى يا لنتن، ولكنني لو كنت مكانك لما آلمتني مثل هذه الدفعة الطفيفة، وما كان يدور بخلدي أنها تؤلمك، إنها لم تؤلمك ألمًا شديدًا يا لنتن، أليس كذلك؟ لا تجعلني أعود إلى بيتي معتقدة أنني سببت لك الأذى، أجب! كلمني».

وغمغم قائلًا: «لا أستطيع أن أكلمك، لقد سببت لي من الألم ما سوف يؤرقني طوال الليل من جراء هذا السعال الخانق، ولو أن هذا السعال انتابك لعرفت حقيقة أمره، ولكنك ستنعمين بنوم هنيء وأنا أصلى هذا العذاب وحدي وليس بقربي أحد، ليت شعري كيف يكون شعورك إذا كان عليكِ أن تقضي هذه الليالي الرهيبة التي أقضيها!»، ثم انخرط في النواح والعويل رثاء لنفسه.

قلت له: «إذا كنت قد اعتدت قضاء ليال رهيبة، فسيدتي إذن ليست هي التي ستقلق راحتك، ولو أنها لم تأت قط لما جد عليك جديد، وعلى أي حال فلن تعود إلى إزعاجك بعد اليوم، وعسى أن تهدأ حين نتركك».

وسألته كاثرين في نغمة حزينة وهي تحنو عليه: «أيجب أن أنصرف؟ أتريدني أن أنصرف يا لنتن؟».

فأجاب في نزق وهو يجفل منها: «هيهات أن تصلحي ما أفسدت، إلا أن تزيديه إفسادًا بإغاظتي حتى تنتابني الحمى».

وعادت تقول: «إذن فلا بد أن أنصرف؟».

قال: «دعيني وشأني على الأقل، فأنا لا أطيق حديثك».

ولكنها تباطأت وقاومت حضي لها على مبارحة البيت فترة ضايقتني، وإذ أبى أن يتطلع أو يتحدث إليها، فقد اتجهت آخر الأمر إلى باب الحجرة وأنا من خلفها أتبعها، ولكنه ردنا بصرخة عالية، فقد انزلق من مقعده إلى المدفأة، وظل على الأرض يتلوى في عناد الطفل المدلل السخيف الذي يأبى إلا أن يكون مبعث الاهتمام والانزعاج ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وفطنت تمامًا إلى مزاجه هذا من سلوكه الذي سلك وأدركت لساعتي أن من الخرق محاولة استرضاء هذا المزاج وملاطفته، ولكن رفيقتي لم تشاركني رأيي هذا، فقد عادت إليه تجري في رعب، وركعت بجانبه، وبكت، وأخذت تلاطفه، وتتوسل إليه، حتى هدأ بسبب

انقطاع أنفاسه، لا لأن ضميره بكته على ما سبب لها من شقاء.

قلت: «سأرفعه على الأريكة حيث يستطيع أن يتقلب كما يشتهي، فليس في وسعنا أن نمكث هنا لنحرسه، وأرجو أن تكوني قد اقتنعت الآن يا مس كاثي بأنك لست الشخص الذي ينفعه، وأن سوء صحته لم ينشأ عن تعلقه بك، والآن ها قد فرغت من رفعه! فهيا بنا ننصرف، وسيظل راقدًا في مكانه لا يتقلب حالما يعلم أن أحدًا لا يقف إلى جواره ليشغل نفسه بعبئه هذا».

ووضعت وسادة تحت رأسه، وقدمت له قليلًا من الماء، فرفض الماء، وأخذ يتقلب ضجرًا على الوسادة كأنها حجر أو خشب، فحاولت أن تعدل من وضعها لتكون أكثر إراحة له.

فقال: «لا تريحني هذه لأنها ليست عالية علوًّا كافيًا».

فأتت كاثرين بوسادة أخرى لتضعها فوقها.

فقال الفتى المدلل المثير متذمرًا: «وهذه أعلى مما أطيق».

وسألته في يأس: «فكيف تريدني إذن أن أضعها؟»، فطوى جسمه نحوها وهي نصف راكعة إلى جوار الأريكة واتخذ من كتفها تكأة يستند إليها.

فقلت: «لا، لن يكون هذا، عليك أن تقنع بالوسادة يا سيد هيثكليف، لقد أنفقت سيدتي عليك من الوقت فوق ما ينبغي، ولن نستطيع البقاء خمس دقائق بعد الآن».

فأجابت كاثي: «لا لا، نستطيع البقاء، لقد أصبح الآن هادئًا صبورًا، وقد بدأ يعتقد أنني سأكون أتعس منه حالًا هذه الليلة إذا استقر في ذهني أنني سببت له المزيد من الأذى بزيارتي هذه، وعندها لن أجرؤ على تكرار زيارتي، قل الحق يا لنتن، لأنني لن آتي بعد اليوم إن كنت قد سببت لك ضررًا».

فأجاب: «يجب أن تأتي لتشفيني، يجب أن تأتي لأنك سببت لي الأذى، إنك تعلمين أنكِ آذيتني أذى شديدًا! إنني لم أكن أشكو العلة حين جئت كما أشكوها الآن. أليس كذلك؟».

قالت ابنة خاله: «ولكنك أذيت نفسك بالبكاء وشدة الانفعال، فلم يكن الذنب كله ذنبي، على أي حال لنكن الآن صديقين، وأنت في حاجة إليَّ، وتريد أن تراني بين الحين والحين، أحق هذا؟».

قال في ضجر: «قلت لكِ ذلك من قبل، اجلسي على الأريكة ودعيني أتكئ على ركبتك كما كانت تفعل لي أمي أمسيات بطولها، اجلسي دون حركة أو كلام، ولكن في وسعك أن تغني لي أغنية، إذا استطعت الغناء، أو أن تقصي عليَّ قصة شعرية طريفة طويلة.. قصة من تلك التي وعدت أن تعلميني، أو قصة نثرية، ولكني أوثر القصة الشعرية فابدأيها».

وروت كاثي أطول قصة شعرية استطاعت تذكرها، وكان في الرواية متعة لكليهما، وطلب لنتن ثانية، ثم ثالثة بعدها، وذلك رغم اعتراضاتي القوية، وظلا مسترسلين في هذا

حتى دقت الساعة الثانية عشرة، فسمعنا هيرتن في فناء البيت، وقد عاد لتناول غدائه.

وسألها الفتى هيثكليف وهو يمسك بثوبها حين همت واقفة على كره منها: «وغدًا يا كاثرين، أتحضرين غدًا؟».

فأجبته: «لا، ولا بعد غد»، أما كاثرين فقد كان واضحًا أنها أجابته بغير هذا الجواب؛ لأن جبينه أشرق وهي تنحني وتهمس في أذنه.

قلت لها حين خرجنا من البيت: «تذكري يا آنسة أنكِ لن تذهبي إليه غدًا، إنك لا تحلمين بالذهاب، أليس كذلك؟».

وافتر ثغرها عن ابتسامة.

ومضيت أقول: «أوه، سأتخذ العدة للحيلولة بينك وبين هذا، وسأجعلهم يصلحون ذلك القفل، ولن يكون أمامك سبيل آخر للتسلل من البيت».

فقالت وهي تضحك: «أستطيع أن أهرب بتسلق الحائط، إن بيتنا ليس سجنًا يا آلن، وما أنتِ بحارسة سجني، ثم إنني قد ناهزت السابعة عشرة، أي أنني أصبحت امرأة راشدة، وأنا واثقة أن لنتن سيتماثل

للشفاء سريعًا إذا كنت إلى جواره أعنى به، فأنا كما تعلمين أكبر منه سنًّا، وأكثر تعقلًا، وليس فيَّ ما فيه من طباع الأطفال، ألست كذلك؟ وسيفعل بعد قليل ما أوجهه إليه بشيء من الملاطفة، فهو غلام حلو محبب إلى النفس حين يصفو، ولو أنني تزوجته لجعلته أنيسًا لطيفًا، إننا لن نتشاجر بعد أن يألف الواحد منا صاحبه، أليس كذلك؟ ألا يعجبك يا آلن؟».

قلت: «يعجبني! إنه لأسوأ من عرفت من المراهقين المهزولين طباعًا، وهو لحسن الحظ لن يعيش حتى يبلغ العشرين، وهذه نبوءة مستر هيثكليف، بل إنني أشك في أنه سيمد له في الأجل حتى يرى الربيع، ولن يكون موته خسارة لأسرته أنى مات، ولقد حالفنا الحظ لأن أباه ضمه إليه، فقد كان العطف الشديد عليه خليقًا بأن يزيده تكاسلًا وأنانية، وإنني لمغتبطة يا مس كاثرين لأنه لا أمل لكِ في الزواج به».

ووجمت صاحبتي لسماع هذا الكلام، فقد حز في نفسها الحديث عن موته بمثل هذه الاستهانة.

وأجابت بعد تأمل طويل: «إنه أصغر مني، وهو خليق بأن يعمر أطول، وسيعمر.. يجب أن يطول عمره كعمري، إنه اليوم لم يضعف عما كان حين وفد للشمال أول مرة، أنا واثقة من هذا، فليس ما به سوى برد كالبرد الذي يشكوه أبي، وأنتِ تقولين إن أبي سيتماثل للشفاء، فلم لا يفعل لنتن أيضًا؟».

فصحت بها: «حسن، حسن، على أي حال لا داعي لهذا العناء، لأنك لو حاولت الذهاب ثانية إلى وذرنج هيتس وحدك أو بصحبتي -وأنا أرجو أن تصغي إليَّ يا آنسة، وأنبهك إلى أنني سأبر بما أقول- فسأنبئ مستر لنتن بهذا، ولن أسمح لكِ ببعث هذه الصداقة الحميمة بينك وبين ابن عمتك ما لم يسمح بذلك أبوك».

وتمتمت كاثي في تبرم: «لقد بعثت فعلًا».

قلت: «لن تمضي فيها إذن».

فأجابت: «سنرى»، ثم أطلقت العنان لفرسها، وخلفتني أحاول اللحاق بها في جهد ومشقة.

وبلغنا الدار قبل الغداء، وظن سيدي أننا كن نضرب في أرجاء البستان، فلم يسألنا عن سبب غيابنا، وبادرت بخلع حذائي وجواربي التي تشربت الماء حالما دخلت، ولكن بقائي بها مبتلة طوال هذا الوقت في وذنج هيتس كان قد أحدث بجسمي ما أحدث من ضر، فلزمت فراش المرض صباح الغد، وظللت ثلاثة أسابيع عاجزة عن مباشرة واجباتي، وهي كارثة لم أصب بها قبل ذلك التاريخ، وأحمد الله على أنها لم تصبني بعده قط.

وكانت سيدتي الشابة، وهي ترعاني وتؤنس وحشتي، تبدو كأنها ملك كريم، فقد هبط بمعنويتي لزوم الفراش، وما أشقه على شخص نشيط دائب الحركة، ولكن قل من المرضى من كانت أمورهم ميسرة مثلي، فما إن كانت كاثرين تغادر حجرة مستر لنتن حتى تهرع إلى جواري، وكان يومها مقسمًا بيننا لا تلهو لحظة منه، وأهملت طعامها ودرسها ولعبها، وكانت ألطف من رأيت ممرضة تحنو على مريض، ولا بد أن قلبها كان قلبًا عامرًا بالحب والحنان؛ لأنها وهي تحب أباها هذا الحب الشديد، وجدت في قلبها متسعًا لتضفي عليَّ ما أضفت من حنان بالغ. كانت أيامها كما قلت قسمة بيننا، ولكن سيدي كان يمضي إلى فراشه مبكرًا، وكنت في العادة لا أحتاج إلى شيء بعد الساعة السادسة، وهكذا خلصت لها الأمسيات، يا للمسكينة! إنني لم أفكر قط فيما كانت تنفق فيه وقتها بعد تناولها الشاي، وكنت إذا لاحظت على وجنتيها نضارة، وعلى أصابعها الرقيقة توردًا، حين تدخل حجرتي لتقرئني تحية المساء قبل أن تمضي إلى فراشها، أعزو هذا التورد إلى الدفء الذي يجلبه الجلوس إلى نار مدفأة المكتبة الحامية، لا إلى الرياضة في البراري على ظهر فرسها في برد الليل.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

استطعت أن أغادر حجرتي وأتحرك داخل البيت بعد أسابيع ثلاثة، وطلبت إلى كاثرين في أول ليلة ظللت فيها متيقظة بعد مرضي أن تقرأ لي لما ألم ببصري من ضعف، وكنا في المكتبة، وقد مضى سيدي إلى فراشه، فقبلت، ولكن على مضض كما خُيِّل إليَّ، وطلبت إليها أن تختار للقراءة ما شاءت؛ لأنني ظننت أن الكتب التي أقرؤها لا تستهويها، فانتقت كتابًا من الكتب التي تؤثرها، واسترسلت في القراءة زهاء الساعة، ثم تكاثرت أسئلتها.

«ألست متعبة يا آلن؟ أليس من الخير لكِ أن تمضي إلى فراشك الآن؟ سيضرك هذا السهر الطويل يا آلن».

وكنت لا أفتأ أجيبها: «لا، لا يا عزيزتي، لست متعبة».

فلما رأتني لا أقوى على القيام من مكاني، جربت سبيلًا آخر تبدي به زهدها في مهمتها، فأخذت تتثاءب وتتمطى وتقول: «إنني متعبة يا آلن».

فأجبتها: «إذن فكفي عن القراءة وتكلمي».

وكان هذا أسوأ، فطفقت تتململ وتتنهد، وتنظر في ساعتها حتى بلغت الثامنة، وأخيرًا مضت إلى حجرتها، وقد خُيِّلَ إليَّ من نظرتها الثقيلة المتبرمة ومن فركها عينيها فركًا متصلًا أن النعاس قد غلبها على أمرها، وبدا عليها في الليلة التالية أنها أشد تبرمًا وضجرًا، وفي الليلة الثالثة بعد إبلالي من المرض شكت صداعًا ثم انصرفت عني، ورأيت في تصرفها غرابة وشذوذًا، فاعتزمت أن أمضي إليها -بعد أن بقيت وحدي برهة طويلة- لأطمئن على صحتها وأرجوها أن تأتي فترقد على الأريكة بدل أن ترقد في الظلام في الطابق العلوي، ولكني لم أثر لكاثرين على أثر، لا علوًا لا سفلًا، وأكد لي الخدم أنهم لم يروها، وأصخت السمع بباب مستر إدجر، فإذا كل شيء هادئ ساكن، وعدت إلى حجرتها، فأطفأت شمعتي، وجلست إلى النافذة.

وكان ضوء القمر يسطع وعلى الأرض رذاذ من الثلج المتساقط، فقلت لنفسي وأنا أقلب الأمر لعلها قد بدا لها أن تتمشى في الحديقة لتنتعش، ولمحت فعلًا شخصًا يتسلل بحذاء سياج البستان الداخلي، ولكنه لم يكن سيدتي الشابة، فقد تبينت فيه أحد سائسي الخيل حين خرج إلى النور، وطال وقوفه وهو يرقب طريق العربات الذي يخترق فناء البيت، ثم رأيته ينطلق على عجل كأنه لمح شيئًا، ثم عاد إلى الظهور، وهو يقود فرس سيدتي، وبدت هي وقد ترجلت عن ظهرها وسارت إلى جوارها، ومضى الرجل بالفرس متسللًا فوق العشب متجهًا إلى الإسطبل، ودخلت كاثي البيت من نافذة حجرة الزائرين، وصعدت في غير ضجة إلى حيث كنت أنتظرها، وفتحت الباب في رفق كذلك، وخلعت حذاءها الذي يغطيه الثلج وفكت رباط قبعتها وهمَّت بإلقاء معطفها جانبًا وهي لا تعلم بأنني أتجسس عليها، فقمت فجأة أكشف لها عن وجودي، وجمدت في مكانها لحظة من أثر وجودي، وانبعثت من فمها صيحة تعجب مكتومة، ثم وقفت ساكنة لا تطرف.

وبدأت كلامي وأنا متأثرة بصنيعها الأخير بي تأثرًا حال بيني وبين توبيخها: «أين

كنتِ تركبين في هذا الوقت يا عزيزتي مس كاثرين؟ ولِمَ تحاولين خداعي بتلفيق الأكاذيب؟ أين كنتِ؟ تكلمي!».

قالت متعثرة: «في نهاية البستان، ولم ألفق عليك أكاذيب».

فسألتها: «ولم تذهبي إلى مكان آخر؟».

وأجابت متمتمة: «لا».

فبكيت وقلت والحزن يخالط كلامي: «وا أسفاه يا كاثرين! إنك تعلمين أنكِ كنت تأتين خطأ وإلا لما اضطررت إلى الكذب عليَّ، وإن هذا ليحزنني أشد الحزن، وأهون عليَّ أن يمتد بي المرض ثلاثة أشهر من أن أسمعك تكذبين عامدة».

وهمت إلى الأمام فألقت ذراعيها حول عنقي، وهي تنخرط في البكاء وتقول: «حسن يا آلن، إنني شديدة الخوف من أن أغضبك، عديني ألا تغضبي حين أنبئك بحقيقة الأمر، وإنني لأكره أن أكتم الحق».

وجلسنا على قاعدة النافذة، وأكدت لها أنني لن أوبخها كائنًا ما كان سرها، وكنت قد حزرته طبعًا، فبدأت تقول: «كنت في وذرنج هيتس يا آلن، ولم أنقطع عن الذهاب إلى هناك يومًا واحدًا مذ ألم بك المرض، فيما عدا ثلاث مرات قبل مرضك، ومرتين بعد أن غادرت حجرتك، وكنت أعطي ميكل كتبًا وصورًا ليعد لي «مني» كل عشية وليعيدها إلى الإسطبل ثانية، ولاحظي ألا توبخيه هو أيضًا، وكنت أصل إلى وذرنج هيتس قبيل السادسة والنصف وأبقى عادة إلى الثامنة والنصف، ثم أركب عدوًا إلى البيت، ولم يكن ذهابي ترفيهًا عن نفسي، فكثيرًا ما كنت أحس التعاسة طوال الوقت، ولم أكن أشعر بالسعادة إلا بين الحين والحين، ربما مرة واحدة في الأسبوع، وكنت أتوقع أول الأمر أنني سألقى نصبًا شديدًا إذ أحاول إقناعك بأن تسمحي لي بالبر بوعدي للنتن لأنني كنت قد ارتبطت معه بوعد بزيارته في الغد ونحن نفارقه، ولكنني أنقذت من هذا لأنك لزمت فراشك غداة ذلك اليوم، وبينما كان ميكل يثبت قفل باب البستان في العصر أخذت المفتاح، وأخبرته كيف يريدني ابن عمتي أن أزوره لأنه مريض لا يستطيع المجيء إلى بيتنا، وكيف يأبى أبي أن أذهب إليه، ثم فاوضته في أمر الفرس، وميكل يحب الاطلاع، وهو يفكر في ترك خدمتنا عما قريب ليتزوج، لذلك عرض عليَّ أن أعيره كتبًا من مكتبة أبي نظير قيامه بما طلبت إليه القيام به، ولكنني آثرت أن أعطيه كتبي، فكان سروره بها أكثر.

«وبدا لنتن في زيارتي الثانية له كثير الانشراح والمرح، وهيأت لنا خادمتهم زله حجرة نظيفة ونارًا موفورة، وأخبرتنا أن في وسعنا أن نصنع ما نشاء لأن جوزيف خرج ليحضر اجتماع صلاة، ولأن هيرتن انطلق بكلابه ليصيد فراخنا البرية كما سمعت فيما بعد، وأتتني بنبيذ حار وفطيرة زنجبيل وبدت غاية في اللطف، وجلس لنتن على المقعد ذي المسندين، وجلست على المقعد الهزاز الصغير إلى جوار المدفأة وطفقنا نضحك ونتكلم في انشراح، وكان مجال الكلام متسعًا، ورسمنا خطة رحلاتنا في الصيف وما سنفعله أثناءها، ولا داعي لأني أعيد هذا على مسامعك؛ لأنك ستقولين إنه هراء.

«على أننا أوشكنا أن نتشاجر ذات مرة، ذلك أنه قال إن أمتع ما يقضي فيه يوم من أيام شهر يوليو الحارة هو أن يرقد المرء من الصباح إلى المساء على مرتفع من العشب وسط البراري وحوله النحل يطن بين النوار طنينًا خافتًا حالمًا، ومن فوقه في الأعالي القبرات تشدو بأغانيها، والسماء الزرقاء والشمس المشرقة يسطع نورها فلا تحجبه سحب

ولا غيوم، تلك أمثل صورة تخيلها للنعيم المقيم، أما صورتي فكانت أن يتأرجح الإنسان في شجرة خضراء مضطربة الأوراق، تهب عليه ريح غربية، وتنطلق من فوقه الغيوم البيضاء الناصعة في سرعة، ومن حوله الموسيقى فياضة تملأ الجو منبعثة لا من أفواه القنابر فحسب، بل من الدج والشحارير والعصافير والوقاوق أيضًا، والبراري تتراءى على بعد وقد تكسرت أودية ظليلة لطيفة الهواء، ولكن تقوم إلى جوارها مرتفعات هائلة من العشب الطويل يداعبها الريح كأنها أمواج البحر، والغابات والماء الصاخت، والدنيا كلها يقظة نشوانة بالفرح والبهجة. كان لنتن يريد أن ترقد الدنيا في نشوة من الصفاء، وكنت أريدها أن تتألق وترقص في عيد من الطرب والسرور، وقلت له إن نعيمه لن يحيا إلا نصف حياة، فقال لي إن نعيمي سيكون نعيمًا مخمورًا، قلت له إن نعيمه يغريني بالنوم لو عشت فيه، وقال لي إنه لو عاش في نعيمي لما استطاع أن يتنفس، ثم استحال فظًّا شرسًا، وأخيرًا ارتضينا أن نجرب كلا النعيمين حالما يتيح لنا الجو الملاءم هذه التجربة، ثم قبل كل منا صاحبه وعدنا صديقين كما كنا.

«وبعد أن جلسنا ساكنين ساعة، نظرت إلى الغرفة الفسيحة وإلى أرضها المصقولة التي لا يغطيها فرش، وخطر لي أن اللعب فيها يكون ممتعًا لو أزحنا المنضدة، فطلبت إلى لنتن أن يدعو زلة لتساعدنا في نقلها حتى نلعب لعبة الاستخفاء، وعليها أن تحاول القبض علينا وعيناها معصوبتان كما كنت تفعلين يا آلن، فأبى؛ لأنه لا يجد لذة في هذه اللعبة، ولكنه رضي أن يلاعبني الكرة، ووجدنا كرتين في صوان بين كومة من اللعب القديمة والنحل والأطواق والمضارب والفلين المرشوق

بالريش، وكان على كرة منهما حرف «ك» وعلى الأخرى حرف «هـ»، فأردت أن آخذ الأولى لأن الكاف ترمز إلى كاثرين، والهاء إلى هيثكليف على الأرجح، ولكن النخالة كانت تخر من كرته، فلم يرض بها لنتن، وهزمته في اللعب هزيمة متصلة، فساء طبعه واحتد ثانية، وأخذ يسعل ثم عاد إلى كرسيه، ومع ذلك فقد استعاد صفاءه تلك الليلة في غير مشقة، واغتبط بأغنيتين لطيفتين أو ثلاث من أغانيك يا آلن، وتوسل إليَّ، حين اضطررت إلى الانصراف، أن أعود في مساء الغد، فوعدته بهذا، وانطلقت على ظهر منى كالسهم عائدة بها إلى البيت، فحلمت ليلتها بوذرنج هيتس وبابن عمتي المحبوب حتى مطلع الصبح.

«وفي الغد كان يساورني الحزن لمرضك من جهة، ولأنني كنت أتمنى، من جهة أخرى، أن يكون أبي على علم بهذه الرحلات راضيًا بها، ولكن ضوء القمر أشرق رائعًا بعد تناولي الشاي، وانقشع الظلام وصفت السماء وأنا في طريقي إليه، وقلت لنفسي إنني مقبلة على أمسية سعيدة أخرى، وإن لنتن الحلو سيستمتع بهذه الأمسية، وهو ما زاد من بهجتي، وركبت إلى حديقتهم، وكنت أدير فرسي متجهة إلى خلف الدار حين لقيني هذا الفتى إيرنشو، فأمسك بزمامها، وأخبرني أن أدخل من الباب الأمامي، ثم ربت على عنق منى، وقال إنها حيوان جميل، وبدا عليه أنه يريدني أن أكلمه، ولكني لم أزد على أن أطلب إليه أن يدع الفرس وشأنها وإلا ركلته، فأجاب بلكنته السوقية: «إنها لو فعلت لما سببت لي أذى يذكر»، ثم شمل قوائمها بنظرة وهو يبتسم، وحدثتني نفسي بأن أجعلها تحاول ركله، إلا أنه سار ليفتح الباب، وقال في مزيج غبي من الارتباك والزهو: «إنني أستطيع أن أقرأ هذا الآن يا مس كاثرين»، قلت: «عجبًا، فأسمعنا من فضلك؛ فلقد برعت حقًّا!».

«وأخذ يتهجى اسم «هيرتن إيرنشو» بالحروف ويلفظه في بطء مقطعًا بعد مقطع.

«وصحت به مشجعة بعد أن رأيته قد ارتج عليه: «والأرقام؟»، فأجاب: «لا أستطيع قراءتها بعد».

«قلت له وأنا أضحك ملء شدقي من إخفاقه: «أيها البليد!».

«وحملق الغبي فيَّ وعلى شفتيه ظل ابتسامة كالحة، وأخذ جبينه يربد، وكأنه كان حائرًا أيشاركني الضحك أم لا يشاركنيه، وهل هذه دعابة الأصدقاء الذين رفعوا الكلفة أو هي الاحتقار لشأنه، وهي ما كانت في الحق. على أنني قطعت شكوكه حين استعدت سيماء الجد وطلبت إليه أن ينصرف لأنني جئت لرؤية لنتن لا لرؤيته، واحمر وجهه -وقد رأيته في ضوء القمر- وأسقط يده عن مزلاج الباب، ثم تسلل بعيدًا وقد بدا صورة مجسمة للكبرياء الجريحة، ولعله خُيِّل إليه أنه على قدر من الثقافة كالقدر الذي عليه لنتن؛ لأنه استطاع هجاء اسمه، وحز في نفسه كثيرًا ألا أشاركه رأيه».

فقاطعتها قائلة: «قفي يا عزيزتي كاثرين! إنني لن أوبخك، ولكن سلوكك في هذا الأمر لا يعجبني، ولو أنك تذكرت أن هيرتن يمت إليكِ بصلة القرابة عينها التي يمت إليكِ بها السيد هيثكليف، لشعرت بخطأ هذا السلوك، وأقل ما يقال في رغبته أن يبلغ ما بلغه لنتن من الثقافة أنها طموح يحمد له،وأكبر ظني أنه لم يتعلم القراءة لمجرد التظاهر بالعلم، لذلك أراد أن يتعلم وينال رضاءك، وإنه لمن سوء التربية أن تهزئي بمحاولته التي لا يزال يشوبها النقص، فهل كنت تظهرين أقل جلافة منه لو أنك نشأت في الظروف التي نشأ فيها؟ لقد كان في طفولته قريبًا لكِ في الذكاء وسرعة الخاطر، ويؤلمني أن يلقى اليوم التحقير والازدراء؛ لأن هذا الوضيع هيثكليف قد عامله هذه المعاملة الظالمة».

قالت وقد أدهشها ما في لهجتي من جد وحماسة: «حسن يا آلن، إنكِ لن تبكي من أجل هذا؟ ولكن مهلًا، فسترين هل تعلم أبجديته ليرضيني، وهل كان هناك جدوى من التأدب مع هذا الحيوان، فقد دخلت البيت فوجدت لنتن راقدًا على الأريكة، فقام نصف قومة ليحييني».

«وقال: «إنني مريض الليلة يا حبيبتي كاثرين، وعليكِ أن تنفردي بالكلام كله وأنا أصغي لكِ، واجلسي إلى جواري، كنت واثقًا أنكِ لن تحنثي في وعدك، وسأجعلك تعدين بالمجيء ثانية قبل أن تنصرفي».

«وأدركت وقتها أن واجبي يقتضيني ألا أضايقه أو أعاكسه لأنه مريض، فتحدثت إليه في رفق ولم أوجه إليه أسئلة، وتجنبت إغاظته على أي صورة، وكنت قد جلبت له كتبًا انتقيتها من بين ألطف كتبي، فطلب إليَّ أن أقرأ له طرفًا من أحدها، وكنت على وشك أن أفعل، لولا أن فتح هيرتن الباب بعنف، وقد اشتد حنقه حين فكر فيما لحقه، واتخذ سمته إلينا وأمسك بذراع لنتن فقذفه بعيدًا عن مقعده.

«ثم قال له وهو لا يكاد يبين من الغضب والانفعال، ووجه منتفخًا هائجًا: «امض إلى حجرتك! خذها هناك حين تأتي لزيارتك؛ فإنك لن تستأثر بهذا دوني، اغربا كلاكما عن وجهي!».

«ثم أخذ يسبنا، ولم يدع للنتن متسعًا من الوقت للرد عليه؛ لأنه قذف به أو كاد إلى المطبخ، وزم على قبضته حين تبعت لنتن كأنه يتوق إلى أن يصرعني بها، وأحسست الخوف لحظة، وسقط من يدي أحد الكتب، فركله ورائي وأغلق باب الحجرة دوننا، وطرقت أذني ضحكة متهدجة خبيثة صادرة من جوار المدفأة، وتلفت فإذا جوزيف البغيض واقف يفرك يديه النحيلتين وهو يقول:

«كنت واثقًا أنه سيطردكما! إنه ولد مدهش! وإن بين جنبيه روحًا أصيلة! إنه

يعلم.. نعم، إنه يعلم كما أعلم، من ذا الذي يجب أن يكون السيد المتصرف هنا.. ها ها ها! لقد أنزل بكما ما أنتما جديران به من عقاب! ها ها ها!».

«وسألت ابن عمتي غير عابئة بسخرية الصعلوك العجوز: «إلى أين نذهب؟».

«وكان لنتن شاحب اللون يرتعد، ولم يكن حلو المنظر في تلك اللحظة يا آلن، لا لا! كان يبدو مخيفًا، فقد لاحت على وجهه النحيل وعينيه الواسعتين سيماء الغضب العاجز المجنون، فقبض على أكرة الباب وأخذ يهزه، ولكن الباب كان مقفلًا من الداخل بالمزلاج.

«وقال، أو على الأصح صرخ بصوت جاد: «سأقتلك إن لم تفتح لي! سأقتلك إن لم تفتح لي! أيها الشيطان! أيها الشيطان! سأقتلك.. سأقتلك!».

«وأطلق جوزيف ضحكته المشؤومة ثانية، ثم صاح:

«هذا طبع أبيه! إنه طبع الأب! كلنا ورث بعض طبعه عن أحد والديه، ولكن لا يهمك يا عزيزي هيرتن.. لا تخش شيئًا.. إنه لا يستطيع أن يصل إليك!».

«وأمسكت بيدي لنتن محاولة جره بعيدًا عن الباب، ولكنه كان يصرخ صراخًا مفزعًا، فلم أجرؤ على المضي فيما أنا بسبيله، وأخيرًا دهمته نوبة سعال مخيفة خنقت صيحاته، وتدفق الدم من فمه ثم وقع على الأرض، وعدوت إلى الفناء وقد جاشت نفسي رعبًا، وناديت زله بأعلى صوتي، فسمعتني بعد قليل، وكانت تحلب البقر في حظيرة خلف مخزن الغلال، فتركت عملها وهرولت تستفسر عن حاجتي، وكنت مبهورة الأنفاس لا أقوى على البيان، فجررتها إلى الداخل وأجلت بصري باحثة عن لنتن، وكان إيرنشو قد خرج من الحجرة ليرى الشر الذي أتته يداه، فرأيته في تلك اللحظة يحمل المسكين إلى الطابق العلوي، فصعدت وزله من خلفه، ولكنه أوقفني عند قمة السلم ومنعني من دخول الحجرة، وأمرني بأن أنصرف إلى بيتي، وقلت له إنه قتل لنتن، وإنني لا بد داخلة، ولكن جوزيف أغلق الباب بالمفتاح، وقال إنني يجب ألا آتي هذه الحماقة، وسألني هل أريد أن أكون مجنونة مثله، ووقفت أبكي إلى أن عادت الخادم إلى الظهور، فأكدت لي أنه سيفيق بعد قليل، ولكن هذا الصراخ والضجيج سيؤذيه، ثم أخذتني وحملتني أو كادت إلى حجرة الجلوس.

«لقد كنت على وشك شد شعري من جذوره يا آلن! وطفقت أبكي وأنتحب حتى كاد البكاء يذهب ببصري، وكان الوغد الذي تعطفين عليه هذا العطف يقف أمامي، وهو يطلب إليّ بين الحين والحين أن أكفكف دموعي، وينكر أن الخطأ خطؤه، ولما روعته آخر الأمر تأكيداتي له بأنني سأخبر أبي بالأمر، وأنه سيودع السجن ثم يشنق، بدأ هو أيضًا يبكي، وهرع إلى الخارج ليخفي اضطرابه المنطوي على الجبن، ولكنني لم أتخلص منه تمامًا، ذلك أنني حين اضطررت في النهاية إلى الانصراف

وبعدت نحو مائة ياردة عن البيت، رأيته يطلع فجأة من ظلال الطريق ويوقف منى ويمسك بي.

«وبدأ يقول: «إنني لشديد الأسف يا مس كاثرين، ولكن من المؤلم جدًا...».

«وأهويت عليه بضربة من سوطي، ولعلي خلته مزمعًا قتلي، فأطلقني وهو يرعد بإحدى شتائمه البشعة، وعدوت إلى البيت، وقد أوشك صوابي أن يذهب.

«ولم أقرئك تحية المساء تلك الليلة، ولم أذهب إلى وذرنج هيتس في الغد، وكنت تواقة إلى الذهاب، ولكنني كنت أحيانًا أخشى أن أسمع بأن لنتن قد مات، وأحيانًا أرتعد حين أفكر أنني سألقى هيرتن، ولكنني استجمعت شجاعتي في اليوم الثالث، أو على الأقل لم أعد أطيق مزيدًا من قلق الانتظار، فتسللت من البيت مرة أخرى، وذهبت في الساعة الخامسة، ومشيت وأنا أزعم لنفسي أنني قد أستطيع التسلل إلى البيت والصعود خلسة إلى حجرة لنتن، ولكن الكلاب أنذرت أهل الدار باقترابي، واستقبلتني زله قائلة إن الصبي يتماثل للشفاء، ثم قادتني إلى غرفة أنيقة صغيرة يكسو أرضها بساط، رأيت لنتن فيها، وقد أخذ الفرح مني كل مأخذ، راقدًا على أريكة صغيرة وهو يقرأ أحد كتبي، ولكنه أبى أن يكلمني أو ينظر إليَّ مدى ساعة كاملة يا آلن، فإن له لطبعًا نكدًا، والذي زادني حيرة أنه حين فتح فمه في النهاية لم يقل إلا كذبًا، قال إنني السبب في هذه الضجة التي حدثت، وأن هيرتن ليس الملوم! وإذ كان الجواب الهادئ يعييني فقد آثرت أن أقوم لأخرج من الحجرة، وأرسل من خلفي نداء ضعيفًا «كاثرين!»، ولم يكن يدور بخلده أنه سيلقى مني مثل هذا الجواب، ولكنني مضيت لا ألوي، وكان الغد ثاني الأيام التي مكثت فيها في البيت وأنا أكاد أزمع ألا أعود إلى زيارته البتة، ولكن كان من المؤلم أن أمضي إلى فراشي ثم أنهض منه على هذا النحو دون أن أسمع عنه أي نبأ، فتبخر قراري هذا قبل أن يخرج إلى النور، لقد كان يبدو لي قبل ذلك أن خروجي في هذه الرحلة خطأ، أما الآن فقد لاح لي أن الخطأ في الإحجام عنها، وأقبل ميكل يسألني هل يسرج لي منى، فقلت نعم، ونظرت إلى نفسي والفرس تحملني فوق التلال كأنني أؤدي واجبًا عليَّ أداؤه، واضطررت إلى المرور بنوافذ البيت الأمامية للوصول إلى فنائه، فكان من العبث أن أحاول إخفاء حضوري.

وقالت زله وهي تراني متجهة إلى القاعة: «إن السيد الصغير في حجرة الجلوس»، ودخلت، فوجدت إيرنشو هناك أيضًا، ولكنه بارح الحجرة فورًا، وكان لنتن جالسًا في المقعد الكبير والنوم يداعب أجفانه، وسرت إلى المدفأة وبدأت أقول له في لهجة جادة وأنا أعني من بعض الوجوه ما أقول.

«بما أنك لا تحبني يا لنتن، وبما أنك تحسبني جئت لأؤذيك عمدًا، وتزعم أنني أفعل هذا كل مرة، فهذا آخر لقاء بيننا، فليودع كل منا صاحبه، وأخبر مستر هيثكليف أنك لا تريد أن تراني، وأن عليه ألا يخترع مزيدًا من الأكاذيب بعد اليوم عن هذا الأمر».

«فأجاب: «اجلسي واخلعي قبعتك يا كاثرين، إنكِ أسعد مني كثيرًا، فلا بد أن تكوني أطيب مني قلبًا. إن أبي لا يفتأ يردد الكلام عن نقائصي ويبدي لي من الازدراء ما يجعلني بطبيعة الحال أرتاب في أمر نفسي، فتساورني الظنون مرارًا بأنني حقيقة حقير كما يزعم، وعندها أشعر بحدة في الطبع ومرارة تجعلني أبغض الناس جميعًا، إنني حقًّا حقير، سيئ الخلق، شرير، طوال أيامي تقريبًا، فإذا طاب لكي أن تودعيني فودعي؛ لأنك بهذا ستريحين نفسك من مبعث مضايقة لك، ولكني لا أطلب إليكِ إلا أن تنصفيني هذا الإنصاف يا كاثرين، صدقيني أنه لو أتيح لي أن يكون لي مثل لطفك ورقتك وطيبة قلبك لرغبت في هذا كله، وأقبلت عليه إقبالي على السعادة والعافية بل أكثر، وصدقيني إن عطفك عليَّ حببني فيكِ حبًّا أعمق مما كنت جديرًا بحبكِ لي، وإنني لشديد الأسف والندم على أنني لم أستطع ولا أستطيع إلا أن أظهر طبيعتي هذه لكِ، وسيلازمني هذا الأسف والندم حتى الممات!».

«وشعرت أنه يقول الحق، وأن واجبي أن أغفر له، وأن أغفر له ثانية حتى إذا تخاصمنا في اللحظة التالية، واصطلحنا، ولكنا ظللنا نبكي

طوال زيارتي، ولم يكن الباعث كله هو الحزن والأسف، ولكنني في الحق كنت

حزينة على هذه الطبيعة الملتوية الشائهة التي تكمن بين جنبي لنتن، فهو لا يريد أن يترك أصحابه في راحة، ولا يريد أن يكون هو نفسه في راحة! ومنذ تلك الليلة كنت أذهب إليه في قاعته الصغيرة لأن أباه عاد في الغد.

«ورفرفت علينا البهجة والأمل ثلاث مرات فيما أظن، على نحو ما كنا في أول ليلة، أما ما بقي من زياراتي فكان مشوبًا بالكدر والتعاسة، وذلك أحيانًا بسبب أنانيته وغله، وأحيانًا بسبب آلامه، ولكنني تعلمت أن أحتمل تلك بمثل ما أحتمل هذه من صبر، أما مستر هيثكليف فهو يتجنبني عامدًا، ولم أره إلا نادرًا، على أنني ذهبت يوم الأحد الماضي مبكرة عن موعدي فسمعته يسب لنتن المسكين في قسوة بسبب سلوكه في الليلة البارحة، ولست أدري كيف عرف هذا، اللهم إلا إذا كان يسترق السمع، والحق أن لنتن كان قد سلك مسلكًا يثير الغيظ، ولكن هذا شأني وحدي، لذلك قطعت على مستر هيثكليف محاضرته بأن دخلت وقلت له رأيي هذا، فأغرق في الضحك ثم انصرف عنا وهو يقول إنه مسرور ما دام هذا رأيي في الأمر، ومنذ تلك الليلة قلت للنتن أن عليه أن يوجه إليَّ كلماته المرة همسًا إن لم يكن منها بد. والآن يا آلن ها أنت ذي قد سمعت القصة كلها، وليس في الإمكان الحيلولة بيني وبين زيارة وذرنج هيتس إلا باتقاء شخصين، في حين أنكِ لو كتمت الأمر عن أبي لما كدرت رحلاتي هذه صفو أحد أو هدوءه، إنكِ لن تخبري أبي، أليس كذلك؟ إنكِ لو أخبرته لكنت غاية في القسوة».

فأجبتها: «سأتخذ قراري في هذا غدًا يا مس كاثرين، فالأمر في حاجة إلى شيء من الدرس، وعلى ذلك سأتركك تنامين، وسأمضي لأقلب المسألة على وجوهها».

وقلبت المسألة على وجوهها فعلًا بصوت مسموع في حضرة سيدي؛ إذ مضيت من حجرتها إلى حجرته رأسًا ورويت له القصة كلها باستثناء أحاديثها مع ابن خالها، ولم أذكر شيئًا عن هيرتن قط، وانتاب مستر لنتن من الانزعاج والجزع أكثر مما شاء أن يفصح عنه أمامي، وفي الصباح علمت كاثرين بأنني بحت بسرها، وعلمت أيضًا أن زياراتها الخفية يجب أن تنتهي، وعبثًا بكت وتلوت ألمًا من هذا الحظر، وتضرعت إلى أبيها أن يرحم لنتن، ولم تظفر من أسباب العزاء إلا بوعد منه بأنه سيكتب إلى لنتن ليأذن له بأن يزورهم حين يشاء، ولكنه سيفهمه أن عليه ألا ينتظر بعد اليوم أن يرى كاثرين في وذرنج هيتس، ولعله لو علم بحقيقة أمر ابن أخته وما آلت إليه صحته لاستصوب أن يمسك عن كاثرين حتى هذا العزاء القليل.

الفصل الخامس والعشرون

قالت مسز دين: «وقعت هذه الأحداث في الشتاء الماضي يا سيدي، ولم يكد يمضي عليها أكثر من سنة، ولم يكن يدور بخلدي آنئذ أنني بعد اثني عشر شهرًا سأروح عن ضيف غريب عن الأسرة بسردها على مسامعه! ومع ذلك فمن يدري إلى متى تظل غريبًا؟ إنك لأصغر من أن تطيق طويلًا حياة العزوبة التي تحياها، ويُخيَّل إليَّ أنه ما من إنسان يرى كاثرين لنتن ولا يفتتن بها، إنك تبتسم، ولكن قل لي لِمَ تبدو عليك البهجة والاهتمام حين أتحدث عنها؟ ولِمَ طلبت إليَّ أن أعلق صورتها على مدفأتك؟ ولِمَ...؟».

فصحت بها: «حسبك أيتها المرأة الطيبة! من الجائز جدًّا أن أحبها أنا، ولكن أتراها تحبني هي؟ أشك في هذا شكًّا يجعلني أضن بحياة الهدوء التي أحياها أن تتعرض لهذه الفتنة، ثم إن مكاني ليس هنا، فأنا أنتمي لدنيا المشاغل والأعمال، وإلى أحضانها لا بد أن أعود، امضي الآن في قصتك وخبريني هل أطاعت كاثرين أوامر أبيها؟».

وواصلت مدبرة البيت كلامها: «أجل، أطاعتها، فقد كانت محبتها له لا تزال أقوى العواطف التي ينبض بها قلبها، وكان يكلمها دون غضب، يكلمها بحنان الأب الذي يوشك أن يترك كنزه وقد أحدقت به المخاطر والأعداء، فلا يستطيع أن يخلف لها عونًا لهدايتها سوى كلماته إذا ذكرتها، وقد قال لي بعد أيام: «ليت ابن أختي يكتب لي أو يزورنا يا آلن، أصدقيني القول، كيف ترينه الآن، وهل صلحت حاله، أو أن هناك أملًا في أن تصلح حين يبلغ مبلغ الرجال؟».

أجبته: «إنه جد نحيل يا سيدي، ولست أحسبه مدركًا طور الرجولة، ولكن الذي أستطيع أن أقرره أنه لا يشبه أباه، فإذا قضى سوء الطالع على مس كاثرين بأن تتزوجه، فإنه لن يعييها أن تسوسه، ما لم تتراخ في معاملته تراخيًا شديدًا أخرق، ومع ذلك فإن أمامك يا سيدي من الوقت متسع تتعرف فيه إليه وترى أيناسبها زوجًا أم لا يناسبها، فإنه لن يبلغ رشده قبل نيف وأربع سنوات».

وتأوه إدجر، وسار إلى النافذة ثم أطل منها متجهًا ببصره نحو كنيسة جمرتن، وكان عصرًا ينتشر فيه الضباب، ولكن شمس فبراير كانت تشرق إشراقًا ضئيلًا، فاستطعنا بالجهد أن نتبين الشربينتين وشواهد القبور القليلة المتفرقة في فنائها.

وقال كمن يناجي نفسه: «طالما دعوت الله أن يعجل بقضائه فيَّ، ولكني الآن محجم خائف من الموت، كنت أحسب أن ذكرى الساعة التي هبطت فيها هذا الوادي وأنا في ثوب العرس ستكون أقل حلاوة من أملي أن أحمل إلى قبري الموحش فيه بعد شهور، وربما أسابيع! آلن، لقد كنت سعيدًا غاية السعادة مع صغيرتي كاثي، فقد كانت أملًا حيًّا يسندني في ليالي الشتاء وأيام الصيف،ولكني كنت كذلك سعيدًا حين أغرق وحيدًا في تأملاتي بين هذه القبور الراقدة تحت الكنيسة العتيقة، ممددًا في أمسيات يونيو الطويلة فوق العشب الأخضر الذي يعلو قبر أمها، متمنيًا، بل تواقًا، إلى الساعة التي أرقد فيها تحته، ماذا أستطيع أن أعمل من أجل كاثي؟ على أي حال يجب أن أتركها! لا يهمني البتة كون لنتن ابنًا لهيثكليف، ولست أمانع في أن يأخذها مني إذا استطاع أن يعزيها عن فقدي، ولا يهمني أن يكون هيثكليف قد حقق مآربه وانتصر بأن سلبني هذه النعمة الأخيرة التي

بقيت لي! ولكني لا أستطيع أن أفرط فيها للنتن إن كان غير جدير بها؛ أي إذا لم يكن سوى مطية لأبيه! ولا بد لي في هذه الحالة أن أمضي في أن أسبب لها الحزن أثناء حياتي وأن أتركها وحيدة بعد مماتي، وإن شق عليَّ سحق روحها الطروب على هذا النحو، واحبيبتاه! إني لأوثر أن أستودعها الله وأوسدها الثرى أمام عيني».

قلت: «استودعها الله يا سيدي إذن، وإذا شاءت عنايته أن نفقدك -لا قدر الله- فإني سأظل لها الصديقة الناصحة إلى آخر نسمة من حياتي، إن مس كاثرين فتاة طيبة! ولست أخاف عليها الوقوع في الزلل عامدة، والذين يؤدون واجبهم يلقون دائمًا خير الجزاء في النهاية».

وتقدم الربيع، ولكن سيدي لم يسترد قوته الحقيقية وإن عاد إلى رياضته مع ابنته بالسير في فناء البيت، وقد حسبت هذا بادرة من بوادر

النقاهة لقلة خبرتها بهذه الأمور، ثم إن خديه كثيرًا ما كانا يتوهجان وعينيه تشرقان، لذلك كانت واثقة من شفائه، ولم يزر المقبرة في ميلاد ابنته السابع عشر، وكانت السماء تمطر، فقلت له:

«لست خارجًا هذه الليلة يا سيدي بطبيعة الحال؟».

أجاب: «لن أخرج، سأؤجل هذه الزيارة قليلًا هذا العام».

وعاود الكتابة إلى لنتن معربًا عن شديد رغبته في أن يراه، ولست أشك في أن أبا الفتى المريض كان يسمح لابنه بالحضور لو أن هيئته كانت تتيح له لقاء الناس، والذي حدث هو أن الفتى أجاب، تنفيذًا لتعليمات أبيه، بأن مستر هيثكليف يعارض في ذهابه إلى بيت الضيعة، ولكنه أبدى ابتهاجه لأن خاله تلطف فذكره، وأعرب عن رجائه أن يلقاه أحيانًا في تجواله، ويتوسل إليه بنفسه ألا تطول هذه الفرقة بينه وبين ابنة خاله.

وكان هذا الشطر من رسالته مشربًا بروح البساطة، ولعله كان من إنشائه هو، وكان هيثكليف على يقين من أن ابنه يستطيع الدفاع بطلاقة عن رغبته في لقاء كاثرين، قال:

«لست أسألك أن تسمح لها بزيارة بيتنا، ولكن هل كتب عليَّ أن أُحرم من رؤيتها إلى الأبد؛ لأن أبي يمنعني من الذهاب إلى بيتها، ولأنك تمنعها من الحضور إلى بيتنا؟ إنني أرجو ملحًّا أن تركبا في اتجاه وذرنج هيتس بين الفينة والفينة، فيتاح لنا أن نتبادل بعض الكلام في حضرتك! إننا لم نرتكب ما نستحق عليه هذه الفرقة، وأنت لست غاضبًا عليَّ، وأنت نفسك تقول إن ليس من داع يدعوك لأن تكرهني، يا خالي العزيز! ابعث لي برسالة رقيقة غدًا، تتضمن الإذن لي بأن ألقاكما في أي مكان شئتما ما عدا ضيقة ثرشكرس، وإني لعلى ثقة من أن جلسة واحدة ستقنعك بأن خلق أبي ليس خلقي، وهو يؤكد أنني ابن أختك أكثر مني ابنه، صحيح أن فيَّ من العيوب ما يجعلني غير جدير بكاثرين، ولكنها اغتفرتها لي، وخليق بك أيضًا أن تغتفرها لي إكرامًا لها، تسألني عن صحتي.. إنها أحسن، ولكني ما دمت محرومًا من الأمل ومقضيًّا عليَّ بحياة العزلة أو بعشرة قوم لم يحبوني ولن يحبوني، فكيف تتاح لي البهجة والعافية؟».

ولم يستطع إدجر أن يوافق على منح الفتى سؤله رغم عطفه عليه؛ لأنه لم يستطع أن يرافق كاثرين، فأجابه بأنهما قد يجتمعان في الصيف، ورغب إليه في الوقت نفسه أن يواصل الكتابة إليه بين الحين والحين، وأخذ على نفسه العهد بأن يبذل له من التضحية

والطمأنينة ما استطاع إليه سبيلًا بالكتابة؛ لأنه عليم بحرج مركزه في أسرته، وكتب لنتن كما رغب إليه خاله، ولو ترك وشأنه لأفسد في ظني تدبير أبيه كله، وملأ رسائله بالشكوى والرثاء لنفسه، ولكن أباه كان يراقبه بعين يقظة لا تغفل، وأصر بطبيعة الحال على أن يعرض عليه كل سطر يبعث به سيدي إلى ولده، لذلك لم يردد في رسائله حديث آلامه الشخصية وكروبه الخاصة، التي كانت موضوع تفكيره على الدوام، بل ضرب على وتر تلك الضرورة القاسية التي فرقت بينه وبين صديقته وحبيبته، وذكر في رفق أن على مستر لنتن أن يسمح لهما بلقاء قريب، وإلا فإنه يخشى أن يخادعه عمدًا بهذه الوعود الجوفاء.

وكان له في كاثي حليف قوي في بيت خاله، فاستطاع الاثنان في النهاية أن يقنعا سيدي بالموافقة على أن يركبا أو يمشيا معًا مرة في الأسبوع أو نحوها تحت مباشرتي، وفي البراري القريبة من المزرعة، وذلك لأن شهر يونيو حل وسيدي لا يزال ماضيًا في طريق الانحلال، وكان يحس برغبة طبيعية في أن تحتفظ ابنته ببيت أجدادها، أو تعود إليه على الأقل بعد قليل، وذلك رغم أنه كان يوفر لها مبلغًا يحتجزه من دخله كل عام، وكان سبيلها الوحيد إلى تحقيق رغبته هذه، في ظنه، هو الزواج من وريثه، ولم يدر بخلده، ولا بخلد أحد فيما أظن، أن هذا الوريث ينهار بسرعة تقرب من سرعة انهياره هو، فإن أحدًا من الأطباء لم يزر وذرنج هيتس، ولم ير الفتى هيثكليف لينقل لنا عنه خبرًا، وأنا نفسي بدأت أتخيل أن مخاوفي لا أساس لها، وأنه لا بد مستعيد عافيته، وذلك حين ذكر الركوب والمشي في البراري وبدا شديد الاهتمام ببلوغ هدفه، وما كان في استطاعتي أن أتصور أبًا يعامل ولده المحتضر

معاملة تنطوي على اللؤم والاستبداد كما فعل هيثكليف على ما سمعت فيما بعد، حتى يكرهه على إبداء هذه اللهفة الظاهرة، وكان يضاعف من جهوده في إكراه ولده كلما رأى خططه الجشعة القاسية مهددة بالفشل الوشيك إذا عاجل الموت الصبي.

* * *

الفصل السادس والعشرون

كان الصيف قد ولى نصفه حين أذعن إدجر على مضض لتوسلاتهما، وانطلقت وكاثرين راكبتين أول مرة للقاء ابن عمتها، وكان اليوم حارًّا رطبًا خلا من أشعة الشمس، ولكن سماءه فيها غيوم خفيفة وغباشة لا تنذر بالمطر، أما المكان المحدد للقائنا فكان الشاخص الحجري المقام على مفرق الطرق، على أننا ما وصلنا المكان حتى أنبأنا غلام من الرعاة أرسل إلينا «أن الفتى لنتن ينتظرنا على الجانب الآخر من وذرنج هيتس، وأنه يكون شاكرًا إذا تقدمنا قليلًا».

قلت معقبة: «إذن فقد نسي الفتى لنتن أولى وصايا خاله، فلقد أمرنا أن نلزم جانب الضيعة، وها نحن أولاء نتجاوز هذا الحد في اللحظة الأولى».

وأجابت رفيقتي: «سندير رأسي جوادينا إذا ما بلغناه، ونتجه في رياضتنا نحو بيتنا».

ولكنا ما بلغناه، وكان على مسافة لا تتجاوز ربع ميل من باب بيته، حتى وجدناه لا يركب جوادًا، فاضطررنا إلى الترجل، وتركنا جوادينا يرعيان الكلأ، وكان راقدًا على العشب في انتظارنا، ولم ينهض حتى صرنا على بُعد ياردات منه، فسار إلينا في ضعف، وكان في وجهه من الشحوب ما جعلني أصيح به من فوري: «ولكنك لست في حالة تمكنك من الاستمتاع بجولة في هذا الصباح يا سيد هيثكليف، لشد ما تبدو مريضًا!».

ونظرت إليه كاثرين في أسى ودهشة، واستحالت صيحة الفرح التي أوشكت أن تنبعث من شفتيها إلى صيحة فزع، وبدل أن تهنئه على لقائهما الذي طال تأجيله سألته في قلق هل صحته في ذلك الصباح أسوأ مما هي في العادة؟

وقال وهو يلهث: «لا.. إنني أحسن، أحسن»، وكان يرتجف ويحتفظ بيدها كأنه في حاجة إليها لتسنده بينما تسرح عيناه الزرقاوان الواسعتان في وجهها على استحياء، وقد أحالت هالتاهما الغائرتان نظرة الفتور القديمة إلى هياج شاحب مهزول.

ومضت ابنة خاله تقول: «ولكن صحتك ساءت، ساءت عنها حين رأيتك آخر مرة، فقد ازددت نحولًا، و...».

فقاطعها في عجل: «إنني متعب، وفي الجو حر لا يحسن معه المشي، فلنجلس ها هنا، ثم إنني كثيرًا ما أشعر بالضعف في الصباح.. وأبي يعلل هذا بأنني أنمو بسرعة زائدة».

وجلست كاثي غير مقتنعة بما قال، واتكأ هو إلى جوارها.

وقالت وهي تحاول أن تبدو منشرحة: «يشبه هذا نعيمك الذي تحلم به، أتتذكر اليومين اللذين اتفقنا على قضائهما في المكان الذي يحلو لكل منا، وبالطريقة التي يشتهيها؟ هذا شبيه بيومك الذي كنت تحلم به، ولا يشوب صفاء الجو غير بعض الغيوم، ولكنها رقيقة ندية، فالجو بهذا ألطف مما لو كانت الشمس طالعة، إذا استطعت في

الأسبوع القادم أن تركب، انطلقنا راكبين في البستان، ولنر كيف يكون الجو في يومي أنا».

ولم يبد على لنتن أنه يذكر ما كانت تتحدث عنه، وكان ظاهرًا أنه يجد مشقة في متابعة أي ضرب من الحديث، وكان زهده في الموضوعات التي طرقتها، وعجزه عن الترفيه عنها، واضحين وضوحًا لم يسعها معه أن تخفي خيبة أملها، فقد طرأ على شخصه كله وطباعه كلها تغير غامض لا يمكن تحديده، فحدة الطبع التي كانت تند عنه فيما مضى، والتي كان يبتغي من ورائها الترضية والملاطفة، قد حل محلها الآن تبلد وجمود، وخف فيه نزق الطفولة الذي يضني نفسه عامدًا لكي يهدئ الناس من غضبه، وازدادت فيه الكآبة المنطوية التي لا يتسم بها غير عليل مزمن ينفر من التسلية ويرى في مرح الناس اللطيف البريء إهانة له، ولحظت كاثرين كما لحظت أنه ينظر إلى اجتماعه بنا نظرته إلى العقوبة لا المنفعة، ولم تتردد في أن تقترح من فورها أن نرحل، وأيقظ الاقتراح لنتن من تبلده على غير ما توقعنا، وأصابه بحالة من

الاضطراب عجيبة، فنظر في خوف تجاه وذرنج هيتس متوسلًا أن تمكث معه على الأقل نصف ساعة آخر.

وقالت كاثي: «ولكني أحسبك واجدًا البيت أكثر راحة من الجلوس هنا، وأرى أنني عجزت اليوم عن تسليتك بقصصي وأغانيَّ وثرثرتي، لقد أصبحت أعقل مني في هذه الشهور الستة، ولم تعد تجد لذة فيما أسليك به الآن، ولو كنت قادرة على الترفيه عنك لبقيت عن طيب خاطر».

فأجاب: «ابقي لتستريحي، ولا تحسبي يا كاثرين، ولا تقولي، إنني مريض جدًّا، فخمولي مبعثه ثقل الهواء وحر النهار، ثم إنني أسرفت في المسير قبل حضوركما، قولي لخالي إن صحتي لا بأس بها، هل لكِ أن تفعلي؟».

وعقبت كاثرين على إصراره على هذه الأكذوبة السافرة قائلة: «سأبلغه أنك تقول هذا يا لنتن، فليس في وسعي أن أؤكد له ذلك».

وواصل حديثه وهو يتحاشى نظرتها الحائرة: «وعودي إلى هنا يوم الخميس القادم، وأبلغيه شكري يا كاثرين -شكري العظيم- لأنه سمح لكِ بالمجيء، وإذا لقيت أبي وسألك عني فلا تحمليه على الظن بأنني كنت في لقائنا هذا صامتًا بليدًا، ولا يبدُ عليكِ ما أرى الآن من حزن وإطراق.. وإلا غضب».

وقالت كاثي وهي تحسب نفسها هدف هذا الغضب: «لست أبالي غضبه».

فأجاب ابن عمتها وهو يرتجف: «ولكني أباليه، لا تثيري غضبه عليَّ يا كاثرين لأنه شديد القسوة».

فسألته: «أيقسو عليك يا سيد هيثكليف، وهل سئم التسامح معك وأصبحت كراهيته إيجابية بعد أن كانت سلبية؟».

وتطلع إليَّ لنتن ولكنه لم يحر جوابًا، وظلت كاثي إلى جواره عشر دقائق أخرى سقط فيها رأسه على صدره في إغفاءة، ولم يفه بشيء سوى أنات مكتومة تنبئ بالإعياء أو الألم، ثم بدأت تلتمس تسلية في البحث عن عنب الديب ومقاسمتي ما عثرت عليه، ولم تقدمه له؛ لأنها رأت أن المزيد من الاهتمام به لن يفلح إلا في مضايقته.

وأخيرًا همست في أذني: «أمضت نصف الساعة يا آلن؟ لست أدري ماذا يوجب علينا الانتظار، إنه نائم، وأبي ينتظر عودتنا».

فأجبتها: «يجب ألا نتركه وهو نائم، فانتظري حتى يستيقظ وكوني صبورة، لقد كنت توّاقة إلى المجيء، ولكن ما أسرع ما تبخر شوقك لرؤية لنتن المسكين!».

وأجابت كاثرين: «لِمَ أراد هو أن يلقاني؟ إنني كنت أحبه في أعنف سورات غضبه القديمة أكثر مما أحبه في حالته النفسية الغريبة التي أراه عليها الآن، إن هذا اللقاء أشبه الأشياء بواجب فرض عليه أداؤه مخافة أن يعنفه أبوه، ولكني لن أجيء هنا بعد اليوم إرضاء لمستر هيثكليف أيًّا كان الباعث له على إكراه لنتن على هذه العقوبة، وإنني رغم سروري بتحسن صحته عن ذي قبل، لآسفة لأنه أقل تلطفًا معي ومحبة لي».

فسألتها: «إذن أتظنينه أحسن صحة؟».

قالت: «نعم، لأنه كما تعلمين كان كثيرًا ما يردد حديث مرضه وآلامه، إن صحته ليست على ما يرام، كما يريدني أن أقول لأبي، ولكنها في ظني خير مما كانت».

قلت معقبة: «في هذه النقطة نختلف يا مس كاثي، أظن أن صحته ساءت كثيرًا».

وهنا فزع لنتن من نومه وقد بدا عليه رعب وذهول، وسأل هل ناداه أحد.

وقالت كاثرين: «كلا، إلا إذا كان ذلك في أحلامك، لست أتصور كيف تستطيع أن تغفي خارج البيت في الصباح».

قال وهو يلهث ناظرًا إلى الربوة العابسة من فوقنا: «خُيِّل إليَّ أنني سمعت أبي، أواثقة أنتِ أن أحدًا لم يكلمني؟».

وأجابت بنت خاله: «كل الثقة، ولم يكن سواي وآلن مشتبكتين في جدل حول صحتك، فهل أنت حقًّا أشد وأقوى مما كنت حين افترقنا في الشتاء يا لنتن؟ فإن كنت كذلك فإن هناك شيئًا واحدًا أنا واثقة أنه ليس أشد ولا أقوى، وذلك هو اهتمامك بي. أجب.. هل أنت كذلك؟».

وانهمرت العبرات من عيني لنتن وهو يجيب: «نعم، نعم، إنني لكذلك!».

وإذ كان لا يزال تحت سيطرة الصوت الذي تخيله، فقد راح يصعد بصره ويخفضه بحثًا عن صاحبه، ونهضت كاثي قائلة: «حسبنا اليوم هذا ولنفترق، ولا أكتمك أن هذا اللقاء خيب ظني كثيرًا، وإن كنت لن أذكر هذا لغيرك، ولا يحملني على هذا خوفي من مستر هيثكليف».

وتمتم لنتن: «صه، صه بربك! إنه قادم»، ثم تشبث بذراع كاثرين محاولًا أن يستبقيها، ولكنها ما سمعت هذا النبأ حتى عجلت بالإفلات منه، وصفرت تدعو فرسها منى التي أطاعتها كما يطيع الكلب صاحبه.

وصاحت وهي تقفز إلى سرجها: «سأكون هنا يوم الخميس القادم، وداعًا، أسرعي يا آلن!».

وهكذا تركناه وهو لا يكاد يشعر برحيلنا؛ لأن ترقبه لقدوم أبيه ملك عليه حواسه كلها.

وقبل أن نبلغ البيت كان استياء كاثرين قد خف، فاستحال شعورًا حائرًا بالشفقة والحزن، تخالطه الهواجس الغامضة عن الظروف الحقيقية التي تكتنف لنتن، ظروفه الصحية والاجتماعية، وقد شاركتها شعورها هذا، وإن كنت أشرت عليها بالقصد في الحديث؛ لأن حكمنا على الأمر سيكون أصوب بعد الرحلة الثانية، وطلب سيدي أن ننبئه بما حدث في جولتنا، فأبلغناه شكر ابن أخته له كما أراد الفتى، ولم تمس كاثي غير هذا إلا مسًّا رفيقًا، كذلك لم ألق على النقط التي استفسر عنها من الضوء إلا أقله؛ لأنني لم أعرف أي الحقائق أكتم وأيها أفشي.

* * *

الفصل السابع والعشرون

وانقضت سبعة أيام في بطء، وكان كل يوم منها يؤكد انقضائه بما يخلف في إدجر لنتن من تغيير غدا سريعًا منذ ذلك التاريخ، ذلك أن التدمير الذي كان يحدثه المرض في بدنه في شهور قد أصبح يحدث الآن في ساعات، وكنا نود أن نمضي في مخادعة كاثرين، لولا أن روحها المتيقظة أبت أن تخادعها، فقد تنبأت بينها وبين نفسها بالكارثة المروعة التي تتراءى أمامها غامضة والتي أخذت تتجلى حقيقة مؤكدة شيئًا فشيئًا، تنبأت بها وأخذت الكارثة تملك عليها كل تفكيرها، فلما أقبل الخميس لم يطاوعها قلبها على الإشارة إلى رياضتها المرتقبة، لذلك ذكرتها نيابة عنها لأبيها، وحصلت منه على إذن لها بالخروج من البيت، بعد أن غدت دنياها كلها محصورة في حجرة نوم أبيها وفي مكتبته التي كان ينفق فيها في كل يوم ما يطيق من أويقات، وكانت تضن بكل لحظة أن تقضيها إلا عاكفة عليه تحنو على وسادته أو تجلس إلى جواره، فغاضت نضرة وجهها من السهر والحزن، ورحب سيدي بأن يصرفها إلى ما خاله تغييرًا سعيدًا في المناظر والوجوه، وكان يجد عزاء في الأمل بأنه لن يتركها بعد موته بغير أصدقاء.

وقد رسخ في نفسه، كما خُيِّل إليَّ من ملاحظات عدة ساقها غير عامد، أن ابن أخته سيكون شبيهه في الخلق ما دام شبيهه في الهيئة، ذلك أن رسائل لنتن لم تكن تدل على عيوبه إلا قليلًا، أو لعلها لم تدل على هذه العيوب إطلاقًا، وقد كرهت أن أصحح هذا الخطأ لضعف قد يغتفر لي، وسألت نفسي أي خير في تكدير لحظات حياته الأخيرة بمعلومات لا يملك القوة ولا تواتيه الفرصة للإفادة منها.

وأرجأنا رياضتنا حتى العصر، وكان من أيام أغسطس الذهبية، تفيض كل نسمة تهب فيه من التلال بالحياة حتى ليخيل إلى المرء أنها تنعش روح كل من يتنشقها وإن كان على شفا الموت، وكان وجه كاثرين، كالمنظر الطبيعي الذي طالعنا، تتعاقب عليه الظلال والأضواء تعاقبًا سريعًا، ولكن الظلال استقرت عليه وقتًا أطول، أما الأضواء فكانت عابرة، وكان قلبها الصغير المسكين يبكتها حتى على هذا السلوان المؤقت لهمومه.

وتبينا لنتن يراقبنا في البقعة التي تخيرها من قبل، وترجلت سيدتي الصغيرة، وطلبت إليَّ أن أمسك بفرسها وأظل على صهوة جوادي؛ لأن في نيتها ألا تمكث إلا قليلًا، ولكنني أبيت، ولم أشأ أن أغفل لحظة واحدة عن حراسة هذه الوديعة التي وكلت إليَّ، وعلى ذلك فقد تسلقنا التل المعشب معًا، واستقبلنا السيد هيثكليف هذه المرة بحماسة أكبر، ولكنها لم تكن حماسة المرح ولا حماسة الفرح والاغتباط، بل هي أقرب الأشياء إلى الخوف.

وقال في إيجاز وهو ينطق الكلام بمشقة: «إن الوقت متأخر! أليس أبوكِ جد مريض؟ حسبتك لن تأتي».

وصاحت به كاثرين وهي تبتلع تحيتها: «لِمَ لا تكون صريحًا؟ لِمَ لا تستطيع أن تصرح من فورك بأنك لا تريدني؟ عجيب أن تجيء بنا إلى هذا المكان يا لنتن متعمدًا إشقائنا كلينا فيما يبدو، ولغير سبب آخر!».

وارتعد لنتن، ثم ألقى عليها نظرة سريعة تختلط فيها الضراعة بالخجل، ولكن ابنة

خاله لم تؤت من الصبر ما يعينها على إطاقة هذا المسلك الغامض.

فقالت: «إن أبي فعلًا جد مريض، فلم دعوتني لأترك فراش مرضه؟ لِمَ لمْ ترسل لتحلني من وعدي ما دمت تريدني ألا أحافظ عليه؟ هيا! أريد منك تفسيرًا لهذا، إن اللعب والعبث أبعد الأشياء عن فكري، ولست بقادرة الآن على مسايرتك في دعواك!».

فغمغم قائلًا: «دعاواي! وما هي؟ بربك يا كاثرين لا يبد عليك هذا الغضب الشديد! احتقريني ما شئت، فإني صعلوك جبان حقير، ومهما غلوت في احتقاري، فلن تكوني متجنية عليَّ، أما الغضب فنفسي أصغر من أن تصبيه عليَّ، أبغضي أبي، ولكن احتفظي بي هدفًا لاحتقارك».

فصاحت كاثرين وقد استشاطت غضبًا: «هراء! أيها الصبي الأحمق الغبي! وها هو ذا يرتعد كأنني سأوذيه حقيقة! لا حاجة بك إلى طلب الاحتقار يا لنتن، فهو ينبعث نحوك عفوًا من أي إنسان، انصرف الآن! سأعود إلى البيت، فإن من الحماقة أن ننتزعك من جوار المدفأة ونزعم -ماذا نزعم؟ دع ثوبي! خليق بك لو رأيتني مشفقة عليك من البكاء وشدة الخوف أن تزدري هذه الشفقة، آلن، أخبريه بما ينطوي عليه سلوكه هذا من عار وخزي، انهض ولا تهبط بنفسك إلى درك الزواحف الحقيرة.. لا تفعل!».

وكان لنتن قد ألقى بجسده الخائر على الأرض والدمع ينهمر على وجهه والألم الشديد يبدو على سحنته، ولاح لنا أنه يتشنج لفرط رعبه.

وأنشأ ينتحب ويقول: «أواه! لا أطيق هذا! كاثرين، كاثرين، إنني خائن أيضًا، ولا أجرؤ على إطلاعك على أمري، ولكني ملاقٍ حتفي لا محالة لو تركتني! يا عزيزتي كاثرين، إن حياتي بين يديك، وقد قلت لنفسي إنك تحبينني، فإذا كان الأمر كذلك، فلن يضيرك شيء، إذن لن تتركيني؟ يا كاثرين الطيبة الحلوة الحنون! وربما رضيت، فيتركني لأموت معك!».

وانحنت سيدتي عليه لتنهضه؛ إذ رأت ما يعانيه من عذاب، وتغلب حنانها القديم على غيظها، فتأثرت وانزعجت أشد التأثر والانزعاج.

وسألته: «أرضى بماذا؟ بالبقاء هنا! فسر لي معنى هذا الكلام الغريب أمكث معك، إنك تناقض نفسك وتحيرني! اهدأ وكن صريحًا، واعترف الآن بما يضيق به قلبك، إنك لا ترضى لي الأذى يا لنتن، أليس كذلك؟ إنك لن تدع عدوًّا من أعدائي يؤذيني إن كان هذا في طاقتك؟ لا بأس بأن تكون جبانًا فيما يخصك، ولكن لا تكن خائنًا غادرًا بأفضل أصدقائك».

قال الصبي وهو يلهث وقد ضم أصابعه المهزولة: «ولكن أبي توعدني، وأنا أخافه.. أخافه! لا أجرؤ على الإفصاح!».

فقالت كاثرين وهي ترثي لحاله في زراية واحتقار: «حسن! فاحتفظ بسرك إذن! أما أنا فلست بجبانة، خلص نفسك، لست بخائفة!».

واستدرت هذه الشهامة عبراته فبكى بكاء عنيفًا وهو يقبل يديها اللتين تسندانه، ولكنه رغم ذلك لم يستطع أن يجد في نفسه من الشجاعة ما يحمله على الإفصاح، وكنت أحاول التكهن بحقيقة السر الذي يخفي، وعقدت نيتي على ألا أدع كاثرين تألم البتة في

سبيله هو أو سبيل غيره بتسامحي، وإذا أنا أرفع رأسي لحفيف سمعته بين الخلنج، فأرى مستر هيثكليف قاب قوسين منا وهو يهبط التل، ولم يلق نظرة على رفيقي، وإن كان نحيب لنتن المسموع قربهما من سمعه، ولكنه ناداني وفي صوته نغمة تقرب من الإخلاص الذي كان يختصني به دون سواي، غير أني لم يسعني إلا أن أتوجس منها خيفة، فقال: «يطيب لي أن أراكِ قريبة من بيتي يا نلي، كيف حالكم في الضيعة؟ دعينا نسمع أخباركم»، ثم أضاف مخافتًا: «تذهب الشائعات إلى أن إدجر لنتن يحتضر، فهل فيها إسراف في تصوير مرضه؟».

قلت: «لا، إن سيدي يحتضر، والخبر صحيح، وإن موته فجيعة لنا كلنا، ولكنه نعمة سيفيئها الله عليه!».

فسألني: «كم تظنيه باقيًا على قيد الحياة؟».

قلت: «لا أدري».

قال وهو ينظر إلى الشابين اللذين سمرتهما نظراته في مكانهما -فقد بدا لنتن لا يجرؤ على أن يتململ أو يرفع رأسه، أما كاثرين فلم تستطع أن تتحرك بسببه-: «ذلك بأن هذا الصبي الراقد هنالك مصمم على هزيمتي فيما يبدو، وإني لأكون شاكرًا لخاله أن يعجل بذهابه قبله! هل ظل هذا الجرو يلعب لعبته هذه طويلًا؟ لقد أعطيته دروسًا في الإقلاع عن الشكوى والبكاء، أيبدو عليه المرح بعض الشيء حين يكون مع مس لنتن؟».

فأجبته: «المرح؟ كلا.. لقد بدا أشد ما يكون اكتئابًا وضيقًا، وإني لأرى أنه يجب أن يلزم فراشه ويعنى به طبيب بدلًا من أن يسرح مع حبيبته على التلال».

وتمتم هيثكليف يقول: «سيلزمه بعد يوم أو يومين»، ثم صاح به: «ولكن قبل كل شيء.. قف يا لنتن! قف! لا تنبطح على الأرض هناك، قف الآن!».

وكان لنتن قد ارتمى ثانية في نوبة من الخوف والعجز، وفي ظني أن الباعث عليها كان نظرة أبيه إليه، فلم يكن هناك داعٍ آخر يحمله على هذا الوضع الذليل، وقد حاول غير مرة أن يصدع بأمر أبيه، ولكن ما بقيٍ له من قوة ضئيلة تلاشى في تلك اللحظة، فارتد إلى مكانه وهو يئن ويتوجع، وتقدم إليه مستر هيثكليف ورفعه ليستند إلى سياج من الأرض المعشبة.

وقال له في ضراوة مكتومة: «لقد أوشكت أن أغضب، تبًّا لك إذا لم تملك نفسك الجبانة الرعديدة! قم حالًا!».

وأجابه الصبي وهو يلهث: «سأقوم يا أبت، ولكن دعني وإلا غشي عليَّ أنا واثق أنني نفذت رغبتك، وستخبرك كاثرين بأنني.. كنت مبتهجًا. أواه! ابقي إلى جواري يا كاثرين، أعطيني يدك».

وقال أبوه: «خذ يدي، وقف على قدميك، والآن.. ستعطيك ذراعيها، هذا حسن، انظر إليها، قد تحسبينني الشيطان نفسه يا مس لنتن ما دمت أثير في نفسه هذا الرعب، هل لكِ أن تتكرمي بالسير معه إلى بيتنا؟ إنه ليرتجف إذا مسسته».

وهمست كاثرين في أذن الفتى: «يا عزيزي لنتن! إنني لا أستطيع أن أذهب إلى

بيتكم، فقد حرم عليَّ أبي ذلك، إن أباك لن يؤذيك، فلم تخاف هذا الخوف الشديد؟».

قال: «لا أستطيع البتة أن أعود إلى هذا البيت، يجب ألا أعود إليه دون أن تكوني معي!».

فصاح به أبوه: «حسبك! سنحترم تدقيق كاثرين في تنفيذ أوامر أبيها، خذيه يا نلي إلى البيت، وسأتبع نصيحتك دون إبطاء فأدعو إليه الطبيب».

أجبته: «حسنًا تفعل، ولكني يجب أن ألزم سيدتي، وليس من شأني الاهتمام بولدك».

قال هيثكليف: «أعلم أنكِ شديدة الجفاة، ولكنك ستكرهينني على أن أقرص هذا الطفل فأحمله على الصراخ قبل أن يستدر عطفك، تعال إذن أيها البطل، هل لك في أن تعود بصحبتي؟».

وتقدم إليه ثانية، وبدا كأنه يريد القبض على الفتى المتهافت، ولكن لنتن جفل منه وتشبث بابنة خاله، وتوسل إليها أن تصحبه في إلحاح جنوني لا يتيح لها أن ترفض ضراعته، ولم أستطع أن أمنعها رغم اعتراضي، وأنى لها أن تستطيع دفعه؟ إننا لم نجد وسيلة نتبين بها سر رعبه الشديد، ولكن الفتى كان أمامنا، وقد أعجزه هذا الرعب، فكان أي مزيد منه خليقًا بأن يذهب بعقله. وبلغنا عتبة الدار، ودخلت كاثرين، ووقفت أنتظرها حتى تصحب المريض إلى مقعد تجلسه عليه ثم تعود إليَّ من فورها، وإذا مستر هيثكليف يقول وهو يدفعني إلى الأمام: «إن بيتي لم يضرب بالوباء يا نلي، وإني لأنوي أن أستضيفكما اليوم، فاجلسي واسمحي لي أن أغلق الباب».

ثم أغلق الباب وأدار المفتاح في قفله أيضًا، فجفلت، ومضى يقول: «ستتناولان الشاي هنا قبل أن تعودا إلى البيت، إنني وحدي اليوم؛ فقد ذهب هيرتن ببعض الماشية إلى السوق، أما زله وجوزيف فخرجا في نزهة، وإني لأوثر أن أكون اليوم في صحبة ممتعة إذا تيسرت لي، وإن كنت ألفت البقاء وحيدًا، اجلسي إلى جواره يا مس لنتن، إني أهبك ما عندي، والهدية غير جديرة بالقبول، ولكن ليس عندي ما أقدمه لكِ سواها، إنني أعني لنتن، شد ما تحدق فيَّ! غريب هذا الشعور الوحشي الذي يخالجني نحو كل شيء يبدو خائفًا مني! لو أنني ولدت حيث القوانين أيسر والأذواق أغلظ لكانت تسليتي في هذه الأمسية الاستمتاع بتشريح هذين المخلوقين على مهل».

وأخذ نفسًا عميقًا، وضرب الخوان بيده، ثم قال يسبهما في صوت خافت: «وحق الجحيم! إنني أمقتهما».

وصاحت كاثرين دون أن تسمع عبارته الأخيرة: «لست أخافك!»، ثم دنت منه وقد اتقدت عيناها السوداوان غضبًا وتصميمًا وقالت: «أعطني هذا المفتاح، لا بد أن آخذه! وإني لأرفض أن آكل هنا أو أشرب ولو كنت أتضور جوعًا».

وكان المفتاح في يد هيثكليف التي ظلت على الخوان، فنظر إليها وقد استولى عليه ما يشبه العجب من جرأتها، أو لعل صوتها ونظرتها ذكراه بالشخص الذي ورثت عنه هذه الجرأة، وهجمت على المفتاح تختطفه من يده، وكادت تفلح في انتزاعه من بين أصابعه المرخاة، ولكن حركتها ردته إلى الحاضر، فاستعاد المفتاح سريعًا.

وقال لها: «والآن يا كاثرين لنتن ابعدي وإلا صرعتك أرضًا، ولو فعلت لجن جنون مسز دين».

ولكنها عادت تقبض على يده المطبقة وما احتوت ضاربة بهذا الإنذار عرض الحائط، وقالت مرة أخرى وهي تبذل ما وسعها من جهد لترخي عضلاته الحديدية: «لا بد أن نخرج!»، ولما وجدت أن أظافرها لا تجدي استخدمت أسنانها في شيء من العنف، وحدجني هيثكليف بنظرة صدتني عن التدخل لحظة، وكانت كاثرين منكبة على أصابعه انكبابًا منعها من ملاحظة سحنته، ففتح أصابعه فجأة وتخلى عن المفتاح موضع النزاع، ولكنه قبض عليها بيده الطليقة قبل أن تظفر به، وجذبها إلى ركبته، وانهال على جانبي رأسها صفعًا عنيفًا بيده الأخرى، وكانت كل صفعة من صفعاته خليقة بأن تصرعها كما توعدها لو أن في استطاعتها أن تسقط على الأرض.

وهجمت عليه في ضراوة حين شهدت هذا العنف الشيطاني وأنا أصيح به: «أيها الوغد! أيها الوغد!»، ولكنه أسكتني بدفعة طفيفة على صدري، وأنا بدينة ما أسرع ما تنقطع أنفاسي، فكان من أثر هذا ومن أثر الغضب الذي استولى عليَّ أنني عدت أترنح إلى مكاني وأنا أحس دوارًا وأكاد أختنق أو ينفجر شريان من شراييني، وانتهى المشهد بعد دقيقتين، وما إن أطلق هيثكليف سراح كاثرين حتى وضعت كلتا يديها على صدغيها، وبدا عليها أنها لا تدري هل أذناها قطعتا أو أنهما باقيتان في مكانهما،وكانت المسكينة ترتعد كأنها قصبة ترتجف، وتستند على الخوان ذاهلة مشدوهة.

وقال اللئيم في تجهم وهو ينحني ليلتقط المفتاح الذي سقط على الأرض: «أنت ترين أنني أعرف كيف أؤدب الأطفال، اذهبي إلى لنتن الآن كما طلبت إليكِ، وابكي ما طاب لكِ البكاء! سأكون أباكِ[6] غدًا -وأباكِ الوحيد دون سواي بعد أيام- وسيكون حظك وافرًا من هذا، وإنكِ لقادرة على احتمال الكثير، فما أنتِ بالفتاة الواهنة الضعيفة، سأذيقك مثل هذا كل يوم لو لمحت هذه الشدة في عينيك مرة ثانية!».

وجرت كاثي إليَّ بدلًا من أن تجري إلى لنتن، وركعت ووضعت وجنتها المتقدة على حجري وهي تبكي بكاء عاليًا، وكان ابن عمتها قد انكمش في ركن من أركان الأريكة هادئًا كالفأر مهنئًا نفسه في ظني على أن العقاب قد صب على غيره، ولما رآنا مستر هيثكليف مضطربين كلنا قام وبادر بإعداد الشاي بنفسه، وكانت الأقداح والأطباق على المائدة، فصب الشاي فيها وناولني قدحًا وهو يقول:

«اغسلي حقدك، وناولي الطفلين المدللين الخبيثين، إنه ليس مسمومًا وإن كنت أنا الذي أعددته، إني خارج للبحث عن جواديكما».

وكان أول ما خطر لنا حين خرج أن نلتمس لنا مخرجًا من البيت ننفذ منه عنوة، فجربنا باب المطبخ، ولكنا وجدناه مربوطًا بسلسلة من الخارج، وألقينا نظرة على النوافذ، ولكنها كانت من الضيق بحيث لا تتيح حتى لجسم كاثي الرقيق أن ينفذ منها.

وصحت بلنتن وقد تبين لي أننا حبيستان بتدبير محكم: «يا مستر لنتن، إنك عليم بنوايا أبيك الرجيم، فأفصح وإلا أوسعتك صفعًا كما أوسع ابنة خالك».

وقالت كاثرين: «أجل يا لنتن، لا بد أن تفصح، إنني لم آت إلا إرضاء

لك، فإذا أبيت كان ذلك منك عقوقًا خبيثًا».

فأجاب: «أعطني بعض الشاي أطفئ به ظمأي فأخبركما بجلية الأمر، اذهبي بعيدًا يا مسز دين فإني لا أحب منك وقوفك فوق رأسي، انتبهي يا كاثرين فإنكِ تدعين دموعك تسقط في قدحي، لن أشرب هذا القدح، أعطني غيره».

ودفعت كاثرين إليه بقدح آخر، ثم مسحت وجهها، وتقززت نفسي لما بدا على هذا الفتى الحقير من هدوء ورباطة جأش بعد أن زال خوفه على نفسه، ورأيت الآلام التي بدت عليه في البرية تتلاشى حالما دخل وذرنج هيتس، فخُيِّلَ إليَّ أن أباه كان قد توعده بأشد العقاب إذا أخفق في اقتناصنا، فلما أفلح في تحقيق هدفه لم تعد تتهدده مخاوف عاجلة.

وواصل حديثه بعد أن رشف قليلًا من الشاي: «إن أبي يريدنا أن نتزوج، وهو يعلم أن أباكِ يكره أن يزوجنا الآن، ويخشى أن أموت إذا أرجأنا الزواج، لذلك صمم على زواجنا في الصباح، وستقضين الليل كله هنا، فإذا صدعت بأمره عدت إلى بيتكِ غدًا وأنا بصحبتك».

فصحت به: «أنت بصحبتها أيها الأبله المسكين! أنت تتزوج؟ لا بد أن أباك قد جن! أو لعله يحسبنا كلنا حمقى، وهل تتصور أن هذه الشابة الحسناء، هذه الفتاة الممتلئة عافية ومرحًا، تقيد نفسها بنسناس معتل صغير مثلك؟ وهل يدور بخلدك أن أي مخلوقة -ودع عنك مس كاثرين لنتن- ترضى بك زوجًا لها؟ إنك تستحق أن تساط لأنك جئت بنا إلى هنا بحيلك الغادرة، ثم لا تظهر هذا البله الآن! فإن نفسي لتحدثني بأن أهزك هزًّا عنيفًا جزاء غدرك الوضيع وغرورك الأخرق».

وهززته فعلًا هزًّا خفيفًا، ولكنه بدأ يسعل، وعاد يلوذ بما ألف من أنين وبكاء، وأخذت كاثرين تبكتني.

وقالت وهي تنظر حولها في بطء: «أقضي الليل كله هنا؟ لا، إنني سأشعل النار في الباب لأخرج».

وكادت تشرع في إنفاذ وعيدها فورًا لولا أن تنبه لنتن فهب دفاعًا عن روحه الغالية مرة ثانية، وتشبثت ذراعاه الضعيفتان بها وهو ينتحب: «ألا تأخذينني معك فتنقذيني؟ ألا تريدين أن تسمحي لي بالذهاب إلى الضيعة؟ أواه يا عزيزتي كاثرين! يجب ألا تذهبي وتتركيني على أي حال، يجب أن تطيعي أبي.. يجب!».

فأجابت: «يجب أن أطيع أبي أنا وأعفيه من هذا القلق القاسي، الليل كله! ماذا تراه يظن؟ لا بد أنه الآن مبتئس، سأخرج من هذا البيت بتحطيم منفذ أو حرقه، اصمت! ليس هناك خطر عليك، ولكنك إن وقفت في طريقي.. لنتن، إني أحب أبي أكثر مما أحبك!».

وأعاد الرعب القاتل الذي أورثه إياه غضب أبيه فصاحة الجبان الرعديد إلى لسانه، وكادت الحيرة تذهب بعقل كاثرين، ولكنها رغم ذلك أصرت على أن تعود إلى البيت، ولجأت إلى التوسل هي الأخرى، محاولة إقناعه بأن يهدئ من روعه الأناني، وبينما هما على هذه الحال إذا سجاننا يعود.

قال: «لقد انطلق جوادكما و... والآن يا لنتن! أعدت إلى الاشتكاء والبكاء؟ ماذا كانت تصنع بك؟ كفى، كفى.. كف عن البكاء وامض إلى فراشك، ستستطيع بعد شهر أو شهرين يا بني أن ترد لها استبدادها بك بيد قوية، إنك تذوي شوقًا إلى الحب الطاهر،

ألست كذلك؟ لا شيء سوى هذا، وستكون لها ما في ذلك شك! والآن إلى فراشك! لن تكون زله هنا الليلة، فعليك أن تخلع ملابسك بنفسك، صه! وكف عن هذه الضوضاء! لن أدنو منك متى دخلت غرفتك، فلا داعي للخوف مني، وإني أقول لك بهذه المناسبة إنك نجحت إلى درجة لا بأس بها، وأنا في انتظار البقية».

قال هذا وهو يمسك الباب مفتوحًا ليمر منه ولده، وخرج الفتى تمامًا كما يخرج كلب يتوجس من حارسه النية في أن يعصره عصرة الحقد والغل، وعاود هيثكليف إغلاق الباب بالمفتاح، ثم دنا من النار حيث وقفت وسيدتي إلى جوارها صامتتين، وتطلعت كاثرين ببصرها إليه ثم رفعت يدها إلى خدها في حركة غريزية لأن قربه منها بعث فيها إحساس الألم من جديد، ولو أن إنسانًا غيره كان في مكانه لما استطاع أن يرقب

هذه الحركة الصبيانية في صرامة، أما هو فتجهم وتمتم: «أوه! إنكِ لست خائفة مني؟ لقد اختفت شجاعتك تمامًا، وإنك لتبدين خائفة أبشع الخوف!».

فأجابت: «إنني خائفة الآن، لأنني لو مكثت هنا لأشقيت أبي، وكيف أطيق أن أشقيه -إذا كان- دعني أعد يا مستر هيثكليف! إنني أعدك بأن أتزوج لنتن، وأبي يريدني أن أفعل، وإنني أحبه، فما بالك تريد أن تكرهني على ما أرغب فعله طوعًا واختيارًا؟».

فصحت: «فليحاول أن يكرهك إذا استطاع، إن في هذه البلاد قانونًا بفضل الله! أجل، وإن كنا في بقعة نائية عن العمران، وحتى لو كان ولدي لأبلغت عنه القضاء، وإنها لجناية إذا لم يستعن في عقد هذا الزواج برجل من رجال الدين!».

فقال الوغد: «اصمتي! اذهبي إلى الشيطان بضجيجك هذا! لست أريدك أنتِ أن تتكلمي. يا مس لنتن، ستكون متعة لي أي متعة أن أتصور أباكِ شقيًا تعيسًا، لن تغمض لي عين من السرور بهذا، وما كان في استطاعتك أن تقعي على طريقة أضمن لحملي على حجزك تحت سقفي هذه الساعات الأربع والعشرين القادمة من قولك لي بأن هذا سيحدث لأبيك، أما وعدك بأن تتزوجي لنتن فإني كفيل بوفائك به، لأنك لن تبرحي هذا المكان حتى تفعلي».

وقالت كاثرين وهي تبكي بكاء مرًا: «إذن فأرسل آلن لتطمئن أبي على سلامتي! أو زوجني الآن، واهًا لأبي المسكين! سيظن أننا ضللنا الطريق يا آلن، فماذا نحن صانعتان؟».

فأجاب هيثكليف: «لا! سيظن أنكِ سئمت تمريضه وهربت التماسًا لشيء من التسلية، إنكِ لا تستطيعين أن تنكري أنكِ دخلت بيتي طوعًا مزدرية بأمره لكِ ألا تدخليه، ومن الطبيعي أن تلتمسي التسلية في سنكِ، وأن تسأمي تمريض رجل عليل، وهذا الرجل ليس إلا أباكِ، إن أسعد أيامه يا كاثرين طويت حين بدأت حياتكِ، ولعله استمطر عليكِ اللعنات لأنكِ جئت إلى هذه الحياة (وقد استمطرتها أنا على أي حال)، ولا بأس بأن يلعنكِ أيضًا وهو يفارق الحياة، وإني لأشتهي أن أشاركه هذا، فإنني لا أحبكِ! وكيف أستطيع ذلك؟ ابكي ما شئت، فالبكاء -على ما أرى- سيكون أهم سلوى لكِ منذ الآن، ما لم يعوضك لنتن عن خسائرك الأخرى، ويبدو لي أن أباكِ الحريص على مستقبلك يتصور أنه قد يفعل، لقد استمتعت كثيرًا بقراءة خطابات الإرشاد والتعزية التي كان يبعث بها لولدي، وقد أوصى ابني الغالي في آخر خطاب منها أن يحرص على درته المكنونة، وأن يترفق بها إذا اقترن بها، أن يكون حريصًا مترفقًا.. ذلك خليق بأن يطلبه أب لابنته، ولكن لنتن يحتاج إلى كل بضاعته من الحرص والترفق لنفسه هو، إن في استطاعة لنتن أن يتقن القيام بدور الطاغية الصغير، وهو على استعداد لتعذيب أي عدد من القطط إذا قلعت أنيابها وقلمت

أظافرها، وأؤكد لكِ أنه سيكون في استطاعتكِ، إذا عدت إلى بيت أبيكِ، أن تقصي على خاله أجمل القصص عن ترفقه».

قلت: «أصبت في هذا! فاشرح لنا خلق ولدك، وأوضح الشبه بينه وبينك، ولعل مس كاثي عندئذ تفكر مرتين قبل أن ترضى بهذا الصل زوجًا!».

فأجاب: «لا يهمني كثيرًا أن أتحدث الآن عن فضائله، لأنها إما أن تقبله أو تظل حبيسة، وأنتِ معها، حتى يموت سيدك، وإن في استطاعتي أن أحبسكما هنا بعيدًا عن أعين الناس، وإذا خالجك في هذا شك فشجعيها على سحب وعدها، تري بنفسك ما أنا صانع!».

قالت كاثرين: «لن أسحب وعدي، سأتزوجه الساعة لو أذنت لي أن أعود بعدها إلى ضيعة ثرشكرس، إنك رجل قاس يا مستر هيثكليف ولكنك لست شيطانًا، ولن يرضيك أن تحطم سعادتي كلها تحطيمًا تامًّا لتشفي غليلك فحسب، فهل تراني أطيق الحياة إذا ظن أبي أنني هجرته عامدة فمات قبل أن أعود إليه؟ لقد كففت عن البكاء، ولكني سأجثو عند قدميك هنا، ولن أنهض أو أحول عينَي عن وجهك حتى تنظر إليّ! بربك انظر إليّ! لن ترى فيَّ ما يثير حفيظتك عليَّ، فأنا لا أبغضك، ولست غاضبة لأنك ضربتني، ألم تحب أحدًا قط في حياتك كلها يا

عماه؟ أبدًا؟ أواه! انظر إليّ نظرة واحدة، إنني شقية تعيسة، ولن تملك إلا أن ترثي لحالي».

«فصاح وهو يصدّها في ضراوة: «ابعدي أصابعك الخبيثة وتنحي وإلا ركلتك بقدمي! إني لأوثر أن تضمني حية عن أن تقربيني، كيف يدور بخلدك أن تتمسحي بي؟ إنني أمقتك».

ثم هز كتفيه، بل إنه نفض نفسه كأن لحمه كان يقشعر تقززًا ونفورًا، ودفع كرسيه إلى الخلف، في حين قمت وفتحت فمي لأبدأ سبه بوابل من الشتائم، ولكنه ألجمني، وأنا بعد في منتصف عبارتي الأولى، حين هددني بأن يزج بي وحدي في غرفة إذا فهت بكلمة واحدة. وبدأ الظلام يهبط.. وسمعنا أصواتًا عند باب الحديقة، فهرول مضيفنا إلى الخارج من فوره، وكان، على النقيض منا، صاحيًا متيقظًا، وتلا ذلك حديث استغرق دقيقتين أو ثلاثًا، ثم عاد إلينا وحده.

قلت لكاثرين معقبة: «حسبته ابن خالك هيرتن، ليته يصل! ومن يدري، فلعله يقف في صفنا؟».

قال هيثكليف وقد سمعني دون أن أراه: «إنهم ثلاثة من الخدم أرسلوا من الضيعة بحثًا عنكما، كان يجب أن تفتحي إحدى النوافذ وتنادي عليهم، ولكن في وسعي أن أقسم أن هذه الفتاة مبتهجة لأنكِ لم تفعلي هذا، أنا واثق أنها مسرورة لإكراهي إياها على البقاء».

وما إن علمنا بنبأ الفرصة التي أفلتت منا حتى أطلقنا العنان لحزننا، وتركنا هيثكليف نبكي ونعول حتى التاسعة، ثم أمرنا أن نصعد من المطبخ إلى غرفة زله، وهمست لصاحبتي أن تصدع بالأمر، عسى أن نستطيع الخروج من نافذة الغرفة أو التسلل إلى غرفة من غرف السطح فنخرج من طاقتها، على أننا وجدنا النافذة ضيقة كنوافذ الطابق الأسفل،

أما المنفذ إلى غرفة السطح فكان بمأمن من محاولاتنا؛ لأن هيثكليف أحكم حبسنا هنا كما أحكمه من قبل ونحن أسفل الدار، ولم ترقد إحدانا في فراش، واتخذت كاثرين مجلسها إلى جوار النافذة وهي ترقب طلوع الصبح بصبر ذاهب، ولم أظفر منها بغير زفرة عميقة جوابًا على توسلاتي لها أن تحاول النوم، وجلست على مقعد أهتز فيه وأنا أصدر الأحكام القاسية على هفواتي الكثيرة وعلى تفريطي في واجبي، ذلك التفريط الذي خُيِّلَ إليَّ ليلتها أنه مصدر شقاء سيدي وابنته، وأنا عليمة بأن الأمر ليس كذلك في حقيقته، ولكنه كان كذلك في خيالي تلك الليلة المشؤومة، بل إنني تخيلت هيثكليف نفسه أقل ذنبًا مني.

وجاءنا في السابعة صباحًا، وسأل هل استيقظت مس لنتن، فجرت إلى الباب لتوها وهي تقول: «نعم»، فقال وهو يفتحه ويجذبها إلى الخارج: «إذن تعالي»، ونهضت لأتبعهما ولكنه أدار المفتاح في القفل ثانية، وطالبته بأن يطلق سراحي.

فقال: «صبرًا، فسأرسل إليكِ فطورك بعد لحظة».

وخبطت بقبضتي ألواح الباب، وهززت المزلاج في غضب، وسألته كاثرين لِمَ يبقيني محبوسة؟ فأجاب أن عليَّ أن أحتمل ساعة أخرى، ثم انطلقا، واحتملت ساعتين أو ثلاثة، وأخيرًا سمعت وقع أقدام، ولكنها لم تكن أقدام هيثكليف.

وإذا صوت يقول: «لقد جئتك بطعام، فافتحي الباب!».

وفتحت الباب في لهفة، فرأيت هيرتن يحمل إليَّ من الطعام ما يكفيني اليوم كله.

وقال وهو يدفع الصينية في يدي: «إليكِ الطعام».

قلت: «انتظر دقيقة».

ولكنه صاح: «لا»، ثم عاد ضاربًا صفحًا عما تدفق من فمي من توسلات رجوت بها أن أوقفه.

وبقيت حبيسة في الحجرة النهار كله والليل كله، ثم يومًا ثانيًا وثالثًا، وأكملت خمس ليالٍ وأربعة أيام لم أرَ فيها غير وجه هيرتن مرة كل صباح، وكان سجانًا مثاليًّا، عبوسًا أبكم، يصم أذنيه عن كل محاولة أبذلها لإيقاظ إحساسه بالعدالة أو الرحمة.

الفصل الثامن والعشرون

وفي صباح اليوم الخامس، أو لعله في عصر ذلك اليوم، أقبلت نحو الحجرة خطى مختلفة -خطى أخف وأقصر- وفي هذه المرة دخل صاحبها الحجرة، فإذا الداخل زله ترتدي لفاعتها القرمزية وقبعة حريرية سوداء، وعلى ذراعها سلة من الصفصاف.

وصاحت: «يا عجبًا! مسز دين! إنهم يتحدثون في جمرتن، لم يدر بخلدي إلا أنك غرقت في مستنقع بلاكهورس، وغرقت معك مس لنتن، حتى أخبرني سيدي أنه عثر عليكِ وتحفظ عليكِ هنا! ماذا! لا بد أنكِ خرجت على جزيرة، أليس كذلك؟ وكم لبثت في الجحر؟ هل أنقذك سيدي يا مسز دين؟ ولكنكِ لم تكوني من قبل نحيلة مريضة كما تبدين الآن، أليس كذلك؟».

فأجبتها: «إن سيدك وغد زنيم! ولكنه سيدفع ثمن فعلته، وما كانت به حاجة لاختلاق هذه القصة، فسينكشف الأمر كله!».

فسألتني زله: «ماذا تعنين؟ إن القصة ليست قصته، فهم يروونها في القرية.. ويقولون إنك فقدت في المستنقع، ولما دخلت البيت قلت لإيرنشو: «لقد حدثت أحداث غريبة يا مستر هيرتن منذ بارحت المنزل، إنه حادث مؤسف ذلك الذي وقع لهذه الصبية الجميلة ولنلي دين القوية البدن»، فحدق فيَّ، وظننته لم يسمع بشيء فقصصت عليه الشائعة، وأصغى إليَّ مستر هيثكليف، واكتفى بأن ابتسم بينه وبين نفسه، ثم قال: «إذا كانتا قد سقطتا في المستنقع يا زله، فإنهما الآن قد خرجتا منه، إن نلي دين تسكن حجرتك الآن، وفي وسعك أن تقولي لها أن تمضي لحال سبيلها متى صعدت، وهاك المفتاح، لقد دخلت مياه المستنقع في رأسها، وكادت تجري إلى البيت مشدوهة لولا أنني حبستها حتى أفاقت، تستطيعين أن تخبريها أن تذهب لتوها إلى الضيعة إذا استطاعت، وتحمل مني رسالة بأن سيدتها ستلحق بها في الوقت المناسب لتحضر مأتم أبيها».

قلت وأنا ألهث: «إن مستر إدجر لنتن لم يمت! أواه يا زله!».

فأجابت: «لا، لا، اجلسي أيتها المرأة الطيبة، إنك لا تزالين شاحبة مهزولة، إنه لم يمت، وفي رأي الدكتور كنث أنه قد يعيش يومًا آخر، وقد لقيته على الطريق واستوضحته الأمر».

ولكني لم أجلس، بل خطفت ملابسي وأسرعت بالنزول لأن الطريق كانت خالية، ولما دخلت الدار درت ببصري باحثة عن شخص أسأله عن كاثرين، وكانت الشمس تغمر المكان، وكان الباب مفتوحًا على مصراعيه، ولكن أحدًا لم يبد قريبًا مني، وبينما كنت أتردد بين الانطلاق إلى بيتنا من فوري والعودة للبحث عن سيدتي، سمعت سعالًا خفيفًا لفت انتباهي إلى المدفأة، وإذا لنتن راقد على الأريكة لا أنيس له في الدار، وهو يمص عودًا من سكر النبات، ويتأثر حركاتي بعينين جامدتين، وسألته في جفاء عساني أروعه فأظفر منه بجواب حين أقتنصه وهو وحيد على هذا النحو: «أين مس كاثرين؟»، ولكنه مضى يمص السكر كالأبله.

قلت: «هل خرجت؟».

فأجاب: «كلا، إنها فوق، ولن تذهب؛ لأننا لن نسمح لها بذلك».

وصحت به: «لن تسمحوا لها أيها الفتى المعتوه! قدني إلى حجرتها فورًا وإلا جعلتك تغني غناء حادًّا».

فأجاب: «إن أبي سيجعلك تغنين لو حاولت الذهاب إليها، إنه يقول إن عليَّ ألا ألين لكاثرين، فهي زوجتي، وعار عليها أن ترغب في تركي، ويقول إنها تبغضني وتريدني أن أموت لتستولي على مالي، ولكنها لن تستولي عليه، ولن تمضي إلى بيتها! لن تفعل هذا البتة! فلتبك إذن ولتمرض ما شاءت!».

وعاود مص الحلوى وهو يغمض جفنيه كأنه يريد النوم.

وعدت أقول له: «يا سيد هيثكليف، هل نسيت عطف كاثرين عليك في الشتاء الماضي، حين كنت تؤكد أنك تحبها وحين كانت تأتيك

بالكتب، وتغني لك، وتحضر إليك مرات في الريح والثلج لتراك؟ لقد كانت تبكي إن تخلفت أمسية واحدة عن رؤيتك لئلا تبتئس، وكنت تشعر إذ ذاك أنها تغمرك بفضلها وعطفها، وها أنت ذا الآن تصدق الأكاذيب التي يختلقها أبوك مع علمك بأنه يمقتكما جميعًا، بل إنك لتقف في صفه ضدها، فما أروع هذا عرفانًا بالجميل، أليس كذلك؟».

وارتخى طرف فمه، وانتزع السكر من بين شفتيه، وواصلت حديثي أقول: «أتراها أتت إلى وذرنج هيتس لأنها تكرهك؟ فكر في الأمر تفكيرًا مستقلًّا! أما عن مالك فهي لا تعرف حتى إنك ستحصل على مال إطلاقًا، وتقول إنها مريضة، ومع ذلك تتركها وحيدة في بيت غريب! أنت الذي جربت شعور الإنسان حين يلقى مثل هذا الإهمال! إن في وسعك أن ترثي لآلامك أنت، وقد رثت هي أيضًا لهذه الآلام، ولكنك لا تريد أن ترثي لآلامها! إنك لتراني أذرف عليها الدمع يا مستر هيثكليف -وأنا كهلة، ولست إلا خادمًا- أما أنت فتبقي على كل دمعة لنفسك وترقد مطمئنًا هنا، بعد أن زعمت أنك تحبها، ورغم أنك لو عبدتها لكنت على حق، وا أسفاه! إنك لغلام أناني غليظ القلب!».

فأجابني غاضبًا: «إنني لا أستطيع البقاء معها، إنني لا أريد البقاء البقاء وحيدًا، ولكنها تبكي، لذلك لا أطيق هذه الحال، وهي تأبى أن تكف عن البكاء رغم قولي لها إنني سأنادي أبي، وقد ناديته فعلًا مرة، فهددها بأن يخنقها إذا لم تلزم الصمت، ولكنها عاودت البكاء في اللحظة التي غادر فيها الحجرة، وظلت طوال الليل تنوح وتعول رغم أنني صرخت غيظًا لأنني عجزت عن النوم».

وسألته بعد أن أدركت عجز هذا المخلوق الشقي عن مشاركة ابنة خاله آلامها النفسية: «هل خرج مستر هيثكليف؟».

فأجابني: «إنه في فناء الدار يتحدث إلى الدكتور كنث، ويقول الطبيب إن خالي يحتضر حقًّا بعد مرضه الطويل، وأنا مغتبط لأنني سأخلفه سيدًا على بيته، لقد كانت كاثرين تتكلم دائمًا عن البيت كأنه بيتها، إنه ليس بيتها! فهو الآن ملكي، وأبي يقول إن كل ما تملك فهو لي، كل كتبها اللطيفة ملكي، لقد عرضت أن تعطيني إياها، وتعطيني عصافيرها الجميلة وفرسها «منى» إذا جئت بمفتاح حجرتنا وأخرجتها، ولكنني أخبرتها أنها لا تملك شيئًا تعطيه، فكل هذا ملكي، كله ملكي، فبكت، وأخذت صورة صغيرة من جيدها ووعدتني بها، وفي الصورة شخصان في إطار من ذهب، في جانب أمها وفي الآخر خالي،

حين كانا صبيين بعد، حدث هذا بالأمس، فقلت لها إن الصورتين أيضًا ملكي، وحاولت أن آخذهما منها، ولكن المخلوقة الحقود أبت ذلك عليَّ، فدفعتني عنها دفعًا وآلمتني، عند ذلك صرخت بصوت عال، وروعها صراخي، فقد سمعت أبي مقبلًا، فكسرت مفصلات الإطار وقسمته شطرين، وأعطتني صورة أمها، وحاولت إخفاء الشطر الثاني، ولكن أبي سألني ما خطبي، فشرحت له الأمر، فأخذ مني الصورة التي معي، وأمرها بأن تسلمني الصورة التي تحتفظ بها، ولكنها أبت، فضربها حتى سقطت أرضًا، وانتزع الصورة عنوة من سلسلتها، وداسها بقدمه».

فسألته وأنا أتعمد تشجيعه على الثرثرة: «وهل سرك أن تراها تُضرب؟».

فأجاب: «لقد طرفت عيني، إن عيني تطرف كلما ضرب أبي كلبًا أو جوادًا، فهو يضرب بعنف، ومع ذلك فقد سرني ذلك أول الأمر؛ لأنها استحقت العقاب على دفعها إياي، ولكن لما خرج أبي دعتني إلى النافذة وأرتني خدها وقد مزقته أضراسها من داخله، وأرتني فمها الذي امتلأ دمًا، ثم جمعت قطع الصورة وذهبت وجلست ووجهها إلى الحائط، ولم تكلمني بعدها البتة، ويُخيَّل إليَّ أحيانًا أنها عاجزة عن الكلام لما تعاني من ألم، ولست أحب هذه الفكرة، ولكنها مخلوقة مشاغبة لأنها لا تكف عن البكاء، وهي تبدو شاحبة ثائرة حتى إنني لأخافها».

قلت: «وهل في استطاعتك الحصول على المفتاح إذا شئت؟».

فأجاب: «نعم، حين أكون في الطابق العلوي، ولكنني لا أستطيع الصعود الآن».

فسألته: «في أي حجرة هو؟».

فصاح: «أوه، لن أخبرك بمكانه، فهذا سرنا الذي يجب ألا نطلع عليه أحدًا، لا هيرتن ولا زله، والآن حسبك -لقد أتعبتني- فإليك عني، إليك عني!»، ثم أدار وجهه وأسنده إلى ذراعه وعاد يغمض عينيه من جديد.

واستصوبت أن أغادر البيت دون أن أرى مستر هيثكليف ثم أعود بنجدة من الضيعة لإنقاذ سيدتي، ولما بلغت البيت ورآني زملائي الخدم كانت دهشتهم كبيرة وسرورهم عظيمًا، ولما سمعوا أن سيدتهم الصغيرة بخير، هم اثنان منهم أو ثلاثة بالهرولة وإذاعة النبأ بصوت عال عند باب حجرة مستر إدجر، ولكنني أذعته بنفسي، ولشد ما وجدته قد تبدل حتى في هذه الأيام القليلة! فقد تمدد على فراشه ينتظر الموت، وكان صورة مجسمة للحزن والاستسلام، وكان يبدو صغير السن، فقد كان في التاسعة والثلاثين، ولكن الناظر إليه إذ ذاك كان يخاله دون هذا بعشرة أعوام على الأقل، وكان فكره مشغولًا بكاثرين لأنه كان يغمغم باسمها، ولمست يده وقلت هامسة: «إن كاثرين آتية يا سيدي العزيز! إنها حية ترزق، وهي بخير، وأرجو أن تكون هنا الليلة».

وارتجفت حين رأيت أول آثار النبأ الذي سقته إليه، فقد قام نصف قومة، وجال ببصره حول الحجرة في لهفة، ثم غشي عليه، وحالما أفاق رويت له نبأ الزيارة التي أكرهنا عليها، وما كان من أمر حبسنا في وذرنج هيتس، وقلت له إن هيثكليف أرغمني على الدخول، ولم يكن هذا هو الواقع بحذافيره، ولم أتحدث عن لنتن إلا أقل الحديث، كذلك لم أصف سلوك أبيه الوحشي كله.. متحاشية بذلك أن أزيد كأسه الطافحة مرارة إن كان ذلك في استطاعتي.

وفطن هو إلى أن عدوه كان ينشد -فيما ينشده- ماله وأرضه لولده، أو قل لنفسه، ولكن اللغز الذي حيره هو: لمَ لم ينتظر الرجل حتى يموت، وقد حيره هذا لجهله أنه هو وابن أخته سيفارقان هذه الدنيا في وقت واحد تقريبًا، على أنه أحس أن من الخير أن يغير وصيته، فصمم على ألا يترك ثروة كاثرين تحت تصرفها، بل يضعها في أيدي أوصياء لتنفق منها في حياتها وينفق منها أبناؤها، إن أنجبت أبناء، بعد موتها، وبهذه الطريقة لا تؤول الثروة إلى مستر هيثكليف إذا مات لنتن.

ولما تلقيت أوامره في هذا الشأن أوفدت رجلًا ليدعو المحامي وأرسلت أربعة رجال أُخر مزودين بالسلاح الخفيف ليطلبوا سيدتي الصغيرة من سجانها، وطالت عودة الفريقين، وكان الخادم الذي أرسلته بمفرده أول من عاد، فأخبرني بأن مستر جرين المحامي كان خارج بيته حين ذهب إليه، فاضطر إلى انتظاره ساعتين حتى رجع، ثم قال له مستر جرين إن أمامه مهمة صغيرة يقضيها في القرية، ولكنه سيأتي إلى ضيعة ثرشكرس قبل طلوع الصبح، كذلك عاد الرجال الأربعة وحدهم، وذكروا أن كاثرين مريضة، مريضة مرضًا يعجزها عن مغادرة حجرتها، وأن هيثكليف أبى أن يسمح لهم برؤيتها، وأشبعت الأغبياء تقريعًا على تصديقهم هذه القصة التي أبيت أن أنقلها إلى سيدي؛ لأنني عقدت العزم على أن آخذ فرقة بأسرها إلى وذرنج هيتس إذا لاح الصبح وليقتحموه عنوة ما لم تسلم السجينة إلينا في هدوء، لقد أقسمت غير مرة أن أباها لا بد أن يراها، وإن اقتضى الأمر قتل ذلك الشيطان على باب بيته إذا حاول اعتراضنا!

على أنني لحسن الحظ كفيت الرحلة والعناء، ذلك أنني كنت قد نزلت إلى أسفل الدار في الساعة الثالثة لأحضر إبريق ماء، وكنت أخترق البهو والإبريق من يدي، وإذا قرع حاد على الباب الأمامي يجعلني أقفز من موضعي، وقلت محاولة أن أتماسك: «أوه! إنه جرين، ليس إلا جرين»، ومضيت في سيري وأنا أنوي أن أرسل غيري ليفتح الباب، ولكن القرع تكرر غير عال ولكن في إلحاح، ووضعت الإبريق على الدرابزين وأسرعت إلى فتح الباب للطارق، وكان قمر الحصاد يسطع ضياؤه خارج الدار، ولم يكن الطارق هو المحامي، بل وجدت سيدتي الصغيرة الحلوة تهجم على عنقي وتنتحب قائلة: «آلن، آلن! هل أبي حي؟».

وقلت وأنا أبكي: «نعم نعم يا ملاكي، إنه حي، شكرًا لله، إنكِ عدت إلينا بخير!».

وأرادت أن تجري مبهورة الأنفاس صاعدة إلى حجرة مستر لنتن، ولكني أرغمتها على الجلوس على مقعد، وسقيتها، وغسلت وجهها

الشاحب، ودعكته بميدعتي حتى اكتسب لونًا طفيفًا، ثم أخبرتها أنني يجب أن أسبقها لأعلن وصولها إلى سيدي، ورجوتها أن تقول إنها ستكون سعيدة مع الفتى هيثكليف، فحملقت في وجهي، ولكن سرعان ما أكدت لي أنها لن تشكو شيئًا إلى أبيها حين أدركت السر فيما أشرت به عليها من كذب صريح.

ولم أطِق البقاء في الحجرة وهما مجتمعان، ووقفت خارج الباب ربع ساعة لم أجرؤ خلالها على أن أدنو من فراش أبيها، على أن كل شيء كان هادئًا، فقد كان يأس كاثرين صامتًا كفرح أبيها، واعتمدته بيدها في هدوء ظاهري، أما هو فكان يتأمل ملامحها بعينيه المرفوعتين وقد لاح أنهما اتسعتا من فرط النشوة.

ومات ميتة سعيدة يا مستر لوكوود، مات على هذه الحال، وغمغم وهو يقبل وجنتها: «إنني ماض إليها، وأنتِ يا بنيتي الحبيبة ستأتين إلينا!»، ثم كف عن الحركة

والكلام، ولكنه ظل يشخص إليها بتلك النظرة المشعة السابحة المتفرقة، حتى توقف نبضه دون أن يلحظ أحد توقفه، وفارقته روحه، وما كان في قدرة أحد أن يعرف في أي دقيقة مات على التحقيق؛ لأن روحه انطلقت في غير عناء ولا مشقة.

وسواء أبكت كاثرين على أبيها حتى فرغ دمعها، أم أن فجيعتها فيه كانت أفدح من أن يفرج عنها البكاء، فإنها جلست هناك وقد جف دمعها حتى طلعت الشمس، ثم ظلت جالسة حتى الظهيرة، وكان بودها أن تظل عاكفة على فراش أبيها الميت غارقة في التفكير في أحزانها إلى ما شاء الله لولا أنني ألححت عليها أن تبرح الحجرة وتأخذ قسطًا من الراحة، وقد أحسنت بإخراجها؛ لأن المحامي أقبل ساعة الغداء بعد أن ذهب إلى وذرنج هيتس ليتلقى تعليماته بما يصنع، ذلك أن الرجل كان قد باع نفسه لمستر هيثكليف، وهذا هو السر في إبطائه حين دعاه سيدي للحضور، على أن التفكير في شؤون المال لم يخطر لحسن الحظ ببال سيدي فيعكر عليه صفاءه بعد وصول ابنته إليه.

وأخذ مستر جرين على عاتقه أن يصدر الأوامر إلى كل من بالدار، فأنذر الخدم جميعهم بأنهم مطرودون فيما عداي، وكان يريد أن يتمادى في تنفيذ ما وكل إليه من سلطة، فيصر على ألا يدفن إدجر لنتن إلى جوار زوجته، بل في الكنيسة مع أسرته، ولكن وقفت دون ذلك وصية الرجل واحتجاجاتي العالية على أي خرق لما احتوته من توجيهات، ودفن الميت في هرولة، وسمح لكاثرين، وقد أصبحت مسز لنتن هيثكليف، بالبقاء في البيت حتى خرج منه جثمان أبيها.

وأخبرتني أن ما كانت تعاني من آلام مبرحة حمل لنتن في النهاية على المغامرة بإطلاق سراحها، وقالت إنها سمعت الرجال الذين أوفدتهم يجادلون هيثكليف على باب الدار، وأدركت مضمون جواب هيثكليف، فأيأسها ذلك من الخلاص، وريع لنتن، وكان قد حمل إلى الحجرة الصغيرة بعد خروجي من البيت بقليل، فأتى بالمفتاح قبل أن يصعد أبوه ثانية، واحتال للأمر ففتح القفل ثم أعاد قفله دون أن يغلق الباب، وحين أتى موعد نومه توسل أن ينام مع هيرتن وأجيب إلى رجائه هذه المرة فقط، وتسللت كاثرين قبل أن يطلع الفجر، ولم تجرؤ على فتح الأبواب مخافة أن تنبه الكلاب أهل الدار إليها، ولكنها دخلت الحجرات الخالية وفحصت نوافذها، فلما وقعت لحسن حظها على حجرة أمها استطاعت أن تخرج بسهولة من نافذتها وتهبط إلى الأرض على شجرة الشربين الملاصقة لها، أما شريكها في الجريمة فقد لقي جزاءه على ما أسهم من نصيب في هروبها، ولم تعفه من العقاب حيله وأساليبه التي لا تصدر إلا عن الجبناء.

* * *

الفصل التاسع والعشرون

كنت أنا وسيدتي الصغيرة جالستين في المكتبة في العشية التالية لمأتم أبيها، نفكر في فجيعتنا محزونتين ونفكر فيها في يأس وقنوط تارة، ونحاول التكهن بما يخبئه لنا المستقبل المظلم بين طياته تارة أخرى.

وكنا قد اتفقنا على أن خير ما يمكن أن تطمع فيه كاثرين من حظ أن يؤذن لها بالبقاء في بيت الضيعة، على الأقل أثناء حياة لنتن، وأن يسمح له بالعيش معها هناك، ولي بالقيام على خدمتهما، وبدا هذا الترتيب أوفق من أن نأمل فيه، ومع ذلك فقد راودني الأمل فيه فعلًا، وبدأ الحزن ينجاب عني وأنا أحلم بالاحتفاظ ببيتي ووظيفتي، وبسيدتي الصغيرة المحبوبة قبل كل شيء، وإذا أحد الخدم الذين طردوا -ولم يكن قد رحل عن الدار بعد- يندفع إلى الداخل على عجل ويقول إن «هذا الشيطان هيثكليف» يخترق فناء الدار، ويسألنا هل يوصد الباب في وجهه؟

ولو أن بنا من الجنون ما يجعلنا نأمره بإيصاد الباب لما وجدنا من الوقت متسعًا لإنفاذ الأمر؛ ذلك أن هيثكليف لم يحفل بالقرع على الباب أو الاستئذان في الدخول، فقد كان سيد الدار، وقد استعمل حق السيد في الدخول رأسًا دون أن ينطلق بكلمة، وقاده صوت مبلغنا إلى المكتبة، فدخل وأغلق الباب بعد أن أمر الرجل بالخروج.

وكانت الحجرة هي بعينها التي استقبل فيها ضيفًا قبل ثمانية عشر عامًا، كان القمر بعينه يرسل ضياءه خلال النافذة، ومنظر الخريف بعينه ينبسط في الخارج، ولم نكن أضأنا شمعة واحدة بعد، ولكن الحجرة كلها كانت واضحة، وكان كل ما فيها واضحًا حتى الصورتان المعلقتان على الجدار؛ وجه مسز لنتن الرائع، ووجه زوجها الرقيق، وتقدم هيثكليف إلى المدفأة، فبدا هو أيضًا بعينه لم يكد يبدل منه الزمن شيئًا، اللهم إلا قليلًا من شحوب وهدوء في وجهه الأسمر ومزيدًا من اللحم في جسمه، ولا شيء غير هذا، وما إن رأته كاثرين حتى همت تبغي الاندفاع إلى خارج الحجرة.

وقال لها وهو يقبض على ذراعها: «قفي! لا هروب بعد اليوم! إلى أين تريدين أن تهربي؟ لقد جئت لآخذك إلى البيت، وأرجو أن تكوني ابنة مطيعة لا تشجعين ولدي على مزيد من العصيان، لقد حرت كيف أعاقبه حين تبينت الدور الذي قام به في مساعدتك على الهروب، فهو أوهى من نسيج العنكبوت، ولو قرصته قرصة واحدة لقضيت عليه، ولكنك سترين من نظراته أنه نال جزاءه! لقد أنزلته أسفل الدار ذات مساء أمس الأول، واكتفيت بإجلاسه على مقعد، ولم أمسه قط بعد ذلك، وأمرت هيرتن بالخروج من الحجرة، فلم يبق فيها سوانا، وبعد ساعتين ناديت جوزيف ليحمله إلى أعلى الدار ثانية، ومنذ تلك الساعة أصبحت رؤيته إياي تفعل في أعصابه فعل أشباح الموتى، ويُخيَّل إليَّ أنه كثيرًا ما يراني وإن كنت في الواقع بعيدًا عنه، ويقول هيرتن إنه يستيقظ أثناء الليل ويصرخ ساعات بطولها ويناديك لتحميه مني، وسواء كنتِ تحبين زوجكِ الغالي أو تبغضينه، فعليكِ أن تذهبي إليه، فهو مسؤول منكِ الآن، وأنا أتخلى لكِ عن اهتمامي كله به».

وقلت أناشده: «وماذا يمنعك أن تترك كاثرين تمضي في سكناها هذا البيت وترسل إليها السيد لنتن؟ وما دمت تبغضهما جميعًا، فإنك لن تستوحش لغيبتهما، ولن يكون

وجودهما معك إلا بلاء وأذى لقلبك القاسي».

فأجاب: «إنني أبحث عن مستأجر لهذا البيت، وأريد ولدي معي بطبيعة الحال، ثم إن هذه الصبية يجب أن تقوم بخدمتي حتى تأكل خبزها، فلن أطعمها وهي مترفة كسول بعد أن يموت لنتن، فهيا إذن واستعدي الآن، ولا تضطريني إلى إكراهك بالقوة».

قالت كاثرين: «سأفعل، فلنتن كل من بقي لي في الحياة لأحبه، ولن تستطيع أن تحملنا على أن يكره بعضنا بعضًا، وإن كنت قد جهدت لتنفرني منه وتنفره مني، وإني أتحداك أن تؤذيه وأنا معه، وأتحداك أن تروعني إن استطعت!».

فأجاب هيثكليف: «إنكِ لمنافحة جعجاعة، ولكني لا أستشعر نحوكِ من المحبة ما يجعلني أوذيه، وإني لأعدك بأنكِ ستنالين كل حظك من التعذيب ما دام مستمرًّا، ولست أنا الذي سيبغضك فيه، بل هي روحه الحلوة، فهو يحقد عليك حقدًا مريرًا لهجرانك إياه وما أسفر عنه هذا من عواقب، فلا تتوقعي منه حمدًا ولا شكرًا على وفائك الكريم هذا، لقد سمعته يرسم لزله صورة لطيفة لما يود أن يصنع لو كانت له قوتي، إن الميل لا ينقصه، وسيرهف ضعفه هذا من عقله ليجد بديلًا من القوة».

فقالت كاثرين: «أعلم أن له طبيعة شريرة لأنه ولدك، ولكني مغتبطة لأن لي طبيعة خيرة تغتفر هذا الشر، وأنا عليمة بأنه يحبني، ولهذا أحبه، أما أنت يا مستر هيثكليف فما من أحد يحبك، ومهما حاولت إشقاءنا فسيشفي غليلنا منك علمنا أن قسوتك نابعة من شقاء أعظم من شقائنا، وإنك لشقي حقًّا، ألست كذلك؟ وحيد كالشيطان، حسود مثله؟ لا يحبك أحد، ولن يبكيك أحد إذا مت! إنني لن أرضى بأن أكون في مكانك!».

وكانت كاثرين تتكلم في رنة انتصار وشماتة، ويبدو أنها عقدت نيتها على أن تتقمص روح أسرتها المرتقبة، وتجد لذة في أتراح أعدائها.

وقال حموها: «إذا انتظرت دقيقة واحدة، فإني ضمين بأنكِ ستندمين سريعًا على أنكِ لا ترضين بنفسكِ بديلًا، فاذهبي أيتها الساحرة وجهزي متاعك!».

وانسحبت من الحجرة في ازدراء، وبدأت أرجوه في غيبتها أن يعطيني وظيفة زله في وذرنج هيتس عارضة عليه أن أنزل لها عن وظيفتي، ولكنه أبى، وأمرني أن ألزم الصمت، ثم سمح لنفسه لأول مرة أن يلقي نظرة عجلى على الحجرة وأن يتأمل الصورتين، ولما أنعم النظر في صورة مسز لنتن قال: «سأحمل هذه معي إلى البيت؛ لا لأنني في حاجة إليها، بل...»، ثم اتجه فجأة إلى المدفأة، وواصل حديثه وعلى فمه شيء يجب أن أسميه ابتسامة؛ لأني لا أجد لفظًا خيرًا من هذا: «سأخبرك بما صنعته أمس! لقد جعلت قندلفت الكنيسة، الذي كان يحفر قبر لنتن، يزيح التراب عن غطاء تابوتها وفتحت التابوت، وخطر لي مرة أنني لو خيرت لبقيت هناك، فلما رأيت وجهها ثانية -ولا يزال هو هو!- لم يكن من اليسير عليه أن يزحزحني عن مكاني، ولكنه قال لي إنه سيعتريه تغير إذا هب عليه الهواء، ففصلت جانبًا من جانبي التابوت ثم أهلت عليه التراب، وهو ليس جانبه الملاصق لتابوت لنتن، عليه اللعنة! ألا ليته لصق في تابوته بالرصاص، ورشوت القندلفت لكي ينزع جانب تابوتها الذي فصلته حين يدفنني، وينزع جانب تابوتي كذلك، سأرتب هذا، فإذا جاء الوقت ووصل إلينا لنتن لم يستطع أن يميز أحدنا عن صاحبه!».

فصحت به: «ما أفظع شرك يا مستر هيثكليف! ألم تخجل من إقلاق الموتى في نومهم؟».

فأجاب: «إنني لم أقلق أحدًا يا نلي، وفرجت عن نفسي بعض كربها، سأشعر الآن براحة أعظم، وستكونين أقدر على التحكم في طبعي حين أذهب إلى هناك، أنا أقلقها؟ لا! بل هي التي أقلقتني ليل نهار مدى ثمانية عشر عامًا -لا تكف خلالها- ولا ترحم- حتى الليلة البارحة، ولكني هدأت البارحة، وحلمت أنني أرقد رقدتي الأخيرة إلى جوارها، وقد وقف قلبي وجمد خدي على خدها».

قلت: «وكيف يكون حلمك لو كانت قد تحللت إلى تراب أو إلى ما هو شر من التراب؟».

فأجاب: «كنت أحلم بالتحلل معها فأكون بهذا أسعد! أتحسبينني أرهب أي تغيير من هذا القبيل؟ لقد توقعت مثل هذا حين رفعت غطاء التابوت، ولكنني مغتبط لأنه لن يبدأ قبل أن أشاركها إياه، ثم إن هذا الشعور الغريب ما كان ليزول عني لولا أن ملامحها الجامدة قد انطبعت في ذهني انطباعًا واضحًا، لقد بدأ هذا الشعور بداية عجيبة، فأنتِ تعلمين أنني كنت ثائر النفس هائجًا بعد موتها، وكنت لا أفتأ أرجوها في فجر كل يوم أن تعيد إليَّ روحها! وإني لشديد الإيمان بالأرواح، موقن بأنها تستطيع الحياة بين ظهرانينا، وأنها تحيا فعلًا! ففي اليوم الذي دفنت فيه أمطرتنا السماء ثلجًا، ومضيت في المساء بين المقابر، وكانت الريح تهب صرصرًا عاتية كريح الشتاء، وكل ما حولي قفر

موحش، ولم أخشَ أن يضرب زوجها الأحمق في الوادي في مثل تلك الساعة المتأخرة، ولم يكن لغيره مصلحة في الذهاب إلى ذلك المكان؛ وإذ وجدت نفسي وحيدًا، ولم أجد من فاصل يقوم بيني وبينها سوى أقدام من الثرى الهش، قلت لنفسي: «سأحتضنها بين ذراعي ثانية! فإذا وجدت جسدها باردًا فسأتصور أنها ريح الشمال التي تجعلني أحس البرد، وإذا وجدتها لا حراك بها فإنما هو النوم يغشاها»، وجئت بمجرفة من مخزن الآلات، وبدأت أجرف التراب بكل ما أوتيت من قوة إلى أن حكت المجرفة التابوت، وبدأت أجرف التراب بيدي، وأخذ الخشب يطقطق حول المسامير، وكنت على وشك بلوغ هدفي، حين خُيِّل إليَّ أنني سمعت زفرة تنبعث من شخص فوقي على حافة القبر وقد انحنى فوقه، وغمغمت قائلًا: «آه لو استطعت أن أنتزع هذا، إذن لوددت أن يهيلوا التراب علينا جميعًا!»، وثابرت على جهدي لأنتزع الغطاء مستيئسًا، وسمعت زفرة أخرى قرب أذني، وخُيِّل إليَّ أنني أحس حرارتها تحل محل الريح المحملة بشظايا الجليد، وكنت أعلم أنه لا يوجد بالمكان مخلوق من لحم ودم، ولكني كنت واثقًا من وجود كائي هناك ثقتك حين تشعرين باقترابك من جسم له وجود في الظلام وإن لم تستطيعي تبينه، ولم تكن موجودة في تابوتها تحتي، بل فوق الأرض، وفاض قلبي فجأة بشعور ارتياح سرى في أوصالي جميعها، فكففت عما كنت أكابد من جهد مضن، ومضيت وقد أحسست العزاء يغمرني لتوي، عزاء لا أستطيع التعبير عنه، لقد كانت روحها معي، وظلت معي وأنا أملأ القبر ترابًا من جديد، ثم قادتني إلى البيت، اضحكي إن شئت، ولكني كنت على ثقة من أنني سأراها في البيت، كنت على ثقة من أنها معي، ولم أملك إلا أن أتحدث إليها، وما إن بلغت البيت حتى اندفعت في لهفة إلى الباب فوجدته موصدًا، وإنني أذكر أن ذلك اللعين إيرنشو وزوجتي منعاني من الدخول، وأذكر أنني توقفت لأركله حتى يسقط مقطوع النفس، ثم هرولت صاعدًا إلى غرفتي وغرفتها، وجلت ببصري في قلق -كنت أحسها قريبة مني- كدت أستطيع رؤيتها، ومع ذلك لم أستطع! ولا بد أن عرقي كان يتصبب كالدم في تلك اللحظة لشدة ما أضناني الشوق إلى رؤيتها، ولحرارة ضراعتي أن ألقي عليها نظرة واحدة! ولكنها ضنت عليَّ بها، وتنكرت لي شأنها في كثير من الأحيان وهي على قيد الحياة، ومنذ ذلك الحين أجدني هدفًا لتعذيب لا يُطاق وإن تفاوت شدة! تعذيب شيطاني! تتوتر له أعصابي توترًا كان خليقًا بأن يحيلها خائرة واهية كأعصاب لنتن لولا ما فطرت

عليه من صلابة وقوة، وكنت إذا جلست مع هيرتن في البيت يُخيَّل إليَّ أنني سألقاها إن خرجت، وإذا سرت في البراري خُيِّل إليَّ أنني سألقاها إن عدت إلى البيت، فإذا ابتعدت عن البيت عجلت بالعودة لأنها لا بد موجودة في مكان منه! وحين نمت في غرفتها -عجزت عن النوم، وجفاني الرقاد؛ لأنني في اللحظة التي أغمض فيها جفني كانت تتراءى لي إما خارج النافذة، أو مزيحة ألواح المخدع، أو داخلة الحجرة، أو حتى واضعة رأسها الحبيب على الوسادة نفسها كما كان شأنها وهي صبية، فلم يك بد من أن أفتح عيني لأراها، وهكذا كنت أفتحهما وأغمضهما مائة مرة في الليلة- وفي كل مرة يخيب ظني! لقد حطمني هذا كله! وطالما علا ضجيجي وأنيني، حتى اعتقد ذلك الوغد العجوز جوزيف اعتقادًا راسخًا أن ضميري يعبث بي ويعذبني تعذيبًا، والآن، بعد أن رأيتها، هدأت.. هدأت قليلًا، لقد كان ذلك منها أسلوبًا عجيبًا في القتل، تقتلني لا بوصة فبوصة، بل شعرة فشعرة، وذلك بأن تخادعني بأمل كاذب ثمانية عشر عامًا!».

وتوقف مستر هيثكليف عن الكلام ومسح جبينه، وكان شعره قد التصق به بعد أن بلله العرق، وكانت عيناه تحدقان في جمر المدفأة المتقد، وحاجباه غير مقطبين، بل مرتفعين إلى صدغيه، فخفف ذلك من جهامة سحنته، ولكنه خلع عليه نظرة غباء عجيبة، ومظهرًا أليمًا من مظاهر التوتر النفسي المنصب على موضوع واحد يستغرق صاحبه، ولم يكن في كلامه إليَّ يخاطبني إلا بنصفه، أما أنا فكنت ألزم الصمت، ولم أحب أن أستمع إليه يتكلم على هذا النحو! وبعد فترة قصيرة عاد يتأمل الصورة، وأنزلها من مكانها، ثم أسندها إلى الأريكة ليتأملها خيرًا من ذي قبل، وبينما كان مشغولًا بهذا، دخلت كاثرين لتنبئه بأنها على استعداد للخروج متى أسرجت فرسها.

وقال لي هيثكليف: «أرسلي هذه إليَّ غدًا»، ثم نظر إلى كاثرين قائلًا:

«في وسعك أن تستغني عن فرسك، فالمساء صحو، ولن يكون بكِ حاجة إلى فرس في وذرنج هيتس؛ لأن في قدميك الكفاية أيًّا كانت رحلاتك هناك.. هيا بنا».

وهمست سيدتي الصغيرة الحبيبة في أذني تقول: «وداعًا يا آلن»، وإذ كانت تقبلني أحسست بشفتيها باردتين برودة الثلج، وأضافت: «لا تنسي أن تحضري لزيارتي يا آلن».

وقال لي حموها الجديد: «حذار أن تفعلي يا مسز دين! سأحضر إليكِ هنا إذا كان لي معكِ حديث، أما تطفلك على بيتي فلا أرضاه!».

وأشار إليها أن تتقدمه، فنظرت إلى الوراء نظرة مزقت نياط قلبي ثم صدعت بالأمر، وراقبتهما من النافذة وهما يعبران الحديقة، وكان هيثكليف يثبت ذراع كاثرين تحت ذراعه وإن قاومته أول الأمر مقاومة ظاهرة، وهرول بها بخطى سريعة على الطريق الذي لفتهما أشجاره.

الفصل الثلاثون

زرت وذرنج هيتس بعد هذا، ولكني لم أرها مذ غادرتنا؛ ذلك أن جوزيف قبض بيده على الباب حين ذهبت للسؤال عنها وأبى أن يسمح لي بالدخول، وقال إن مسز لنتن كانت «ملتوية في فراشها»، وأن رب البيت في الخارج. وقد قصت عليَّ زله طرفًا من أسلوب حياتهم وإلا لما علمت أيهم مات وأيهم ما زال على قيد الحياة. ففي رأيها أن في كاثرين كبرياء وتشامخًا، وخُيِّل إليَّ من حديثها أنها لا تحبها، ذلك أن سيدتي الصغيرة طلبت معونتها أول ما ذهبت، ولكن مستر هيثكليف أخبرها أن تنصرف إلى شأنها وتترك زوجة ابنه تخدم نفسها، وارتضت زله هذا عن طيب خاطر لأنها امرأة أنانية ضيقة العقل، وأثار هذا الإهمال في كاثرين غيظًا كغيظ الأطفال، وكان ردها عليه الاحتقار، وهكذا ضمت زله إلى زمرة خصومها كأنها اقترفت في حقها جرمًا خطيرًا، ومنذ حوالي ستة أسابيع، أي قبيل حضورك كان لي مع زله حديث طويل، وكان ذلك في يوم اجتمعنا فيه في البرية، وإليك ما قصته عليَّ.

قالت: «إن أول ما فعلته مسز لنتن حين دخلت البيت هو أنها جرت إلى الطابق العلوي دون أن تكلف نفسها حتى أن تقرئني تحية المساء، وفي الصباح بينما كان رب البيت وإيرنشو يتناولان فطورهما، دخلت غرفة الجلوس وسألت الجميع وهي ترتعد هلا أرسلوا في طلب الطبيب لأن ابن عمتها جد مريض.

«وأجاب هيثكليف: «نعلم ذلك! ولكن حياته لا تساوي دانقًا، ولن أنفق عليه هذا الدانق».

«قالت: «ولكني لا أدري ما أصنع، وإذا لم يعنى أحد فهو لا شك هالك!».

«فصاح بها سيدي: «اخرجي من الحجرة، ولا تسمعيني عنه البتة كلمة فوق ما سمعت! لا أحد هنا يهمه ما يحدث له، فإذا كان يهمك أنت فعلليه، وإلا فاحبسيه في حجرته واتركيه».

«ثم بدأت تضايقني، فقلت لها إنني قد احتملت نصيبي من بلاء هذا المخلوق المتعب، وإن لكل منا عملها، وعملها هو تمريض لنتن، فقد أمرني مستر هيثكليف بأن أترك لها هذه المهمة.

«ولست أدري كيف كانا يعيشان معًا، ويُخيَّل إليَّ أنه كان شديد الشكوى، وأنه كان ينوح ليل نهار، وأنها حرمت طعم الراحة، فقد كان هذا ظاهرًا من شحوب وجهها وثقل عينيها، وكانت تدخل المطبخ أحيانًا مشدوهة يبدو عليها أنها تود أن تسألني العون، ولكني لم أكن لأعصي للسيد أمرًا، وأنا لا أجرؤ البتة على عصيانه يا مسز دين، صحيح أنني أعتقد أنه مخطئ لأنه لم يرسل في طلب كنث، ولكن لم يكن من شأني أن أنصح أو أشكو، وكنت على الدوام أرفض أن أزج بنفسي في هذه الشؤون، وقد حدث مرة أو مرتين أنني فتحت باب غرفتي بعد ذهابنا إلى مخادعنا، فرأيتها جالسة تبكي على قمة السلم، ولكني عدت إلى إغلاق الباب سريعًا مخافة أن يدفعني التأثر إلى التدخل في الأمر، ولا ريب في أنني رثيت لها إذ ذاك، ولكنني مع ذلك لم أشأ أن أخسر وظيفتي كما تعلمين.

«وأخيرًا دخلت غرفتي ذات ليلة في جرأة وروعتني ترويعًا شديدًا حين قالت: «أخبري مستر هيثكليف أن ابنه يحتضر.. إنني واثقة أنه يحتضر هذه المرة، قومي الآن وأخبريه».

«وما إن قالت هذا حتى اختفت، ورقدت ربع ساعة أتسمع وأرتعد، ولكن شيئًا لم يتحرك، وكان البيت كله ساكنًا.

«وقلت لنفسي إنها مخطئة، وقد أفاق من نوبته، فلا حاجة بي إلى إزعاجهم، وبدأت أغفي، ولكن رنين الجرس كدر نومي ثانية، وهو الجرس الوحيد عندنا، وقد وضع خصيصًا للنتن، وناداني السيد لأستفسر عن جلية الأمر، وأطلب إليهما أنه لن يسمح لهما بالعودة إلى هذا الضجيج.

«وأبلغته رسالة كاثرين، فأخذ يسب ويلعن بينه وبين نفسه، وبعد دقائق خرج يحمل شمعة موقدة ومضى إلى حجرتهما، وتبعته إليها،

وإذا مسز هيثكليف جالسة إلى الفراش وقد أطبقت يديها على ركبتيها، واتجه حموها إلى الفراش ورفع الشمعة فوق وجه لنتن، ونظر إليه وجسه، ثم تحول إليها وقال:

«والآن.. كيف تشعرين يا كاثرين؟».

ولكنها كانت خرساء.

«فأعاد عليها سؤاله: «كيف تشعرين يا كاثرين؟».

فأجابت: «إنه في أمان، وأنا الآن حرة طلقة، فخليق بي أن أشعر أنني بخير...»، ثم واصلت حديثها في مرارة لم تستطع أن تخفيها: «ولكنك تركتني أكافح الموت وحدي طويلًا بحيث لم أعد أشعر أو أبصر غير الموت! إنني أشعر كأنني في عداد الموتى!».

«وقد بدت حقًّا كالموتى! ودفعت إليها قليلًا من النبيذ، ودخل هيرتن وجوزيف في تلك اللحظة بعد أن أيقظهما رنين الجرس ووقع الأقدام وبعد أن سمعا حديثنا من الخارج، وأعتقد أن جوزيف كان مغتبطًا لموت الفتى، أما هيرتن فقد بدا عليه شيء من الانزعاج، وإن انصرف إلى التحديق في كاثرين أكثر من التفكير في لنتن، ولكن السيد أمره أن يعود إلى فراشه؛ لأننا لم نكن في حاجة إلى معونته، ثم أمر جوزيف أن ينقل الجثة إلى حجرته، وأخبرني أن أعود إلى حجرتي، وبقيت مسز هيثكليف وحدها.

«وأرسلني إليها في الصباح لأخبرها بأنها يجب أن تنزل لتتناول الفطور، ولكنها كانت قد خلعت ثيابها، وبدت تتهيأ للنوم، وقالت إنها مريضة، وهو ما لم أعجب له، فأخبرت مستر هيثكليف، فقال: «دعيها وشأنها حتى تنقضي أيام المأتم، واصعدي إليها بين الحين والحين لتحملي إليها ما تحتاجه، وحالما تتحسن صحتها أخبريني».

وقد أخبرتني زله أن كاثي لزمت حجرتها في الطابق العلوي أسبوعين، وكانت تصعد إليها مرتين كل يوم، وتحاول التودد إليها، بيد أنها كانت تصد هذه المحاولات من فورها بكل أنفة.

وصعد إليها هيثكليف مرة ليريها وصية لنتن، فوجدت أن الفتى أوصى لأبيه بكل

ثروته المنقولة وبكل ما كانت تملك هي من قبل، ويبدو أنه هدد المسكين أو أقنعه بأن يوصي بما أوصى في الأسبوع الذي غابته حين مات خاله، أما الأرض فلم يستطع أن يتدخل فيها لأنه قاصر، على أن مستر هيثكليف قد طالب بها عن زوجته وعن نفسه أيضًا ووضع عليها يده وضعًا قانونيًا فيما أظن، وعلى أي حال فإن كاثرين عاجزة عن أن تنازعه ملكيتها وهي على ما هي عليه من افتقار إلى المال والأصدقاء.

وقالت زله: «لم يقرب بابها أحد سواي، اللهم إلا تلك المرة، ولم يسأل عنها أحد، وكان نزولها أول مرة إلى غرفة الجلوس عصر أحد، فقد بكت حين حملت إليها غداءها لأنها لم تعد تطيق البقاء في حجرتها الباردة، فأخبرتها أن السيد ذاهب إلى ضيعة ثرشكرس، وأنني وهيرتن لن نمنعها من النزول، فما إن سمعت جواد هيثكليف منطلقًا حتى نزلت وقد جللها السواد وسحبت غدائرها الصفراء إلى الخلف وراء أذنيها في غير احتفال كأنها من جماعة «الكويكر»، ولم تستطع أن تمشطها فتبدو بعيدة عن رأسها.

«وأنا أذهب وجوزيف عادة إلى اجتماع الصلاة في الآحاد»، وقالت لي مسز دين، على سبيل الإيضاح، إن كنيسة الناحية بلا قسيس، وإنهم يسمون المكان الذي يجتمع فيه جماعة المثودست أو المعمدانيين -لا أدري- في جمرتن «اجتماع الصلاة»، ثم مضت تقول: «وكان جوزيف قد ذهب إلى الاجتماع ولكنني استحسنت البقاء في البيت، فخير للشباب أن يشرف عليهم شخص متقدم في السن، وليس هيرتن مثلًا أعلى في حسن السلوك، رغم ما يتصف به من خجل، وأنبأته بأن ابنة عمته ستجلس معنا على الأرجح، وأنها ألفت على الدوام أن ترى يوم الرب محلًا للاحترام، فهو يحسن صنعًا إن خلي عنه بنادقه وما يقوم به في البيت من أشغال صغيرة، أثناء وجودها معه، وتلون وجهه حين سمع النبأ، وتأمل يديه وملابسه، وما هي إلا دقيقة حتى اختفى الشحم والبارود من الحجرة، ورأيت أنه ينوي أن يؤنسها، وخُيِّل إليَّ من مسلكه

أنه يريد أن يبدو أمامها حسن المظهر، فعرضت عليه مساعدتي إن أراد، وضحكت؛ لأني لا أجرؤ على الضحك في وجود السيد، وأخذت أمزح لما بدا عليه من ارتباك، أما هو فقد تجهم وبدأ يسب.

وواصلت زله حديثها وقد رأتني مستاءة من مسلكها: «لعلك يا مسز دين تحسبين سيدتك الصغيرة أرفع من أن يكون لها مستر هيرتن كفئًا، ولعلك في هذا على حق، ولكني أعترف لكِ أنني أشتهي أن أهز كبرياءها وأخفف من غلوائها قليلًا، وماذا يفيدها اليوم علمها كله وأناقتها كلها؟ إنها فقيرة مثلك أو مثلي، بل أؤكد لكِ أنها أفقر، فأنتِ تدخرين، وأنا أسلك نفس هذا السبيل بالقدر القليل الذي أستطيعه».

وسمح هيرتن لزله بأن تعاونه، وما زالت به حتى صفا مزاجه، فلما أقبلت كاثرين حاول -في رواية الخادم- أن يبدو معها لطيفًا، وقد أوشك أن ينسى لها إهاناتها الماضية.

قالت: «ودخلت السيدة الحجرة وعليها برود الثلج وكبرياء الأميرات، وقمت وقدمت لها مقعدي ذي المسندين، فرفضت ولم تعبأ بمجاملتي هذه، كذلك قام إيرنشو وطلب إليها أن تجلس على الأريكة إلى جوار النار، وقال إنه واثق من أنها ستموت من البرد.

«فأجابت: «لقد ظللت شهرًا وأكثر أكاد أموت بردًا»، وكانت تتكئ على الكلمة بما وسعها من الازدراء.

«ثم تناولت بنفسها كرسيًّا وضعته بعيدًا منا، فلما استدفأت أخذت تجول ببصرها في الحجرة فاكتشفت على الخزانة عددًا من الكتب، فما هو إلا أن انتفضت واقفة ومدت يدها لتتناولها، ولكن الكتب كانت أعلى من أن تبلغها، وراقب ابن خالها محاولاتها هذه هنيهة، ثم استجمع شجاعته آخر الأمر ليمد لها يد المعونة، وأمسكت هي بثوبها فألقى فيه بأول ما وقع في يده من الكتب.

«وأحس الفتى أنه قد خطا خطوة كبرى، ومع أنها لم تشكره، فإنه طاب نفسًا بقبولها لمعونته، واجترأ على الوقوف من خلفها وهي تتصفح الكتب، بل على الانحناء والإشارة إلى ما راقه في بعض ما احتوته من صور قديمة، ولم يصده أسلوبها الوقح وهي تدفع الصفحة عن إصبعه، فقد قنع بالتقهقر قليلًا والتطلع إليها بدلًا من التطلع إلى الكتاب، ومضت تقرأ أو تلتمس شيئًا تقرؤه، وتركز انتباهه شيئًا فشيئًا على غدائرها الحريرية الغزيرة يتأملها، أما وجهها فلم يستطع أن يراه، وكذلك لم تستطع هي أن ترى هيرتن. وأخيرًا تجاوز التحديق إلى اللمس، ولعله كان غير شاعر تمام الشعور بما صنع، بل جذبته غدائرها كما تجتذب الشمعة الطفل، فمد يده ومر بها على غديرة منها في رفق كأنها العصفور، ولو أنه طعنها بمدية في عنقها لكان ذلك عليها أيسر، فقد انتفضت إلى الخلف مأخوذة وصاحت به في رنة ملؤها التقزز: «اغرب عن وجهي حالًا! كيف تجرؤ على لمسي؟ ولِمَ تقف هناك! إنني لا أطيقك! سأصعد ثانية إلى حجرتي إن دنوت مني».

«وجفل مستر هيرتن، وبدا غاية في البلاهة، وجلس على الأريكة جد هادئ، ومضت هي تتصفح مجلداتها نصف ساعة آخر، وأخيرًا عبر إيرنشو الحجرة وجاءني يهمس قائلًا:

«هلا طلبت إليها أن تقرأ لنا يا زله؟ إنني أضيق بالبقاء هنا دون عمل، وإنني لأود.. إنني لأحب الاستماع إليها! لا تقولي إنني أنا الذي أريدها أن تقرأ، بل سليها من تلقاء نفسك».

«وقلت لتوي: «إن مستر هيرتن يود أن تقرأي لنا يا سيدتي، إنه يعد ذلك منك مكرمة.. وسيكون ممتنًّا لكِ».

«فعبست، ثم أجابت وهي ترفع رأسها:

«أرجو أن يفهم مستر هيرتن وأن تفهموا كلكم أنني لن أقبل منكم أي تظاهر بالعطف عليَّ يحملكم عليه نفاقكم! إنني أحتقركم وليس عندي ما أقوله لأحد منكم! فحين كنت على استعداد لبذل حياتي في سبيل كلمة عطف واحدة، بل في سبيل أن أرى وجهًا من وجوهكم، ابتعدتم عني ولفظتموني، ولكنني لن أشكو ما بي إليكم! إنما حملني البرد على المجيء هنا، فلم آت لأرفه عنكم أولأستمتع بصحبتكم».

«وبدأ إيرنشو يقول: «وماذا كنت أستطيع أن أفعل؟ وكيف كنت

ملومًا؟».

«فأجابت مسز هيثكليف: «أوه! إنني أستثنيك ممن أذكر، فأنا لم أشعر البتة بأنني أفتقد مخلوقًا مثلك».

«قال وقد أثارته وقاحتها: «ولكني عرضت غير مرة، وطلبت إلى مستر هيثكليف أن يسمح لي بالسهر عليكِ...».

«فقالت سيدتي: «اصمت! إني لأوثر أن أخرج إلى الخلاء، أو أمضي إلى أي مكان، عن أن أسمع صوتك الكريه في أذني!».

«وتمتم هيرتن أن في وسعها أن تمضي إلى الجحيم! ثم أنزل بندقيته وواصل مشاغل الأحد التي ألف القيام بها، وأخذ الآن يتكلم في غير تحرج، وما لبثت أن رأت أن من الأنسب لها أن تعود إلى عزلتها، ولكن الصقيع كان قد نزل، فأكرهها ذلك برغم كبريائها على أن تخفف من هذه الكبرياء وترضى أكثر فأكثر بصحبتنا، على أنني حرصت على ألا تحتقر طيبتي بعد ذلك، فمنذ تلك اللحظة كنت أعاملها بجفوة لا تقل عن جفوتها، ولم يعد لها بيننا من يحبها أو يعجب بها، وهي ليست جديرة بهذا المحب أو المعجب، فإنها لتتنمر لأتفه كلمة تند عنهم دون احترام أو اعتبار لأحد منهم، وإنها لتثور في وجه السيد نفسه وتكاد تتحداه ليضربها، وكلما زاد عليها الأذى قويت شرتها واشتد سمها».

وحين سمعت هذه القصة لأول وهلة من زله، عزمت على التخلي عن وظيفتي واستئجار كوخ ودعوة كاثرين إلى العيش فيه معي، ولكن مستر هيثكليف يأبى ذلك إباءه أن يسكن هيرتن في بيت مستقل، ولست أرى علاجًا لهذه المعضلة في الوقت الحاضر، اللهم إلا إذا استطاعت أن تتزوج ثانية، وهي خطة ليس من حقي أن أضعها.

وهكذا اختتمت مسز دين قصتها، أما أنا فإنني أستعيد قوتي سريعًا على الرغم من نبوءة الطبيب، وفي نيتي أن أخرج على ظهر جوادي بعد يوم أو يومين، وإن كنا لا نزال في الأسبوع الثاني من يناير، فأركب إلى وذرنج هيتس لأنبئ المالك بأنني سأقضي الأشهر الستة القادمة في لندن، فإذا شاء، فليبحث له عن مستأجر آخر للبيت بعد أكتوبر، فإنني لن أقضي في هذا الريف شتاء آخر مهما أعطيت.

* * *

الفصل الحادي والثلاثون

كان الأمس يومًا مشرقًا هادئًا كثير الصقيع، وذهبت إلى وذرنج هيتس كما صحت نيتي، ورجتني مدبرة بيتي أن أحمل رسالة صغيرة منها إلى سيدتها الشابة، فلم أرفض؛ لأن هذه المرأة الفاضلة لم تر أي غرابة في رجائها هذا، ورأيت الباب الأمامي مفتوحًا، ولكن الباب الكبير الذي تفرض عليه أشد الرقابة كان مربوطًا بالسلسلة كما كان يوم زرت الدار آخر مرة، فقرعت أدعو إيرنشو من بين أحواض الزرع في الحديقة، ففك السلسلة ودخلت، وبدا لي الفتى ريفيًا وسيمًا كأحسن ما يمكن أن يكون الفلاحون، وقد دققت النظر فيه هذه المرة، ولكنه فيما يبدو كان يحاول جهده ألا يفيد من مزاياه وفرصه إلا أقل فائدة.

وسألته هل مستر هيثكليف في البيت، فأجاب لا، ولكنه سيعود إليه وقت الغداء، وكانت الساعة الحادية عشرة، وأبديت رغبتي في الدخول وانتظاره، فأسرع بإلقاء أدواته ومصاحبتي لا نائبًا عن رب البيت، بل كلبًا حارسًا عنده.

ودخلنا الدار معًا، وكانت كاثرين هناك، تعاون بتجهيز بعض الخضر للغداء الوشيك، وكانت تبدو أكثر وجومًا وأقل مرحًا مما كانت حين رأيتها أول مرة، ولم تكد ترفع عينيها لتتطلع إليَّ، ومضت فيما هي بسبيله دون اكتراث بمظاهر المجاملة كما كان شأنها من قبل، ولم ترد انحناءتي وتحيتي حتى بأيسر رد.

قلت لنفسي: «إنها لا تبدو لطيفة كما تريدني مسز دين أن أعتقد، نعم إنها رائعة الجمال، ولكنها ليست ملكًا كريمًا».

وأمرها إيرنشو في فظاظة أن تحمل حاجاتها إلى المطبخ، فقالت وهي تدفعها عنها حالما فرغت من مهمتها: «احملها أنت»، ثم انسحبت إلى مقعد بجوار النافذة، وأخذت تشكل من قشور اللفت التي في حجرها طيورًا وحيوانات، ودنوت منها متظاهرًا بالرغبة في التطلع إلى الحديقة من النافذة، وأسقطت رسالة مسز دين على ركبتها في خفة كما خُيِّل إليَّ دون أن يلحظني هيرتن.. ولكنها تساءلت في صوت عال: «ما هذا؟»، ثم قذفتها بعيدًا عنها.

قلت وقد غاظني منها تشهيرها بصنيعي، وخفت أن يظن أن الرسالة مني: «هذا خطاب من صاحبة قديمة لكِ هي مدبرة بيت ترشكرس»، فلما علمت ذلك ودت لو استطاعت أن تلتقط الرسالة، ولكن هيرتن كان أسرع منها، فقد خطفها وأودعها جيب صدرته وهو يقول إن مستر هيثكليف يجب أن يلقي عليها أولًا نظرة، فأشاحت كاثرين بوجهها عنا في صمت، وأخرجت منديلها سرًّا ومسحت دموعها، أما ابن خالها فقد حاول هنيهة أن يكبح مشاعر الرحمة في نفسه، ثم جذب الرسالة من جيبه وقذف بها إلى الأرض بجوارها بكل ما يستطيع من جلافة، والتقطتها كاثرين وقرأتها في شغف، ثم وجهت إليَّ أسئلة قليلة، بعضها معقول وبعضها سخيف، عن أهل بيتها السابق، وتطلعت إلى التلال وأخذت تتمتم لنفسها:

«وددت لو امتطيت ظهر «منى» إلى هناك! وددت لو تسلقت تلك التلال! أوه! إنني مكدودة.. إنني حبيسة يا هيرتن!»، ثم أسندت رأسها الجميل على قاعدة النافذة، وهي تتثاءب وتتنهد، وغرقت في حزن عميق دون أن يهمها، أو أن تشعر أننا نرقبها.

وقلت بعد أن جلست صامتًا: «ألا تعلمين يا مسز هيثكليف أنني أعرفك؟ وأن معرفتي بك وثيقة إلى حد يدهشني معه أنكِ لا تريدين أن تأتي وتتحدثي إليّ. إن مدبرة بيتي لا تمل الحديث عنكِ وإطراءكِ، وسيخيب ظنها إذا عدت إليها لا أحمل أنباء عنكِ أو منكِ، اللهم إلا أنكِ تسلمت رسالتها ولم تقولي شيئًا!».

ولاح لي أنها استغربت حديثي، فسألتني:

«أتحبك آلن؟».

أجبت مترددًا: «نعم تحبني كثيرًا».

فواصلت حديثها: «يجب أن تخبرها أنني أود الرد على رسالتها، ولكني أفتقر إلى أدوات للكتابة، فليس عندي حتى كتاب أنزع ورقة

منه».

قلت متعجبًا: «ليس عندك كتب! اسمحي لي أن أسألك كيف تعيشين هنا بغير كتب؟ كثيرًا ما أشعر بالسأم الشديد في ثرشكرس رغم وجود مكتبة غنية في البيت، ولو أنني حرمت هذه الكتب لملأني ذلك يأسًا وضيقًا بالحياة!».

قالت كاثرين: «لم أكن أكف عن القراءة يوم كانت الكتب في متناولي، ولما كان مستر هيثكليف لا يقرأ البتة، فقد صمم على إتلاف كتبي، وقد مضت عليّ أسابيع لم يقع فيها نظري على كتاب، اللهم إلا مرة نبشت فيها ذخيرة جوزيف من كتب اللاهوت، فغاظه ذلك أشد الغيظ، ومرة أخرى ظفرت فيها مصادفة بمجموعة كتب أخفيتها في حجرتك يا هيرتن، كتب لاتينية ويونانية وبعض القصص وكتب الشعر، وكلها صديق قديم لي، وقد جلبت معي كتاب الشعر.. وقد جمعتها أنت كما يجمع غراب الزاع الملاعق الفضية بدافع حب السرقة ليس إلا! فأنت لا تنتفع بها، وإلا فإنك أخفيتها بدافع شرير هو حرمان غيرك من الاستمتاع بها ما دمت أنت تعجز عن أن تستمتع بها، ولعل حسدك لي هو الذي حدا بهيثكليف إلى اغتصاب هذه الذخيرة مني! ولكن أكثرها منقوش على ذهني ومطبوع على قلبي، ولن يستطيع أحد حرماني منها في مكانها هذا».

واصطبغ وجه إيرنشو باللون القرمزي حين كشفت ابنة عمته عن سر الكتب التي كان يجمعها ويكدسها، وتمتم منكرًا في سخط ما رمته به من تهم.

وقلت مبادرًا إلى نجدته: «إن مستر هيرتن تواق إلى زيادة معارفه، فهو لا يحسدك على ما حصلت من علم، بل يحاول الاقتداء بكِ، وإني واثق أنه سيكون طالبًا بارعًا بعد سنوات قليلة».

أجابت كاثرين: «وهو يريدني أثناء ذلك أن أهبط إلى درك الجهالة، أجل، إنني أسمعه يحاول الهجاء والقراءة بينه وبين نفسه، وما أروع الأخطاء التي يقع فيها! وددت لو أعدت على مسامعنا «تشفي تشيس» كما كنت ترددها أمس، فلقد كانت جد مضحكة، لقد سمعتك، وسمعتك تقلب القاموس بحثًا عن الألفاظ التي استعصت عليك، ثم تسب وتلعن؛ لأنك عجزت عن فهم معانيها المشروحة!».

وكان واضحًا أن الفتى شق عليه أن تسخر منه لجهله، ثم تسخر منه لمحاولته محو

هذا الجهل، وقد شق هذا عليَّ أنا أيضًا، فقلت وقد ذكرت ما روته مسز دين عن أولى محاولاته لتبديد ظلمة الجهالة التي شب عليها: «ولكن اذكري يا مسز هيثكليف أننا كلنا كنا في يوم من الأيام مبتدئين في العلم، نتردد ونتعثر على عتبته، ولو أن معلمينا هزأوا بنا بدل أن يمدوا لنا يد المعونة، لظللنا نتردد ونتعثر إلى اليوم».

أجابت: «أوه! لست أريد أن أمنعه من التحصيل، ولكن لا حق له في اغتصاب كتبي، وفي جعلها مدعاة للهزء في عيني بأخطائه الشنيعة وبما يقع فيه من أغلاط النطق الصارخة! إن هذه الكتب من نثر وشعر تقدست في نفسي بارتباطات أخرى، وإني لأكره أن أراها تبتذل في فمه! أضف إلى ذلك أنه لم يحل له أن يختار من بينها كلها إلا قطعي الأثيرة التي أحب ترديدها أكثر من غيرها، كأنه مدفوع إلى ذلك عمدًا بدافع الحقد».

ورأيت صدر هيرتن يعلو دقيقة في صمت، وكان يعاني من إحساس حاد بالخزي والغضب لم يكن من اليسير عليه كظمه، ونهضت، ورأيت كرمًا مني أن أخفف من ارتباكه، فوقفت بباب الحجرة أتطلع إلى المنظر الخارجي، وحذا هو حذوي وغادر الحجرة، ولكنه ما لبث أن عاد يحمل بين يديه ستة كتب رماها في حجر كاثرين وهو يقول: «خذيها! فلست أريد أن أسمع عنها أو أقرأ منها شيئًا أو أفكر فيها البتة».

قالت: «لست أريدها الآن، فإني سأربط بينها وبينك فأكرهها».

وفتحت كتابًا منها ظاهرًا عليه أنه استعمل كثيرًا، وقرأت منه قطعة بلهجة المبتدئ البطيئة المتعثرة، ثم ضحكت وألقت الكتاب عنها، وقالت بطريقة تستثير الغضب وهي تبدأ في قراءة بيت من قصة شعرية قديمة باللهجة نفسها: «وأصغ إلى هذا أيضًا».

بيد أن عزة نفسه لم تطق عذابًا فوق ما عذبته به، فسمعته يصك بيده لسانها السليط ولم أنكر ذلك منه الإنكار كله، فقد بذلت الفتاة الشقية ما وسعها من جهد في إيذاء شعور ابن خالها، وكان شعورًا مرهفًا وإن افتقر إلى التهذيب، ولم يكن من سبيل أمامه لتسوية حسابه معها سوى سبيل القوة، ثم جمع الكتب وقذف بها طعمة للنيران، وقرأت على وجهه ما عانى من ألم لاضطراره إلى تقديم هذا القربان على مذبح الحقد، وخُيِّل إليَّ أنه وهو يرى الكتب تحترق كان يذكر ما جلبته له من لذة، وما كان ينتظره منها من انتصار ومن بهجة مطردة، وخُيِّل إليَّ أنني حزرت الدافع له على الدرس الخفي أيضًا، فقد كان قانعًا بالعمل اليومي الشاق وباللذات الحيوانية البسيطة حتى التقت حياته بحياة كاثرين، فكان شعور الخجل من سخريتها به، والأمل في الظفر باستحسانها، أول ما دفعه إلى التماس غايات أسمى لحياته، ولكن جهوده في إنهاض نفسه لم تفلح في تجنيبه شعور الخجل، ولا في الظفر باستحسانها، بل أتت بعكس هذا تمامًا.

وبكت كاثرين وهي تمتص شفتها الدامية وترقب النار بعيون ساخطة: «أجل، هذا كل الخير الذي يستطيع وحش مثلك أن يناله من هذه الكتب!».

فأجابها في ضراوة: «خير لكِ أن تخرسي الآن».

ومنعته سورته وهياجه أن يزيد، فمضى سريعًا إلى الباب، وأفسحت له الطريق ليمر، ولكنه قبل أن يجاوز العتبة قابله هيثكليف في قدومه صاعدًا الطريق، فسأله وهو يضع يده على كتفه: «ما وراءك الآن يا غلام؟».

قال: «لا شيء، لا شيء»، ثم أفلت منه ليستمتع بحزنه وغضبه بعيدًا عن أعين

الرقباء.

وتطلع هيثكليف وراء هيرتن ثم تنهد.

وتمتم لنفسه وهو لا يشعر بأنني خلفه: «سيكون عجبًا أن أعطل هدفي بنفسي، ولكني كلما تطلعت إلى وجهه لأرى فيه وجه أبيه، وجدتها هي كل يوم أكثر من سابقه! تبًّا لهذا الشبه العجيب بينه وبينها؟ إنني لا أكاد أطيق رؤيته».

وخفض بصره ثم دخل البيت مكتئبًا، ولمحت على وجهه قلقًا لم ألحظه عليه البتة من قبل، وبدا على جسمه الهزال، وما إن لمحته زوجة ابنه من النافذة حتى فرت إلى المطبخ، فبقيت في الحجرة وحدي.

قال يرد تحيتي: «يسرني أن أراك قادرًا على الخروج من بيتك ثانية يا مستر لوكوود، وبعض سروري تدفعني إليه أنانيتي، فلست أظنني كنت مستطيعًا العثور عليك إذا تهت في هذه البراري، وقد حيرني غير مرة مجيئك إلى هذا الريف».

قلت: «أخشى أن يكون ذلك نزوة سخيفة يا سيدي، وإلا فإن نزوة سخيفة ستدفعني إلى الرحيل، ذلك أنني مسافر إلى لندن في الأسبوع القادم، وأراني مضطرًّا إلى إنذارك بأنني لا أجد في نفسي ميلًا إلى الاحتفاظ ببيتي أكثر من الشهور الاثني عشر التي تعاقدت عليها معك، وإنني أعتقد أنني لن أسكن البيت أكثر مما سكنته».

قال: «كذا، إنك مللت اعتزال العالم، أهو كذلك؟ أما إذا كان مجيئك للاعتذار عن أداء إيجار بيت لن تسكنه، فقد أتعبت نفسك دون جدوى، فما أنا بالرجل الذي يتسامح في نيل حقه من أي إنسان».

فأجبته وقد أخذ مني الغيظ مأخذه: «لم آت للاعتذار عن أداء إيجارك، وأنا على استعداد لأدائه الآن إذا شئت»، ثم أخرجت حافظة نقودي من جيبي.

قال في هدوء: «لا، لا، ستترك في البيت ما يكفي للوفاء بديونك إذا لم تعد، وأنا لست متعجلًا، فاجلس وتناول غداءك معنا، إن الضيف الذي يضمن مضيفه أنه لن يعود إلى زيارته يلقى الترحيب عادة. كاثرين، أحضري لنا الغداء هنا. أين أنتِ؟».

وعادت كاثرين إلى الظهور تحمل صينية عليها السكاكين والشوك.

وقال لها هيثكليف في صوت خافت على انفراد: «تستطيعين أن

تتناولي غداءك مع جوزيف، وتبقي في المطبخ إلى أن ينصرف».

وأطاعت أوامره بحذافيرها، ولعلها لم تجد في نفسها ما يغريها بمخالفتها، وأغلب الظن أن طول عشرتها للصعاليك والزاهدين في عشرة الناس جعلها عاجزة عن أن تقدر طبقة من الناس خيرًا من هؤلاء إذا لقيتهم.

وكان غدائي خلوًا من البهجة، فقد كنت أتناوله بين هيثكليف في جهامته وعبوسه من ناحية، وبين هيرتن في صمته المطبق من الناحية الأخرى، لذلك لم أطل المكث وودعت سريعًا، وكنت أوثر الخروج من الطريق الخلفي لألقي نظرة أخيرة على كاثرين

وأغيظ جوزيف العجوز، ولكن الأوامر صدرت لهيرتن بأن يأتي لي بجوادي، ورافقني رب البيت نفسه إلى الباب، لذلك لم أستطع تحقيق رغبتي.

قلت لنفسي وأنا أهبط الطريق على ظهر جوادي: «ما أقفر الحياة في ذلك البيت! لو أن أواصر المحبة انعقدت بيني وبين مسز لنتن هيثكليف على ما تشتهي مربيتها الطيبة، فنزحنا معًا إلى جو المدينة المثير، لوجدت في هذه المغامرة شيئًا يفوق قصص الجان روعة وخيالًا!».

* * *

الفصل الثاني والثلاثون

دعيت هذا الشتاء لرحلة في البراري أزور فيها صديقًا في الشمال، وبينما أنا في طريقي إلى داره، أجدتني على غير انتظار لا أبعد عن جمرتن أكثر من خمسة عشر ميلًا، وكان السائس في حانة على الطريق يمسك دلوًا من الماء يسقي به جياد عربتي، وإذا عربة محملة بالشوفان الغض الشديد الخضرة تمر بنا، فقال الرجل: «هذه العربة من جمرتن! إنهم دائمًا يتأخرون ثلاثة أسابيع عن غيرهم في ضم محصولهم».

فرددت قوله: «جمرتن؟»، وكانت ذكرى إقامتي في تلك المنطقة قد ضعفت وتراءت لي كأنها حلم مضى: «آه! إني أعرف جمرتن، وكم تبعد عن هذا المكان؟».

أجاب: «ربما كانت تبعد عنه أربعة عشر ميلًا فوق التلال، والطريق إليها وعر».

وتملكني دافع فجائي لزيارة ضيعة ثرشكرس، ولم يكن الوقت قد تجاوز الظهيرة، فقدرت أن في وسعي أن أبيت الليلة تحت سقف بيتي كما أبيتها في نزل، وفضلًا عن هذا، فسيكون في استطاعتي توفير يوم أسوي فيه حسابي مع المالك، فأكفي بذلك نفسي مشقة السفر إلى هذه الناحية مرة ثانية، فلما أن أخذت قسطًا من الراحة، أمرت خادمي بالاستفسار عن الطريق إلى القرية، واستطعنا أن نصل إليها بعد ثلاث ساعات تكبدت فيها الخيل عناء شديدًا.

وتركته في القرية ومضيت وحدي هابطًا الوادي، ولاحت الكنيسة الغبراء اللون أشد غبرة، كما لاح فناؤها الموحش أشد وحشة، وتبينت خروفًا بريًا يقضم الأعشاب القصيرة النابتة فوق قبور الموتى، وكان الجو لطيفًا دفئًا.. أدفأ مما يتطلبه السفر، ولكن الحر لم يعقني عن الاستمتاع بالمنظر الطبيعي المبهج من فوقي ومن تحتي، ولو أنني رأيت هذا المنظر قرب شهر أغسطس لأغراني بلا ريب بإنفاق شهر بين براريه المنعزلة، فليس هناك مكان أقفر شتاء وأبهج صيفًا من هاتيك الوديان تكتنفها التلال، ومن تلكم الربى العشبية الجريئة الصريحة.

وبلغت الضيعة قبل الغروب وقرعت الباب ليفتحوا لي، ولكني رأيت عمودًا أزرق رفيعًا من الدخان يتلوى من مدخنة المطبخ، فحكمت بأن الأسرة قد انسحبت إلى القسم الخلفي من البيت فلم تسمع قرعي، ودخلت بجوادي فناء الدار، فرأيت تحت السقيفة فتاة في التاسعة أو العاشرة قد جلست تشتغل بالإبرة، وامرأة عجوزًا، تتكئ على السلم وهي تدخن قصبتها في تأمل وسكون.

وسألت السيدة: «هل مسز دين في البيت؟».

أجابت: «السيدة دين؟ كلا! إنها لا تسكن هنا، إنها هناك في وذرنج هيتس».

ومضيت أسألها: «هل أنتِ مدبرة البيت إذن؟».

أجابت: «نعم، إنني أدبر البيت».

«حسن، أنا مستر لوكوود رب هذا البيت، لا أدري هل عندكم غرفة معدة لنومي؟ أود أن أبيت الليلة طولها هنا».

فصاحت في دهشة: «رب البيت! ماذا؟ من كان يعلم بأنك قادم؟ كان يجب أن ترسل إلينا كلمة، ليس في البيت يابس ولا أخضر، ليس فيه شيء!».

وألقت بقصبتها وهرعت إلى داخل البيت ومن خلفها الفتاة، ودخلت أنا أيضًا، وسرعان ما تبينت مصداق قولها، وفوق ذلك رأيتني قد أزعجتها إزعاجًا شديدًا بحضوري غير المرغوب فيه، فهدأت من روعها، وقلت لها إنني خارج للتنزه، وعليها أثناء ذلك أن تحاول إعداد ركن في غرفة من غرف الجلوس أتعشى فيه، وحجرة نوم أبيت فيها، ونهيتها عن كنس البيت أو تنفيضه، فكل ما يلزمني نار طيبة وأغطية للفراش جافة، وبدا لي أنها تريد بذل ما وسعها من جهد لإرضائي، وإن كانت قد دفعت فرشاة الموقد في حاجزه المعدني خطأ بدل محراك النار، ولم تحسن استعمال بعض أدوات عملها، ولكنني على أي حال تركتها واثقًا من أنها

ستدبر لي بهمتها ونشاطها مكانًا أستريح فيه عند عودتي، وكانت وذرنج هيتس مقصدي، ولكن فكرة طارئة ردتني إلى البيت بعد أن غادرت فناءه.

وسألت المرأة: «هل كل شيء على ما يرام في وذرنج هيتس؟».

فأجابت وهي تجري حاملة وعاء من دقيق الفحم الساخن: «نعم، على قدر ما أعلم!».

وكنت أود أن أسألها لِمَ غادرت مسز دين الضيعة، ولكن تعطيلها في هذه اللحظة الحرجة كان محالًا، وعلى ذلك فقد عدت أدراجي خارج البيت وأخذت أسير الهوينى ومن خلفي وهج الشمس الغاربة، ومن أمامي جمال القمر المشرق -أولهما يتضاءل وثانيهما يتألق- وأنا أخلف ورائي المرج وأصعد في الطريق الحجري الجانبي الذي يتفرع متجهًا إلى بيت هيثكليف، وقبل أن أبلغ مشارفه كان النهار قد ولى ولم يبق منه غير ضياء في الغرب أصفر لا تتخلله أشعة، ولكني كنت أرى كل حصاة على الطريق، وكل ورقة من أوراق العشب، بفضل ضوء القمر الرائع، ولم يكن بي حاجة إلى تسلق الباب أو إلى قرعه، فقد انفتح حالما دفعته بيدي، وقلت لنفسي هذا تحسن طرأ على خلق أهل الدار، وهدتني أنفي إلى تحسن آخر، وذلك هو شذى أزهار يسري في الهواء الذي يهب من أشجار الفاكهة العادية.

وكانت الأبواب والنوافذ مفتوحة، ومع ذلك فقد أضاءت المدفأة نار طيبة كما هي الحال في كل إقليم غني بالفحم، وإن المرء ليحتمل شدة حرارة هذه النار حين يصطلي بقربها لأن عينه ترتاح إليها، على أن في حجرة الجلوس في وذرنج هيتس متسعًا كبيرًا يتيح لأهل البيت أن يبعدوا عن حرارة المدفأة، وعلى ذلك فقد اتخذوا من الغرفة مكانًا لهم غير بعيد من إحدى نوافذها، وكان في وسعي أن أراهم وأسمع حديثهم قبل أن أدخل، لذلك تطلعت ببصري وأصخت السمع، ولا عجب، فقد دفعني إلى ذلك مزيج من الفضول والحسد ازداد إحساسي به كلما أطلت النظر والسمع.

وسمعت صوتًا حلوًا له رنين الفضة يقول: «كن.. تراري! هذه هي المرة الثالثة التي أصحح فيها خطأك أيها البليد! لن أعيد نطق الكلمة مرة أخرى، فتذكر النطق الصحيح وإلا شددت شعرك!».

وأجاب الآخر في نبرات عميقة ولكنها مهذبة: «كنترارى إذن، والآن قبليني لأنني تذكرتها جيدًا».

«لا، اقرأها كلها أولًا قراءة صحيحة دون غلطة واحدة».

وبدأ الفتى يقرأ، وكان شابًا حسن البزة يجلس إلى نضد وأمامه كتاب، وكانت قسمات وجهه الوسيم تتألق سرورًا، وعيناه تنتقلان في صبر ذاهب بين صفحة الكتاب وبين يد بيضاء صغيرة فوق كتفه، ترده إلى الانتباه بصفعة حادة على خده كلما لحظت صاحبتها منه دلائل عدم الالتفات، ووقفت صاحبة اليد خلفه، تختلط غدائرها الصفراء اللامعة بخصل شعره الكستنائي كلما انحنت عليه لتلاحظ قراءته لدرسه، ثم وجهها -ومن حسن حظه أنه لم يكن يستطيع رؤية وجهها، وإلا لما أمكنه أن يثبت هذا الثبات- أما أنا فقد استطعت أن أرى هذا الوجه، وعضضت بنان الندم لأنني ضيعت ما كان أمامي من فرصة تتيح لي أن أصنع شيئًا أكثر من مجرد التحديق في فتنته الباسمة.

وانتهى الفتى من قراءته، ولم تخل من أخطاء أُخر، ولكن التلميذ طالب بجائزة، وكانت جائزته خمس قبلات على الأقل، وقد ردها على أي حال ردًّا سخيًّا، ثم اتجها صوب الباب، وفهمت من حديثهما أنهما على وشك الخروج والتنزه في البراري، وقلت لنفسي إنني لو ظهرت بشخصي المنحوس أمام هيرتن إيرنشو آنئذ للعنني أشد اللعنات بقلبه، إن لم يكن بلسانه، وإذ كنت أشعر بالصفار والحقد، فقد درت حول البيت لأحتمي بالمطبخ، ولم أجد في هذا الجانب أيضًا ما يعوقني عن الدخول، وكانت تجلس إلى الباب صديقتي القديمة نلي دين تحيك وتنشد أغنية تقطعها من الداخل ألفاظ حادة، منطوية على الاحتقار والضيق، تخرج في نبرات لا تمتّ إلى الموسيقى بسبب.

قال ساكن المطبخ ردًّا على كلام لنلي لم أسمعه: «إنني لأوثر أن

أسمعهما يسبان ويلعنان بكرة وأصيلا عن أن أسمع غناءك هذا! عار كل العار ألا أفتح كتابي المقدس إلا سمعتك تترنمين للشيطان وتفوهين بأخبث ما وجد في هذا العالم! أوه، إنك صفر، وهي صفر آخر، وهذا الفتى المسكين مضيع بينكما»، ثم أضاف وهو يئن: «مسكين هذا الفتى، إنه مسحور ما في ذلك شك، رب أنزل دينونتك عليهما؛ لأن حكامنا لا يعرفون ناموسًا ولا عدلًا!».

وأجابت المنشدة: «أجل! وإلا لكنا الآن جالسين وسط حطب محمي، ولكن كف الآن عن هذا أيها العجوز، واتل كتابك كما يليق بالمسيحي ودعني وشأني، هذه أغنية «عرس الجنية أنى»، وهي لحن جميل راقص».

وكانت مسز دين على وشك العودة إلى غنائها حين أقبلت نحوها، وعرفتني لتوها، فقفزت واقفة وهي تصيح: «بورك فيك يا مستر لوكوود! كيف خطر لك أن تعود على هذه الصورة؟ كل شيء مغلق في ضيعة ثرشكرس، وكان واجبًا أن تنذرنا بمجيئك!».

أجبتها: «لقد رتبت لي مكانًا هناك يكفيني طوال إقامتي، وسأرحل ثانية غدًا، ولكن خبريني ما الذي أتى بك إلى هنا يا مسز دين؟».

«لقد تركت زله خدمة الأسرة، وطلب إليّ مستر هيثكليف عقب سفرك إلى لندن أن آتي وأمكث إلى أن تعود، ولكن بربك ادخل! هل جئت سيرًا على الأقدام من جمرتن هذا المساء؟».

أجبتها: «جئت من الضيعة، وأنا أريد أن أنهي مهمتي مع سيدك ريثما تعد لي غرفتي هناك؛ لأنني لا أظن أنه ستتاح لي فرصة أخرى بسهولة».

قالت وهي تقودني إلى حجرة الجلوس: «أي مهمة يا سيدي؟ لقد خرج الآن ولن يعود سريعًا».

قلت: «إنها مسألة الإيجار».

قالت: «أوه! إذن فيجب أن تسوي هذا الحساب مع مسز هيثكليف، أو بالأحرى معي، فهي لم تتعلم بعد إدارة شؤونها، لذلك أتولى الأمر عنها، فليس هناك أحد غيري».

وتطلعت إليها متعجبًا.

ومضت تقول: «آه! أرى أنك لم تسمع بموت هيثكليف».

فصحت في دهشة: «هيثكليف مات! متى؟».

«قبل ثلاثة شهور، ولكن اجلس، ودعني آخذ قبعتك، وسأقص عليك كل شيء، انتظر، إنك لم تذق طعامًا، أليس كذلك؟».

«لست أريد شيئًا، فقد أمرت بإعداد عشاء لي في البيت، اجلسي أنتِ أيضًا، ما كان يخطر البتة ببالي أنه سيموت! فقصي عليَّ إذن كيف حدث هذا، تقولين إنك لا تتوقعين عودة الشابين سريعًا؟».

«نعم.. إنني مضطرة إلى توبيخهما كل مساء على جولاتهما في جوف الليل، ولكنهما لا يعبآن بي. تناول كوبًا من جعتنا المعتقة على الأقل فهي ستنعشك لأنك تبدو متعبًا».

وأسرعت لتحضر الشراب قبل أن أستطيع الاعتذار عنه، وسمعت جوزيف يقول لها: «أليس من الفضائح الصارخة أن يكون لكِ أصدقاء في مثل سنك هذه؟ ثم تجلبين لهم خمرًا من قبو السيد! عار عليَّ أن أظل ساكنًا وأرى بعيني هذا المنكر».

على أنها لم تقف لترد له إهاناته بمثلها، بل عادت بعد دقيقة تحمل كوبًا فضيًا تعلوه رغوة، وجرعت ما فيه بما كان خليقًا به من شغف، ثم قصت عليَّ بعد ذلك ما كان من أمر هيثكليف، وكيف كانت نهايته «عجيبة» على حد قولها.

قالت: «دعيت إلى وذرنج هيتس بعد أسبوعين من رحيلك عنا، وقد أطعت الأمر مبتهجة، إكرامًا لكاثرين، وقد أحزنني وصدمني أول لقاء لي بها، فقد طرأ عليها تغير كبير بعد افتراقي عنها، ولم يبين لي مستر هيثكليف المبررات التي دعته لتغيير رأيه في حضوري هنا، واكتفى بأن قال لي إنه يريدني، وإنه مل رؤية كاثرين، وأن عليَّ أن

أتخذ من القاعة الصغيرة حجرة لجلوسي ولجلوس كاثرين معي، فقد كان يكفيه أن يضطر إلى رؤيتها مرة أو مرتين في اليوم، وبدا لي أنها مسرورة بهذا الترتيب، واستطعت أن أهرب لها شيئًا فشيئًا عددًا كبيرًا من الكتب وغيرها من الأدوات التي كانت مبعث تسلية لها في بيت الضيعة، وطمأنت نفسي بأننا سننعم براحة نسبية، ولكن سرعان ما انقشع عن عيني هذا الوهم، ذلك أن كاثرين التي كانت راضية أول الأمر أصبحت بعد قليل قلقة

سريعة الغضب، أولًا لأنها منعت من الخروج من الحديقة، وكان يغيظها كثيرًا أن تحجز داخل حدودها والربيع مقبل، وثانيًا لأنني كنت مضطرة إلى تركها مرارًا لاشتغالي بشؤون حجرة الجلوس الكبرى، فشكت الوحدة، وكانت تؤثر الشجار مع جوزيف في المطبخ على الجلوس هادئة في عزلتها هذه، ولم أكن أعبأ بعراكهما، ولكن هيرتن كان كثيرًا ما يضطر إلى الالتجاء إلى المطبخ أيضًا حين يريد السيد أن ينفرد بحجرة الجلوس! ورغم أنها كانت أول الأمر تغادر المطبخ إذا اقترب منه هيرتن، أو تعاونني صامتة في عملي متجنبة أي ملاحظة أو كلام معه، ورغم أنه كان على الدوام يلتزم الوجوم والسكوت قدر ما يستطيع، فإنها غيرت هذا المسلك بعد قليل، ولم تستطع أن تدعه وشأنه، فكانت تشير إليه بحديثها، وتعقب على غباوته وبلادته، وتبدي عجبها منه كيف يطيق الحياة التي يحياها، وكيف يستطيع الجلوس أمسية بحالها يحدق في النار ويغفي.

وقالت مرة: «إنه يشبه الكلب تمامًا، أليس كذلك يا آلن؟ أو لعله يشبه حصان العربة؟ إنه يؤدي عمله، ويأكل طعامه، وينام نومًا لا يفيق منه! لا بد أن له عقلًا فارغًا مقفرًا! هل ترى أحلامًا في نومك يا هيرتن؟ وبأي شيء تحلم إن كنت تحلم؟ ولكنك لا تستطيع أن تتحدث إليَّ!».

ثم نظرت إليه، ولكنه أبى أن يفتح فمه أو ينظر ثانية.

وواصلت حديثها تقول: «لعله الآن يحلم، لقد قلص كتفه كما تفعل الكلبة جونو، سليه يا آلن».

قلت: «سيطلب مستر هيرتن إلى السيد أن يرسل بك إلى السطح إذا لم تتأدبي!»،
ولم يكن هيرتن قد قلص كتفه فقط، بل ضم قبضة يده كأن نفسه تحدثه باستخدامها.

وقالت في مناسبة أخرى: «إنني أعلم لِمَ يأبى هيرتن أن يتكلم وأنا في المطبخ، إنه يخشى أن أضحك منه، ماذا تظنين يا آلن؟ لقد بدأ يعلم نفسه القراءة مرة، فلما ضحكت أحرق كتبه وكف عن التعلم، ألم يكن أحمق؟».

قلت: «ألم تكوني أنتِ خبيثة مشاغبة؟ أجيبي».

قالت: «لعلي كنت كذلك، ولكني لم أكن أتوقع منه هذه الغباوة، لو أعطيتك كتابًا يا هيرتن أتأخذه الآن؟ سأحاول!».

ووضعت في يده كتابًا كانت تطالعه من قبل، ولكنه قذف به وتمتم مهددًا بدق عنقها إن لم تكف.

قالت: «حسن، سأضعه هنا في درج المنضدة، وسأمضي إلى فراشي».

وأسرت إليَّ أن أراقبه لأرى هل سيمس الكتاب، ثم خرجت، ولكنه أبى أن يقربه، فأخبرتها بذلك في الصباح، فأحست بخيبة أمل شديدة، ورأيت أنها آسفة لتماديه في الكآبة والكسل، وبكتها ضميرها لأنها كانت سببًا في ترويعه من محاولة إصلاح أمره، ولأنها نجحت في ذلك أيما نجاح، ولكن عقلها الذكي كان يفكر في إصلاح ما أفسدت، فكانت إذا أخذت في كي الملابس أو في أداء أي عمل من الأعمال المستقرة التي لا أستطيع أداءها على ما أشتهي في القاعة، تأتي بكتاب لطيف وتقرؤه على مسامعي بصوت عال، فإذا وجدت هيرتن تقف عادة عند نقطة مشوقة وتترك الكتاب ملقى، ولقد فعلت هذا غير مرة،

ولكنه كان عنيدًا كالبغل، فلم يتلقف هذا الطعم الذي رمته له، وبدلًا من ذلك ألف أن يدخن مع جوزيف إذا كان الجو مطيرًا، فكانا يجلسان كالخشب على جانبي النار، وقد أعجز الصمم أكبرهما، لحسن حظه، عن فهم ثرثرتها الشريرة على حد قوله، وحاول أصغرهما جهده أن يبدو غير مكترث بهذه الثرثرة، وكان هيرتن يخرج في رحلات للصيد إذا صفا الجو في المساء،

بينما تتثاءب كاثرين وتتأوه، وتعاكسني لأكلمها، وتجري إلى الفضاء أو الحديقة في اللحظة التي أبدأ فيها الكلام، فإذا أعياها الأمر لجأت إلى البكاء، وقالت إنها سئمت حياتها؛ لأنها عديمة الفائدة.

أما مستر هيثكليف فكاد يقصي إيرنشو عن غرفته بعد أن ازداد نفوره من الناس، وقد وقع له حادث في مستهل شهر مارس ألزمه المطبخ، فظل أيامًا لا يبرحه، ذلك أن بندقيته انطلقت وهو يجوب التلال وحده، فجرحت شظية ذراعه، ونزف منه دم كثير قبل أن يستطيع العودة إلى البيت، وأكرهه هذا على المكث في البيت والتزام الهدوء حتى استرد عافيته، وكان وجوده هناك يناسب كاثرين، وعلى أي حال فقد بغضها هذا في حجرتها العلوية أكثر من أي وقت مضى، وكانت تضطرني إلى التماس عمل في أسفل الدار حتى تصحبني.

وفي يوم الإثنين التالي لعيد القيامة، ذهب جوزيف إلى سوق جمرتن يسوق بعض الماشية، وشغلت بعد الظهر بإحضار الغسيل إلى المطبخ لكيه، وجلس إيرنشو إلى ركن المدفأة عازفًا عن الناس كعادته، وكانت سيدتي الصغيرة تزجي الفراغ برسم صور على ألواح النافذة، تنوعها بإنشاد أغانٍ في صوت مكتوم، وبهمس العبارات في أذني، وبإلقاء النظرات الخاطفة التي تنم عن الغيظ والضيق في اتجاه ابن خالها الذي كان يدخن في سكون ويحدق في حاجز المدفأة، ثم انتقلت إلى حجر المدفأة بعد أن أنذرتها بأنني لم أعد أطيق حجبها النور عني، ولم ألق بالًا إلى أعمالها هذه، ولكني لم ألبث أن سمعتها تقول: «لقد اكتشفت يا هيرتن أنني أريد -أنني مسرورة- أنني أحب أن تكون ابن خالي الآن، لولا أنك أصبحت معي فظًّا غليظًا».

ولم يحر هيرتن جوابًا.

وواصلت حديثها تقول: «هيرتن، هيرتن، هيرتن! أتسمع؟».

فزمجر في غلظة لا تلين: «إليك عني!».

قالت: «دعني آخذ هذه القصبة»، وكانت قد مدت يدها في حذر وانتزعتها من فمه.

وقبل أن يحاول استرداد القصبة، كانت قد حطمتها وألقتها وراء النار، فسبها ثم تناول قصبة غيرها.

فصاحت به: «كف عن هذا وأصغ إليَّ أولًا، إنني لا أستطيع الكلام وهذه السحب من الدخان تطفو على وجهي».

فصاح بها في ضراوة: «هلا ذهبت إلى الشيطان وتركتني وشأني!».

قالت في لجاجة: «كلا، لن أتركك وشأنك، لا أدري ماذا أفعل لأكرهك على أن

تكلمني، وأنت مصمم على ألا تفهم، إنني حين أدعوك غبيًا لا أعني شيئًا، ولا أعني أنني أحتقرك، هيا وأعرني اهتمامك يا هيرتن، إنك ابن خالي وأنا لك».

أجاب: «لا شأن لي بكِ وبكبريائكِ القذرة وبألاعيبكِ الساخرة اللعينة، إنني سأمضي إلى الجحيم بجسمي وروحي قبل أن تنحرف عيني وراءك ثانية، اخرجي من هذا الباب حالًا».

وقطبت كاثرين جبينها، وانسحبت إلى مقعد النافذة وهي تعض شفتها، وتحاول إخفاء ميل متزايد إلى البكاء بغناء لحن بصوت خافت.

فقاطعته قائلة: «عليك أن تصافي ابنة عمتك يا مستر هيرتن ما دامت قد ندمت على سلاطتها، سيفيدك هذا أعظم فائدة، وستجعلك صحبتها رجلًا آخر».

فصاح: «صحبتها! وهي تكرهني، ولا تراني جديرًا بأن أمسح حذاءها! لا، إنني لن أرضى بعد اليوم بتحقيرها لي لأنني أنشد ودها، لن أرضاه ولو أعطيت ملك الأرض».

وبكت كاثي بعد أن عجزت عن إخفاء ضيقها فوق ما أخفته: «لست أنا الذي أكرهك، إنك أنت الذي تكرهني! إنك تكرهني كما يكرهني مستر هيثكليف، بل أكثر».

وقال إيرنشو: «إنكِ لكذابة ملعونة، إذن فلم أغضبته بالانحياز إلى صفكِ مائة مرة؟ وقد فعلت هذا بينما كنتِ أنتِ تتهكمين بي وتزدرينني،

و.. إذا مضيت في لجاجتك دخلت إليه وقلت إنك أرهقتني حتى تركت لكِ المطبخ!».

قالت وهي تكفكف دموعها: «لم أكن أعلم أنك انحزت إلى صفي، وكنت تعيسة ساخطة على الناس أجمعين، ولكني الآن أشكرك، وأسألك الصفح عني، ماذا أستطيع أكثر من هذا؟».

وعادت إلى المدفأة وبسطت إليه كفها مخلصة، فأربد وجهه وتجهم كأنه سحابة راعدة، وظلت قبضتاه مطبقتين في عناد ونظرته تحدق في الأرض، ولا بد أن كاثرين فطنت لغريزتها إلى أن الدافع له إلى هذا المسلك العنيد كان الجموح لا الكراهية، ذلك أنها بعد أن ظلت تتردد لحظة، انحنت وطبعت على خده قبلة رقيقة، وظنت الفتاة الخبيثة أنني لم أرها، فعادت واتخذت مكانها الأول إلى النافذة في هدوء، وهززت لها رأسي موبخة، فاحمر وجهها وهمست قائلة: «حسن! ماذا كان يجمل بي أن أفعل يا آلن؟ إنه لا يريد أن يصافحني، ولا أن ينظر إليَّ، لا بد أن أثبت له بطريقة ما أنني أحبه.. وأنني أريد مصافاته».

ولست أدري هل أقنعت القبلة هيرتن، فقد حرص بضع دقائق على أن يخفي وجهه عنا، حتى إذا رفعه كان حائرًا لا يدري أين يحول عينيه.

وعكفت كاثرين على لف كتاب جميل بالورق الأبيض لفًا أنيقًا، وربطته بقطعة من شريط، وعنونته باسم «مستر هيرتن إيرنشو»، ثم طلبت إليَّ أن أكون لها سفيرًا، فأحمل هديتها إلى صاحبها.

«وقولي له إنه إذا قبله فسآتي وأعلمه القراءة على أصولها الصحيحة، أما إذا رفضه فسأمضي إلى أعلى الدار ولا أعاكسه البتة».

وحملت الكتاب وكررت الرسالة على مسامعه وهي ترقبني في قلق، وأبى هيرتن أن يفتح أصابعه، فتركته على ركبته، ولكنه لم يقذفه بيده، وعدت إلى عملي، وأسندت كاثرين رأسها وذراعيها على النضد، حتى سمعت حفيف الغلاف وهو ينزع، فتسللت وجلست في هدوء إلى جوار ابن خالها، وارتعد هيرتن، وأشرق وجهه، وفارقته غلظته وفظاظته كلها، ولم يستطع أول الأمر أن يجد من الشجاعة في نفسه ما يعينه على أن يلفظ مقطعًا واحدًا ردًّا على نظرتها المستفسرة ورجائها الذي تمتمت به.

«قل إنك تصفح عني يا هيرتن، قلها بربك، إنك تستطيع أن تسعدني أي سعادة إذا قلت هذه العبارة الصغيرة».

وتمتم شيئًا غير مسموع.

وأضافت كاثرين مستفسرة: «وستكون لي صديقًا؟».

فأجاب: «لا، ستخجلين مني كل يوم من أيام حياتك، وكلما زاد علمك بي ازداد خجلك، وأنا لا أطيق هذا».

قالت وهي تبتسم ابتسامة حلوة وتدنو منه: «إذن لن تكون صديقًا لي؟».

ولم أسمع بعد ذلك حديثًا واضحًا، ولكني حين تلفت إليهما ثانية رأيت وجهين مشرقين ينكبان على الكتاب الذي تقبله هيرتن، فلم أشك في أن المعاهدة قد صدق عليها الطرفان، ومنذ هذه اللحظة أصبح العدوان حليفين صادقين.

وكان الكتاب الذي يقرآن حافلًا بالصور الثمينة، فكان في هذه الصور، وفي جلستهما تلك، من الفتنة ما أبقاهما على هذه الحال إلى أن عاد جوزيف إلى البيت، وقد صعق المسكين حين رأى كاثرين جالسة على المقعد الذي يجلس عليه هيرتن إيرنشو، ويدها تتكئ على كتفه، وقد ساءه كثيرًا أن يحتمل الفتى الحبيب إلى قلبه البقاء إلى جوارها على هذا النحو، وحز هذا في نفسه حزًّا لم يستطع معه أن يعقب على هذا الأمر في تلك الليلة، ولم يكشف عن انفعاله سوى الزفرات العميقة تنبعث منه وهو يبسط كتابه المقدس الكبير على المائدة ويغطيه بأوراق النقد القذرة التي أخرجها من حافظته، وهي حصيلة صفقاته في ذلك اليوم، وأخيرًا دعا هيرتن من مقعده، وقال له:

«خذ هذه إلى السيد وابق هناك، إنني صاعد إلى غرفتي، إن هذا الجحر لا يصلح لنا، فعلينا أن نخرج منه ونبحث عن غيره».

قلت: «تعالي يا كاثرين، وعلينا نحن أيضًا أن نخرج من هنا، لقد انتهيت من كي الثياب، أأنتِ على استعداد؟».

قالت وهي تقوم كارهة: «إنها ليست الثامنة بعد. يا هيرتن، سأترك هذا الكتاب على رف المدفأة، وسأحضر لك كتبًا أخرى غدًا».

قال جوزيف: «سأحمل كل كتاب تتركينه إلى حجرة الجلوس، ولن تقع عليه عينك

بعد ذلك، فافعلي ما يحلو لكِ!».

وهددته كاثي بأنها ستثأر لكتبها من كتبه، ثم صعدت تغني بعد أن ابتسمت لهيرتن أثناء مرورها به، ولعلها كانت أشد مرحًا مما كانت في أي وقت أمضته تحت سقف هذا البيت، اللهم إلا خلال زياراتها الأولى للنتن.

وتوثقت الألفة التي بدأت على هذه الصورة سريعًا، وإن صادفت معطلات مؤقتة، وذلك لأن إيرنشو لم يكن لينتقل من الهمجية إلى الحضارة بمجرد رغبتنا في هذا الانتقال؛ ولأن سيدتي الشابة لم تكن فيلسوفة ولا بطلًا من أبطال الصبر وطول الأناة، ولكن عقليهما كانا متفقين في الهدف -فكان عقلها يحب ويشتهي أن يقدر صاحبها، وكان عقله يحب ويشتهي أن تقدره صاحبته- لذلك أفلحا آخر الأمر في بلوغ هذا الهدف.

لقد كان اكتساب قلب مسز هيثكليف أمرًا غير عسير كما ترى يا مستر لوكوود، ولكني الآن مغتبطة لأنك لم تحاوله، ذلك أن غاية مناي هي اتحاد هذين الشخصين، ولن أحسد أحدًا على شيء يوم زفافهما؛ لأنه لن تكون في إنجلترا بأسرها امرأة أسعد مني.

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

وفي غد ذلك الإثنين، اكتشفت سريعًا أن من العبث أن أحاول إبقاء كاثرين إلى جواري كما كنت أبقيها من قبل، وذلك لأن إيرنشو لم يكن بعد قادرًا على مزاولة واجباته اليومية المألوفة، مما اضطره إلى البقاء في البيت، ونزلت إلى أسفل الدار قبلي، ثم خرجت إلى الحديقة حيث رأت ابن خالها يقوم بعمل يسير، ولما ذهبت أدعوهما إلى الفطور رأيتها قد أغرته بتطهير مساحة كبيرة من الأرض من شجيرات عنب الديب، وكانا مشغولين بوضع خطة لجلب بعض النباتات من الضيعة.

وروعني ما رأيت من تلف أحدثاه في فترة لا تتجاوز نصف الساعة، وكانت شجيرات العنب الأسود قرة عين جوزيف، ولم يقع اختيارها على حوض للزهور إلا في وسطها.

وصحت بهما: «جميل! إن جوزيف سيطلع السيد على فعلتكما هذه حالما يكتشفها، فأي عذر تعتذران به عن هذا العبث بالحديقة؟ إنه سيقيم الدنيا ويقعدها بسبب ما صنعتما، وستريان مصداق قولي! وإني لأعجب يا مستر هيرتن كيف يطاوعك عقلك فتحدث هذا التلف إطاعة لأمرها!».

فأجاب إيرنشو في شيء من الحيرة: «نسيت أن الشجيرات شجيرات جوزيف، ولكني سأخبره أنني أنا الذي فعلتها».

وكنا على الدوام نتناول الطعام مع مستر هيثكليف، وكنت أقوم بما تقوم به ربة البيت من عمل الشاي وتقطيع الطعام، لذلك كان وجودي على المائدة أمرًا لا غنى عنه، وكانت كاثرين تجلس عادة إلى جواري، ولكنها تسللت في ذلك اليوم إلى جوار هيرتن، وسرعان ما تبينت أنها لن تكون في صداقتها أشد حصافة مما كانت في خصومتها.

وكنت قد همست في أذنها بتعليماتي ونحن ندخل الحجرة: «والآن احذري من الإسراف في الحديث مع ابن خالك وفي الانتباه إليه، فلا شك أن هذا يغيظ مستر هيثكليف فيثور غضبه عليكما جميعًا».

فأجابت: «لن أفعل».

ولكنها بعد دقيقة كانت قد تسللت إلى جواره كما قلت، وأخذت ترشق زهور آذان الدب الصفراء في صحن العصيدة الذي يتناوله.

ولم يجرؤ على مخاطبتها إذ ذاك، بل إنه لم يجرؤ على التطلع إليها، ومع ذلك فقد مضت في معاكسته حتى كادت تثير ضحكه مرتين، وقطبت جبيني، فنظرت نظرة سريعة في ناحية هيثكليف، وكان يبدو على وجهه أن عقله مشغول بأشياء أخرى تصرفه عن شؤون جماعته، ولاح عليها الجد لحظة وأخذت تتفرس فيه باهتمام عميق، ثم حولت عنه بصرها وعادت إلى معاتبة هيرتن، وأخيرًا ندت عن هيرتن ضحكة مكتومة، وجفل مستر هيثكليف، واشتمل وجوهنا بنظرة سريعة من عينيه، فقابلتها كاثرين بنظرتها المألوفة التي كان يبغضها، نظرة الخوف يخالطه التحدي.

وصاح بها: «من حسن حظك أنكِ لست في متناول يدي، أي جن لبسك اليوم حتى تديمين التحديق فيَّ بعينيك هاتين اللعينتين؟ غضي بصرك! ثم لا تذكريني ثانية بوجودكِ، لقد ظننتني شفيتك من داء الضحك».

وتمتم هيرتن: «أنا الذي ضحكت».

وسأل السيد: «ماذا تقول؟».

فنظر هيرتن إلى صحنه ولم يعد اعترافه، وتطلع إليه هيثكليف لحظة، ثم عاد في صمت إلى فطوره، وأخذ يقلب أفكاره التي قطعت، وكنا قد أوشكنا على الفراغ من الطعام، ووجد الشابان أن من الحكمة أن يجلسا بعيدين الواحد عن صاحبه، فلم أتوقع حدوث ما يكدرنا بعد ذلك أثناء جلستنا، وإذا جوزيف يقف بالباب أمامنا، وتعلن شفته المرتعشة وعيناه الساخطتان أنه كشف أمر الاعتداء الذي وقع على شجيراته الثمينة، ولا بد أنه كان قد رأى كاثي وابن خالها على مقربة من مكان الشجيرات قبل أن يفحصه؛ لأنه بدأ يقول وفكاه يدوران كفكي البقرة تجتر طعامها

فيجعلان من العسير فهم كلامه:

«أريد أن آخذ أجرتي وأنصرف! لقد كنت أبغي أن أموت في هذا البيت الذي خدمته ستين سنة، ورأيت أن أغلق على كتبي وأشيائي كلها حجرة السطح وأترك لهما المطبخ رغبة في السلام والهدوء، ولم يكن هينًا عليَّ أن أفرط في مدفأتي الخاصة، ولكني قلت لنفسي إنني مستطيع هذا! فلم يكفها، بل استولت على حديقتي واغتصبتها مني، ولن أطيق هذا وحقك يا سيدي! في وسعك أنت أن تخضع لهذا النير إن شئت، أما أنا فلم أعتد ذلك، ولا يستطيع شيخ مثلي أن يعتاد سريعًا حمل الأعباء الجديدة، وإني لأوثر على هذا أن أكسب قوتي بمطرقة أقطع بها الحجر على الطريق!».

وقاطعه هيثكليف قائلًا: «كفى كفى أيها الأبله! أوجز! مم تشكو؟ إنني لن أتدخل في أي شجار بينك وبين نلي، ولست أمانع في أن تقذف بك في حفرة من الفحم».

فأجاب جوزيف: «ليست نلي! أنا لا أثور بسبب نلي، وإن كانت شريرة قذرة، ولكن شكرًا لله! إنها لا تستطيع أن تسلب إنسانًا روحه! إنها لم تكن قط بارعة الجمال، ولم ينظر إليها أحد إلا طرفت عينه، إنما أقصد هذه الملكة الخبيثة الشريرة التي فتنت ولدنا بسلاطتها وجرأتها حتى.. أجل! يكاد قلبي ينفطر لهذا! لقد نسي كل صنيعي معه، ومضى فاقتلع صفًّا بأسره من أكبر أشجار العنب في الحديقة!»، وهنا انفجر باكيًا وقد غلبه شعور الهوان، وجحود إيرنشو وما يحدق به من خطر.

وسأل مستر هيثكليف: «أهذا الأحمق مخمور؟ أهو أنت الذي يتهمك يا هيرتن؟».

فأجاب الفتى: «لقد اقتلعت شجيرتين أو ثلاثًا، ولكني سأعيدها إلى مكانها».

قال هيثكليف: «ولِمَ اقتلعتها؟».

وتدخلت كاثرين بحكمتها المعهودة فصاحت:

«أردنا أن نزرع بعض الزهور هناك، إنني وحدي الملومة لأنني أنا التي طلبت إليه

هذا».

فسألها حموها وقد ملكه العجب: «ومن ذا الذي أذن لكِ بأن تمسي عودًا في هذا البيت؟»، ثم اتجه إلى هيرتن يسأله: «ومن أمرك أنت بطاعتها؟».

ولم يحر هيرتن جوابًا، أما ابنة عمته فأجابت: «لا يجمل بك أن تضن عليَّ ببضع ياردات من الأرض أزينها وأنت الذي أخذت أرضي كلها!».

قالت هيثكليف: «أرضك أنتِ أيتها الفتاة الوقحة! لم يكن لكِ البتة أرض».

فواصلت حديثها وهي ترد نظرته الغضبى بمثلها، وتقضم في الوقت نفسه قطعة خبز هي آخر ما بقي من فطورها: «وأخذت مالي أيضًا».

فصاح بها: «اصمتي! انتهي من طعامك واخرجي!».

وقال الفتاة المستهترة: «وأرض هيرتن وماله أيضًا، إنني وهيرتن صديقان الآن، وسأخبره بأمرك كله!».

وبدا الذهول على هيثكليف لحظة، وامتقع وجهه، ثم وقف وهو ينظر إليها طيلة الوقت نظرة تشف عن حقد دفين.

قالت: «سيضربك هيرتن إن ضربتني، فخير لك إذن أن تجلس».

وأرعد هيثكليف قائلًا: «إن لم يطردك هيرتن من الحجرة ضربته ضربًا مميتًا، أيتها الساحرة اللعينة! أتجرؤين على التظاهر بتحريضه عليَّ؟ أخرجها من هنا! أتسمع؟ اقذف بها في المطبخ! سأقتلها يا آلن دين لو تركتها تظهر أمامي ثانية!».

وحاول هيرتن في صوت مكتوم أن يقنعها بالخروج.

فصاح هيثكليف في ضراوة: «جرها من هنا! ألا تزال تكلمها؟»، ثم دنا منها لينفذ أمره.

وقالت كاثرين: «لن يطيعك بعد اليوم أيها الشرير، وسيمقتك سريعًا

كما أمقتك».

وتمتم هيرتن يلومها: «صه! صه! أنا لا أسمح لكِ بأن تكلميه هكذا، كفى».

فصاحت: «ولكنك لن تسمح له بضربي؟».

فهمس في جد واهتمام: «إذن تعالي».

ولكن الأوان كان قد فات، فقد قبض عليها هيثكليف، ثم قال لإيرنشو: «اذهب أنت الآن! يا للساحرة اللعينة! لقد أثارتني هذه المرة في وقت لا أطيق فيه أن أثار، وسأجعلها تندم على فعلتها هذه إلى الأبد!».

ودفع يده في شعرها، وحاول هيرتن أن يخلص غدائرها من يده وهو يتوسل إليه ألا يؤذيها هذه المرة، وقدحت عينا هيثكليف السوداوان الشرر، وكان يبدو عليه أنه يريد أن يمزق كاثرين إربًا، وبلغ انفعالي في هذه اللحظة مبلغًا يحملني على المغامرة بتخليصها من يده، وإذا أصابعه تتراخى فجأة، فنقل قبضته من رأسها إلى ذراعها، وحدق في وجهها تحديقًا شديدًا، ثم غطى عينيه بيده، ووقف لحظة بدا فيها أنه يريد أن يتماسك، واتجه إلى كاثرين من جديد وقال في هدوء متكلف: «يجب أن تتعلمي ألا تثيري غضبي وإلا قتلتك حقًّا في غضبة من غضباتي! اذهبي مع مسز دين، وابقي معها، واقصري وقاحتك على أذنيها، أما هيرتن إيرنشو فإن رأيته يصغي إليك أرسلته يلتمس خبزه حيث يستطيع أن يجده! إن حبه لكِ سيحيله صعلوكًا منبوذًا، نلي، خذيها، واتركوني جميعكم! اتركوني!».

وذهبت بسيدتي إلى الخارج، وكانت مبتهجة بنجاتها ابتهاجًا لم تفكر معه في المقاومة، وتبعها هيرتن، وانفرد مستر هيثكليف بالغرفة حتى الغداء، وكنت قد نصحت كاثرين بأن تتناول غداءها في أعلى الدار، ولكنه ما إن رأى مقعدها الخالي حتى أرسلني لأدعوها، ولم يكلم أحدًا منا، ولم يأكل إلا قليلًا، ثم خرج بعد الغداء مباشرة قائلًا إنه لن يعود قبل المساء.

واستقر الصديقان الجديدان في الحجرة أثناء غيابه، وهناك سمعت هيرتن يصد ابنة عمته صدًّا شديدًا، حين أرادت أن تكشف له عن مسلك حميها مع أبيه، وقال إنه لا يسمح بكلمة تقال للنيل منه، ولا يهمه أن يكون هيثكليف الشيطان نفسه، فسيقف في صفه، وإنه ليؤثر أن تسبه هو كما ألفت أن تفعل من قبل عن أن تبدأ في سب هيثكليف، وبدأت كاثرين تغضب لقوله هذا، ولكنه استطاع أن يكفها بأن سألها هل تحب أن يذم هو أباها؟ وهنا أدركت أن إيرنشو يغار على سمعة هيثكليف كأنها سمعته، وأنه يرتبط به بوشائج لا تقوى الحجج على تحطيمها -وشائج صنعتها العادة- ومن القسوة أن تحاول هي التهوين منها، ومنذ ذلك الوقت أثبتت كاثرين طيبة قلبها بتحاشيها الشكوى من هيثكليف أو الجهر بكرهه، واعترفت لي بأنها آسفة لما حاولت من وقيعة بينه وبين هيرتن، والحق أنني لا أعتقد أنها فاهت بكلمة بعد ذلك للنيل من مضطهدها على مسمع من هيرتن.

وعادت المياه بينهما إلى مجاريها إثر هذا الخلاف الطفيف، وعاد نشاطهما على أشده بوصفه تلميذًا وبوصفها معلمة، ودخلت الحجرة لأجلس معهما بعد أن فرغت من عملي، وطبت نفسًا بمراقبتهما على هذه الحال حتى سرقني الوقت، وكنت أنظر إليهما كأنهما ولدي كما تعلم، ولطالما كنت فخورة بأحدهما، وكنت على ثقة الآن من أن الثاني سيكون مثله مبعث بهجة ورضى لي، وقد نفضت طبيعته الأمينة الحارة الذكية في سرعة سحب الجهالة والتأخر التي رانت عليها منذ طفولته، وكانت غاية كاثرين التي بذلتها مخلصة حافزًا يحفزه للجد والاجتهاد، وأشرقت أساريره بإشراق ذهنه واكتست حيوية ونبلًا، فلم أعد أرى فيه ذلك الشخص نفسه الذي رأيته يوم اكتشفت وجود سيدتي الصغيرة في وذرنج هيتس بعد رحلتها إلى صخور بنستون، وهبط الليل وأنا في هذا الإعجاب بهما وهما في هذا الجد، وعاد السيد مع الليل، ففاجأنا على غير انتظار، ودخل من الباب الأمامي، واشتملنا كلنا ببصره قبل أن نرفع رؤوسنا لننظر إليه، قلت في نفسي: «حسن، ليس في الدنيا منظر أبهج ولا أكثر براءة من هذا، وعار أي عار أن يوبخهما»، وكان النور الأحمر

المنبعث من المدفأة يسطع على رأسيهما الجميلين ويكشف عن وجهيهما وقد أضفت عليهما الحيوية حماسة كحماسة الأطفال، ذلك أنه برغم بلوغه الثالثة والعشرين وبلوغها الثامنة عشرة، فإن كلًّا منهما كان أمامه الكثير من الجديد الطريف يحسه ويتعلمه، فلم يشعر بما يشعر به الكبار الناضجون الذين لا يهزهم ولا يفتنهم شيء.

ورفع كلاهما عينيه متطلعًا إلى هيثكليف، ولعلك لم تلحظ قط أن عيونهما متشابهة تمام التشابه، وأنها عيون كاثرين إيرنشو بعينها، ولا تمت كاثرين الصغرى لها بسبب آخر من أسباب المشابهة غير الجبين العريض وغير تقوس في نهاية الأنف يجعلها تبدو على شيء من الخيلاء أرادت أو لم ترد، أما الشبه بين هيرتن وعمته فيتجاوز هذا كثيرًا، وهو شبه عجيب على الدوام، ولكنه كان في تلك اللحظة يلفت النظر بشكل خاص، وذلك راجع إلى تنبه حواسه آنئذ، وتيقظ قواه العقلية ونشاطها نشاطًا لم يألفه من قبل، ولعل هذا الشبه جرد مستر هيثكليف من سلاحه، فمشى إلى المدفأة ظاهر الاضطراب، ولكن سرعان ما هدأ اضطرابه حين نظر إلى الفتى، أو ربما كان من الأصح أن أقول إن هذا الاضطراب تغيرت طبيعته فقط، وذلك لأنه لم يكن فارقه بعد، وأخذ هيثكليف الكتاب من يده، ونظر إلى الصفحة المفتوحة، ثم رده دون كلام، واكتفى بالإشارة إلى كاثرين بالخروج، ولم يبق صاحبها في الحجرة بعد ذلك إلا قليلًا، وكنت أنا أيضًا على وشك الخروج، لولا أنه أمرني بالبقاء.

قال بعد لحظة من التأمل في المشهد الذي رأى: «إنها خاتمة مؤسفة، أليست كذلك؟ نهاية سخيفة تنتهي إليها جهودي الشاقة العنيفة؟ فإني أجلب الروافع والمعاول لأهدم البيتين جميعًا، وأدرب نفسي على القيام بهذا العمل الجبار، فإذا أعد لكل شيء وأصبح الأمر قاب قوسين مني أو أدنى، وجدت أن الإرادة على نزع لوح من سقف أي من البيتين قد فارقتني! إن أعدائي القدامى لم يهزموني، وهذا بالضبط هو الوقت الذي يصلح لشفاء غليلي من الشخصين اللذين يمثلانهم، وأنا أستطيع أن أثأر لنفسي، ولا أحد يستطيع أن يمنعني، ولكن ما جدوى الثأر؟ إنني لم أعد أكترث بالضرب، ولا أستطيع أن أحمل نفسي على رفع يدي! ولعل هذا يظهرني بمظهر الرجل يجهد ويكدح طوال حياته لكي يبدو في النهاية شهمًا كريم النفس، ولكن هذه ليست حالي، فلقد فقدت القدرة على الاستمتاع بهدمهما، ولست أجد في نفسي من الهمة ما يحملني على الهدم لغير غاية.

«إن تغييرًا عجيبًا يوشك أن يصيبني يا نلي، وهو الآن ينشر عليَّ ظله، فقد بلغ بي عدم الاكتراث بشؤون حياتي اليومية مبلغًا ينسيني أن آكل أو أشرب، وإن هذين الشخصين اللذين برحا الحجرة الآن هما ما بقي من أشياء تحتفظ في نظري بمظهر مادي متميز، وإن هذا المظهر ليؤلمني ألمًا يقرب من العذاب، أما عنها هي فلن أقول شيئًا، ولا رغبة لي في التفكير فيها، ولكنني أود من صميم قلبي أن تختفي عن ناظري لأن وجودها لا يبعث فيَّ غير مشاعر تذهب بعقلي، وأما هو فشعوري نحوه مختلف، ومع ذلك فإنني أوثر ألا يقع عليه بصري ثانية لو استطعت إلى هذا سبيلًا دون أن أبدو مجنونًا!»، ثم واصل حديثه إليَّ وهو يبذل جهدًا للابتسام: «ولعلك تظنينني أقرب إلى الجنون إذا حاولت أن أصف لكِ آلاف الارتباطات والأفكار الماضية التي يثيرها مرآه في نفسي أو التي تتجسم فيه، ولكن حذار من إفشاء ما أقوله لكِ، فإن عقلي لينطوي على نفسه انطواء دائمًا حتى أغرتني نفسي آخر الأمر بالإفضاء بسره لشخص آخر.

«لقد لاح لي هيرتن قبل خمس دقائق صورة مشخصة لشبابي ولم يبد لي بشرًا كسائر الناس، واختلطت مشاعري نحوه اختلاطًا كان يستحيل عليَّ معه أن أخاطبه بحديث معقول، أولًا لأن مشابهته العجيبة لكاثرين ربطت بينه وبينها ربطًا يخيفني، على أن هذا الذي قد تحسبينه أشد ما يملك على خيالي من عوامل هو في الواقع أقلها، فأي شيء لا يبدو في عيني مرتبطًا بها؟ وأي شيء لا يذكرني بها؟ إنني لا أستطيع أن أنظر إلى هذه الأرض دون أن أرى ملامحها مرسومة في بلاطها! إنني أراها في كل سحابة، في كل شجرة -إنها تملأ عليَّ الهواء ليلًا، وألمحها لمحات خاطفة في كل شيء نهارًا- إن صورتها تكتنفني من كل جانب!،

وإن أشد ما ألفت من وجوه الرجال والنساء، بل إن قسمات وجهي نفسها لتسخر مني بما توحي به إليّ من شبه بقسمات وجه كاثرين، وهذه الدنيا كلها مجموعة مروعة من المذكرات لي بأنها عاشت حقبة من الزمن وأنني فقدتها! أجل، لقد بدا لي هيرتن شبح حبي الذي لا يموت، ومحاولاتي الجبارة للتشبث بحقي، وتدهوري، وكبريائي، وسعادتي، وعذابي.

«ولكن من الجنون أن أردد هذه الأفكار على مسامعك، وليس لهذا من نفع إلا إحاطتك بالسبب في أن اجتماعي بهيرتن لا جدوى لي منه بعد أن زهد في الانفراد بنفسه، بل إنه ليزيد من عذابي المقيم، ثم إن بعدي عنه يصرفني عن الاهتمام بصداقته لابنة عمته، فلم يعد في وسعي أن أعيرهما أي اهتمام».

قلت: «ولكن ماذا تعني يا مستر هيثكليف بهذا التغيير الذي يوشك أن يصيبك؟»، وكان أسلوبه قد روعني، وإن كنت أراه في مأمن من اختلاط العقل أو الموت، ذلك لأنه كان قويًّا موفور العافية، أما عن عقله فإنه كان منذ طفولته يجد لذة في تقليب الأفكار السوداء وتخيل الأوهام الغريبة، ومن الجائز أنه كان مجنونًا بموضوع واحد هو معبودته التي ماتت، أما فيما عدا ذلك، فقد كان عقله ينعم بسلامة لا تقل عن سلامة عقلي.

قال: «لن أعرف كنه هذا التغيير حتى يأتي، أما الآن فإني أشعر به شعورًا وسطًا».

فسألته: «هل تحس مرضًا؟».

فأجاب: «لا يا نلي».

ومضيت أسأله: «إذن فلست تخشى أن تموت؟».

فأجاب: «أخشى أن أموت؟ إنني لا أخشى الموت ولا تحدثني به نفسي ولا أمل لي فيه، وأي شيء يجعلني أخشى الموت؟ إن بنيتي القوية، واعتدالي في معيشتي، وطبيعة عملي التي تخلو من المخاطر، كل هذا خليق بأن يعينني على أن أعمر على هذه الأرض، وأكبر ظني أنني سأعمر عليها حتى لا تبقى في رأسي شعرة سوداء، ومع ذلك تريننى عاجزًا عن مواصلة العيش على هذه الحال! فإنني أراني مضطرًّا إلى أن أذكر نفسي بضرورة التنفس.. بل أكاد أضطر إلى حمل قلبي على أن يخفق! وكأنني في هذا أثني لولبًا صلبًا عنيدًا، إنني لا آتي أتفه الأعمال التي لا تحملني عليها فكرة واحدة إلا مكرهًا، ولا ألحظ شيئًا حيًّا كان أو ميتًا إلا مكرهًا ما دام غير مقترن بهذه الفكرة التي غمرت على الكون كله، فليس لي إلا أمنية واحدة، وكياني كله وقواي كلها تتوق إلى بلوغها، ولقد طال اشتيقاها إليها، وكانت على هذا الشوق ثابتة لا تتزعزع، حتى لأصبحت على يقين من أنني سأبلغها، وسأبلغها سريعًا؛ لأنها طغت على وجودي، ولقد أغرقني توقع هذه النهاية، وها هي ذي اعترافاتي لكِ أشعر أنها لم تخفف عني، ولكنها قد تعلل لكِ نزوات قد تبدو مني ولا تستطيعين تعليلها بغير هذا، رباه! إنه لكفاح طويل، ألا ليته ينتهي!».

وبدأ يذرع الحجرة وهو يتمتم بأشياء رهيبة، حتى أوشكت أن أومن، كما آمن جوزيف على حد قول هيثكليف، بأن ضميره قد أحال قلبه جحيمًا على الأرض، وأخذتني الحيرة كيف تكون خاتمة هذا، ولم يخامرني الشك في أن حالة عقله هذه قد أصبحت عادة فيه، وإن لم يكشف عنها من قبل حتى بنظراته، اللهم إلا قليلًا، ولقد أكدها لي بنفسه، ولكن أحدًا من الناس ما كان ليستطيع أن يحزر هذه الحقيقة من مظهره العام، وأنت لم تحزرها حين رأيته يا مستر لوكوود، فقد كانت حاله في الفترة التي أحدثك عنها هي حاله يوم رأيته، ولم يجد عليه إلا مزيد من الرغبة في الاعتكاف الطويل، وربما مزيد من القصد في

الكلام حين يلقى الناس.

* * *

الفصل الرابع والثلاثون

وانقضت أيام على هذه الأمسية كان مستر هيثكليف يتجنب فيها لقاءنا على المائدة، ومع ذلك فلم يكن يرضى بإقصاء هيرتن وكاثي بصورة دائمة، وكان يكره أن يستسلم استسلامًا تامًا لعواطفه، ويؤثر على ذلك أن يغيب هو عن المائدة، ويبدو أن وجبة واحدة يتناولها كل أربع وعشرين ساعة كانت تكفيه لتقيم أوده.

وفي ليلة سمعته يهبط السلم بعد أن آوى أفراد أسرته إلى مخادعهم، ثم يخرج إلى الباب الأمامي، ولم أسمعه يدخل ثانية، وافتقدته في الصباح فلم أجده، وكنا في شهر أبريل والجو حلو دفيء، والعشب مخضر كأروع ما يخضر عشب من رخات المطر وحر الشمس، وشجرتا التفاح القصيرتان القريبتان من الحائط الجنوبي حافلتان بالنوار، وأصرت كاثرين عقب الفطور على أن أحضر كرسيًا وأجلس بشغلي تحت أشجار الشربين التي في طرف البيت، وأغرت هيرتن -وكان قد تعافى تمامًا من أثر الحادث الذي أصابه- بأن يحفر حديقتها الصغيرة وينسقها، وكانت قد نقلت إلى ذلك الركن نتيجة لشكاوى جوزيف، وجلست أنعم بما يتضوع حولي من شذى الربيع، وما يعلو رأسي من زرقة صافية، وكانت سيدتي قد جرت إلى قرب الباب لتجلب بعض جذور آذان الدب لتصنع منها إطارًا لحديقتها، وإذا هي تعود إلينا لا تحمل إلا نصف ما تستطيع حمله، وتخبرنا أن مستر هيثكليف قادم، ثم أضافت، وقد بدت عليها الحيرة: «وقد كلمني».

وسألها هيرتن: «وماذا قال لكِ؟».

أجابت: «أخبرني أن أمضي بأسرع ما أستطيع، ولكن هيئته كانت تختلف عما ألفنا اختلافًا حملني على الوقوف لحظة لأحدق فيه».

فسألها: «كيف؟».

أجابت: «لقد بدا أقرب إلى البهجة والانشراح، لا، أقرب إلى لا شيء، فهو مضطرب أشد الاضطراب، وثائر، ومبتهج!».

فعقبت على كلامها وأنا أتكلف عدم الاكتراث: «إذن فلا بد أن السير بالليل يشرح صدره»، ولكني كنت في الواقع لا أقل عنها دهشة، وتاقت نفسي إلى التثبت من صدق عبارتها؛ لأنه ليس من المناظر التي تطالعنا كل يوم أن نشهد هيثكليف مبتهجًا، واختلقت عذرًا للدخول عليه، وهناك وجدته واقفًا بالباب المفتوح، شاحبًا يرتعد، ولكن ما من شك في أن في عينيه بريقًا غريبًا ينم عن الفرح ويغير سحنته برمتها.

قلت له: «هل لك في شيء من طعام تفطر عليه؟ لا بد أنك جائع بعد جولاتك طوال الليل!»، وكنت أريد أن أعرف أين قضى ليله، ولكني لم أشأ أن أوجه إليه هذا السؤال مباشرة.

فأجاب: «لا، لست جائعًا»، وكان يشيح بوجهه، وفي كلامه نغمة أقرب إلى الاحتقار كأنه قد حدس أنني أحاول استكناه السر في صفاء مزاجه.

وشعرت بالحيرة، ولم أدر أتصلح هذه المناسبة أم لا تصلح لتوجيه بعض التحذير إليه.

قلت له: «لست أراه صوابًا أن تجوب الليل في الخلاء بدل أن تقضيه في فراشك، ليس هذا من الحكمة في شيء، على الأقل في هذا الفصل الرطب، وأكبر ظني أنك ستصاب ببرد شديد أو بحمى، إنك تشكو الآن شيئًا!».

أجاب: «لست أشكو شيئًا إلا ما أطيق، ومرحبًا به، بشرط أن تتركيني وشأني، ادخلي ولا تضايقيني».

وصدعت بالأمر، ولاحظت في مروري به أن أنفاسه تتردد في سرعة كأنفاس القط، وقلت لنفسي: «أجل! ستصيبه نوبة من المرض. تُرى ماذا كان يصنع؟».

وجلس ظهر ذلك اليوم معنا للغداء، وتلقى من يدي صحنًا مفعمًا بالطعام، كأنه أراد أن يعوض عن صومه السابق.

وقال مشيرًا إلى ما حدثته به في الصباح: «لست أشكو بردًا ولا حمى

يا نلي، وإني على استعداد لالتهام ما تقدمين لي من طعام».

وتناول سكينه وشوكته، وتهيأ للأكل، وإذا هذه الرغبة تموت فجأة، فوضعهما على المائدة، وتطلع في لهفة إلى النافذة، ثم قام وخرج، ورأيناه يذرع الحديقة ذهابًا وجيئة، ونحن نختتم طعامنا، وقال إيرنشو إنه يمضي إليه ليسأله السبب في امتناعه عن الأكل؛ لظنه بأننا لا بد قد أسأنا إليه في شأن من الشؤون.

وصاحت كاثرين حين عاد ابن خالها: «حسن، أعائد هو؟».

فأجاب: «كلا، ولكنه ليس غاضبًا، بل الحق إنه بدا مسرورًا على غير عادته، وكل ما في الأمر أنه ضاق بحديثي إليه مرتين، ثم أمرني أن أمضي إليكِ، وقال إنه يعجب لأمري كيف ألتمس صحبة إنسان سواكِ».

ووضعت صحنه على حاجز المدفأة ليحتفظ بحرارته، وبعد ساعة أو ساعتين عاد إلى الحجرة حين خلت وهو لا يبدو أهدأ حالًا، فتحت حاجبيه الأسودين يطالعك مظهر الفرح غير الطبيعي الذي وصفت، وكان فعلًا غير طبيعي، أما وجهه فقد غاض لونه، وكانت ثناياه تبين أحيانًا في شبه ابتسامة، وجسمه يرتعش، لا رعشة البرد أو الضعف، ولكنها أشبه بذبذبات وتر مشدود، هي أقرب إلى النشوة العنيفة منها إلى الرعشة.

قلت لنفسي سأسأله ما خطبه، وإلا فمن ذا أجدر مني بسؤاله؟: «أبلغتك أنباء سارة يا مستر هيثكليف؟ إنك تبدو غاية في النشاط والحيوية».

قال: «ومن أين تأتيني الأنباء السارة؟ إن الجوع هو الذي ينشطني، ويبدو أنني لا بد أن أظل جائعًا».

أجبته: «إن غداءك هنا، فلِمَ لا تتناوله؟».

فتمتم في عجلة: «لست أريده الآن، سأنتظر إلى العشاء، وشيء آخر أقوله لكِ يا نلي مرة أخيرة، أرجوكِ أن تحذري هيرتن وصاحبته من الظهور أمامي، فلست أريد أن يكدر أحد عليَّ وحدتي، أريد أن أنفرد بهذا المكان وحدي».

قلت مستفسرة: «هل من مبرر جديد لهذا الاعتكاف؟ قل لي سبب هذا المظهر الغريب يا مستر هيثكليف، أين كنت الليلة البارحة؟ ليس الفضول مبعث سؤالي، ولكني...».

فقاطعني بضحكة: «إن الفضول الشديد هو مبعثه، ومع ذلك سأجيبك عنه، لقد كنت على عتبة الجحيم في الليلة الماضية، أما اليوم فقد أشرفت على جنتي، وعيناي تبصرانها، ولا يفصلني عنها أكثر من أقدام ثلاث! والآن خير لكِ أن تمضي! ولن تري أو تسمعي ما يخيفكِ ما دمتِ لا تتطفلين».

وغادرت الحجرة بعد أن كنست الموقد ومسحت المائدة، وأنا أشد حيرة مني في أي وقت مضى.

ولم يبرح غرفته ثانية بعد ظهر ذلك اليوم، ولم يقطع عليه أحد خلوته، حتى إذا كانت الساعة الثامنة استصوبت أن أحمل إليه شمعة وعشاء، وإن لم يطلب إليَّ ذلك، ورأيته متكئًا على حافة نافذة مفتوحة، ولكنه لا يتطلع إلى الخارج، فقد اتجه بوجهه إلى داخل الحجرة المظلم، وكانت النار قد استحالت رمادًا، وانتشر في الحجرة هواء المساء الغائم، وكان رطبًا لطيفًا، وساد الجو سكون عميق لم تكن تسمع فيه هدير الجدول ينحدر ماؤه من جمرتن فحسب، بل تسمع أيضًا حركة أمواجه وخريرها فوق الحصى أو الأحجار الكبيرة التي لا يستطيع أن يغمرها، وندت عني عبارة تدل على استيائي حين رأيت الموقد وقد أقفر من النار، وبدأت أغلق النوافذ واحدة تلو أخرى حتى بلغت النافذة التي كان يتكئ عليها.

وسألته: «هل تريدني أن أغلق هذه النافذة؟»، وكنت أبغي من سؤالي تنبيهه لأنه لم يشأ أن يحرك ساكنًا.

وسطع ضوء الشمعة على سحنته وأنا أكلمه، ولست مستطيعة يا مستر لوكوود أن أصف لك ما عراني من جفول مروع حين رأيته في تلك اللحظة! عيناه السوداوان الغائرتان! ابتسامته، وشحوب وجهه المخيف! إنني لم أر فيه مستر هيثكليف، ولكنني خلته شيطانًا مريدًا، وتركت الشمعة تميل نحو الحائط وأنا على هذه الحال من الفزع، فانطفأت

وأظلمت الحجرة.

وأجابني بصوته المألوف: «نعم أغلقيها، ولكنك لم تحسني الإمساك بالشمعة! لم أمسكتها أفقيًا؟ أسرعي وأحضري شمعة أخرى».

وهرعت خارجة من الحجرة وقد ملأني رعب أخرق، وقلت لجوزيف: «إن السيد يريدك أن تحضر له نورًا وتضرم النار في المدفأة من جديد»، وذلك لأنني لم أجرؤ على دخول الحجرة ثانية في تلك اللحظة.

ووضع جوزيف بعض الجمر في المجرفة وذهب، ولكنه عاد به توًّا وهو يحمل

صينية العشاء في يده الأخرى، ويقول إن مستر هيثكليف سيمضي إلى فراشه، وإنه لا يريد طعامًا حتى الصباح، وسمعناه يصعد السلم إثر ذلك، ولكنه لم يذهب إلى حجرة نومه، بل اتجه إلى الحجرة ذات المخدع الخشبي الجوانب، وللحجرة كما ذكرت من قبل نافذة تتسع لإنسان ينفذ منها، وقد خطر لي أنه يبيت في نفسه الخروج في رحلة ليلية أخرى يؤثر ألا نلحظها.

وكنت أتأمل حاله وأقول لنفسي: «أهو غول أم عونق مصاص للدماء؟»، فلقد قرأت عن أمثال هذه الشياطين المتجسدة المروعة، ثم بدأت أتأمل كيف ربيته طفلًا، ولاحظته يدرج إلى شبابه، ولزمته في جميع أدوار حياته تقريبًا، فكان سخفًا أي سخف أن أستسلم لهذا الفزع الذي انتابني، وسمعت صوت الخرافة يهمس في أذني وأنا أغفي: «ولكن من أين أتى هذا الطفل الصغير الأسمر الذي احتضنه رجل طيب وآواه ليهدم بيته؟»، وبدأت فيما يشبه الحلم أن أجهد في تخيل نسب يصح أن يرد إليه، وعادت إليَّ تأملات اليقظة، فعدت إلى تتبع تاريخ حياته من جديد وقد طرأت عليه تغيرات لا تسر، وانتهى بي الأمر إلى تصور موته ومأتمه، وكل ما أذكره عنه هو ضيقنا الشديد بواجب لم يكن لنا مفر من أدائه، وأعني به إملاء عبارة تُكتب على شاهد قبره، واضطرارنا إلى التشاور مع قندلفت الكنيسة في هذا الأمر، ولما لم يكن له لقب يلقب به، ولم يكن في استطاعتنا تحديد عمره، فقد اضطررنا إلى الاكتفاء بكتابة كلمة واحدة على قبره هي: «هيثكليف»، وقد صدق هذا الحلم، واضطررنا إلى هذا فعلًا، ولو دخلت المقبرة لقرأت على شاهد قبره هذه الكلمة فقط، ومعها تاريخ موته.

وأفقت مع الفجر، فقمت ومضيت إلى الحديقة حالما لاح الضياء لأرى هل هناك آثار أقدام تحت نافذته، ولكنني لم أجد آثارًا، فقلت لنفسي: «لقد قضى ليلته في المنزل، وسيفيق اليوم مما ألم به»، وأعددت الفطور لأهل الدار على عادتي، ولكنني طلبت إلى هيرتن وكاثرين أن يتناولا فطورهما قبل أن ينزل رب البيت من حجرة نومه لأنه تأخر، وقد آثرا أن يفطرا خارج الدار تحت الشجرة، فأعددت لهما هناك مائدة صغيرة لتعينهما على ذلك.

فلما عدت إلى الدار وجدت مستر هيثكليف قد نزل من حجرته، وكان هو وجوزيف يتحدثان في شأن من شؤون المزرعة، فأعطاه تعليمات واضحة دقيقة عن الموضوع، ولكنه كان يتكلم في عجلة ويحول رأسه دائمًا، وكان يبدو على سحنته هذا التعبير الثائر المضطرب الذي وصفت، بل إنه أصبح أشد وأقوى، ولما بارح جوزيف الحجرة، اتخذ هيثكليف مجلسه في مكانه الذي يؤثره عادة، ووضعت أمامه قدحًا من القهوة، فقربه إليه، ثم أراح ذراعيه على المائدة، ونظر إلى الحائط المواجه له كما خُيِّلَ إليَّ، مشتملًا ببصره جزءًا من الحائط بعينه يصعده فيه ويخفضه بعينين لامعتين قلقتين وبلهفة جعلته يوقف تنفسه تمامًا مقدار نصف دقيقة.

قلت له وأنا أدفع بعض الخبز بقرب يده: «هيا، هيا، كل هذا الطعام واشربه وهو ساخن، فلقد ظل ينتظرك نحو ساعة».

ولم يفطن إلى وجودي، ومع ذلك ابتسم، ولكني كنت أوثر أن أرى صرير أسنانه على مثل هذه الابتسامة.

وصحت به: «مستر هيثكليف! سيدي! بربك لا تحدق كأنك ترى شبحًا من عالم غير هذا العالم!».

فأجاب: «بربك لا تصيحي هكذا، ولكن انظري خلفك، وأخبريني هل نحن وحدنا؟».

قلت: «طبعًا، طبعًا، نحن وحدنا».

ومع ذلك فقد أطعته كارهة، كأنني لست واثقة مما أقول، وإذا هو يخلي بيده على المائدة فراغًا بين الطعام وأدواته، ويتكئ إلى الأمام ليحدق كما يشتهي.

وأدركت آنئذ أنه لم يكن يتطلع إلى الجدار، فقد بدا لي حين نظرت إليه وحدي أنه يتفرس في شيء على بعد ياردتين منه، وأيًّا كان هذا الشيء، فقد لاح لي أنه يبعث في نفسه أشد اللذة والألم جميعًا، وعلى أي حال كان ما انطبع على سحنته من عذاب يخالطه الفرح ينبئ بهذه الفكرة، ولم يكن هذا الشيء الذي يتصور وجوده ثابتًا في بقعة واحدة، فقد تبعته عيناه في همة لا تعرف الكلل، ولم تكفا عن ذلك حتى وهو مشغول بالتحدث إليَّ، وعبثًا ذكرته بطول عزوفه عن الطعام، فإنه حالما كان يتحرك ليمس طعامه كما ناشدته، وحالما كان يمد يده ليمسك قطعة من الخبز، كانت أصابعه تتقلص قبل أن تبلغ هدفها، فتظل في مكانها على المائدة وقد أنسيت هذا الهدف.

وجلست أنا أتذرع بالصبر الجميل، محاولة أن أصرف انتباهه عما أغرقه فيه الوهم، حتى ضاق بي ذرعًا وقام وسألني لِمَ لا أتركه يختار ما يناسبه من وقت لتناول وجباته؟ وقال إنه لا حاجة بي إلى الانتظار بعد أن أقدم إليه طعامه في المرة التالية، ويكفي أن أضعه له وأنصرف، وما إن قال هذا حتى غادر الدار، ومشى متثاقلًا في ممر الحديقة واجتاز الباب الخارجي ثم اختفى.

ومرت الساعات بطيئة مؤلمة، وكان مساء آخر، ولم أدخل إلى فراشي إلا في ساعة متأخرة من الليل، وجفا النوم عيني حين دخلت، وعاد هيثكليف بعد أن انتصف الليل، ولكنه لم يمض إلى مخدعه، بل حبس نفسه في الغرفة التي في أسفله، وأصخت السمع، وظللت أتقلب في فراشي، ثم ارتديت ثيابي في النهاية ونزلت، وكان الرقاد على هذه الحال أمرًا مزعجًا؛ إذ كانت مئات الهواجس والوساوس تنتابني.

وتبينت وقع أقدام مستر هيثكليف وهو يذرع الحجرة في صبر ذاهب، ويقطع السكون مرات كثيرة بتنهد عجيب هو أقرب الأشياء إلى الأنين، وكان يتمتم كذلك بكلمات متقطعة، لم أميز منها سوى اسم كاثرين يقترن به لفظ أو عبارة عنيفة تعبر عن الإعزاز أو الألم، وكان يتكلم بهذا كمن يكلم شخصًا ماثلًا أمامه، فالكلمات خافتة جادة ينتزعها من أعماق روحه، ولم أجد في نفسي من الشجاعة ما يحفزني إلى السير رأسًا إلى حجرته، ولكنني كنت أريد صرفه عن حلم اليقظة، لذلك ذهبت إلى موقد المطبخ فقلبت جمره وبدأت أحك رماد الفحم، فأخرجه هذا من خلوته بأسرع مما توقعت، وبادر لتوه بفتح الباب قائلًا: «تعالي هنا يا نلي.. أهو الصبح؟ ادخلي بشمعتكِ».

فأجبته: «إنها تدق الرابعة، إنني في حاجة إلى شمعة تأخذها إلى فوق، كنت تستطيع أن توقد شمعة من هذه النار».

قال: «لا، لا أريد أن أذهب إلى فوق، ادخلي، وأوقدي لي نارًا، وقومي بما تريدين من عمل في الحجرة».

أجبته وأنا أحضر كرسيًّا ومنفاخ النار: «لا بد لي أن أؤجج النار في الفحم بالمنفاخ أولًا قبل أن أستطيع حمل جمرات منه».

وكان في أثناء ذلك يروح ويغدو كالمشدوه، وتنهداته العميقة تتعاقب في سرعة لا تتيح فيما بينها مجالًا لتردد أنفاسه العادية.

قال: «إذا طلع النهار أرسلت في طلب جرين، فإنني أريد أن أستفسر منه عن بعض المسائل القانونية وأنا بعد قادر على التفكير في مثل هذه الأمور، وعلى التصرف في هدوء واتزان، إنني لم أكتب وصيتي بعد، ولا أستطيع أن أقرر كيف أترك ثروتي، ليتني قادر على محق هذه الثروة محقًا من هذا الوجود».

قلت مقاطعة إياه: «لو كنت مكانك يا مستر هيثكليف لما تكلمت هكذا، دع الآن وصيتك، فإن الله سيمهلك ريثما تتوب عن كثير من المظالم التي قارفتها! لم يدر بخلدي قط أن أعصابك ستضطرب، ولكنها الآن مضطربة أشد الاضطراب، ويكاد الذنب في هذا كله يكون ذنبك، فإن الطريقة التي أنفقت بها هذه الأيام الثلاثة الأخيرة خليقة بأن

تصرع جبارًا من جبابرة الأرض، فبربك تناول شيئًا من الطعام وخذ قسطًا من الراحة، تأمل نفسك في المرآة تر شدة حاجتك لكليهما، فإن خديك غائران وعينيك شديدا الاحمرار كأنك إنسان يتضور جوعًا ويكاد الأرق يعميه».

أجاب: «ليس الذنب ذنبي في أنني لا أقوى على الأكل أو النوم، أؤكد لكِ أنني لم أبيت هذا ولم أدبره، وسآخذ حظي منهما جميعًا حالما يكون هذا في استطاعتي، ولكن ما أشبه هذا بأن تطلبي إلى رجل يصارع الموج أن يرتاح وهو لا يزال على ذراع من الشاطئ! عليَّ أن أبلغ الشاطئ أولًا ثم أرتاح بعد ذلك، على أي حال دعكِ من مستر جرين الآن، أما أن أتوب عن المظالم التي قارفتها فإنني لم أقارف مظالم، ولن أتوب عن شيء، إنني في غاية السعادة، ولكني لا أقنع بما أنا فيه من سعادة، إن نعيم روحي يقتل جسدي، ولكنه لا يرضي نفسه».

فصحت به: «أسعيد أنت يا سيدي؟ يا لها من سعادة غريبة! لو أنك أصغيت إليَّ دون غضب لقدمت إليك نصيحة تجعلك أسعد».

فسألني: «وما نصيحتك؟ عليَّ بها».

قلت: «تعلم يا مستر هيثكليف أنك مذ بلغت الثالثة عشرة وأنت تحيا حياة أنانية تنافي مبادئ المسيحية، وأكبر ظني أنك لم تمسك توراة في يدك طوال هذه المدة، ولا بد أنك نسيت محتويات الكتاب المقدس، ولعل الوقت لا يسعفك الآن لتصفُّحه، فهل يضيرك أن ترسل في طلب رجل -وليكن قسيسًا أيًّا كانت طائفته، فهذا لا يهم كثيرًا- ليشرحه لك ويريك كيف ضللت عن تعاليمه ضلالًا مبينًا، وكيف أنك لن تصلح للنعيم الذي يذكره ما لم يتغير قلبك قبل أن تموت؟».

قال: «لست غاضبًا منكِ يا نلي بل شاكر، لأنك تذكرينني بالطريقة التي أريد أن أدفن بها، أريد أن تحمل جثتي إلى المقبرة في المساء، ولا بأس بأن تصحباني أنتِ وهيرتن إن شئتما، ولا تنسي على الأخص أن تتحققي من تنفيذ قندلفت الكنيسة لتعليماتي عن التابوتين! ولا داعي لحضور قسيس ولا لتلاوة صلاة على جثتي، فإني أقول لكِ إنني كدت أبلغ نعيمي، أما نعيم غيري من الناس فلست أقيم له وزنًا ولا أحرص على الظفر به».

قلت وقد صدمني استهتاره الكافر: «وهبك تماديت في صومك العنيد، ومت بهذه الطريقة، فرفضوا أن يدفنوك في المقبرة؟ ماذا تقول في هذا؟».

أجاب: «إنهم لن يفعلوا، فإن فعلوا فانقليني سرًّا، فإذا أهملت هذا كان إهمالك برهانًا عمليًّا على أن الموتى لا يفنون».

وحالما سمع حركة أفراد الأسرة انكفأ إلى كهفه، وتنفست أنا الصعداء، ولكنه عاد إلى المطبخ مع العصر بينما كان هيرتن وجوزيف مشغولين بعملهما، وأمرني أن آتي وأجلس في حجرة الجلوس وفي عينيه نظرة هائجة، وقال إنه يريد إنسانًا يؤنسه، ولكنني رفضت قائلة في صراحة إن حديثه ومسلكه الغريبين يروعانني، وإنني لا أملك من الشجاعة أو الإرادة ما يحملني على الجلوس إليه وحدي.

قال وهو يضحك ضحكته المرة: «أحسبك تظنينني ماردًا من الجن، أو شيئًا أبشع من أن يعيش تحت سقف كريم»، ثم تلفت إلى كاثرين، وكانت قد توارت خلفي حين رأته يدنو، وأضاف في شيء من التهكم: «هل لكِ أنتِ أن تأتي يا عصفورتي! لا، لن أوذيكِ! لقد جعلت نفسي شرًّا من الشيطان في نظرك، حسن، هنا واحدة لا تخشى مجالستي! رباه! إنها لا تلين، أوه، تبًّا لهذا كله! إنه أقسى من أن يطيقه اللحم والدم.. حتى لحمي ودمي».

ولم يطلب بعد ذلك أن يجالسه أحد قط، وانكفأ إلى حجرته مع الغروب، وسمعناه الليل كله وشطرًا كبيرًا من الصباح يئن ويردد الكلام نفسه، وكان هيرتن يود أن يدخل عليه، ولكني طلبت إليه أن يذهب في طلب مستر كنث ليفحصه، فلما أتى، وطلبت الإذن بالدخول، وحاولت فتح الباب وجدته مقفلًا، وصاح بنا مستر هيثكليف من وراء الباب يلعننا، ويقول إنه أحسن حالًا، وإنه يريد أن يخلو إلى نفسه، وعلى ذلك انصرف الطبيب.

وكان المساء التالي جد مطير، بل إن السماء ظلت تمطرنا وابلًا حتى الفجر، وبينما كنت أقوم بجولتي حول البيت في الصباح، لاحظت أن نافذة رب البيت مفتوحة على مصراعيها وأن المطر ينهمر في الحجرة رأسًا، وقلت في نفسي: «لا يعقل أن يكون في فراشه وإلا أغرقه وابل المطر، فهو إما مستيقظ أو في الخارج، ولكنني سأقطع الشك باليقين، وسأجمع شجاعتي وأدخل لأتبين حقيقة الأمر».

واستطعت أن أفتح الغرفة بمفتاح آخر، ثم جريت لأفتح جانبي المخدع الخشبي؛ لأنني رأيت الحجرة خالية، ودفعتهما يمنة ويسرة على عجل ثم أطللت إلى داخل المخدع، فرأيت مستر هيثكليف هناك.. ملقى على ظهره، والتقت عيناي بعينيه الحادتين المتوحشتين، فجفلت، ثم لاح لي أنه يبتسم، ولم يدر بخلدي أنه مات، ولكن وجهه وعنقه كان قد أغرقهما المطر، وكان الماء يقطر من ثياب نومه، وهو ساكن لا يطرف، أما زجاج النافذة الذي كانت الريح تعبث به، فقد كشط يده التي كان يسندها على إسكفتها، ولكن الجلد المصاب لم يقطر دمًا، فلما جسسته بأصابعي انتفى كل شك، لقد كان ميتًا ويابسًا كالحجر!

وثبت النافذة، ومشطت شعره الطويل الأسود، ورفعته عن جبينه، وحاولت أن أسبل عينيه لأطفئ -إذا استطعت- نظرة الفرح المخيفة الحية التي كانت تشع منهما قبل أن يراها غيري، ولكنهما امتنعتا عليّ، ولاح لي أنهما تسخران من محاولاتي، كذلك كانت تسخر شفتاه المنفرجتان وأسنانه البيضاء الحادة! وأصابتني نوبة من الجبن جديدة، فصحت أدعو جوزيف، وتحرك جوزيف وأحدث ضوضاء، ولكنه رفض بإباء أن يقرب من جثته.

وصاح: «لقد أخذ الشيطان روحه، ولست أمانع في أن يأخذ رمته كذلك! أف! ما أشر مظهره وهو يكشر عن أسنانه ميتًا!»، وابتسم الشيخ العريق في الإثم ابتسامة كالحة ساخرة، وخُيِّل إليّ أنه يريد أن يرقص رقصة حول المخدع، ولكنه ما لبث أن ملك نفسه

فجأة، ثم جثا على ركبتيه، ورفع يديه بالشكر لله؛ لأنه أعاد الحق إلى صاحبه الشرعي وإلى سليل البيت القديم.

وأذهلني الحادث المروع، ورأيت ذاكرتي على غير قصد مني تعود بي إلى الأيام الخوالي في ضرب من الحزن الطاغي، ولكن هيرتن المسكين، وهو أكثر من أصابه الظلم، كان الوحيد الذي ألم لموت هيثكليف أشد الألم، فجلس إلى جثته طوال الليل يبكيه بكاء مرًّا، ويضغط يده، ويقبل ذلك الوجه المتوحش الساخر الذي أحجم الجميع عن النظر إليه، وينوح على صاحبه في حزن قوي ينبع عفوًا من قلب كريم، وإن كان صلبًا كالفولاذ.

وقد حار مستر كنث في تعرف المرض الذي أودى بحياة هيثكليف، وأخفيت عنه أنه صام عن الزاد أربعة أيام؛ مخافة أن تلقى علينا التبعة في هذا؛ ولأني واثقة من أنه لم يزهد في الطعام والشراب عمدًا، فما كان هذا الزهد إلا نتيجة لمرضه الغريب لا سببًا فيه.

ودفناه كما شاء أن يدفن، رغم ما أثار علينا هذا من قيل الجيران كلهم وقالهم، ولم يشهد دفنه سوى هيرتن، وسواي، وقندلفت الكنيسة، وستة رجال حملوا تابوته، وقد انصرف الرجال الستة حالما أنزلوا تابوته القبر، وبقينا نحن حتى يوارى التراب، واقتلع هيرتن، والدموع تنهمر على خديه، قطعًا من الأرض مفعمة بالجذور والحشائش ووضعها بيده فوق قبره الأغبر، وهو الآن مخضر ناعم كالقبرين المجاورين له -وعسى أن ينعم صاحبه بما ينعم به صاحباهما من نوم هادئ عميق- ولكنك إذا سألت أهل هذا الريف أقسموا لك على الكتاب المقدس أنه يمشي، ومنهم من يقولون إنهم قابلوه بقرب الكنيسة، وفي البراري، بل داخل هذا البيت، وقد تقول إن هذا هراء، وأنا أوافقك، ولكن هذا العجوز الجالس إلى جوار مدفأة المطبخ يؤكد أنه رأى اثنين يطلان من نافذة حجرته في كل ليلة مطيرة بعد موته، ثم إن حادثًا غريبًا حدث لي قبل شهر تقريبًا، ذلك أنني كنت ذاهبة إلى بيت الضيعة في أمسية مظلمة تنذر بالرعود.. وفي ناصية وذرنج هيتس تمامًا لقيت غلامًا صغيرًا وأمامه شاة وحملان، كان يبكي بحرقة، فظننت أن الحملين كانا حرونين فرفضا أن يسلسا له القياد.

وسألته: «ما خطبك أيها الرجل الصغير؟».

قال وهو ينتحب: «إن هيثكليف يجلس هناك تحت الربوة ومعه امرأة، وأنا لا أجرؤ على المرور بهما».

ولم أرَ شيئًا، ولكن لا هو ولا الشاة جرؤا على المرور، لذلك طلبت إليه أن يتخذ طريقًا آخر يقع أسفل هذا الطريق، وأكبر ظني أن الذي صور له الشبحين وهو يعبر البراري وحده هو طول تفكيره في الهراء الذي كان يسمع أبويه ورفاقه يرددونه، ومع ذلك فأنا أكره الخروج الآن ليلًا، وأكره أن أترك وحدي في هذا البيت الكئيب، ولا حيلة لي في هذا، وسيسرني أن يتركاه ليسكنا بيت الضيعة.

قلت: «إذن فهما ذاهبان إلى بيت الضيعة؟».

أجابت مسز دين: «أجل بمجرد زفافهما، وسيكون الزفاف يوم رأس السنة».

«ومن سيسكن هنا إذن؟».

«سيحرس جوزيف البيت، وربما أُبقِي معه أحد الغلمان ليؤنسه، وسيعيشان في

المطبخ، أما باقي البيت فسيقفل».

قلت: «لكي ينتفع به من العفاريت من يشاء سكناه؟».

قالت نلي وهي تهز رأسها: «لا يا مستر لوكوود، إنني أعتقد أن الموتى يرقدون في سلام، ولكن ليس من الصواب أن نتحدث عنهم باستهتار».

وفي هذه اللحظة فتح باب الحديقة إيذانًا بعودة الجوابين من تجوالهما.

قلت مدمدمًا وأنا أرقبهما من النافذة يدنوان: «إنهما لا يخشيان شيئًا، وما داما معًا فإن في وسعهما أن يواجها الشيطان وفيالقه كلها».

ولما خطوا على أحجار المدخل، ووقفا ليلقيا نظرة أخيرة على القمر -أو على الأصح ليلقي أحدهما نظرة على الآخر في ضوء القمر- دفعني باعث لا يقاوم على الإفلات منهما ثانية، فوضعت في يد مسز دين شيئًا تذكرني به، واختفيت من باب المطبخ في اللحظة التي فتحا فيها باب البيت دون أن ألقي بالًا للوم المرأة إياي على مسلكي الجافي، وكان من الجائز أن يكون لقائي هذا مؤكدًا لرأي جوزيف في حماقات زميلته، لولا أنه سمع تحت قدميه رنينًا حلوًا صدر من جنيه ذهبي ألقيته إليه، فرأى فيَّ لحسن الحظ شخصًا جديرًا باحترامه.

وأطلت مسيري إلى البيت إذ عرجت على الكنيسة في الطريق، وهناك لحظت تحت جدرانها آثار التهدم والبلى قد انتشرت فيها، وإن كانت المدة لم تزد على سبعة شهور، فالنوافذ في كثير منها ثغرات سوداء خلت من الزجاج، كذلك برزت ألواح متفرقة في السقف منحرفة عن اتجاهه الأصيل، وسيكون مصيرها أن تحطمها زوابع الخريف القادمة شيئًا فشيئًا.

وبحثت عن شواهد القبور الثلاثة فوق المنحدر الملاصق للمستنقع، فما لبثت أن عثرت عليها، وكان أوسطها أغبر وقد اختفى نصفه في العشب، أما شاهد قبر إدجر لنتن فقد نسقته الحشائش والطحالب المتسلقة على قاعدته، وأما شاهد هيثكليف فما زال عاريًا.

وطال حومي حول القبور الثلاثة تحت هذه السماء الطيبة الرحيمة، وطفقت أرقب العث يهوم حول زهور الخلنج والجريسات، وأصغي إلى الريح الهادئة تتنفس من خلال العشب، وعجبت كيف يدور بخلد إنسان أن الراقدين في هذه الأرض الهادئة لا ينعمون فيها بنوم وادع مريح.

انتهى

[←1]

() دانيال: 20 - 5. المترجم

[←2]

() دانيال: 17 - 5. المترجم

[←3]

() الكلمة الإنجليزية Lascar مشتقة من الكلمة الفارسية «لاشكار»، وهذه مشتقة من الكلمة العربية «العسكر»، وتطلق على التجار من الوطنيين في جزائر الهند الشرقية. المترجم.

[←4]

() عبارة قالها ناثان النبي لداود الملك منبهًا إياه إلى خطيئته

[←5]

() كلمة cousin في الإنجليزية تصدق على ابن الخال وابن العمة.

[←6]

() يعني حماكِ.